

الفرق بين
حرف

تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

تأليف

محمد الصادق

انتشارات فرهنگ اسلامي

الفرقان
في
تفسير القرآن
بالقرآن والسنة

الجزء الثلاثون

محمد الصادق

منشورات
مؤسسة الأعلی للطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠



الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مركز توثيق المخطوطات ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وصلواته التامات الزاكيات على محمد عبده ورسوله خاتم النبيين وسيد المرسلين ، وعلى آله الطاهرين .

وبعد فـ « إن هذا القرآن هو النور المبين ، والجل المتين ، والعروة الوثقى ، والدرجة العليا ، والشفاء الأشفي ، والفضيلة الكبرى ، والسعادة العظمى ، من استضاء به نوره ، ومن عقد به أموره عصمه الله ، ومن تمسك به أنقذه الله ، ومن لم يفارق أحكامه رفعه الله ، ومن استشفى به شفاه الله ، ومن آثره على ما سواه هداه الله ، ومن طلب الهدى في غيره أضله الله ، ومن جعله شعاره ودثاره أسعده الله ، ومن جعله إمامه الذي يقتدي به ومعوّله الذي ينتهي إليه أدّاه الله إلى جنات النعيم والعيش السليم » -

فـ « إنه هدى من الضلالة ، وتبيان من العمى ، واستقالة من العثرة ، ونور من الظلمة ، وضياء من الأحداث ، وعصمة من الهلكة ، ورشد من الغواية ، وبيان من الفتن ، وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة ، وفيه كمال دينكم ، وما عدل أحد عن القرآن إلا إلى النار » -

« فإذا التبتست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع
 مُشَفَّعٌ ، ومأجلٌ مُصَدَّقٌ ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه
 ساقه إلى النار ، وهو الدليل يدل على خير سبيل ، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان
 وتحصيل ، وهو الفصل وليس بالهزل .. ظاهره أنيق ، وباطنه عميق ، له نجوم
 (تحوم) وعلى نجومه (تحومه) نجوم (تحوم) ولا تحصى عجائبه ، ولا تُبلى
 غرائبه ، فيه مصابيح الهدى ، ومَنَار الحكمة ، ودليل المعرفة لمن عرف الصفة ،
 (الرسول الأقدس محمد ﷺ) (١) .

« نور لا تطفأ مصابيحُه ، وسراج لا يخبوء توقُّده ، وبحر لا يُدرك قعره ،
 ومنهاج لا يضل نهجه ، وشعاع لا يُظلم ضوئه ، وفرقان لا يُحمد برهانه ،
 وتبيان لا تُهدم أركانه ، وشفاء لا تُخشى أسقامه ، وعز لا تهزم أنصاره ،
 وحق لا تُخذل أعوانه ، فهو معدن الإيمان وبحبوحته ، وينابيع العلم وبحوره ،
 ورياض العدل وغدرانه ، وأثافي الإسلام وبنياته ، وأودية الحق وغيطانه ،
 وبحر لا ينزفه المنتزفون ، وعيون لا ينضبها الماتحون ، ومناهل لا يفيضها
 الواردون ، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ، وأعلام لا يعى عنها السائرون
 وآكام لا يجوز عنها القاصدون ، جعله الله ربنا لعطش العلماء ، وربيعاً لقلوب
 الفقهاء ، ومحاجاً لطرق الصلحاء ، ودواء ليس بعده داء ، ونوراً ليس معه ظلمة ،
 وحبل وثيقاً عروته ، ومعقلاً منيعاً ذروته ، وعزاً لمن تولاه ، وسلاماً لمن دخله ،
 وهدى لمن اتَّمَّ به ، وعذراً لمن انتحل به ، وبرهاناً لمن تكلم به ، وشاهداً لمن
 خاصم به ، وقلجاً لمن حاجَّ به ، وحاملاً لمن حمَّله ، ومطيَّة لمن أعمله ، وآية لمن
 قوَّس ، وُجُنَّة لمن استلَّام ، وعِلماً لمن وعى ، وحديثاً لمن روى ، وحكماً لمن قضى »
 (أمير المؤمنين علي عليه السلام) (٢) .

(١) أصول الكافي ج ٢ ص ٦٠٠ .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ١٩٣ ص ٢٠٢ .

المدخل

إن كلمة الله هي إله الكلمات ، فلا تفسر إلا بكلمات الله ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً وينطق بعضه على بعض ^(١) ، والتمسك بالكتاب في الأمور المشتبهة إصلاح لها ووصول للرشد فيها ، والقرآن أحق وأولى أن يُمسك في تفسيره بنفسه : « والذين يُمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين » (١٧: ٧) « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » (١٧: ٤٢) .

وقد يفسر بالسنة القطعية الصادرة عن النبي الأقدس ﷺ إطلاقاً ، أو عن خلقائه المعصومين الاثنى عشر ^(٢) دون تقييد ، والميزة الصالحة لتمييز الفث عن السمين كتاب الله ، برد إليه ، ويقاس عليه كل حديث ، فيصدق ما وافقه ويرد أو يؤول ما خالفه أو لم يوافقه ، كما نجده في آيات العرض ^(٣) ، وأحاديثه المتواترة ^(٤) : « فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً » (٥٦: ٤) ، « وأردد إلى الله ورسوله ما يضلعلك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور » .

(١) نهج البلاغة عن علي عليه السلام

(٢) ومثلها الآية ١٧: ٧ - الأمانة بالتمسك بالكتاب و ١٧: ٤٢ - التي ترجع الاختلاف إلى الله

(٣) راجع جامع أحاديث الشيعة لامتازنا الأقدم الأعظم الإمام السيد البروجردي قدس الله روحه

والرد إلى الله الأخذ بحكم كتابه ، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير
المفرقة » (١) .

وليس لأحد أن يضرب القرآن بعرضه ببعض ، وينثر آياته البينات نثر الدقل
دون رعاية لرباطاتها وقد رأى رسول الله ﷺ قوماً يتدارئون ، فقال ﷺ :
هلك من كان قبلكم ، بهذا ضربوا كتاب الله بعرضه ببعض ، وإنما نزل كتاب الله
يصدق بعضه بعضاً ، فلا تكذبوا بعرضه ببعض ، فما علمتم منه فقولوا ، وما جهلتم
فكلوه إلى عالمه (٢) ، وخرج ﷺ على قوم يتراجعون القرآن وهو مغضب
فقال : بهذا ضلت الأمم باختلافهم على أنبيائهم وضرب الكتاب بعرضه ببعض (٣)

فعلى المفسر التدبر التام في أي الذكر الحكيم ، أن يستنطق كل آية بنظائرها
في المعنى ، ويستفسر عنها من أشباهها ونظائرها فلا يجد أي اختلاف في القرآن :
« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً
كثيراً » (٤ : ٨٢) عبارات ومعاني ، قوانين ومباني ، اخبارات وأنشاءات
فاختلاف الروايات في تفسير الآيات ، واختلاف المفسرين من جرائئه ومن
اختلاف أفهامهم ، هذه الاختلافات ترد على القرآن نفسه ، فلا يصدق عليه إلا
ما يصدقه ، وإذا احتملت اللفظة والآية وجوهاً عدة متلائمة فلتصدق كلها ،
وإذا كانت متنافرة فأوجهها دلالية ومعنوية .

لذلك لا تجدد في هذا التفسير مجالاً لاختلاف الأقوال ، إذ نحاول في تفسير
الآيات الحصول على المعاني اللائقة بكتابات الله العزيز دون تأويل وتفسير إلا

(١) نهج البلاغة .

(٢) الدر المنثور ، أخرج أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عنه (ص) .

(٣) الدر المنثور ، أخرج ابن سعد وابن الضريس في فضائله وابن مردويه عن عمرو بن شعيب
عن أبيه عن جده عنه (ص) .

ما يصدق الكتاب نفسه . ولا أدعي أنني أفسر كتاب الله كما يحق ، إنما كما أستطيع على ضوء الدلالات القرآنية ، وأتشف بقبول أي نقد من أي ناقد خبير بصير ، علنا نوفق للأحرى فالأحرى من معاني القرآن .

وقد ابتدأنا بالجزء الثلاثين ، لأن السور التي يضمها هي بداية الوحي الشامل لما يحتاجه البدائيون في معرفة الإسلام ، فلنبداً بها كلنا ، علنا ندخل المدينة من بابها .

وسوف تصدر هذه الأجزاء تباعاً ، نصدرها عما كتبناها سابقاً من دراسات التفسير التي ألقيناها على طلاب علوم الدين في الحوزتين المباركتين (قم والنجف الأشرف) على زيادات وتنقيحات لفظية ومعنوية ، تفسيراً للقرآن بالقرآن متناً وبالحديث هامشاً ، وعلى الله قصد السبيل .

نصدرها بإذن الله تعالى وحسن توفيقه إجابة للمئات من طلبات طلاب علوم الدين في الحوزتين المباركتين ، والذين انتشروا منهم في مختلف البلاد لبث الدعوة القرآنية ، حفظهم الله وأيدهم الله جميعاً لما يحبه ويرضاه .

ومما يجب أن يعرفه القراء الكرام أن الأرقام الأولى في هذا التفسير هي أرقام السور ، والثانية هي الآيات القرآنية ، وهي في سائر الكتب السماوية إشارة إلى الفصول ثم الآيات وقبلها اسم الكتاب .

مكة المكرمة في ١٣ محرم الحرام ١٣٩٧ هجرية

محمد الصادقي



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سورة النبأ — مكة — وآياتها أربعون ﴿٤٠﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ^١ عَنِ النَّبَاِ
الْعَظِيمِ ^٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ^٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ^٤ ثُمَّ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ ^٥ .. »

تساؤلات مرت وتستمر مدى الأجيال عن أنباء الغيب، و « يتساءلون » هنا
يشمل كافة التساؤلات عن الأنباء العظيمة طوال الزمن، فلم يقل : « تساءلوا »
كي لا يختص بغابر الزمن، وإنما « يتساءلون »، لكي يعم الغابر والمستقبل والحاضر،
وفي القرآن إجابة عن كافة التساؤلات بما أنه كتاب الخلود .

« عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ » :

مطلع يحمل تنديداً شديداً بالمتسائلين عن النبأ العظيم، ليس لأنهم سألوا
تعلماً وتفهماً، فإنه موضع تبجيل لا تحجيل، وإنما لأنهم حينما يصدقون الأنباء
غير العظيمة، ما يصلح لحيوة الحياة، وحينما يصدقون ويهولون إلى الخرافات
اللامعقولة التي يستنكرها العقل والدين، وحينما يصدقون — دون تساؤل
وتراجع — كل ما يتلائم وشهواتهم، فهؤلاء هم يتساءلون عن النبأ العظيم هزأً
وانكاراً وتعنتاً واستنكاراً، بعد قلعهم في إبطاله، وفتح النبأ العظيم وأهله في

إحقاقه ، وبعد ما قامت البراهين من كل الصنوف وضح الشمس في رابعة النهار ، قامت لإثبات وإحقاق أنباء الغيب العظيمة .

والتساؤل هنا يشمل ما هو بينهم ، بعضهم مع بعض ، تفكها ، وما هو منهم عن الرسول ﷺ والمؤمنين تعنتاً وهزأ ، وما هو بينهم وقلوبهم المقلوبة التي زالت عنها نور المعرفة : « كلا بل رانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (١٤: ٨٣) فالتساؤلات هذه كلها حابطة ساقطة ما لم تُرد بها استنباط الحق واستعلامه عم يتسائلون ؟

« عن النبأ العظيم . الذي هم فيه مختلفون »

فما هو النبأ ؟ وما هو عظمه ؟ وما هو الاختلاف فيه ؟

النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غالب ظن ، والخبر الحق الذي يتعري عن الكذب ، والنبأ هو الموحى إليه بأخبار الحق والصدق ، حاملة كافة البراهين المصدقة لها

ثم إذا كان النبأ عظيماً كانت الفائدة والعلم فيه أعظم ، دون أن يتطرق إليه أية شائبة وريبة اللهم إلا جهلاً وعناداً ممن لا يهوى إلا هواه ، ولا يهدف هداه .

وأول الأنباء العظيمة - منذ بزوغ الإسلام - هو نبأ الرسالة الامامية التي حملها الرسول الأقدس محمد ﷺ ، فنبأ الرسالة المحمدية هو أعظم الأنباء الرسالية في تاريخ الرسالات ، ولأنها تشملها كلها وفيها مزيد هو رمز الخلود .

ف « لما بعث النبي ﷺ جعلوا يتساءلون بينهم فنزلت « عم يتساءلون عن النبأ العظيم » (١) « بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب » (٢: ٥٠) .

(١) الدر المنثور ج ٦ ص ٣٠٥ ، أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن قال : ..

فهذه الرسالة السامية كانت نبأ عظيمًا تحمل كافة الأنبياء العظيمة : « ولا يُنبئك مثلُ خبير » (١٤: ٣٥) .. إنه نبأٌ ونبيٌ ونبيٌ أمرٌ بالإنبياء : « نبيٌ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم » (٤٩: ١٥) ، فإنذار النبي وإنبيائه نبأ التوحيد ، هما من الأنبياء العظيمة ، وقد بدأ بنبي التوحيد : « قل إنما أنا مُنذِرٌ وما من إله إلا الله الواحد القهار . ربُّ السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار . قل هو نبأٌ عظيم . أنتم عنه معرضون . ما كان لي علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون . إن يوحى إليّ إلا أنما أنا نذيرٌ مبين » (٦٥: ٣٨-٧٠) .

أجل ، وإن نبأ التوحيد هو الركيزة الأولى من أنباء هذه النبوة السامية .

ثم القرآن نبأ عظيم لأنه المعجزة الخالدة لهذه الرسالة السامية ، وأنه يحمل كافة أنباء الغيب « تلك من أنباء الغيب يُرحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين » (١١ : ٤٩) « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (١١ : ١٢٠) ^(١) .

ونبي المعاد نبأ عظيم بعد التوحيد ، وهما الهامتان في نبأ الرسالة والقرآن : « هل ندلكم على رجل يُنبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد . أفترى على الله كذباً أم به جنة . بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد » (٣٤ : ٧-٨) « ويستنبئون أحق هو قل أي ورثي إنه لحق وما أنتم بمعجزين » (١٠ : ٥٣) .

هذه هي الدعائم الأربع من الأنبياء العظيمة ، تشملها : « النبأ العظيم » جنس النبأ العظيم لمكان « ال » لا شخصه لكي يفسر بخصوص المعاد أم ماذا ترى إن

(١) الدر المنثور ٦: ٣٠٥ ، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه القرآن .

المعاد نبأ عظيم وليس التوحيد ؟ وليس القرآن ؟ وليس نبي القرآن ؟ وهي لا تنقص عنه وقد تزيد !

ومن الأنباء العظيمة هي استمرارية الولاية والحكم المحمدي المتمثل في أخيه ونفسه ووليه وخليفته علي أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة من ولده المعصومين ، وكما يخاطبه الرسول الأعظم عليه السلام بالنبا العظيم : « أنت حجة الله وأنت باب الله وأنت الطريق إلى الله وأنت النبا العظيم وأنت الصراط المستقيم وأنت المثل الأعلى » (١) . وكما يقول هو عن نفسه : « وإني النبا العظيم » (٢) .

وفي وجهة عامة هو الولاية - على حد تفسير الإمام الصادق عليه السلام (٣) - : ولاية الله والرسول والأئمة بعد الرسول عليه السلام ، وقد تتلخص في حكم الله على العباد .

« الذي هم فيه مختلفون » :

كان الكفار مختلفين في هذه الأنباء العظيمة ، في أصولها وفي كيانها ، رغم اتفاقهم على عدم تصديقها كما يجب .

فمن تقولاتهم في نبأ النبوة : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون » (٥١ : ٥٢) « أم يقولون شاعر نترصد به ريب المتنون » (٥٢ : ٣٠) .

.. ساحر أو مجنون أو شاعر ، تقولات ثلاث حول نبأ النبوة الذي هم فيه مختلفون ، بين طرفي الإفراط « ساحر شاعر » والتفريط « مجنون » بين فاقد العقل وراجع العقل .

(١) نور الثقلين ٥ : ٩١ ح ٨ عن عيون الأخبار عن الرضا (ع) عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي قال : قال رسول الله (ص) ..

(٢) نور الثقلين ٥ : ٩١ ح ٦ عن روضة الكافي خطبة الوسيلة .

(٣) نور الثقلين ٥ : ٩١ ح ٤ في أصول الكافي بالإسناد عنه (ع) .

وفي نبي القرآن : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » (١٦ : ١٠٣) « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » (٢٥ : ٥) ، « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون » (٢٩ : ٤٨) ..

.. انحرافات ثلاث عن نبي القرآن : ١ - أنه من تعليم بشر سواء أ كان حقاً أم باطلاً . ٢ - أنه من أساطير الأولين وخرافاتهم . ٣ - أنه مجموعة من سائر الكتب السماوية . والمبطلون هنا لا يرتابون^(١) وإنما يعاندون .

وفي نبي التوحيد : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » (٣٨ : ٤ - ٧) .

فهذا هو الإشراك ، ثم إلى سائر الاختلافات والاختلافات عن صميم التوحيد من تثنية وتثليث وحلول وتجسيد .

وفي نبي المعاد : من إنكاره إطلافاً : « وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » (٤٥ : ٢٤) ..

أو إنكاره جسدياً : « وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » (٣٦ : ٧٨) ..

أو نكران الحساب بعد الموت بغفران شاملٍ أو تكذيب الجنة والنار ، أو تخصيص الحياة بالجنة ، وغير ذلك من الإنكارات .

(١) لأن الارتياب ليس إلا في أمر مريب ، وأمر القرآن ليس مريباً بعد أن زالت الإكتناب والقراءة والجمع : ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين «مما شكوا فيه دونما حجة» .

« عن النبا العظيم الذي هم فيه مختلفون »

إن كون النبا متساوياً عنه ، واختلاف المتسائلين انفسهم - إنها يوحيان بسفه التساؤل هنا وسقوطه ، فلو كانوا على بينة من نكرانه لكانوا متوافقين في مدى نكرانه .. لكنه كلا - إنه نبأ عظيم : خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم عظيم ، يملك من البراهين كل أنواعها : العقلية والواقعية ، الإفاقية والآنفسية .

فلقد يكفيهم اختلافهم ، ويكفيهم نصوع النبا ، يكفيانهم لدحض افهامهم وتسفيه أحلامهم ، وهكذا إجابة في الإيجاء ، دون إدلاء بحقيقة التساؤل عنه ، تلويحاً بالتهديد الملفوف ، وتوضيماً للنبا ، إنه أوقع من الجواب المباشر ، وأعق في التخويف وأعرق في التبكيث .

« كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون »

إنه ليس كما يزعمون - فسيعلمون بعد إذ كشف الغطاء بالموت ، بعد إذ قضي على حياة الجسد . « ثم كلا سيعلمون » في الحياة الثالثة والأخيرة ، يوم الفرع الأكبر ، يوم القيامة الكبرى ، علم ثم علم ، بعد جهل على جهل ، تجاهلاً سفيهاً مارقاً . إن هذا الجهل أو التجاهل المتأدي سيزول قريباً بالموت ، ولا نقول : سوف يزول ، بل إنه سيزول : « سيعلمون » إذ إن كل آت قريب ، و : « إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » (٧:٧٠) قريب في التصور ، وقريب في التصديق ، وقريب في الواقع ، وقريب في الوقوع ، رغم استبعادهم له لحد الإحالة .

فالمتسائلون هنا المستهزئون بالنبا العظيم ، إنهم محكوم عليهم في حياة التكليف بالآيات البينات ، ومحكوم عليهم في حياة الجزاء إذ يرونهم في الأمر الواقع الذي استنكروه وتساءلوا عنه : سيعلمون بعد الموت : الحياة البرزخية ، ثم بعدها في الحياة الآخرة ، علماً أوسع وأثبت منها ، كما العلم البرزخي أوسع مما في الحياة الأولى .

.. أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا^٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا^٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا^٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا^٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا^{١٠} وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا^{١١} وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا^{١٢} وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا^{١٣} وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا^{١٤} لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا^{١٥} وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا^{١٦} ..

.. تكريس للكون ، من آفاقه الأرضية والسموية ، ومن الأنفسية برهاناً لنبأ التوحيد الذي هو أصل الأنبياء ومبدأ الأنبياء .. ثم آيات أخرى تكرم نبأ المعاد وهو يتلو نبأ التوحيد ، وبينها نبأ النبوة والقرآن - المبينان لها - ، يدجمها في اصلي المبدأ والمعاد كما هو دأب القرآن ،
الجبال الأوتاد :

« أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا » : مركز تقيت كميور علوم إسلامي

إنها كانت أرضاً ولم تكن مهدياً ولا مهدياً : « الذي جعل لكم الأرض مهدياً وجعل لكم فيها سبلاً » (٥٤:٢٠) ؛ ولا ذلولاً : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » (١٥:٦٧) ، كانت شماساً لا تذلل الراكب ولا تحن لعائش^(١) .

إن جعل الأرض مهدياً ومهاداً وذلولاً يوحي بحقائق عدة كانت مجهولة لدى الإنسان حتى زمن نزول القرآن ، منها حراك الأرض دائباً منذ خلقت إلا أنها

(١) « جعل » المتعدي إلى مفعولين ، يفيد الجعل المركب ، أي جعل الشيء شيئاً آخر^(٢) .
بمعنى خلقه - فـ « جعل لكم الأرض ذلولاً » ، أي جعل حالة التذلل لها بعدما كانت شماساً .

كانت شماساً مجنونة الحراك ، فجعل الجبال أوتاداً لهذا المهد لكي تسكن من
الميدان .

« والجبال أوتاداً » :

فإنها كانت جبلاً ولم تكن أوتاداً ، فأرساها الله تعالى في قطع أديمها :
« وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الثَّم من صياخيدها
فسكنت من الميدان بُرُوسَ الجبال في قطع أديمها » ، فسكنت على حركاتها من
أن تميد بأهلها أو تسبخ بحملها أو تزول عن مواضعها ، فسبحان من أمسكها بعد
موجان مياهها وأجدها بعد رطوبة أكنافها فجعلها لخلقها مهاداً ودسطها لهم
فراشاً فوق بحر لجي لا يجري وقائم لا يسري ، فكر كره الرياح العواصف .
ونمخضه الغمام الذوارف ، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى » (١) .

فهنا مسألتان هامتان من أهم مسائل التكوين هما : الأرض المهاد تلتصعرك ،
والجبال الأوتاد . ومن الضروري لهذه المهاد المضطربة الشمس أن توتد لكي
تسكن عن الاضطراب على حركاتها ، فإن بها مساك الأرض وقوامها واعتدالها
وثباتها كما يثبت البيت بأوتاده والجبال على أعماده ، مساكاً عن اضطرابها
وميدانها لا عن حركاتها ، أنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال وأرساها على
غير قرار وأقامها بغير قوائم ورفعها بغير دعائم وحصنها من الأود والإعوجاج
ومنعها من التهافت والانفراج ، أرسى أوتادها .. » (٢)

فالارض المهاد هي مهاد للحياة عامة ، وللحياة الإنسانية بصورة خاصة ،
تمهد الحياة للإنسان بسلها وجبلها ومسائها وفضائها وحركاتها ، مهاد كالمهد ،
ومهد تريح الإنسان عن أعباء الحياة بحر كاتها المعتدلة المتناسقة المتلائمة .

(١) نهج البلاغة في مواضيع عدة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام .

(٢) من خطب أمير المؤمنين علي (ع) ، وسوف تأتي على بحث فصل حول حركات الأرض في
سورة المرسلات وسواها ، وحول أوتاد الجبال في أنسب مواضعها .

فاختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة في خلق الأرض و خلق الحياة على الأرض ، هذا الاختلال يخرجها عن الأرض المهاد إلى الأرض الشمس العتاد .

وجبال الأرض - الأوتاد - هي أشبه شيء بأوتاد مهد الطفل ، تحفظ توازنها في حراكها ، وتعادل بين نسب الأغوار في البحار ونسب المرتفعات في الجبال ، وتعادل بين التقلصات الجوفية للأرض وتقلصاتها السطحية ، ولأسباب أخرى نجهلها، أشار القرآن الكريم إليها، ثم عسرف الإنسان طرفاً منها يسيراً ، على جهوده العلمية المتواصلة ، وبعد مئات السنين .

هذه الأرض المهاد والجبال الأوتاد ، هي من البراهين الساطعة على وجود مدبر واحد عظيم عليم قدير حكيم ، وإنها من أدلة النبأ الأول من الأنباء العظيمة : « نبأ التوحيد » إذ ليس بالإمكان أن يحصل هذا التدبير دون مدبر ، أو يدبره أرباب متشاكسون .

خلق الأزواج :

« وخلقناكم أزواجاً » : كالمبيوتر علوم ربي

الزوج هو المائل الملائم ، فكما خلق الله الأرض والجبال متلائمين مع بعض ، كذلك الإنسان خلقه الله أزواجاً : أزواجاً مع الأرض التي يعيشون عليها ، ملائمة طباعهم معها ؛ وأزواجاً بعضهم مع بعض في كافة النواحي الجسدانية والحوية ، دون منافرة ذاتية هنا وهناك .. أجل : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » : منافرة ذاتية ، اللهم إلا أن يتنافروا بينهم بسوء الاختيار .. ثم أزواجاً مع نبات الأرض وحيوانها ، إذ يعيش معها مفيداً لها مستفيداً منها .. فالكون كله أزواج رغم اختلاف الأشكال . ف « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » (٣٦ : ٣٦) . « والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون » (١٢ : ٤٣)

.. فهنا تزويج بين الإنسان والفلك والأنعام ، وهناك بين الكون كله ، وإن كان الإنسان هو من أهم الأزواج ، وله خلقت سائر الأزواج ^(١) .

وهذه الملائمة الذاتية بين أجزاء الكون ، والإزدواجية الخلقية بينها ، إنها برهان آخر على نبأ التوحيد ، توحى لنا وحدانية الخالق المدبّر ، لا سيما زوجية الذكورة والأنوثة الكافلة لرغد العيش ، ولبقاء النسل وكثرته .

فقد خلق الله الإنسان ذكراً وأنثى : « يهب لمن يشاء أنثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراً وأنثاً ويجعل من يشاء عقيماً » (٤٢ : ٥٠) .

وجعل حياة هذا الجنس وامتداده قائمة على اختلاف الزوجين والتقاءهما ، وكل إنسان يدرك ما وراءها من لذة وراحة ومتعة وتجدد ، ولأهمية ازدواجية الحياة نرى الآيات تترى في المن والتذكير بها .

فهل يا ترى أنها الفوضى : أن تصبح النطفة ذكراً ، وأخرى مثلها أنثى - على وحدتها في الصورة والمنشأ ؟ سبحان الخلاق العظيم

النوم السبات :  مركز تحقيق كاميون علوم إسلامي

« وجعلنا نومكم سباتاً » :

إن مهـاد الأرض وأوتاد الجبال وازدواجية الكون بأنـسـاله - على كونها من أهم النعم الدالة على نبأ التوحيد - إنها تبقى منقبة الأثر عديمة الثمر لولا أن الإنسان ينام ، فكأن حراك الإنسان في الحياة من النعم ، كذلك سباته : (قطعه) عن الحراك نعمة ، لولاها لما استقامت للإنسان حياة ، واندثر كيانه قبل قيامه بصالح الحياة ..

(١) سوف نبحث عن زوجية الكون أجمع على ضوء الآيات في أقرب المناسبات ، وإن ذلك من معجزات القرآن - العلمية .

جل من لا تأخذه سنة ولا نوم ، فالكون كله في سنة ونوم - مما يدل على ضعفه وعدم استقلاله - إلا الله الواحد القهار .

إن النوم من رحمت الله وآياته : « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغواكم من فضله » (٣٠ : ٢٣) : آية العلم والحكمة والقدرة الإلهية ، وآية للموت والحياة بعد الموت : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (٣٩ : ٤٤) « وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون » (٦ : ٦٠) .

« وجعلنا نومكم سباتاً » : سكتاً عن حركات التعب ونهضات النصب ، لتجديد قوى الحياة ، وجعل الليل لباساً لهذا السكن ، سكتاً على سكن : « هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه .. » (١٠ : ٦٧) « وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً » (٢٥ : ٤٧) ، فلو لم يكن الليل لم يكن سكن ، ولو لم يكن النوم لم يكن سبات : « قل أرأيتم إن جعل الله لكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله إلا الله يأتكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون » (٢٨ : ٧١ - ٧٢) نوم سبات في ليل سكن على مهد الأرض ، وبها لها من نعم لا تحصى .

مهدٌ مهد الله لنا فيه كل حاجيات الحياة حق المات ، وسبات يقطعنا عن زعزعات الحياة وينقل بنا إلى حياة البرزخ لنسكن مع الأحياء فترة هناك ، ثم نرجع علنا نجدد الحياة ، وسكن يهد لنا حراكاً أقوى وأبقى مما لو لم يكن سبات ولا سكن .. فهل ياترى أنها فوضى وصدفة عياء ؟ سبحان الخلاق العظيم !

ثم لنعرف ما هو مدى هذا السبات ، هل إنه سبات عن الحياة كل الحياة ؟ أم سبات عن العمل مع بقاء الحياة كما كانت ، أم سبات قسري عن أعمال الحياة

الإختيارية : عقلانية وجسدانية ، وتبقى الأعمال والحركات القسرية الضرورية لإبقاء الحياة حالة المنام ، فحالة السبات حالة لا موت ولا حياة ، موت شيئاً ما وحياة شيئاً ما ، إنه اندفاع الروح الإنساني مع الحيواني الإرادي إلى عمق الحياة ، وانصراف لها مؤقتاً عن الحياة الدنيا ببدنها وهذه الحالة تتكفل بإراحة الإنسان نفسياً وجسدانياً ، وتعويضه عن الجهد الذي بذله حالة الصحو والانشغال بأمور الحياة .. وإنه هدنة للروح من صراع الحياة العنيف ، تلمّ الإنسان ليلقي سلاحه ويستسلم لفترة من السلام ، وهذا هو الصحيح عن واقع النوم .

فإنه قفزة مؤقتة إلى حياة أعمق وكيان أعرق ، سوف يقفز الإنسان إليه دون رجوع : « ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » .. وما أشبه المنام بالمات ، إذ يذكر الإنسان بحالة المات : « وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضي أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون » (٦ : ٦٠) .

هذا السبات المؤقت عن كامل الحياة ثم الرجوع إليها ، إنه من البراهين الواقعية لنبأ المعاد إضافة إلى نبأ التوحيد : « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (٣٩ : ٤٢) .

فمن هنا تأخذ ازدواجية البرهان موقفها الخامس ، بعد وحدتها لنبأ التوحيد ، ازدواجية تضم نبأ المعاد إلى نبأ التوحيد ، ومن ضمن النبأين الأصيلين توحى إلى نبأ النبوة المحمدية والقرآن ، حيث البراهين تسبر أغوار الكون الحفية وحق الآن ، فضلاً عن زمن نزول القرآن .

فمهاد الأرض ، وأوتاد الجبال ، وكائنات الأزواج ، والنوم السبات ، والليل اللباس ، إلى سائر الحالات المسرودة من الكائنات ، إنها إنباءات غيبية ليست من حصائل التفكير لإنسان الأرض كإنسان ، ولا سيما الأمي الذي لم يدرس

شيئاً : « فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون » (١٠ : ١٦) .. إنما هي من وحي السماء ، سبحان الخلاق العظيم !

النوم في منطق العلم والحديث :

من مقالات الإمام جعفر الصادق عليه السلام حول المنام : « ما من حي إلا وهو ينام خلا الله وحده عز وجل » (١) .. هذا - والواقع العلمي والكوني يبرهنان على الضرورة الحيوية إلى النوم لكل حي : نبات وحيوان وإنسان :

« إن ظاهرة النوم في الكائن النباتي تظهر - على الأكثر - في اختلاف حالة التنفس وتصاعد الدُّبوس النباتية ، فهي تعاكس عملية التنفس بين الليل والنهار ، ففي النهار تأخذ الكربون وتدفع الأوكسجين ، وفي الليل تأخذ الأوكسجين وتدفع الكربون ، ولذلك نراها تصعد دُبوسها في الليل أكثر مما في النهار -

وفي البعض من النباتات نرى حالة تشبه حسالة الحيوان ، كوردة الأبريسم وأقاقيا ، فإنهما تجمعمان أوراقهما ليلاً » (٢) .

« ثم نرى في الكائن الحيواني أن حالتي النوم واليقظة لزامٌ له دون استثناء ، وكلما تكامل مخ الحيوان نرى الاختلاف بين حالتيه أكثر ، والنظم فيها أظهر . ولقد دلت الفحوص - حول مختلف الحيوان أن لوضوح النهار وظلم الليل - على الأكثر - تأثيراً عميقاً في نومها ويقظتها .

فقد نرى الطير تأخذ في دورها العمال منذ إشراق الشمس ، وتلجأ إلى أكنانها عند غروبها .. وأثبتت التجربة أن النور الشديد في ظلم الليل يجعل الطير تأخذ في دور النهار .

(١) سفينة البحار ٢ ص ٤٤٧ .

(٢) النوم والرؤيا ص ١٥ .

ثم نرى فريقاً آخر من الحيوان أن نومها لا يناط بالليل ، فتجعل الليل نهاراً والنهار ليلاً كالعكس ، دون تمييز بينها للنوم والعمل .

ثم نرى ثالثاً تعكس الأمر تماماً فتجعل النهار ليلاً فتأخذ كلا كعكسه كالحفاش :^(١)

« وفي مسدلة الجفون بالنهار على أحداقها ، وجاعلة الليل سراجاً تستدل به في التماس أرزاقها ، فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً والنهار سكوناً وقراراً »^(٢)

ثم نرى البعض من الحشرات أنها لا تعرف النوم طوال أشغالها الطويلة الزمن كالنمل ، فهي تدور في تهيئة أرزاقها في غير الشتاء ، ثم تستريح وتنام في الشتاء .

هذا ، ولكن الانسان لا يستطيع الإدمان في الشغل وترك النوم لأكثر من عشرة أيام ، ثم الموت قطعاً^(٣) .

وعلى أية حال لا تجد حياً في الكون إلا وهو بحاجة ملحة إلى النوم ، مها اختلفت أوقاته ومقاديره ، ومن ثم نرى القرآن يبين فيما بينه على الإنسان يجعل النوم سباتاً .

« وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً » :

« ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (٢٧ : ٨٦) « وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٥ .

(٢) النوم والإنامة - أر - هينوتيزم ص ١٢ .

وجعل النهار نشوراً « (٢٥ : ٤٧) » الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه
والنهار مبصراً « (٤٠ : ٦١) .

توحي لنا هذه الآيات البينات أن الليل لصالح الراحة والنام ، والنهار
لصالح الإبصار فالنشور لابتغاء فضل الله ورحمته ، وهذا هو الأصل الأول في
قرار الليل والنهار ، وإن كان للإنسان أن يلفق بينها ويعكسها : « ومن آياته
منامكم بالليل والنهار وابتغاءكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون »
(٣٠ : ٢٣) « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من
فضله ولعلكم تشكرون » (٢٨ : ٧٣) .

وهذا جعل ثان ينوب عن الأول شيئاً ما عند الحاجة ، وفيما لزم عكس الأمر ،
وإن كان الالتزام بالأول أخرى وأصلح لراحة الإنسان ، وهذه الحرية في تبديل
وقت المنام للإنسان هي في عداد فضائله على سائر الحيوان الملزمة خلقياً بأوقات
خاصة لا تتبدل .

ترى في الآيات الأولى فكاً كاملاً بين الليل والنهار للنوم والشغل ، حينما الآيات
الأخيرة تجمع بينهما للأمرين ، لكيلا يظن أن في نوم النهار وشغل الليل محظوراً ،
بعدما نعلم أفضلية المنام في الليل والشغل في النهار ، والواقع الملموس يشهد أن
قليل النوم في الليل أريح بكثير من كثير النوم بالنهار ، وأن نوم النهار يأتي
بالكسل والفشل .

الليل اللباس والنهار المعاش :

اللباس ما يلبس الإنسان ويستتره ، ستر الجسد للجسد كلباسه من عورته أو الروح
من طغواها كتنقواها : « قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً » (٢٦ : ٧)
وستراً له عما يصطدمه من حر أو برد أو بأس دون ذلك : « وجعل لكم سراويل تقيكم
بأسكم » (٨١ : ١٦) ، أو ستراً للروح من طغيانها وتخلّثها عن شريعة الله : « يا بني

آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » (٧ : ٢٦) .

ومما بقي الإنسان لباس الجنس : لباس النساء للرجال والرجال للنساء : « .. هن لباس لكم وأنتم لباس لهن .. » (٢ : ١٨٧) يلبس البعض البعض من حملة الجنس الشاذة ، ومن حيرة الحياة ووحدتها .

أو ستراً للإنسان روحياً وجسدياً عن عبء الأشغال ، وسباتاً عن حراب الحياة في محراب المعاركات وهذا الأخير هو لباس الليل ينير بظلمه على الإنسان درب الحياة الجديدة ، هدنة للروح والجسد من صراع الحياة العنيف ، لباس هدنة تلم بلبسه فيلقي سلاحه وجنته ويستسلم لفترة السلام الآمن ، الذي يحتاجه الإنسان تبقيّة وتنشيطاً لحياته .. فهذا هو الليل اللباس : لباس على الإنسان كما هو لباس على النهار وكما النهار لباس الليل : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » (٣٦ : ٣٨) سلخ لباس النهار عن الجو ، وإلباس الجو لباس الليل ، وكما هو لباس على لباس النساء في ضجعة الجنس : « يلايل الرجال من النساء » (١) .

ثم النهار هو معاش : زمن العيش التام حيث اليقظة التامة ، وزمن المعيشة وتحصيلها رغداً (٢) .

والليل اللباس والنهار المعاش آيتان لنبا التوحيد والمعاد : « وجعلنا الليل

(١) نور الثقلين ج ٥ ص ٤٩٢ ج ١٤ عن علل الشرايع بإسناده إلى عبد الله بن يزيد بن سلام أنه سئل رسول الله (ص) فقال : أخبرني لم سمي الليل ليلاً ؟ قال (ص) : لأنه يلايل الرجال من النساء ، جعله الله عز وجل ألفة ولباساً ، وذلك قول الله عز وجل « وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً » قال : صدقت يا محمد ..

(٢) المعاش : هو العيش ، مصدر ميمي واسم زمان ومكان ، فهو كما في المتن : زمن العيش واقعياً وتحصيلاً لوسائل العيش ، وهو نفس العيش .

والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة « (١٢ : ١٢) ليل الموت كما هو للنوم « فالنوم أخ الموت » ونهار النشور كما هو للحياة التامة ، فهما آيتان دائبتان للحياة بعد الموت كما اليقظة بعد النوم .

« وبنينا فوقكم سبعاً شداداً » :

.. سبع شداد هي السماوات والأجواء السبعة ، وأقربها إلينا هي السماء الدنيا ، سماء الكواكب .

لقد بنيت هذه السبع الشداد من الدخان الصاعد من الماء المضطرب : المادة الأولية لخلق الكون أجمع ، إذ فجرها ربها وأضرها فصعد منها دخان هي مادة السماء والسماوات السبع ، وأزبدت زبداء هي مادة الأرض والأرضين السبع^(١) .

فهم بني السبع ؟ وما هو السبع ؟ وما هو الشداد ؟

إنها بنيت من الدخان الصاعد من اضطراب المادة الأولية لخلق الكون : « الماء »^(٢) : « .. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا

(١) البحث الفصل حول خلق السماوات السبع والأرضين السبع يحول إلى مجالها الأنسب فالأنسب كآيات من « فصلت » و « النازعات » وأمثالها ، وهنا نشير شيئاً ما إلى بناء السماوات وشدادها من دخانها .

(٢) لا نعي الماء المعروف عندنا فإنه أيضاً مخلوق من مادة أولية ، إنما هو تعبير عن كيان تلك المادة وأنها مسانحة الأجزاء وكأيسر تركيب من كائنات العالم ، والبحث الفصل تجده في سورة هود عند قوله تعالى : .. وكان عرشه على الماء ، وشاهدنا على ذلك - إضافة إلى الواقع المعروس - روايات عدة عن مصادر الوحي :

منها ما رواه الكليني عن محمد بن مسلم قال : قال لي أبو جعفر (ع) كان كل شيء ماء وكان عرشه على الماء ، فأمر الله تعالى الماء فاضطرب ثم أمر النار فغمدت فارتفع من خودها دخان فخلق السموات من ذلك الدخان وخلق الأرض من الرماد .. وفي آخر عنه (ع) : « فجعل نسب كل شيء إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً يضاف إلى شيء » ، ومعلوم أن مادة المشروب ، له نسب مما ذرأ الهيدروجين والأكسجين ، وهما أبواه .

طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم » (٤١ : ١١ - ١٢) .

والدخان هو المستصحب للهب ، وليس للماء المغلي هيب ، وإنما هو لما يصعد من احتراقه نار ملتهبة ، من حطب وفحم حجري وبتروول .. ومن الذرات وفوق الذرات المتفجرة ، وقد يصل الالتهاب إلى ٧٠ مليون درجة كمرکز الشمس الذي لا يبقى فيه أي تركيب جسماني إلا ما يحافظ على كيان المادة لمدة ما ، ولذلك فإن مركز الشمس لا يحمل إلا الثيدروجينات التي هي أبسط الذرات فيما نعرف .

وهناك غازات لها ٢٨٠ مليون درجة من الحرارة كمرکز الشمري ، وإنها بعيدة عنا ٥٠٠,٠٠٠ أضعاف بعد الشمس ، ولو كانت على بعد الشمس لكانت درجة الحرارة في كوكبنا الأرضي ، ضعف الآن .

وهناك غازات لم يعرفها العلم حتى الآن ، وكل هذه الحرارة والغازات هي ولائد الغاز (الدخان) الأول ، الناتج عن التفجّر الأول للمادة الأولية ، وهي أم الكائنات .

إنها تفجرت فأولدت دخاناً ساطعاً إلى الجوّ العالي ، وأزبدت زبداً ربّتها عندها ، ثم الولد المتخلف الفرّار ظلّ دخاناً إلى أن قضاه الله سبع سموات .

ثم من هذا الدخان خلقت السبع الشداد ، أجواء سبعة متداخلة : « .. الذي خلق سبع سموات طباقاً .. » (٦٧ : ٣) أدناها إلينا سماء الأنجم : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » (٣٧ : ١٠) ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » (٦٧ : ٥) .

أجل إنها : السماء الدنيا ، لا سماء الدنيا ، إنما السماء الموصوفة بأنها الدنيا :
أدنى السماوات السبع إلينا ، وكرتنا الأرضية هي من اصغركواكب السماء الدنيا
إذا فليست السبع عدداً دون مفهوم^(١) ولا عدداً للأجواء السبعة للسيارات
السبع^(٢) فإنها مع المليارات من المجرات الحاملة للكواكب ، هي كلها في السماء
الدنيا ، ثم لا ندري ما هو في الست الباقية .

وإنها شداد ، فالسما هنا لاتعني الفضاء والجو الخالي ، أو بما فيه من كواكب بل هي
جو يحمل أجراماً غازية - خفيفة وثقيلة - من النوع الذي خلقت منه الكواكب ،
وكما عرفنا من الآيات في « فصلت » : أن السماوات السبع - والكواكب في
دنياها ، إنها كلها - خلقت من الدخان الأم : « ثم استوى إلى السماء وهي
دخان فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً أو كرهاً » ، قالتا أتينا طائعين . فقضاهن
سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً
ذلك تقدير العزيز العليم » (٤١ : ١١ - ١٢) .

وكما القرآن يوحى أن المملكة السماوية في توسع دائم في بلادها : « الكواكب »
« والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون » (٥١ : ٤٧) : لموسعون بناءها بما فيها
من كواكب وأنجم وبروج ، من الدخان الأم ،

تسمع لفظة الدخان وعلك تظنه غازاً رقيقاً ، رغم أن اللهب الذي
يستصحب الدخان ليس نوعاً واحداً كلهب الحطب ، فقد يكون لهيب
التفجرات الذرية وما فوقها ، يتبعها في الثقل والخفة ، فكل ذرة تتحمل حرارة
أكثر - دون أن تتجزأ - فثقلها أكثر ، فإذا قد نرى أن الحديد ينوب ويتجزأ في

(١) كما يصر به ويكرره الشيخ الطنطاوي دون تفكير في الآيات المعنية .

(٢) وكما يقوله السيد هبة الدين الشهرستاني في كتابه الهيئة والاسلام ، وتجد البحث الفصل في
طبقات التفسير عند الأنسب من الآيات فالأنسب ، وهنا آيات تسع تصرح بعدد السبع ولا مبرر في
تأويلها إلا الجهل .

ألف درجة ، فليكن الغاز الموجود في مركز الشمس ٧٠,٠٠٠ ضعف الحديد ثقلاً وصلابة ، والموجود في مركز الشمري ٢٨٠,٠٠٠ ضعفه ، ثم لدينا مزيد .

أجل : إن هذه السبع شداد كأشد ما يتصور : شداد في البناء كأثقل البناء ، لا تنفطر إلا بمفطر آلهي ، شداد في الصلابة وإن لم تكن في كل جوانبها ، شداد بأبوابها فلا تفتح إلا بفتح آلهي : « وفتحت السماء فكانت أبواباً » (٧٨ : ١٩) « ففتحنا أبواب السماء بناء منهمر » (٥٤ : ١١) .

سبع شداد نرى من شدة الأولى منها أن علق في بليارات البليارات من قناديل الكواكب ، ودون أن تؤثر في سقفها فتوراً وفطوراً ، فهي معلقة بعمد لا نرى : « رفع السماوات بغير عمد ترونها » (١٣ : ٢) « فثم عمدٌ ولكن لا ترونها » (١) .

نرى سيارات الكواكب في أفلاكها وراقصات في مراقصها ، لا تنزل عن مداراتها .. فبها لها من عمد تدعها ، وبهذا السقف الرفيع المحفوظ من صلابة واستقامة !

إنها سبع شداد ، مقبنة التكوين ، قوية البناء ، خارقة البناء ، بقوة تمنعها من التفكك والانثناء .

« وبنينا فوقكم » وبما أن « كم » تعني كافة سكنة الأرض ، فلزامه كون السبع الشداد أيضاً فوق الكل ، وهنا إيحاء لطيف إلى كروية الأرض ومعها السماوات ، فالسماوات الدنيا فوق الأرض كلها ، ثم مقتضي طباق السماوات كون الباقيات كمثلاً سواء .

« وجعلنا سراجاً وهجاً » :

شمسنا التي نستضيء بها ونتدفأ ، هي سراجنا الوهاج ، بين الملائين من السرج الوهاجة في المملكة السماوية .

١- كما يروى عن الامام محمد بن علي الباقر (ع)

إن الوهاج هو ما يجمع بين الضوء والحرارة ، وجعل الشمس وهاجاً ، إنما هو بعد بناء السبع الشداد ، خلقت من ضمن ما خلق من مصابيح السماء الدنيا : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح .. » ومصباحنا الوهاج الذي ينتج وضوح النهار هي شمسنا ، فهي ضياؤنا كما القمر نورنا في ظلم الليل ، وسوف تعلمون أن خلق الكرة الأرضية أسبق من خلق الشمس وسائر الأنجم .

فالشمس السراج الوهاج ، والقمر النور المنير : « وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً » (٢٥ : ٦١) « وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً » (٧١ : ١٦) .. إنها من الآيات البينات لنبأى التوحيد والمعاد ، بما أن « الشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم .. » والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » (٣٦ : ٣٨ - ٣٩) .

وهذا السراج الوهاج هو الباعث للحرارة التي تعيش بها الأرض وما عليها وما فيها ، وهو الذي يكون السحاب بتبخير المياه من المحيط الواسع في الأرض ورفعها إلى طبقات الجو ، فهي من المعصرات وهو المشرق علينا بأنواره ، إشراق الحياة ، وراحة الحياة ، وتقدم الحياة ..

والشمس بحرارتها ونورها هي من المعصرات التي ساعدت على تروية الأرض بالماء الشجاج .

المعصرات والماء الشجاج :

« وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً . لنخرج به حباً ونباتاً . وجنات ألفافاً » :

استعراض لبداية نزول الماء من السماء على كرتنا الأرضية الشموس العطشى فإنها كانت منذ بدايتها محترقة ، إذ كانت زبداء : حصيلة التفجير الأول للمادة

الأم « الماء » حيث أزيدت زبدًا فكانت أرضًا ، وصعدت دخانًا فكانت سماء
ثم سموات : « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الأرض وإنا على ذهاب به
لقادرون » (٢٣ : ١٨) .. ولو أن مياه الأرض أو بعضها كانت منها نفسها ،
لم يكن للتهديد بذهاب مياه السماء منها معنى !

أجل إن حياة الأرض « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحىي به الأرض
بعد موتها » (٢ : ١٦٤) وحياة الأحياء فيها كلها ، إنها من ماء السماء : « وجعلنا
من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون » (٢١ : ٣٠) .. وقد جعلت الأرض ذلولًا
بعد شماسها بأوتادها وبماء السماء : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولًا فامشوا في
مناكبها واكلوا من رزقه وإليه النشور » (٦٧ : ١٥) .

وبطبيعة الحال ما كان بالإمكان نزول الماء من السماء على هذه الكرة المحترقة
إلا بالإعصار والصب ، إعصار ينتج الصب والماء الغزير الشجاج .

وهناك للماء الشجاج مراحل عدة ، أولاها وأقواها الصب الأول الذي
أنتجته معصرات عدة :

من الرياح التي أعصرت أنفسها حتى وصلت إلى الأجواء الأرضية ، وأعصرت
السحاب فأوصلتها إلى أجوائها .

ومن السحاب التي أعصرت بعضها البعض وتضاغطت حتى استقرت هناك .
ومن التفريغات الكهربائية هنا وهناك التي ساعدت هذه الإعصارات
وأعصرت (١) .

فلقد تناصرت معصرات رياحية وسحابية وتفریغات كهربائية - ومن

(١) من « في معصرات الرياح والتفريغات الكهربائية - تكون سببية ، وفي السحاب نشوية
أو تبعية ولا بأس بقصد معاني عدة من كلمة واحدة في القرآن فيما إذا تتحملها اللفظة لغويًا
ومن حيث المقام .

ورائها وممها الإعصار الإلهي - حتى كافتحت حرارة الأرض وروتها ماء وبردت
ظاهرها رغم ذوبان باطنها نتيجة الحرارة الزائدة .

إنها أعصرت فأنزل الله بها ماء ثجاجاً: غزيراً كثيراً يصبه صباً : « أنا صبينا
الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبثنا فيها حباً . وعنباً وقضباً . وزيتوناً
ونخلًا . وحدائق غلباً . وفاكهة وأباً . متاعاً لكم ولأنعامكم » (٨٠ : ٢٥ - ٣٢) .

إنه تعالى روى كرتنا العطشى المحترقة بما فتح من أبواب السماء بماء منهمر ،
وبمعصرات عدة ، فجعل من الأرض بجرأ متلاطماً ، ثم يبست شيئاً ما لكي :
« يخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً متاعاً لكم ولأنعامكم » .

وهنا صب ثان في طوفان نوح : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرتنا
الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودُسُر .
تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مذكر ،
(٥٤ : ١١ - ١٥) .. كما الأرض أصبحت كأنها بحر لجي ، إلى أن أقلمت
السماء ماءها وابتلعت الأرض : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي
وغيض الماء واستوت على الجودي وقيل بعداً للظالمين » (١١ : ٤٤) .

وصب ثالث هو أخفها وطناً وأكثرها عدداً ، هي السيول التي تجري على
الأرض ، بمعصرات الرياح والسحاب والتفريغات الكهربائية : « الله الذي يرسل
الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق
يخرج من خلاله .. » (٣٠ : ٤٨) .

إن معصرات الرياح هنا تزجي السحاب من أبخرة مياه الأرض : « ألم تر أن
الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله ،
(٢٤ : ٤٣) .

وهذا بخلاف الرياح المعصرات في الإعصار الأول والثاني ، أنها كانت تعصر
أبخرة مياه السماء ، وتفتح أبواب السماء بماء منهمر ..

ولقد كانت المعصرات الأولى أقواها، ولسكي تكافح حرارة الأرض، وتسيل وتصب عليها سيلاً وتجعلها بجرأ بعد أن كانت قفراً :

« لنخرج به حباً ونباتاً . وجنات ألفافاً » .

والد السماء أمطر على رحم أم الأرض ينطف المياه لتخرج منها - بإذن ربها - حبها ونباتها وجناتها ألفافاً ، لإخراج نوعي المأكول والملبوس : مما يؤكل هو ذاته حباً كسائر الحبوب ، ونباتاً كبعض النبات ، وما يؤكل منه كالـ بعض الآخر من النبات وكسائر الجنات .

« وجنات » : أشجار كثيرة تجنُّ بعضها البعض وتجن الأرض ، وتجنُّها من السماء « ألفافاً » : تلف بعضها البعض ، وتلتف بعضها ببعض .

بالفعل تتزاوج وتتأزج أموات وأموات لتلد أحياء وأحياء : نباتية وحيوانية ، أفلا يدل هذا الصنع البارِع المتقن على وحدة الصانع ، وعلى إمكانية الحياة بعد الموت ، سبحان الخلاق العظيم !

« إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتاً^{١٧} يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ
فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً^{١٨} وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً^{١٩} وَسُيِّرَتِ
الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً^{٢٠} » ..

« إن يوم الفصل » :

فصل الخلافات ، والفصل بين المختلفين : « إن ربك هو يفصل بينهم يوم
القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » (٣٢ : ٢٥)

والفصل بين المتصلين يوم الدنيا بالقرابات : « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم » (٦٠ : ٣) .

والفصل عن الآمال والأعمال : « هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون » (٧٧ : ٣٨ : ٣٩) .

وفصل الحق عن الباطل والحق عن المبطل ، وفصل كل مجمل ومجهول ..

« كان ميقاتاً » :

« إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين » (٤٤ : ٤٠) .. كان ميقاتاً : منذ خلق الكون والمكلفون ، ويكون ميقاتاً يوم ينفخ في الصور .

« ميقاتاً » : فالوقت نهاية الزمن المفروض للعمل ، والميقات مكانه وزمانه^(١) عرصات المحشر ميقات ، وزمن المحشر ميقات ، إذ انقطعت الأعمال بانقطاع دار التكليف وزمن التكليف ، بالنسبة للمجموع لا للجميع ، فإن الميت تقوم قيامته الشخصية بانقطاع عمله بالموت ، ولكننا الميقات للمجموع ككل ليس إلا يوم الفصل .

فيوم فصل القضاء - وهو من عظيم الأنباء - بأن في علم الله يوم خلق الأرض والسماء ، حداً مضروباً إليه ينتهي دار التكليف ككل .

يوم الفصل ويوم العزل ، يوم الحساب ولا عمل ، كما الدنيا عمل ولا حساب ، إنه ميقات المكلفين أجمعين ، لا يفادر منهم أحداً ، ولا يفادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

(١) فميقات الحج يجمع بين نهاية المكان والزمان السموح فيها للعمل المحر ، ثم يقيد المحرم آنذاك وعند ذلك بترك الكثير مما كان مسموحاً له قبل الإحرام .
وميقات القيامة كذلك - نهاية المكان والزمان الممكن فيها العمل .

إنه يوم ينقلب فيه نظام الكون الحالي وينفرط عقده إلى فظام أرقى وأبقى !
 من هنا نرى سرداً منسقاً لنبي المعاد بعد نبي التوحيد ، فما أن ثبت التوحيد
 بأدلتة فلا حاجة لاستعراض براهين للمعاد إلا أحياناً ، وإنما العرض هنا لواقع
 المعاد ولما يقع ، وتحصل يوم الفزع الأكبر ، ولكي يتذكروه المتذكرون ويتحذره
 الحاذرون .

« يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا » :

هناك نفختان يوم الفزع الأكبر : نفخة الإمامة ونفخة الإحياء ، نفخة تدمر
 وأخرى تعمّر ، قد تجتمعان كبوم واحد لاتصالهما وأنها في نهاية يوم الدنيا :
 « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى
 عما يشركون . ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من
 شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » (٣٩ : ٦٧ - ٦٨) : نفخة
 الصعقة المميتة ثم نفخة القيام .

وقد تجتمعان كذلك إلا بتقديم الأخرى على الأولى كما هنا : « فتأتون أفواجا »
 فهو في النفخة الثانية : « وفتحت السماء فكانت أبواباً وسيرت الجبال فكانت
 سراباً » وهو في الأولى ، تقديم لما هو أهم وأحرى وهو الغاية القصوى من
 نفخة الإمامة .

وقد تفرّد إحداها بالذكر كالأولى : « فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة .
 وحملت الأرض والجبال فدكنّ دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة .
 وانشقت السماء فهي يومئذ واهية » ثم تتبع بواقع الثانية : « يومئذ تعرضون
 لا تخفى منكم خافية » (٦٩ : ١٣ - ١٨) ، والثانية وهي الأكثر ذكراً من
 الأولى : « ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون » (٣٦ : ٥١)
 « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » (٢٣ : ١٠١) .

وكلمة الجمع عن النفختين وعما يحصل فيها وبعدها لغير النهاية ، أنها : « يوم القيامة » وإن كان يُعتبر - حسب مختلف الأحداث فيه - يعتبر أحياناً أياماً .

فما هي النفخة ؟ وما هو الصور ؟ ومن هم الأفواج ؟

إن الصور ليس هو الصَوَر والأبدان لكي يُعنى بالنفخ فيها نفخ الأرواح في الأبدان ، لأنه لا يستقيم إلا في نفخة الإحياء دون الإماتة ، والتعبير بالأخرى : « ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » يوحي بأنها تشبه الأولى ، فهل هنا من شبه بين الإماتة والإحياء ؟ كذلك ورجوع ضمير المذكر إلى الصور : « ثم نفخ فيه أخرى » رغم أن جمع الصورة مؤنث ، وأن الصَوَر هي المناسبة لجمع الصورة كما في آيات « فأحسن صوركم » (٤٠ : ٦٤ و ٦٤ : ٣) .. هذه شهود صادقة على أن الصور بوق وليس جمع الصورة^(١) .

ثم التعبير عن النفخة الثانية بالنقر في الناقور : « فإذا نقر في الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير » (٧٣ : ٨ - ١٠) وهو قرع الشيء المفضي إلى النقر ، هذا شاهد ثالث على أن الصور غير الصَوَر .

إن الصور بوق لا كالأبواق التي نعرفها ، كما النفخة فيه لا تشبه نفخاتنا ، ونحن لا نتصور هنا أو نفهم من نفخ الصور شيئاً إلا أنها النفخة المميتة ، والنفخة الباعثة المجمععة التي يأتي بها الناس أفواجا ، التي تبعثر القبور وما في القبور فيأتون من كل فج إلى حيث يُحشرون .

وبطبيعة الحال نستوحي من أحوالها وأهوالها الشاملة للكائنات أنها سوف

(١) في اللسان : الصور جمع الصورة ، والصور القرن - أقول وهذا شاهد راجع على ما نروم - إذ لو عني بالصورة جمع الصور لكان بحاجة إلى قرينة معينة لمكان الاشتراك ، وترك الخاص بالاشتراك خلاف الفصيح .

تكون في الأرض والسموات أجمع ، وبصرختها 'تفزع الكائنات وتميتها ،
وبوقعتها تجدها وتحببها ، وإنها الهول البادي في انقلاب الكون المنظور ،
كالهول البادي في الحشر بعد النفخ في الصور ، وهذا هو يوم الفصل المقدر
بحكمة وتدبير .

وبما نعرفه ، على جهلنا بالصور ونفخه : أنه ليس بوقاً ينفخ فيه ، إنما هو
كناية وإيحاء إلى سبب التدمير والتعمير ، أنه صيحة ما أقواها وأفزعها ،
يسمى الكائنات في أعماقها ، سمعاً في كيانها ، استمع سامعوها أم لم يستمعوا ،
كان لها سمع أم لم يكن ، فإنما الصرخة هذه تؤثر هكذا تدمير وتعمير ، إماتة
مرة وإحياء أخرى بزجرتها .. « فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة »
(٢٩ : ١٤ - ١٥) فنفخة الإحياء زجرة واحدة تنقل الموتى إلى أرض القيامة :
الساهرة : « فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون » (٣٧ : ١٩) .

والزجرة هذه والصيحة تلك والدعوة ، على سواء : « ومن آياته أن تقوم
السماء والأرض بأمره ثم إذا دعناكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون »
(٣٠ : ٢٥) .

وبما أن لكل نصيب منها على حد سواء : « ففزع من في السموات ومن في
الأرض » نستوحي أنها بمقرية من الكل ، يجنب الكل ، أو كأن الكائنات هي
الصور كلها 'ينفخ فيها مرة لإزهاق أرواحها ، ومرة أخرى فتنفج لإعادة
أرواحها .

« فتأتون أفواجا » :

أفواج الأخيار وأفواج الأشرار ، كل مع زميله وكل مع رتيبه ، فكما الأخيار
أفواج لأنهم درجات ، كذلك الأشرار أفواج فهم أيضاً درجات : « يومئذ يصدر
الناس أشتاتا ليروا أعمالهم » (٩٩ : ٦) .

والفوج هو الجماعة المارّة بسرعة ، تسرع كل إلى ما أعده لنفسه ، من
نحسه ونفيسه .

يقول الرسول الأقدس ﷺ عن أفواج المجرمين ، تفسيراً لـ « فتأتون
أفواجاً » :

« هم عشرة أصناف من أمّتي أشتاتاً ، قد ميّزهم الله من جماعة المسلمين ،
وبدّل صورهم : فبعضهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ،
وبعضهم منكبين (منكسين) أرجلهم فوق ووجوههم أسفل ، يسحبون عليها ،
وبعضهم عمي يترددون ، وبعضهم صم بكم لا يعقلون ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم
وهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم لعاباً ، يقذّروهم أهل الجمع ،
وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلّبون على جذوع من نار ،
وبعضهم أشدّ تنّناً من الجيف ، وبعضهم يلبسون جباباً سابغات من قطران لازقة
يجلّوهم .. فأما الذين على صورة القردة فالقنات من الناس (النامون) . وأما
الذين على صورة الخنازير فأكلة السحت . وأما المنكسون على رؤوسهم فأكلة
الربا . والعمي من يجرّ في الحميم . والصم البكم ، المعجبون بأعمالهم . والذين
يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقضاة من الذين يخالف أقوالهم أعمالهم . والمقطعة
أيديهم وأرجلهم الذين يؤذون الجيران . والمصلّبون على جذوع من نار فالسعاة
بالناس إلى السلطان . والذين أشدّ تنّناً من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات
واللذات ويمنعون حق الله وحق الفقراء من أموالهم . والذين يلبسون الجباب
فأهل الكبر والخيلاء والفخر » (١) .

(١) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٠٧ ، أخرجه ابن مردويه عن البراء بن عازب أن معاذ بن جبل
قال : يا رسول الله (ص) ! ما قول الله « يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً » ؟ فقال : يا معاذ !
سألت عن أمر عظيم ، ثم أرسل عيفيه ثم قال : .. وفي مجمع البيان مثله إلا يسيراً أشرنا إليه ،
والأفواج المذكورون هنا هم المتخلفون من المسلمين ، فما هو - إذاً - أحوال الكفار ؟

« وفتحت السماء فكانت أبواباً » :

هل للسماء أبواب مغلقة قبل قيامتها فهي تفتح عندها؟ أو أنها بمجموعها تصبح أبواباً؟ عليها معاً مقصودان هنا .

نحن نعرف من أبواب السماء أبواب الماء : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر » (٥٤ : ١١) فهذه أبواب كانت مغلقة ولكنها فتحت على الأرض مرتين ، كما مرتاً ، وأما عند قيامتها فليست لها مياه لكي تفتح بها أبوابها ، وإنما تمور موراً وتنفطر وتنفجر وتحترق ، فأين - إذا - الماء ؟

وأبواب أخرى تفتح للمؤمنين لكي يدخلوا الجنة : « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين » (٧ : ٤٠) .. يحسب لطيف أن النار ليست في السماء ، أو ليست في سماء الجنة .

إذاً فخلق أبواب السماء من هذين النوعين لا يمنع الأسفار الجوية منها بلغت من العمق ، اللهم إلا ما يعلمه الله من أعماق السماء .

ثم الأبواب من السور الثاني ليس فتحتها للمؤمنين فتحاً للسماء ككل ، ففرق بين فتح أبواب السماء وبين فتح السماء حتى تصبح أبواباً .

علّ المعنى من السماء الأبواب أنها إذا انفطرت ، وكواكبها إذا انتثرت ، وشمسها مع قمرها إذا جمعت ، كانت جنود السماء وقتئذ منهزمة ، فلا تمنع موانع المجرات بكواكبها ولا سائر الأجرام الجوية بأثقالها ، لا تمنع من صعود الصاعدين من المؤمنين ، ولا نزول النازلين من الملائكة : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار » (١٤ : ٤٨) .

تدمر السماء وتنفطر وترجع دخاناً كما كانت بلا بروج ولا مدن ولا أبواب ولها فروج وكلها فروج ، وإلى حيث كأنها كلها أبواب ، فقد كانت بلا فروج :

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج »
(٥٠ : ٦) ثم تصبح وكلها فروج : « وإذا السماء فرجت » (٧٧ : ٩) .

« وسيرت الجبال فكانت سراباً » :

وعلى حد تفسير أمير المؤمنين علي عليه السلام : « وتذلل الشُّمُّ الشوامخ والشمُّ
الرواسخ فيصير صلبها سراباً رقيقاً ومعهدها قاعاً سلقاً » .

سيرت عن قواعدها لحد تصبح القواعد سراباً لا ماء فيها ولا كلاء ، وترى
من صقلها أنها ماء يلمع : « حتى إذا جاءه لم يحده شئاً ووجد الله عنده فوفاه
حسابه » (٢٤ : ٣٩) .

إن منشار الزلزال تنشرها عن قواعدها بسرعة لامعة بحيرة لحد السراب .

والترتيب المفهوم من القرآن حول قيامة الجبال : أنها على أثر الرجفة المدمرة
الأرضية تصبح كأطلال الحصى من شدة سيرها ووقعها : « يوم ترجف الأرض
والجبال وكانت الجبال كتيلاً مهيلاً » (٧٣ : ١٤) ثم على أثر اصطدامات
متواصلة في مسيرها تتبدل كالخيز ، ثم كالغبار المنبث : « وبُسَّتِ الجبال فكانت
هباءً منبثاً » (٥٥ : ٥) وكالعن المنفوش : « وتكون الجبال كالعين المنفوش »
(١٠١ : ٤) ثم تنسف فلا يبقى إلا سراب وقاعٌ صفصف : « ويسألونك عن
الجبال قل ينسفها ربي نسفاً فيزدها قاعاً صفصفاً . لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً »
(٢٠ : ١٠٦ - ١٠٧) ؟ أرضاً أملس مستوية دون انخفاض ولا ارتفاع .

فهذه الجبال الراسيات الأوتاد الشاخات تصبح هباءً كالسراب ثم ماذا
تكون حال الإنسان الضعيف الضعيف - سبحانه الغفور الرحيم !

* * *

.. إِنْ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ^{٢١} لِلطَّاغِينَ مَأْبَأً ^{٢٢} لَا بُشِينَ
فِيهَا أَنْحَابًا ^{٢٣} لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ^{٢٤} إِلَّا حِمِيمًا
وَعَسَاقًا ^{٢٥} جَزَاءً وَفَاقًا ^{٢٦} إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ^{٢٧}
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَابًا ^{٢٨} وَكُلُّ شَيْءٍ أَنْحَصَيْنَاهُ كِتَابًا ^{٢٩}
فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ^{٣٠} ..

« إِنْ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا » :

كانت قبل القيامة منذ خلقت ، كانت مرصاداً : والرصد هو الاستعداد
للتقرب ، فالمرصاد آلة ووسيلة مستعدة لتقرب أهلها الذين يتهيئون لها بما قدمت
أنفسهم ، ثم منهم وقود لها تنقذ بهم ، كأصول الكفر والضلالة : « فاتقوا النار
التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (٢ : ٢٤) ثم أتباعهم الماشين
على هوامش الضلالة ، هم يستعدون بهم في مرصدهم ، و : « إِنْ رَبِّكَ لَبَلْمرصاد »
(٨٩ : ١٤) .

فكما أنهم - طول حياتهم - مرصاد للطغيان ، كذلك جهنم مرصاد لهم :
تنتظرهم وتترقبهم وينتهون إليها فتستقبلهم .

« لِلطَّاغِينَ مَأْبَأً » :

مرجعاً يرجعون إليه ، حيث كانوا يوم الدنيا في جميع الأفكار والعقائد
والأعمال والآمال دون أن تظهر لهم نارها ، ثم في رحلتهم إلى عمق الحياة يرجعون
إلى ما كانوا فيه ، ظاهرة نارها : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك
غطاءك فبصرك اليوم حديد » (٥٠ : ٢٢) .

ليست النار يوم القرار شيئاً جديداً، إنما هي النار التي أوقدوها بما عملوا من قبل « واليوم يُعززون عذاب الهون بما كانوا يعملون » .

الخالدون في النار والجنة :

« لا بشين فيها أحقاباً » :

.. آية فريدة في نوعها تقرر أمد الخلود المؤبد للذين يخلدهم الله في النار أبدين، ومنهم المذكورون هنا : « إنهم كانوا لا يرجون حساباً . وكذبوا بآياتنا كذاباً » طاغون طغوا على الله وطفوا على أنبياء الله ، وطفوا على سائر عباد الله ، عاشوا الطغيان حياتهم دون إبقاء وإن كانوا هم أيضاً درجات . وليس فوق الأبد من عذاب النار عذاب ، وهو للذين كفروا وظلموا وصدوا عن سبيل الله : « إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً . إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً » (٤ : ١٦٧ - ١٦٩) « إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً . خالدين فيها أبداً لا يحدون ولياً ولا نصيراً » (٤٣ : ٦٤ - ٦٥) ولئن عصي الله ورسوله عصيانياً عقدياً وعملياً : « قل إنما أَدْعُو رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا . قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً . قل إني لن ينجيني من الله أحد . ولن أجد من دونه ملتحداً . إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يَعْصِ الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً » (٧٢ : ٢٠ - ٢٣) .

هذه جماع الآيات في أمد الخلود ، من عامة في الكافرين ، ومن خاصة في الظالمين منهم والمكذابين بآيات الله ، الصادقين عن سبيل الله ، وتجمعهم لفظة : « الطاغين » وهم الناكرون لوجود الله أو المشركون به - المنكرون للقيامة المكذبون به ، والصادون الظالمون .. أولئك هم المؤبدون في النار : « لا بشين فيها أحقاباً » على سواء في طول أمد العذاب وهو الأبد ، وهم درجات في كيفية

العذاب : « جزاء وفاقاً » يوافق قدر الكفر والجحود ، كما المؤمنون في الجنة درجات « هم درجات عند الله » (١٦٣ : ٣) .

فلنعرف إذاً : ما هي الأحقاب وما هو الجزاء الوفاق ؟

الأحقاب : في غريب القرآن : « قيل هو جمع الحُقب أي الدهر ، قيل : والحِقبَةُ ثمانون عاماً وجمعها حَقَب ، والصحيح أن الحِقبَة مدة من الزمان مبهمه » .

أقول : وقد يؤيد : الدهر والزمن المبهم في الحقب حَقَب موسى عليه السلام : « لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حَقَباً » (١٨ : ٦٠) فلا يناسب إلا زمناً مبهماً ، فلو كان على علم بزمن البلوغ ما كان يتردد بين الحقب ودونه من بلوغ المجمع ، والحَقَب والحُقب بمعنى ، وقد تؤيده مجموعة أحاديث مروية عن الرسول ﷺ وأهل بيته الكرام (ع) .

فقد تذكر له معاني أخرى تحده بحسب خاص كسنة أو سبعين أو أربعين أو بضع وثمانين وقد روي الأخيران عن النبي الأقدس ﷺ (١) .

(١) الدر المنثور (٦ : ٢٠٨) أخرج البراز وابن مردويه والديلمي عن ابن عمر عن النبي (ص) قال : والله لا يخرج من النار أحد حتى يمكث فيها أحقاباً ، والحقب بضع وثمانون سنة كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً ، واليوم ألف سنة مما تعدون . وأخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله (ص) : الحقب أربعون سنة .

وقد تناسب الروايتان دهرًا من الزمن ، فلكل كافر أحقاب من الخلود حسب كفره ، جزاء وفاقاً ، أربعون عاماً أو ثمانون أو .. وكما الأحقاب قد يفسر بثلاثة فيما روي عن الصادق (ع) قال : الأحقاب ثمانية أحقاب والحقب ثمانون سنة والسنة ثلاثمائة وستون يوماً واليوم كالف سنة مما تعدون « (نور الثقلين ٥ : ٤٩٥ ح ٢٤) .

وفي نور الثقلين (٥ : ٤٩٤ ح ٢٣) القمى بإسناد إلى حمزان بن أعين قال : سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله « لا يشين فيها أحقاباً » ، قال : هذه في الذين لا يخرجون من النار ، وفيه عن الباقر (ع) مثله .

ومها يكن من شيء فالذي لا يريه شك أن الحقب زمن محدود، عرفناه أم جهلناه ، فجمعه أيضاً محدود لا تتصور فيه اللانهاية الزمنية، التي تدعي للكوث في النار، إضافة إلى سائر المشاكل الدلالية والعقلية في المكوث اللانهائي الحقيقي في النار، وإلى أن هذه اللانهاية في العذاب ليست جزءاً وافاقاً، وكيف الوفاق بين العصيان المحدود والجزاء اللامحدود ؟

وهنا في معنى خلود النار وواقعه أقوال عدة بين علماء الإسلام وسوام ، لا يوافق النقل والعقل منها إلا فناء الأبدن في النار مع النار ، ثم لا نار ولا أهل نار (١) .

= والخروج من النار بعد مكوث الأحقاب يعني هنا خروج النار عن كيانها وفناءها بفناء أهلها، فهو خروج عن الوجود ، وهذا هو معنى « لا يخرجون من النار » ، أي : خروجاً مع بقاها .

(١) وهي ثانية : ١) « كل من دخلها نخل فيها أبد الآباد بإذن الله » ذهب إليه الخوارج والمعتزلة وطائفة من الشيعة الإمامية .

٢) « أهلها يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم ثم تبقى طبيعة نارية لهم يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم النارية » ابن العربي في فصوص الحكم .

٣) « أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود ثم يخرجون منها ويخلفهم قوم آخرون » (عن اليهود) كما ادعوه وأجابهم القرآن « وقالوا لن نمس النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله وعده أم تقولون على الله ما لا تعلمون » (٢ : ٨٠) .

٤) « يخرجون منها وتبقى ناراً على حالها ليس فيها أحد يعذب » حكاه شيخ الإسلام .

٥) « تنفى النار بنفسها لأنها حادثة بعد أن لم تكن وما ثبت حدوثه استحالة بقائه وأبديته » جهم بن صفوان وأتباعه دون فرق بين الجنة والنار .

٦) « تنفى حياتهم وحركاتهم وبصيرتهم جساداً لا يتحركون ولا يحسرون بألم » أبو الهزبل العلاف إمام المعتزلة طرداً لامتناع حوادث لانهاية لها .

٧) « يفتنيها ربها تبارك وتعالى ، فإنه جعل لها أمداً » ابن مسعود وأبو سعيد وعمرو . . وهو القول المرضي لدينا عن تفصيل تذكره .

٨) « يخرجون منها وينعمون بعد الخروج » ، عدة من الفلاسفة مثل الصدر والكاشاني وغيرهما .

وفيما روي عن الرسول الأقدس ﷺ وعن حفيديه الصادق والباقر عليهما السلام تلميح وتصريح أن أبد النار محدود وإن طال الزمن .

وما يروى أن آية الأحقاب في الذين يخرجون من النار يتنافى وكونهم من المكذبين المنكرين للحساب الذين تصرح الآيات بأبديتهم في النار ، فهي إذاً من المجعولات مع كونها معارضة برواية أخرى عن نفس الراوي^(١) .

الماكثون في النار .. المخلدون :

أدلة النقل والعقل والعدل تتناصر في استنكار اللانهاية الفلسفية في العذاب منها كانت درجة الكفر والطغيان .

فالنقل - قرآنياً وفي السنة - لا يساعد الخلود اللانهائي في النار ، والمروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه أجاب في السؤال عن الخلود في الجنة والنار : إنما خلّد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا لو خلّدوا فيها أن يعصوا الله أبداً ما بقوا فالنيات تخلّد هؤلاء وهؤلاء ، ثم تلا قوله تعالى : « قل كل يعمل على شاكلته » قال : على نيته^(٢) .

هذا الحديث مضروب عرض الحائط ، على وحدته ومعارضته القرآن : أن النية السوء لا تحقق الجزاء السوء ، فلا عقاب إلا على الكفر والعمل السوء : « من يعمل سوءً يُجزّ به » (٤ : ١٢٣) « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون »

(١) نور الثقلين (٥ : ٤٩٥ - ٢٦) روى العياشي بإسناده عن حماد قال : سألت أبا جعفر (ع) عن هذه الآية « لاثنين فيها أحقاباً » فقال : هذه في الذين يخرجون من النار ، وروى الأحول مثله ويعارضه ما رواه حماد نفسه قال : سألت أبا عبد الله (ع) عن هذه الآية قال : هذه في الذين لا يخرجون من النار .
أقول : ولعل النقل الأول خطأ بزيادة « لا » .

(٢) بحار الأنوار ج ٨ ص ٢٩٢ ج ٣٤ عن علي بن إبراهيم القمي .

(٢٧ : ٩٠) « إنما تجزون ما كنتم تعملون » (٥٢ : ١٦) .. ولأن العقوبة على
النية السوء ظلم : « فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون »
(٣٦ : ٥٤) ثم هو إضافة إلى ذلك ليس جزاء وفاقاً .

وأما اللانهاية في الثواب فهي رحمة من الله وفضل فوق العدل ، والواجب
في العقاب هو العدل ، وفضله يتطلب إما الغفران أو تقليل العقاب ، عكس
الثواب .

ثم نظرة عميقة في آيات الخلود - أبدياً أم سواه - توضح لنا أنها لا تعني
اللانهاية في العذاب ، حيث اللغة والقرآن يتوافقان في أن الخلود محدود !

فاللغة تقول : « الخلود هو تبري الشيء من اعتراض الفساد وبقائه على الحالة
التي هو عليها ، وكلما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود كقولهم
للأثافي خوالد وذلك لطول مكثها لا لدوام بقاءها ثم استعير للمبقي دائماً » (١) .

والقرآن يصدق القسم الأول من معناه : « إن الذين كفروا بآياتنا سوف
نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله
كان عزيزاً حكيماً » (٤ : ٥٦)

فلا يعني الخلود إلا طول المكوث ، أو أبد المكوث إذا كان أبدياً ، ووصف
الخلود بالأبد أحياناً ، وتركه أخرى ، يشهد أنه ليس المكوث الأبد ، وكما أن
الأبد لا يعني اللانهاية الفلسفية ، وإنما البقاء طوال الحياة كما الآيات تشهد :
« ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره » (٩ : ٨٤) « ولن
يتعنوه أبدأ بما قدمت أيديهم » (٢ : ٩٥) « إنا لن ندخلها أبدأ ما داموا فيها »

(١) غريب القرآن للراغب، وفي لسان العرب أن الخلود هو دوام البقاء في دار لا يخرج
منها ، والابطاء عن الشيء كما يقال : خلد : أبطأ عنه الشيب ، ويقال للرجل إذا بقي سواد رأسه
ولحيته على كبره : إنه خلد ، والذي يسقط أسنانه من الهرم : خلد ، والخوالد الجبال والخصور
لطول بقاءها بعد دروس الاطلال ، وأخلد الرجل بصاحبه إذا لزمه .

(٥ : ٢٤) « فقل لن تخرجوا معي أبداً (٩ : ٨٣) » لا تقم فيه أبداً ،
(٩ : ١٠٨) فلا يعنى من الأبد هنا إلا مدى الحياة ، هذه حال الأبد
فكيف الخلود ؟

فهل يعقل أن الكافر - أي كافر - يزعم بقاءه على الأرض حياً لغير النهاية ،
أو طوال عمر الأرض ؟ : « ولكنه أخذ إلى الأرض واتبع هواه وكان أمره
فرطاً » (٧ : ١٧٦) « الذي جمع مالا وعدده . يحسب أن ماله أخذه »
(٣ : ١٠٤) .

فهل نكذب القرآن هنا وهناك لكي نصدق زعم اللانهاية الفلسفية في الخلود ،
دون أي سناد ، إلا شهرة سوقية متعالة عن أي برهان ؟

فمن الخالدين في النار من يخرج منها بعد زمن طويل أو أطول حسب ما
يستحقه من العذاب^(١) ، ومنهم من يحبس فيه ويعذب مدى الحياة المعبر عنه
بالخلود الأبد : « لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها »
(٣٥ : ٣٦) « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها » (٢٢ : ٣١)
« ولا يجدون عنها محيصاً » (٤ : ١٢١) . « نادوا يا مالك ليقض علينا ربك
قال إنكم ماكثون » (٤٣ : ٧٧) .

فهؤلاء هم المؤبدون بدوام النار ثم يقضى عليهم مع النار ، فلا تبقى نار
ولا أهل نار .

(١) كما في الآيات : ٥٢:١٠ و ١٤:٣٢ و ٢٨:٤١ و ٩٣:٤ و ٦٣:٩ و ١٧:٥٩ و
٣٩:٢ و ٨١ و ٢١٧ و ٢٥٧ و ١١٦:٣ و ٨٠:٥ و ٣٦:٧ و ١٧:٩ و ٢٧:١٠ و
٥:١٣ و ٩٩:٢١ و ١٠٣:٢٣ و ٧٤:٤٣ و ١٧:٥٨ و ١٦٢:٢ و ٨٨:٣ و ٦٨:٩ و
٢٩:١٦ و ١٠:٢٠ و ١٠:٣٩ و ٧٢:٤٠ و ٧٦:٤٠ و ١٠:٦٤ و ٦:٩٦ .

وهذه هي موارد الخلود غير المؤبد ، إما لاختصاصها بغير الآبدن أو اعتباراً بجمعهم مع
الآبدن ثم لا تجد أبد الخلود في النار إلا في ١٦٩:٤ و ٦٥:٢٣ و ٢٣:٧٢ و ١٦٧:٢ .

ولاختلاف أمد الخلود ترى فرقاً من الكفار ينص على خلودهم بالأبد ،
كالمشركين المكذابين الصادقين عن سبيل الله ، وفرقاً أخرى بالخلود دون الأبد ،
كفساق المسلمين وأهل الكتاب غير المشركين : « إن الذين كفروا من أهل
الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية . إن الذين آمنوا
وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية . جزاءهم عند ربهم جنات تجري من
تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً .. » (٩٨ : ٦ - ٧) .

هنا .. رغم تأييد الخلود للمؤمنين ، لا يؤيده لأهل الكتاب والمشركين ،
رعاية للأولين إذ لا يخلد أهل الكتاب أجمعين ، ثم آيات أخرى تخص الخلود الأبد
بالمشركين ومن نحى منحاهم .

ولحة أخرى لحد الخلود توحىها الآيات التي تحده ما دامت السماوات والأرض
وبمشيئة الله تعالى : « قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم
عليم » (١٢٨ : ٦) « يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد . فأما
الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات
والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد » (١١ : ١٠٥ - ١٠٧) .
فإنها تقيّد وتحّد الخلود بدوام السماوات والأرض لمرة ، ثم بأقل منه حسب
مشيئة الله تعالى - أخرى .

وبعد هذه الدلالات القرآنية واللغوية لا نجد ما يعارضها دلالة على المكوث
اللانهاية فلسفياً في النار ، لا كتاباً ولا سنة ولا عقلياً ، بل العقل حجة قاطعة
على تزييف أسطورة اللانهاية في العذاب ، فهل تجد عاقلاً مهما بلغ من الظلم
والبربرية والوحشية والخشونة أن يحكم بعذاب اللانهاية على من عصاه طوال
عمره ؟ كلا ! فغاية الأمر تعذيبه لزمان ثم إعدامه بالمرة ، فماذا تظن إذا برّب
العالمين الذي سبقته رحمته غضبه ، وليس عذابه انتقاماً ، وإنما جزاءً وفقاً
ناتجاً عن ذات العمل ، إلى حيث يعتبر الجزاء نفس العمل : « فاليوم لا تظلم
نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » (٣٦ : ٥٤) .

ولأن العمل - أي عمل - محدود بطبيعة الحال ، زمنياً وفي كيانه وأثره ،
فليكن الجزء الذي لا يزيد عن العمل - بل هو نفس العمل بملكوته وذاته -
ليكن ذلك الجزء أيضاً محدوداً ومماثلاً له في السوء : « من عمل سيئة فلا يحزى
إلا مثلها » (٤٠ : ٤٠) .

فهل يا ترى أن اللانهاية في عذاب الخالدين أبدياً - أنها الجزء المثل الوفاق ،
وهل إنها هي العمل بذاته ؟ فكيف بالإمكان عقلياً جعل المحدود غير محدود ،
وكيف بالإمكان في عدل الله تعالى أن يزيد على العمل السوء المحدود زيادة
لا محدودة ولو أمكن عقلياً ؟ وكيف نسمح لأنفسنا كموحدين أن نظن هكذا
ظلم وقساوة رب العالمين ؟ إن هذا إلا افتراء على الله أن يخالف العقل والعدل
والرحمة التي كتبها على نفسه ، وكتابه الدال على حدود العذاب .

إننا نصدق إمكانية اختلاف السيئة وعذابها في الزمن ، فلا اعتبار بالزمن ،
فكم من عصيان في زمن قليل له من الأثر السوء ما لا يساويه إلا آلاف
أضعافه من الزمن ، وكم من عصيان في زمن طويل يقل عن الأول بكثير ،
فالحد الزمني ليس هو المقياس في حد العذاب ، وإنما الأثر هي المدار
في الجزء .

نحن نصدق هكذا اختلاف ولكننا نحيل الاختلاف بالنهاية في العصيان
واللانهاية في العذاب ، إحالة بسناد العدل والعقل والنقل .

ثم لنفرض إمكانية اللانهاية في العذاب وأنها عدل توافق العقل ، فأين رحمة
الله تعالى التي سبقت غضبه ؟ « ولذلك (الرحمة) خلقهم » !

من موانع المكوث اللانهاية في النار :

أن الرحمة هي المقصودة في الخلق مبدئياً دون الغضب ، ومن سبق الرحمة
وأصالتها لانهايتها في الجنة للمؤمنين ، فليس الغضب المسقوق - العدل - هو
اللانهاية ولو كان فلتقتض الرحمة للغضب أمداً ، فما كان بالرحمة وللرحمة فهو

مقصود لذاته قصد الغايات ، وما كان من موجب الغضب فهو مقصود لغيره
 قصد الوسائل ، فالعذاب مسبوق مغلوب ، والرحمة سابقة غالبية ورحمته وسعت
 كل شيء دون غضبه ، فلتشمل أهل النار ، رحمة مكتوبة على الله للصالحين من
 عباده ، وأخرى راجحة للطالحين منهم : « ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها
 للذين آمنوا وكانوا يتقون » فليعذب الآخرون دون استحقاقهم .

ثم النار إنما خلقت تخويفاً للمؤمنين وتطهيراً للخاطئين أو تدميراً وإفناء لهم
 أخيراً ، فهي - إذا - طهرة من الخبث الذي اكتسبته النفس في عالم التكليف ،
 فإن تطهرت منه هنا بالتوبة النصوح والحسنات الماحية والمصائب المكفّرة ،
 لم تحتاج إلى تطهير هناك في عالم الحساب ، وقيل لها في جملة الطيبين : « سلام
 عليكم طبتم فادخلوها خالدين » ، وإن لم تتطهر هنا ووافقت البرزخ بدركها
 أدخلت نار البرزخ طهرة لها ، وإن بقيت دَنَسَةٌ لم تتحلل عن كامل خبثها دخلت
 نار الآخرة وعُذِّبَتْ لحد الطهارة ، فإن الدرن الناتج عن العصيان له حد أياً
 كان ، وفيما إذا أصبحت النفس درناً لا يزول فمقتضى العدل أو الفضل
 والرحمة ، إفناءها بنارها ، إذ ليست العقوبة إلا للتطهير ولم يحصل ، أو للفرق
 بين المسلمين والمجرمين وقد حصل : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف
 تحكمون » (٦٨ : ٣٥) « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون »
 (٣٢ : ١٨) « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين
 كفروا فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات
 كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » (٣٨ : ٢٧ - ٢٨) .

ويكفي فرقاً بين الفريقين عقوبة الفجار لحد ما ، جزاءً وفاقاً ، حيث
 يُحرمون الرحمة زمن العقوبة ، ثم ليست مواصلة العذاب لتفسير النهاية ضرورة
 أو رجحاناً تفتج الفرق بين الفريقين - اللهم إلا عبثاً وظلماً - تعالى الله عنها
 علواً كبيراً .

٣ - إن الله تعالى لم يك يعامل الخلق إلا بفضله دون عدله ، فالجنة الخالدة اللانهائية للصالحين ليست إلا من فضله ، إذ هم لم يعملوا الصالحات إلا لصالحهم دون استحقاق للجزاء إلا فضلاً وإحساناً من الله في أصل الجنة وخلودها اللانهائي .

ونرى أنه يجازي بالحسنة عشرة وأعشاراً ويزيد ، ولا يجازي على السيئة إلا مثلها ويعفو عن كثير ، بتوبة أو شفاعة أو تكفير : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً » (٤ : ٣١) « إن الحسنات يذهبن السيئات » (١١ : ١١٤) « أولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » (٢٥ : ٧٠) .

ولو أن الله عامل خلقه بعدله دون فضله لم ينج أحدٌ من عذابه أو لم يستحقوا رحمته .

٤ - إن العفو أحب إليه من الانتقام - لو كان العذاب انتقاماً - وكما أمرنا بالعفو عن ظلمنا : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » (٢ : ٢٣٧) .

إذا فكيف لا يخفف عن أهل النار عذابهم اللانهائي ، لو كان هو الحق المعدل ؟ !

هذه مما يبرهن لنا فناء النار بأهلها ، وخروج غير الآبدن قبل استحقاقهم ، وكما يغفر المذنبين فضلاً منه ورحمة .

« لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً . إلا حميماً وغساقاً . جزاءاً وفاقاً : »

هناك حرمان من ذوق البرد والشراب إلا حميماً وغساقاً .. بدل البرد حميم ، وبدل الشراب غساق .

فما هو البرد وما هو الشراب ؟

البرد كل ما يبرد الجسم - ظاهره وباطنه - من هواء بارد ، وريح ناعمة ، وظل ظليل ، ومن ماء يغمره أو يغسل به بدنه أو يشربه .. لا يذوقونه ذوقاً ، في أيّ من هذه ، فضلاً عن أن يستفيدوا منه بشرب أم سواه .

برد أيعم الشراب وسواه - « ولا شراباً » يبرد الباطن فيريح الظاهر ، شراباً ينوب البرد في التبريد - أيّ تبريد - لا يذوقونه فضلاً عن شربه .

ليس للطاغين برد ولا شراب إلا حيم وغساق : الماء الساخن الذي يشوي الوجوه وأحلقوق والبطون : « بشس الشراب وساءت مرتفقاً » .. فهذا هو بردهم ، والغساق الذي يفسق من أجساد المحروقين ويسيل ، ويفسق على الإنسان حياته كفسق الليل ، وهذا هو شرابهم : « وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل بشس الشراب وساءت مرتفقاً » (١٨ : ٢٩) .

جزاءاً وفاقاً : إن جهنم المرصاد المآب ، وليتها الأحقاب ، وعدم ذوق البرد ولا الشراب ، كل ذلك جزاء وفاق ، لا يزيد عما قدموا لأنفسهم أو قد ينقص .

« إنهم كانوا لا يرجون حساباً . وكذبوا بآياتنا كذاباً .
وكل شيء أحصيناه كتاباً . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً » .

إن مهمة اعتناق عقيدة الحياة بعد الموت ، تنحو نحو الحساب ، وإذا لا تصديق
بالحساب الحق فلا يجدي الاعتراف بالحياة الأخرى نفعا .

لذلك تركز الآية على « إنهم كانوا لا يرجون حساباً » ، وإن كانوا يرجون حياة
أو لا يرجون ، فإن رجاء الحساب هو أقل ما يدفع الإنسان إلى الصالحات رجاء
الثواب ، ويمنعه عن محارم الله رجاء العقاب ^(١) ، ثم فوجه الإيقان بالحساب ،
والموقنون أيضاً درجات .

هؤلاء الطاغون لم يكن الحساب عندهم حق ولأدنى ما يجب ، أن يرجوا
حساب الله الذي وعده وأكّده عليه .. كانوا يمشون نكران الحساب ، فأخذوا
حريتهم في حيونة الحياة كأنهم يعلمون ألا حساب ! ..

« كانوا لا يرجون » : لا يأملون ولا يخافون حساباً ، أي حساب ، قليلاً ولا
كثيراً ، فقد تركوا مسأله أمل الثواب واقتروا مسأله خوف العقاب ،
ولو أنهم أملوا الثواب لأقبلوا إلى الطاعات ، ولو أنهم خافوا العقاب لأدبروا عن
موجبات العقاب ، ولكنهم كانوا لا يرجون حساباً أي حساب : رجاء الثواب
أو خوف العقاب ، ثم وكذبوا بآيات الله الكذاب .

« وكذبوا بآياتنا كذاباً » : كذبوا بالآيات الآفاقية والأنفسية ، التكوينية
والتشريعية ، إذ كذبوا بآيات الله الواقعية والعقلية والفطرية ، التي تدل على
وجوده وتوحيده ، وكذبوا بآيات النبوات : معجزات الأنبياء ، فكذبوا الرسل
وكذبوا بآيات الوحي في كتابات السماء ، ومن ضمنها كذبوا بآيات الحساب .

(١) الرجاء من اللغات المتضادة جاءت بمعنى الأمل والخوف وقد نعتيها معاً كما هنا .

كذبوا بهذه الآيات الإلهية رغم أنها آيات : علامات قاطعة تدل على أنها إلهية ، لمن أبصر بها وتذرع لمعرفة ما وراها ومعبها من حقائق إلهية .

كذبوا بها كذاباً : تكذيباً عجبياً في أصله وفي كيفيته ، في أصله أن كذبوا ما أحاطت به بينات الصدق ، وفي كيفيته أن كرسوا كافة طاقاتهم وإمكاناتهم في تكذيبها ، فأصبح تكذيبهم عجباً على عجب : « كذاباً ! فجرس اللفظ يوحي بشدة التكذيب كما المعنى يسانده في جرسه .. » وكذبوا بآياتنا كذاباً !

كتب الأعمال الضوئية والصوتية :

« وكل شيء أحصيناه كتاباً » :

الإحصاء هو الضبط أياً كان ، والكتاب هو المكتوب الثابت منه واقعياً ، فكل شيء : من أقوال وأعمال وأفكار ، أحصاه الله تعالى إحصائاً كتابياً ، لثلاث تذهب هدرأ ، ولكي تبقى حجة تنطق على العاملين : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (١٧ : ١٥ - ١٦) فهذا كتاب في عمق الذات . يكتب الله تعالى على جوائح المكلفين وعلى جوارحهم صور الأعمال وأصوات الأقوال - الصادرة عنها - ويأله من كتاب لا سبيل إلى تكرانه ، لأن الله هو الذي استنسخ كل شيء في عنق الإنسان : « وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » (٤٥ : ٢٨ - ٢٩) فهل يا ترى إن الاستنساخ الإلهي يكون عن أسماء الأعمال ؟ فليس هذا استنساخاً ! إنما هو عن أصول الأعمال بصورها وأقوالها وأحوالها .. استنساخاً في كتاب الذات وفي الأرض وجوّها ، وفيها لا نعلمه والله يعلمه .

هذه الأرض التي نعيش عليها هي كتاب آخر لأعمالنا وسوف « تحدث » أخبارها بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم .

كتاب وكتب إلهية تضبط كل شيء دون مغادرة ولا مثقال ذرة : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » (١٨ : ٤٨) « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله بصير بالعباد » (٣ : ٣٠) .

وكل شيء أحصيناه كتاباً : إحصائاً كتابياً في إمام مبين : « وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » (٣٦ : ١٢) وعلمته كتب الأعمال أو تشملها وما في اللوح المحفوظ .. كتب الأعمال : النفسية والأرضية ، وشهود الأعمال ملائكية ورسالية ورسولية .. شهود وشهود تشهد بالحق دون إمكانية النكران بحقهم ، فإنهم يشهدون علينا معنا : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ، (٢٤ : ٢٥ - ٢٦) .

« فذوقوا فلن تزيدكم إلا عذاباً » : ذوقوا أعمالكم لا أقل ولا أكثر ، فنفوس الأعمال بظهورها في حقائقها ، هي الجزاء لا سواها : « وهل تجزون إلا ما كنتم تعملون » (٢٧ : ٩٠) فلن تزيدكم باستدعاء الغفران إلا عذاباً تستحقونه ، جزاء وفاقاً ، إذ إنكم ما كنتم تزدادون - على ضوء الآيات البيّنات - إلا كذاباً « وتجمعلون رزقكم إنكم تكذبون » .

فأصل العذاب بأصل الطفيان ، وازدياده بازدياده ، كل على حسبه ولا ظلم اليوم .

فهؤلاء هم الطاغون ، ثم ما هي حال المتقين ؟ « إن للمتقين مفازاً .. » .

* * *

.. إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ٣١ حُدَايِقَ وَأَعْنَاباً ٣٢ وَكَوَاعِبَ
 أَتْرَاباً ٣٣ وَكَأْساً دِهَاقاً ٣٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَاباً ٣٥
 جِزَاءَ مَنْ رَبَّكَ عَطَاءَ حِسَاباً ٣٦ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ٣٧ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ
 وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ
 صَوَاباً ٣٨ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآباً ٣٩
 إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ
 وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً ٤٠ .

لما كانت جهنم مرصداً ومآباً للطاغين ، دون انفلات منها ولا جواز عنها ،
 فإن المتقين ، الذين اتقوا وتحذروا عن الجحيم يوم الدنيا ، إن لهم هناك مَفَازاً :
 ظفراً بالخير على سلامة في كيانه من الشر : خيراً على خير يوم الآخرة ، كما كانوا
 خيراً على خير يوم الدنيا .. إنهم ينتهون إلى مَفَازة ومنجاة عن الجحيم إلى الجنة :
 « جزاء من ربك عطاء حساباً » : « من يُصِرَّف عنه يومئذ فقد رَحِمَهُ وَذَلِكَ
 الْفَوْزُ الْمُبِينُ » (٦ : ١٦) « وَنُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ »
 (٣٩ : ٦١) « وَيَكْفُر عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً »
 (٤٨ : ٥) « وَمَنْ تَقِيَ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »
 (٥٠ : ٩) ، فالمَفَازُ كيانه ازدواجية الخير : بُعْداً عن النار ودخولاً
 في الجنة .

مفازاً روحانياً إلى جنة الرضوان : « ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » (٩ : ١١١) .. ومفازاً جسدانياً إلى جنة النعيم : « حدائق وأعناباً . وكواعب أتراباً . وكأساً دهاقاً » .. فائزين كلتا الجنتين : « ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأي آلاء ربكما تكذبان » (٥٥ : ٤٦ - ٤٧) .

إن للمتقين مفازاً ، يتمثل - جسدانياً - في أفضل المناظر : حدائق وأعناباً - وجنسياً - في أجمل البنات : وكواعب أتراباً .. وجواً بعيداً عن كل أذى : لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً .. حياة مصونة من اللغو ومن التكذيب الذي يصاحبه الجدل وهي حالة من الرفعة والمتعة تليق بدار الخلود .

حدائق ذات بهجة .. 'غلباً' ، لا كغلب الدنيا وبهجتها فإنها مثال ضئيل عما في الجنة ، والحديقة قطعة من الأرض ذات ماء وكلاء ، محصورة بحدران وأبواب تحديق بها من أطرافها ، إيحاء إلى صلاحها للسكن دون فوضى ولا تدخل لغير صاحبها فيها ، مستورة عن الناظرين إليها .

حدائق تضم من كافة الأشجار والفواكه والوردان ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين ، ومن أعما نفعاً ، وأتمها فائدة ، وأقواها غذاء ، وألذها طعماً هي الأعناب .

مركز تحقيق كاميون علوم إسلامي

« وأعناباً » :

تستحق التخصيص بالذكر أكثر من كل الفواكه لجمعها فوائد وزيادة .. تذكر في عشر مواضع دون سواها من الفواكه (١) .

فهي شراب وإدام وطعام ودواء وفاكهة ، تأتي إلى السوق قبل الفواكه وتخرج بعدها ، ويابسها تحفظ خواص رطبها ، فهي مثال تام عن عالم الفواكه .

(١) كما في الآيات التالية : ٢٦٦:٢ ، ٩٩:٦ ، ٤:١٣ ، ١١:١٦ ، ٦٧ ، ٣٢:١٨ ، ١٩:٢٣ ، ٣٤:٣٦ ، ٣٢:٧٨ ، ٩١:١٧ ، ٢٨:٨٠ .

« وكواعب أتراباً » :

إن دور الجنس يأتي بعد مهمة المسكن والغذاء وإن كان قبلها في الاندفاع ، إلا أنه ناقص ما لم تتم معداقه ، وقد يحرف بالإنسان إلى شفا جرف الهلكات النفسية والاقتصادية إذا لم تكمل الظروف .

والكواعب جمع كاعب : هن الفتيات النواهد ^(١) : المستدارة ثديهن مع ارتفاع يسير ، والمتلحمة أفخاذهن وصدورهن ووجوههن ، فلهن الكعاب المطلوبة في النساء في مختلف المواضع من أبدانهن .

والأتراب هي المماثلات المتوافيات السن والجمال مع لداتهن « وعندهم قاصرات الطرف أتراب » (٢٨ : ٥٢) « عرباً أتراباً » (٥٦ : ٣٧) وعلة مع أزواجهن أيضاً : أتراباً مع اللدات وأتراباً مع الأزواج . في الكفاءة لا في العمر ^(٢) .

إن الثدي الليمونجية ومماثلة اللدات جعلت هذه الفتيات كأجل ما يتصور ، فكعب الثدي بداية لسن البلوغ ، وهي أفضل سني التمتع ، وترب العمر والجمال يقضي على التفاضل والتفاخر بينهما ، وعلى التسابق والتحاسد في تخيرهن ، فقد زودت وزينت الجنة لأهلها بما لا يأتي بحرمان ولا نقصان أو عقد نفسية ، فهي دار التواسع لا التضائق ، رغم الحياة الدنيا التي هي دنيا مهما بلغت من السعة والجمال .

(١) كما عن الامام الباقر (ع) نور الثقلين ٤٩٥:٥ ح ٢٨ .

(٢) وقد يستفاد من قوله تعالى : « إنا أنشأناهن انشاء . فجعلناهن أبكاراً . عرباً أتراباً » أنه مماثلتهن مع لداتهن ، أو ومماثلتهن مع الأزواج في الكفاءة ، وأما في العمر فالأمر فيه بالعكس كلما كانت الزوجة أصغر كانت الذ .

« وكأساً دهاقاً » :

هي المثلثة المترعة المتتابعة^(١) تقدم إلى المتقين بأيدي الكواعب الأتراب .

« لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً » :

.. لا بصورة عامة إذ الجو جو الجد والصدق .. ولا عن الكأس الدهاق بما فيها الخمر ، فما هي إلا : « بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » (٣٧ : ٤٦ - ٤٧) : لذة لأذواقهم ، ولذة لعقولهم وأرواحهم ، تزيدهم عقلاً إذ ليس فيها غول « فساد » ، ولا هم عنها ينزفون « لا يسكرون » فهي تجمع لذات الخمر وزيادة فوق الوصف ، وليس فيها غولها ونزفها ، لا جسدانياً ولا روحياً : « يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم » (٥٢ : ٢٣) .

فخمر الدنيا تخمر العقل وتستره عن إثارته ، وخمر الآخرة تخمر الجهل وتزيد العقل إثارة ، فهم يخمرون والهمين في معرفة الله وحبه .

.. هذه مناعم محسوسة الظاهر بجهولة الحقيقة لأهل الأرض وهم مقيدون بمدارك الأرض وتصوراتها المحدودة .

« جزاء من ربك عطاءاً حساباً » :

إذا كان جهنم للطاغين جزاءً وفاقاً لا تزيد عما قدموا لأنفسهم ، فالجنة للمتقين أيضاً جزاء ، ولكنها جزاء العطاء لا الجزاء الوفاق ، لولا العطاء هنا لم يكن جزاء ، أو هكذا جزاء ، ونفس التعبير بالجزاء أيضاً عطاء ، فما هو جزاء من عمل لصالحه في نضد الحياة ، دون أن يرجع لفائدة وعائدة لرب العالمين : « وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى » (٩٢ : ١٩ - ٢٠) .

(١) ابن عباس فيما أخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير - وهو المعنى الجامع لمعاني اللفظة .

إنه ليس الجزاء للمتقين إلا بالوعد الإلهي عن فضل وعطاء ، لا العدل الذي هو الجزاء الوفاق ، ولكنه للطاغين جزاء وفاق كأكثر الجزاء ، اللهم إلا أن يشملهم بعض الغفران أو بعضهم .

عطاء حساباً : عطاء محسوباً كجزاء فضلاً من الله وإحساناً ، وعطاء على حساب الوعد دون الاستحقاق ، وعطاء وفق الحساب ، فلكل عطاء حساب ، لأن المتقين درجات ، وحساب البعض منهم هو الرزق بلا حساب « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » : لا يدخل تحت حسابنا وإن كان عند الله مقدراً معلوماً .

عن أمير المؤمنين علي عليه السلام : « .. حق إذا كان يوم القيامة حسب لهم حسناتهم ثم أعطاهم بكل واحد عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله عز وجل : جزاء من ربك عطاء حساباً » .

إن جزاء الطاغين جزاء وفاق لم يُنسب إلى الرب : « إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآباً » ، ولأنه ليس انتقاماً ، وإنما ظهور لحقائق الطغيان ، فالجزاء هو الأعمال ، منهم لا من ربك « جزاء وفاقاً » .

لكننا جزاء المتقين هو من ربك جزاء العطاء ، لولا فضل الربوبية ووعد العطاء لم يكن لهم ذلك الجزاء ، ولكنه الرب المعطي يعطي الجزاء العطاء الحساب « جزاء من ربك عطاء حساباً » .

« رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمان لا يملكون منه خطاباً » :

ربك .. رب السماوات : لو لم يكن ربك لما كان رب السماوات ، فإذا قدر

(١) نور الثقلين ج ٥ ص ٤٩٥ ح ٢٩ ، أمالي الطوسي بإسناده إليه (ع) في حديث طويل .

أن يكون ربك، قدر أن يكون رب السماوات أيضاً^٢، وكما قال: «لولاك لما خلقت الأفلاك» : إن ربك طوى فيك ما طواه من خيرات في الأرض والسماوات وما بينها ، وفيك مزيد ، تستحق به أن تكون غاية لخلق الكون .

ربك رب السماوات ، دون أن تكون للسماوات والأرض أرباب سواء زعم المشركين ، ولك رب تزعمه ! انما هو رب واحد لا رب سواه ولا معبود إلا إياه .

« رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمان » : بالرحمة العامة الشاملة لكائنات العالم ، وربك : بالرحمة الرحيمية الخاصة للصالحين من خلقه ، وأنت جمع الرحمتين : الرحيمية برسالتك المحمدية العظمى ، والرحمانية بما أودع فيك ما في الكائنات كلها .

« الرحمان » : ومن رحمته الثواب وكذلك العقاب ، فمن الرحمة أن يبعد الشر جزائه ، وألا يتساوى مع الخير في مصيره ، كما من العذاب مساواة المصير .

« الرحمن لا يملكون منه خطاباً » : رحمة يصاحبها الجلال والهيبة في ذلك اليوم المهيب الرهيب ، يغمر الجو بالروعة والجلال والرهبه والوقار .

« لا يملكون » : الكائنون في المحشر كلهم ، من الملائكة والروح والإنس والجن ، الصالحون منهم والطالحون .

« لا يملكون منه خطاباً » : لا خطاباً يخاطبوه به فيما فعل أو يفعل بحسب المؤمنين والمجرمين ، ف « لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون » (٢١ : ٢٣) .

ولا خطاباً يطلبون به منه شفاعه وغفراناً أو مزيداً أو نقصاناً « يومئذ لا تنفع الشفاعه إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً » (٢٠ : ١٠٩) « لا يملكون الشفاعه إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً » (١٩ : ٨٧) .

ولا خطاباً منه يخاطبهم به ، لا يملكون أي كلام وخطاب من الله لهم أو منهم إليه ، فله الأمر وله الحكم ، لا مدخل لأحد في أمره إلا بإذنه ، ولا يشفعون إلا بإذنه .

فليس كما يزعم : أن لأولياء الله هناك ما يشاؤون ، فما يشاؤون إلا أن يشاء الله كما كانوا يوم الدنيا .

« يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » :

إنه يوم القيامة والقيام : يوم يقوم الموتى عن أجدانهم ، يوم يقوم الشهداء ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم يقوم الروح والملائكة : يوم القيامة الكبرى ! مقابلة الروح وردفه بالملائكة هنا توحى أنه من غير الملائكة : إنه عظيمهم وزعيمهم الأمر الناهي فيهم ، وكما في آيات عدة تستعرض عروجهم : « تخرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (٧٠ : ٤) ونزلهم على منزل القدر والرحمة : قلب محمد أو قلب محمدى : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » (٩٧ : ٤) ، وكما في المروى عن الرسول ﷺ : سبوح قدوس رب الملائكة والروح (١) .

إذاً فـ « الروح هو خلق أعظم من الملائكة ومن جبرئيل كما يروى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام (٢) وعن الرسول الأقدس ﷺ : « إنه جنود من جنود

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٠٩ ، أخرج مسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات عن عائشة أن رسول الله (ص) كان يقول في ركوعه : ..

(٢) نور الثقلين ٥ : ٦٣٨ ح ١٠٤ ، أبو بصير قال : قلت للامام جعفر الصادق (ع) : جعلت فداك الروح ليس هو جبرئيل ؟ قال : الروح أعظم من جبرئيل ، إن جبرئيل من الملائكة وإن الروح هو خلق أعظم من الملائكة ، أليس الله يقول : تنزل الملائكة والروح ؟ ومن =

الله ليسوا بملائكة لهم رؤوس وأيد وأرجل ثم قرأ : يوم يقوم الروح .. » (١).

هذا الروح العظيم وهؤلاء الملائكة الكروبيون يقومون - يوم الطامة الكبرى - صفاً ، لا يتكلمون في شفاعة وسواها ، إذ لا يملكون من الله خطاباً ، إلا من أذن له الرحمان وقال صواباً ، فالكلام المأذون مقيد بالصواب ، كما الصواب أيضاً مقيد بالإذن .

هذا الموقف الرهيب الذي لا يتكلم فيه المقربون إلا بإذن وحساب وصدق وصواب ، إنه يغمر جو المحشر بالروعة والوقار ، وعندئذ تنطلق صيحة الإنذار للسادرين في الغفوة والخمار :

« ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً » :

مآباً ومرجعاً إلى ربه ، حسب ما تصبَّح بصبغته أو تخلف ، إما مآباً إلى جهنم المرصاد ، أو الجنة العطاء الحساب « ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون » (١٣٢ : ٦) .

« فمن شاء » يوم الدنيا وحقق مآبه « اتخذ » بما قدمته يداه « إلى ربه مآباً » جزاء وفاقاً أو عطاء حساباً .

= الباقر (ع) مثله ١١٠٠ ويلخ إليه ح ١٠٨ ص ٦٣٩ المصدر وقد يروى أنه ملك أعظم من جبرئيل وميكائيل كما عن تفسير القمي عن الصادق (ع) في الآية : « يوم يقوم الروح .. » قال : الروح ملك أعظم من جبرئيل وميكائيل وكان مع رسول الله وهو مع الأئمة .

ومقتضى العرض على القرآن ترجيح السابقة للملائكة المقابلة بين الروح والملائكة في آيات ثلاث ، إضافة إلى أن الروح الذي ينزل مع الملائكة ليلة القدر لا يمكن أن يكون مع المعصومين دائماً ، فكيف الملائكة بين التنزل عليهم ليالي القدر والمقام معهم طوال الزمن ؟

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٠٩ ، أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي (ص) قال : ..

« إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً » :

« أنذرناكم » بالنذر: نذر القول والفكر والفطر، ونذر الرسل ووحى السماء .
« عذاباً قريباً » : محتوماً ، فإن كل آت قريب ، قريباً في العقول ، وقريباً في واقعه إذ يبدأ به منذ تفارق الروح جسدها ، ثم « وما يدريك لعل الساعة قريب » (١٧:٤٢) « ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً » (٥١:١٧) .
« إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » (٧٠ : ٧) .

« يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » : ينظر أعماله بصورها إذ تحضر عنده :
« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » (٣٠ : ٣) .. وبحقايقها التي هي جزاؤها، نظراً في أعماقها وفي أعماق ذاته نفسه : « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » (٢٧ : ٩٠) .
« ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً » : ١ - كنت تراباً كما كنت قبل أن أخلق ،
٢ - أو كما صرت تراباً بعد الموت ، فكنت كما كنت دون أن أحشر ، ٣ - أو كما تصبح غير المكلفين من الحيوان - تراباً - بعد حساب قصير يسير ، ٤ - أو كنت تراباً لرب الأرباب خاضعاً غير متخلف عن أوامره^(١) .. يا ليتني كنتها ،

(١) كما يروى عن النبي (ص) ففي الملل بإسناده إلى عباية بن ربعي قال : قلت لعبد الله بن عباس لم كنى رسول الله (ص) علياً أبا تراب ؟ قال : لأنسه صاحب الأرض وحجة الله على أهلها بعده ، وبه بقاءها وإليه سكونها ، ولقد سمعت رسول الله (ص) يقول : إذا كان يوم القيامة ورأى الكافر ما أعد الله تبارك وتعالى لشعبة علي من الثواب والكرامة قال : « يا ليتني كنت تراباً » أي من شعبة علي (ع) وذلك قول الله عز وجل : « ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً » وعن الصادق (ع) في الآية « يعني علويّاً يرثي أبا تراب » (البرهان ج ٤ ص ٢٣٤ ح ١)
أقول : وهذا من الجري والتطبيق والتأويل وليس تفسيراً ، إننا مثال لا نكمل ما يجب على المسلم أن يضيف ولاية علي إلى ولاية الرسول (ص) وكما عن شرف الدين النجفي بعد نقله الرواية الأخيرة : « وجاء في باطن تفسير أهل البيت ما يؤيد هذا التأويل » .

ف « لم أدر ما حسابية . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ما ليّ . هلك عني سلطانيه . خذوه ففعلتوه . ثم الجحيم صلوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » (٦٩ : ٢٦ - ٣٢) .

فقد يعنى من « كنت تراباً » كل هذه المعاني الأربعة ، وتأوّه الكافر وتحسره عما قصر أمر واقع لا مزية فيه يوم الطامة الكبرى .

إنه يرى انعدامه وصيرورته إلى عنصر مهمل زهيد ، يراه أهون من مواجهة هذا الموقف الرعيب الرهيب يوم النبل العظيم .

أو يرى لو أنه كان تراباً لرب الأرباب دون عصيان و طغيان ، لكان في هذا اليوم العصيب من زمرة الناجحين .

فيا ليت كان لا يحشر وظل تراباً من البداية ، أو لا يحشر بعدما صار تراباً ، أو 'حشّر تراباً لرب الأرباب .

مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي



﴿سورة النازعات - مكية - وآياتها أربعون﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا ^١
 وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ^٢ وَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ^٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ^٤
 فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ^٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ^٦ تَتَّبِعُنَا الرَّادِفَةُ ^٧
 قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ^٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ^٩ يَقُولُونَ إِنَّا
 لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ^{١٠} ، إِذَا كُنَّا عِظَامًا تَخِرَّةً ^{١١} قَالُوا تِلْكَ
 إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ^{١٢} فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ^{١٣} فَإِذَا هُمْ
 بِالسَّاهِرَةِ ^{١٤} .. »

آيات تخلق هزة في الحس وتوجساً في الشعور ، وتوقعاً لشيء مجهول يروع ويهول من أمر الراجفة والرادفة والطامة الكبرى ، يقسم بها الله بطاقات أعداءه لما يريد يوم الزجرة الواحدة فإذا هم بالساهرة .

« وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا » :

القوات النازعات ، ملائكية وبشرية ونجومية وسواها ، دون اختصاص

بالملائكة كما يُظن ويُتوهم ، ولأنهم ليسوا مؤنثين : « إن الذين يؤمنون بالآخرة
ليسمون الملائكة تسمية الأنثى » (٥٣ : ٢٧) (١) .

« غرقاً » النازعات التي تنزع وتجذب الغرقى من الغرق - ١ - الأرواح
الغريقة في الأبدان ، الراسبة الثابتة فيها كأنها هي هي بعينها ، إذ الغرق هو
الرسوب في الماء وفي البلاء - ٢ - والأرواح مع الأجساد الغريقة في أكناف
العالم وأعماقه بعد الموت - ٣ - والأرواح الكافرة الغريقة في حيوة الحياة -
٤ - والأرواح المؤمنة الغريقة في مرضاة الله رغم طبائع الأبدان الدافعة إلى
خلافها (٢) .

« غرقاً » : القوات الغارقة في الأبدان لانتزاع أرواحها ، والغارقة في العالم
لنزع أمانات الأرواح والأبدان ، والغارقة في الأعماق لتنزع الرواسب إلى
السامرة .

(١) إن الملائكة ليسوا إناثاً ولا ذكوراً ، ولا يؤنثى بضمير التأنيث إلا للأنثى ، ويؤنثى
بضمير التذكير لغيرها ، ذكراً ، أم لا ذكراً ولا أنثى كما الله تعالى وملائكته ، ولم يأت القرآن
للملائكة بضمير التأنيث بتاتاً ، إذاً فالناسب هنا كون النازعات هي القوات الشاملة للملائكة
وسواهم .

وفي الدر المنثور ٦ : ٣١٠ ، أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن علي (ع) في قوله :
« والنازعات غرقاً » قال : هي الملائكة تنزع أرواح الكفار ، والناشطات نشطاً هي الملائكة
تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها ، والسابحات سباحاً هي الملائكة تسبح
بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض ، فالسابقات سبقاً هي الملائكة يسبق بعضها بعضاً بأرواح
المؤمنين إلى الله ، فالدبرات أمراً قال هي الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة .

أقول : هذا من باب الجري والتطبيق على المصدايق البارزة في بعض أفعالها . فهو بعض من
بعض من المذكورات في هذه الآيات ، واختصاصها بالملائكة تشبه مقالة الكفار « وجعلوا الملائكة
الذين هم عباد الرحمن أفاناً » كما قاله أبو مسلم بن بحر الأصمهاني .

(٢) كل هذا إذا كان غرقاً مفعولاً به بمعنى المفعول للنازعات أي غريقاً ، ثم الأخير على كونه
حالا من النازعات بمعنى الفاعل ، والظاهر قصد هذا معاً .

« النازعات غرقاً » : التي تنزع الرواسب الغرقى ، وهي تفرق لكي تنزع الغرقى :

١ - من الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار عن أبدانهم بالشدة ، كما يفرق النازع بالقوس فيبلغ بها غاية المد ، كما يروى عن علي أمير المؤمنين عليه السلام .

٢ - والموت الذي ينزع النفوس إلى البرزخ ، من المؤمنين ومن الكفار ، كما يروى عن جعفر الصادق عليه السلام .

٣ - والملك الذي يتوفى الأرواح والأجساد دون أن تضل في الأرض فتضيع : « وقالوا إذا ضللتنا في الأرض إنا لفي خلق جديد . قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون » (٣٢ : ١٠ - ١١) .

٤ - والقدرة الإلهية النازعة للأعمال والأقوال ، الفريق في فضاء العالم ، فإنها تنتزعها وتحافظ عليها للشهد يوم يقوم الأشهاد .

٥ - والطاقات الإيمانية التي تنزع الأرواح الفريق في الأبدان ولكي تعكس أمر الحياة الدنيا الجسدانية إلى الحياة العليا الإيمانية .

٦ - والنجوم التي تنزع من أفق لتغيب في آخر : تطلع من مطالعها لتغرب في مغاربها .

٧ - والقسي النازعة بأسهمها ، إذ تمدهم يجذب وترها إغراقاً في المد ، قسي المجاهدين في سبيل الله التي تنزع غرقاً ، تنزع بأسهمها فتنتزع أرواح الكفار الفارقة في حيوة الحياة .

قسماً بهذه النازعات غرقاً ، الفارقات في نزعها ، الجاذبات الغرقى : « إن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور » « لتجزى كل

نفس بما تسمى « فإنها محضرة بسعيها ، منزوعة عن رسوبها المزعوم إلى دار الجزاء .

« والناشطات نشطاً » :

في غريب القرآن : ثور ناشط أي خارج من بلد إلى بلد ، والنشط هو العقد الذي يسهل حله ، وفي غيره أنه حل العقد أيضاً ، فالنشط إذاً هو التنقل في البلاد لعقد يسهل حله أو حلّه عن العقد .

القوات الملائكية التي تحل عقد الأرواح عن أبدانها ، وتحل الأجزاء المعقدة من أبدان بأبدان ، تحلها وتجمعها لكل روح على حدة ، نشطاً وتنقل في مختلف أكناف الأرض لتجمع وتضم هذه المتفرقات المتحللات .. والتي تعقد الأرواح بالأجساد وتنفخها فيها بإذن ربها ، وتعقد أجزاء الأجساد المتفرقة ، على نشاط بالغ دون إهمال ولا إبطال .

والموت الذي كأنه مؤثر في تجوال ، لتحل الأرواح من أبدانها الدنيوية ، ولتعقدها بأبدانها البرزخية ، ثم الموت عن الحياة البرزخية الذي يحل أيضاً ويعقد ، يعقد الأرواح بالأجساد المعادة في المعاد .

والنجوم الناضجات في تجولاتها عقداً لأحيان وحلاً لأخرى .

والناشطات الإنسية والجنية في مختلف مجالات الحياة : حلاً وعقداً .

والناشطات الحيوانية تنشط العظم واللحم وكما هي « كلاب النار » (١) .

(١) الدر المنثور ٦: ٣١١ ، أخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله (ص) لا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار ، قال الله والناشطات نشطاً أندري ما هو ؟ قلت : يا بني الله ما هو ؟ قال : كلاب في النار تنشط العظم واللحم .

« والسابحات سباحاً » :

السبح هو المر السريع في الماء وفي الهواء ، ويجمعه المر السريع أيأ كان .
والسابحات هي القوات المسرعات في بحر الكون ، في الماء وفي الفضاء وفي
الأرض ، سباحاً جسدياً أو روحانياً ، فالكون كله مسبح للسابحات : « وكل
في فلك يسبحون » (٢١ : ٣٣) .

السابحات الكوكبية من الأرض والشمس والقمر وزملائها التي تسبح - حسب
تصريحات الآيات - في أفلاكها ومداراتها الجوية .

والسابحات البشرية التي تسبح وتسبح غائصة في بحر الحياة بغية الصيود التي
تبغيها ، وهي مغلوبة بقضاء الله كما تسمى « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى »
دون أن تملك من الكون ما يريد ، إلا ما قضاه الله نتيجة السعي .

والسابحات الملكية التي تسبح لتحقيق أوامر الله ، من إيصال وحي وتصوير
الأجنة في الأرحام وتقريب الأرزاق .

وسابحات الفكر والعقول التي تسبح في الآفاق وفي الأنفس حتى يتبين لها أنه
الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد .

« فالسابقات سبقاً » فالمدبرات أمراً » :

في هذه النازعات الناشطات السابحات ، سابقات في مأمورياتها تسبق سائر
القوات التي قد تمانعها في تحقيق ما أمرت به ، تسبقها في معارك الموت والحياة ،
في معارك تنازع البقاء إذ تنزع الأرواح أجسادها متمنعة عن موتها ، فتسبقها
ملائكة الموت ، وتأخذ الأبدان إلى التناثر والتفرق ، والأرواح إلى الاختفاء ،
فيسبقها ملك الموت الذي وكتل بها فيتوفاها ويحافظ عليها وينزعها إلى محفوظات
الأرواح والأجساد .

فالسابقات من هذه النازعات وأمثالها ، تسبقها فيما تريد في ميادين السباق ،
وكما في النشاطات والسابحات سابقات ، كلها تنحو منحى تدبير الكون إلهياً
وتدميره إلهياً .

هذه السابقات هي المدبّرات أمراً : إذ تنزع ما أمرت بنزعها من أرواح ،
ثم تدبّر أمر الله فيها ، برجع الأبدان إلى حيث كانت - وكما يناسب الحياة
الآخرة - ثم رجع الأرواح إليها وجمعها يوم الجمع .

إنها نشيطة في سبوحها وسابحة في نشطها ، سابقة سائر القوات في تحقيق أمر
الله في جو الحياة ومعداتها ، والموت ومعداته .. ولأنها مدبرات لأمر الله
« والله غالب على أمره » .

هذه المدبرات أمراً ، تدبّر بما سبقت سائر القوات ، فهي مدبرة وتلك
مدبرة ، بما سبقت في نضالها ، في نزاعها ونشطها وسبوحها .

لا يمكن ولا يكون إلا ما أراد الله في دنيا الحياة وعقبها ، إلا ما فيه
الاختيار ، دون أن يملك الاختيار أيضاً جبراً في إرادة الله .

إن ملائكة الله ينزعون - نازلين - عن أمر الله : غرقاً في أعماق الكون
لتحقيق أمره ، وينشطون محللين وعاقدين كذلك ، ويسبحون في بحر الوجود
ابتغاء تلقي الأوامر الإلهية تحقيقاً وتطبيقاً ، ويرجعون إلى مقام العز نشيطين
منبسطين سابقين مناوئينهم في ميادين السباق ، مدبرين أمر الله بما أراده الله
« يدبرون ذكر الرحمن وأمره » (١) .

(١) الدر المنثور ٦ : ٣١١ ، أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب أن ابن الكوا سأل
عن المدبرات أمراً قال : الملائكة يدبرون ذكر الرحمن وأمره .

أقول : ذكر الرحمن إشارة إلى الأمر الشرعي وأمره هو التكويني .

هل يدبر الأمر إلا الله ؟

من الضروري عقلياً وقرآنياً أن الله هو المدبر ولا مدبر سواه في التكوين وفي التشريع وفي الجزاء يوم الجزاء : « .. ثم استوى على العرش يدبر الأمر » (١٠ : ٣) « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلمكم ببقاء ربكم توقنوا » (١٣ : ٢) « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » (٣٢ : ٥) .

وهذه الآيات توحى أصالة التدبير الإلهي ، دون أن تنافي وساطة التدبير الملائكي أو البشري أو الكوني في الأسباب الطبيعية التي سخرها الله تعالى .

فالملائكة المدبرون لا يدبرون إلا أمر الله بإذنه وبأمره : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » (٢١ : ٢٧) « يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » (١٦ : ٥٠) .

حركات الأرض :

« يوم ترجف الراجفة • تتبعها الرادفة » :

آخر المطاف في هذه النزعات والنشاطات والسبعات ، وفي سبقها وتدبيرها أمر الله ، آخره هو يوم الرجفة والردفة .

« ترجف الراجفة » : توحى أن الأرض راجفة قبل قيامتها ، وراجفة عندها : مرة رجفة للإماتة ، وأخرى رجفة للإحياء وهي الرادفة ، فهذه رجفات ثلاث وتسبقها رجفة مجنونة قبل أن تجعل ذلولاً « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً » (١٥ : ٦٧) .. رجفات شاملة مجنونة مرة ، ومعمرة أخرى تحافظ على الحياة والأحياء ، ومدمرة ثالثة ، وراجعة الأموات من أجدادهم أخيراً « فإذا هم بالساهرة » رجفات أربع تتلاحق !

تسمى الأرض راجفة لحركاتها المتداخلة المعتدلة المعدلة ، حيث الرجفة تعبير

بليغ عن الحركات المتداخلة ، فما هي حركات أرضنا التي كنا نحسبها جامدة ؟

إن أرضنا من السابحات في بحر الجو في فلكها كزملائها السابحات : « وآية لهم الأرض .. والشمس تجري لمستقر لها .. والقمر قدرناه منازل .. وكل في فلك يسبحون » (٣٦ : ٣٣ - ٤٠) سباحة في أعماق الفضاء ، دائرة حول نفسها وعلى جادتها الفضائية كأنها تعقل كيف تسبح : « يسبحون » .

تسيرها على مداراتها القوة الجاذبية العمومية ، فهي تسير وتطير دون انزلاق عن أفلاكها ولا انفلات وتناثر عنها ، بعمد لا ترونها : « رفع السماوات بغير عمد ترونها » (١٣ : ٢) فتم - في السماوات المرفوعة بأنجمها - ثم عمد ولكن لا ترونها ، وعليها - أو منها - القوة الجاذبية العمومية .

وتكفيها آية الكفات إحياء صريحاً لطيران الأرض وحركاتها : « ألم نجعل الأرض كفاتاً . أحياء وأمواتاً » (٧٧ : ٢٥ - ٢٧) حيث الكفات هو سرعة الطيران على تقبض فيه^(١) ، فأرضنا هذه مسرعة في طيرانها متقبضة - على ظهرها وفي حضنها - أطفالها : أحياء وأمواتاً ، لولا انضباط حركاتها والقوة الجاذبية المتحكّمة عليهما لانفلتت أطفالها وتساقطت إلى أعماق الأجواء النازلة .. ولكنها كفات ويا لها من بركات في حركات ، وعلى حد تعبير علي أمير المؤمنين - عليه أفضل السلام والصلاة - حين يعطف إلى عطف الأرض على أولادها : « وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الشم من صياخيدها فسكنت من الميدان برسو الجبال في قطع أديمها » .. فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو تسبخ بجملها أو تزول عن مواضعها فسبحان من أمسكها بعد موتجان مياهها ، وأجدها بعد رطوبة أكنافها ، فجعلها لخلقها مهاداً وبسطها لهم فراشاً .. » .

(١) تفصيل البحث عن الكفات إلى سورة المراتل .

« وعدّل حركاتها » : إن لأرضنا هذه حركات متداخلة استحدثت بها إسم -
الراجعة ، أنهى علماء معرفة الأرض حركاتها إلى أربعة عشر ، وعليها أزيد .

.. هذه هي الرجفة المعمّرة ، ثم ترجف رجفتها المدمّرة ، رجفة الإمامة ،
ثم الرجفة الرادفة هي رجفة الإحياء « فإذا هم بالساهرة » .

أجل إن الراجعة هي التي ترجف ، لا الجامدة ، وما أحلى وأجلى هذا الإسم
فما كانت البشرية تنكره من حركات الأرض ، فللقرآن متشابهات يفسرها
الزمن .

إن للأرض - عند قيامتها و من عليها - نفختان وصيحتان ورجفتان ،
كل رجفة إثر نفخة وصيحة مسا لها من فواق ، ونتاجها زجرة إلى الساهرة
أرض العرض والحساب .

« قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة » :

وجفة لقلوب مقلوبة تتبّع رجفة الأرض : حين الإمامة وحين الإحياء ،
والوجفة هي سرعة السير والحركة ، فهي حراك في اضطراب لقلوب ، تلي رجفتي
الأرض .

جوّ راجف وقلب واجف مبهور مذعور ، وجفة من الرجفة التي تنقلبهم إلى
الساهرة : أرض الحساب والعقاب ، وهناك ترى :

« أبصارها خاشعة » : أبصار القلوب وهي البصائر ، تتبعها أبصار العيون :
« ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار
مضطجعين مقنعي رؤوسهم لا يرقد إلیهم طرفهم وأفئدتهم هواء » (١٤ : ٤٢) .

هذه هي القلوب المقلوبة المذعورة تتقلب يومذاك بأبصارها : « يوماً تتقلب
فيه القلوب والأبصار » (٣٤ : ٣٧) « رب هب لي كمال الإنقطاع إليك وأنر
أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك » (علي عليه السلام) .

وهناك تخشع الأصوات « وخشعت الأصوات للرحمان فلا تسمع إلا همساً »
 (٢٠ : ١٠٨) وتخشع أبصار القلوب .. وتخشع من الإنسان ما لم تكن تخشع
 يوم الدنيا ، فيوم القيامة تخشع خشوع الذل عن تقصير « وتراهم يُعرضون عليها
 خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي » (٤٢ : ٤٥) « خاشعة أبصارهم
 ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون » (٧٠ : ٤٤) « وجسوه يومئذ
 خاشعة . عاملة ناصبة . تصلي ناراً حامية » (٨٨ : ٢ - ٤) .

قلوب ووجوه وأبصار هناك خاشعة من الذل ينظرون من طرف خفي :
 « يقولون أنا المردودون في الحافرة . إذا كنا عظاماً نخرة . قالوا تلك إذا
 كرة خاسرة » .. فيما هي شديدة الإضطراب ، بادية الذل ، يجتمع عليها الخوف
 والإنكسار ، والوجفة والإنهيار ، وهذا هو الذي يتناولوه القسم بالنازعات إلى
 السابقات سبقاً والمدرات أمراً .

« يقولون أنا المردودون في الحافرة » :

متحدثين عن هلتهم وانهارهم إذ يقومون من أجدائهم خشعاً كأنهم جراد
 منتشر ، يقولونها في خيال وذهول . متسائلين سؤال الوحشة والدهشة ، عن
 رجوعهم إلى الحياة بعد نكرانها في حيوة الحياة الدنيا . ويقولون - هذه -
 عليها جواب الأقسام الماضية .

فما هي الحافرة التي يخافونها ؟ أمي القبر ؟ ولا ترجع الأحياء يوم الإنحياء
 إلى القبر ! وليس في هكذا رجوع خوف ، بل هو ما يتمناه الكافر إذ يقول :
 « يا ليتني كنت تراباً » .

أم هي القيامة ، وليس ورودها رداً إليها إذ ليست إلا مرة واحدة ؟
 أم هي الحياة كما كانت : « الخلق الجديد » كما عن باقر العلوم (ع) (١) :

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٧٩ عن القمي عن الباقر (ع) .

رجوعاً إلى حياة كانت في الدنيا ، إلا دنياها وتكاليفها ، وإنما الجزاء على ما قدمت يداه وأن الله ليس بظلام للعبيد، وإذا كانت الحافرة هي الخلق الجديد فما هي المناسبة في هكذا تعبير ؟.

إن الحافرة من الحفر وهو التراب الذي يخرج من حفرة ، وحافر الفرس ما يحفر التراب من رجليه ، والحافرة الأرض المحفورة ، فالرد إلى الحافرة على ما في المفردات : مثل يمثل به لمن يرد من حيث جاء ، يقال : رجع في حافرتي : أي : في طريقه التي جاء منها ، فهم إذ يردون إلى حيث جاءوا ، إلى مثل الحياة الأولى ، قالوا عنه بالرد إلى الحافرة ، ثم « تلك إذا كرة خاسرة » ، فإذا يموت الإنسان يبقى موضع وجوده خالياً كالخافرة من الأرض التي يراد تراها ، فهم إذا حاثرون مذعورون أن كيف رجعوا إلى الحياة بعدما كانوا عظاماً نخرة ، وتلك إذا كرة خاسرة .

كرة خاسرة لمن خسروا أنفسهم في الحياة الدنيا ، وكرة رابحة للذين رجحوها فيها ، فليس الخسار إلا من أنفُس الكفار ولا يظلمون فتيلًا .

« إذا كنا عظاماً نخرة » : علوم ربي

« أن صارت الأجساد شعبة بعد بضعها ، والعظام نخرة بعد قوتها »^(١) عظاماً منغوبة بالية يصوت فيها الهواء لرخوتها ، بعد أن كانت قوية لا ينفذها الماء ولا الهواء .. عظاماً بالية هبت بها الرياح فبثتها أيدي سبأ ، فكيف تجتمع أجزاءها بعد تفرقها ؟ وكيف ترجع إلى صلابتها بعد نخرتها ؟ وكيف تحيي بعد موتها ؟ « وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » (٣٦ : ٧٨ - ٧٩) .

(١) من خطب أمير المؤمنين علي (ع) عن نهج البلاغة .

« قالوا تلك إذن كرة خاسرة » :

قالوها بعد دهشتهم ووحشتهم في وهلتهم وذهولهم وهم يفيقون ويبصرون فيعلمونها كرة إلى الحياة ، ولكنها الحياة الأخرى ، فيشعرون بالخسار والوبال فتبتدر منهم كلمتهم الخاسرة : « تلك إذن كرة خاسرة » كرة لم يكونوا ليحسبوا لها حساب ، ولم يقدموا لها إلا كل تباب ، فهم في خسرتهم يعمهون وفي خسرتهم يتيهون .

هذا وجه في هذه المقالات ، ووجه آخر عله مقصود مع الأول أو أنه هو المقصود فقط : أنها مقالاتهم يوم الدنيا في نكران الحياة بعد الموت ، ويتأيد بقولهم : « إذا كنا عظاماً نخرة » فإنها إلى الإنكار أقرب منها إلى الإندهاش والتصديق على عجب ، ويقول الله عنهم : « قالوا تلك إذا كرة خاسرة » حكاية عن مقال مضى ، وأخيراً إن الحي بعد الموت وإن كان صحيحاً قوله : إنها خاسرة ، لكنه لا يصح قوله « إذا كنا عظاماً نخرة » ، ولا قوله : « إنا لمردودون في الحافرة » أقولاً هكذا بعد إذ قضى الأمر ؟ اللهم إلا دهشة وتعجباً .. لذلك نقول على الوجهين هنا مقصودان ، وأخرى بالثاني أن يعنى .

« فإنما هي زجرة واحدة ، فإذا هم بالساهرة » :

إنما هي : الكرة ، زجرة واحدة ، صيحة خارقة تجر عن الأحداث فإذا هم إلى ربهم ينسلون ، وإنها لا تكلف مديداً من الزمن ، خلاف ما كانت الولادة في الدنيا ، إنما زجرة واحدة وصيحة ما لها من فواق .

إن الولادة يوم الدنيا كانت تتطلب زجرات ورحلات وتنقلات ، وهنا الولادة الثانية والخلق الجديد ليست إلا بزجرة واحدة ، واحدة فقط .

هذه هي زجرة الإحياء وقبلها زجرة الإمامة في النفخة الأولى ، زجرتان تختلفان في مفعوليهما ، وكما الزلزال والصيحة ونفخ الصور تختلف المراتب فيها .

« فإذا هم بالساهرة » : فما هي الساهرة ؟ أكيد أنها ليست هي القبور ، فقد انتقلوا بالزجرة عن أجدانهم إلى ربهم ينسلون ، فهل هي وجه الأرض بعد زلزالها : « يوم تبدل الأرض غير الأرض » (١٤ : ٤٨) فإذا تبدلت أرضيتها استحقت تبدل اسمها ، وهي هي أرض العرض والحساب ، وكما يروى عن الرسول الأقدس ﷺ (١) ؟ أم هي أرض في السماء ينتقلون بأجسادهم من أجدانهم إليها ؟ أم إن الساهرة هي ساهرة الأرواح بعد الانتقام من الأبدان كما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام (٢) ؟ أم ماذا ؟ .

أقول : إننا نصدق ساهرة الأرواح يوم الحساب : خلودها في الجنة أو النار ، لكنها مع الأجساد المناسبة لها ، ولكنها إذا هي الساهرة ، لا بالساهرة ، عكس الآية « فإذا هم بالساهرة » .

وفيما إذا كانت أرض المحشر هي الساهرة ، فباعتبار كثرة الوطاء بها كأنها تسهر بمن يشي عليها دون انقطاع ، وأرض الدنيا ليست هكذا ، فهذه ساهرة الأرض ، وهي الموطىء والموطن لساهرة الأرواح بالأبدان ، سهرة بالحياة الأخروية ، وهذه السهرة تزيد أرض الحساب سهرة ، حقت بها أن تسمى بالساهرة .. ساهرة بعد أن كانت أرضاً فانية دائرة .. ثم لا حاجة لنا أن الساهرة هي أرض في السماء ، في حين التصديق أن الجنة فوق السماء السابعة والنار

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٩٩ ح ١٩ مجمع البيان ، روى أبو هريرة عن النبي (ص) : « تبدل الأرض غير الأرض والسموات » فبسطها ويمدها مد الأديم العكاظمي « لا ترى فيها عرجاً ولا أمناً » ثم يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم في هذه المبدلة في مثل مواضعهم من الأولى ، ما كان في بطنها كان في بطنها وما كان في ظهرها كان على ظهرها .

وفي البرهان ٤ : ٤٢٥ ح ٣ عن القمي عن الباقر (ع) : « والساهرة الأرض انتوا في القبور فلما سمعوا الزجرة خرجوا من قبورهم فاستووا على الأرض .

(٢) وفيه عن الصادق (ع) : « إذا انتقم منهم وماتت الأبدان بقيت الأرواح ساهرة لا تنام ولا تموت .

تحتها ، حيث الانتقال إلى المال ليس إلا بعد قضاء الحساب في موقف الحساب ،
ثم لا دليل على وحدتها .

.. هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ^{١٥} إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ
الْمُقَدَّسِ طُوًى ^{١٦} إِذْ هَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ^{١٧} فَقُلْ هَلْ
لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ^{١٨} وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ^{١٩} فَأَرَاهُ
الْآيَةَ الْكُبْرَى ^{٢٠} فَكَذَّبَ وَعَصَى ^{٢١} ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ^{٢٢}
فَحَشَرَ فَنَادَى ^{٢٣} فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ^{٢٤} فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ
الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ^{٢٥} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ^{٢٦} ..

« هل أتاك حديث موسى »

هل أتاك بوحى السماء ؟ فإنه المعتمد المؤكد ، إستفهام بدافع ترغيب النبي
الأقدس لكي يستقيم في كفاح الطاغين ، وترهيب المشركين الناكرين لوجود الله
والبعث والمعاد ، فسواء في ذلك الاستفهام أن أتاه حديث موسى مسبقاً - كما أتاه
في المزمّل إجمالاً - أم لم يأت ، كما لم يأت حتى الآن هكذا ، وإن لم تكن صورة
منه مفصلة .

وقصة موسى هي أكثر القصص ذكراً في الذكر الحكيم ، وردت منها حلقات
منوعة وفي أساليب شتى كما تناسب مواضعها ، وهنا ترد مختصرة سريعة المشاهد
منذ ندائه بالواد المقدس إلى أخذ فرعون نكاله في الآخرة والأولى .

« إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى » :

من أولى النداءات الإلهية لموساه إذ ناداه : « إني أنا ربك فأخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة الذكرى . إن الساعة لآتية أ كاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى . وما تلك بيمينك يا موسى . قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى . قال ألقها يا موسى . فألقاها فإذا هي حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى . واضم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى . لنريك من آياتنا الكبرى . إذهب إلى فرعون إنه طغى » (٢٠ : ١٢ - ٢٤) .

وهذه أولى النداءات الرسالية : « إذهب إلى فرعون إنه طغى » بعد برهنة الرسالة ، وأنه كيف يواجه ويكافح فرعون الطاغية .

« ناداه ربه » : الذي ربه تربية رسالية واصطنعه لنفسه فصنع على عينه ، ولكي يستأهل لتلقي وحي الرسالة وتطبيقها .

« بالواد المقدس طوى » : الواد الذي قدسه الله بالوحي الموسوي ، وعلة « طوى » ، وقد تكون (طوى) إيجاء لما طواه موسى من الفلاة بينه وبين الواد المقدس حتى آانس من جانب الطور ثاراً ، فطوى أهله وتحلل عنهم أيضاً قاصداً وادي الوحي ، ثم طواه الله بالوحي بعد انتشاره وتفرق بآله ، وبعدما طوى نفسه عن غير الوحي وعما سوى الله ، إذ خلع نعليه ، نعل الأهلين ، ونعل نفسه وإنبيته ، فحلّ بالوادي مجرداً عما سوى الله فاحتل منزلة الوحي .

أو أن « طوى » هي الأرض التي حلّ بها موسى ، سميت طوى لما عرفنا من طوى موسى وانطوائه إلى مطوى الوحي .

« إذهب إلى فرعون إنه طغى » :

أولاً النداءات الرسالية الموسوية وبدايتها المحورية التي تدور عليها رحاها طوال الدعوة ، وهكذا يجب أن يكون موقف رجالات الوحي وجاء فراعنة التاريخ ، كفاحاً متواصلاً بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالطاقات الجسارة الفولاذية ، استئصالاً للفرعنات والنمردات ، ولكي تعيش الشعوب على رغد الأمن والصلاح .

وهكذا يجب للمصلحين أن يكرسوا حياتهم في معارضة الطاغين والدفاع عن المظلومين دون سكوت وخمول واستسلام وانظلام .

فعلى المصلحين الحراك الدائم والتجوال المتواصل في دفع الطغيان أيما كان ومن أي كان ، دون أن يعتبروا أنفسهم « بيتاً يؤتى ولا يأتي » ، فإن الشر يبتغي - دوماً - مجالات لنموه وتحقيقه ، فلا بد لدعاة الخير أن يضيقوا كافة المجالات على دعاة العيث والشر « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » (٢ : ٢٥١) .

« إذهب » : أنت إليه ، دون أن ترجو ذهابه إليك ، فإنه لا يأتيك إلا قاهراً سامراً ساحراً ، فـ « اذهب » إليه ناصحاً ومرهباً ، ولكي تزيه أو تخفف عن بأسه وبؤسه ..

« إنه طغى » : طغى على عباد الله إذ استعمرهم واستغفهم واستعمرهم ، وطغى على الله إذ قال : « أنا ربكم الأعلى » فأصبح حياته حياة الطغيان وما أسوأها حياة وما أخطرها نكالا على الشعوب !

إن الطغيان أمر لا ينبغي أن يترك ، ولا ينبغي أن يهمل فيبقى ، إنه يعمث الفساد في الأرض ، ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، وما جور الجائرين وظلم الظالمين إلا نتيجة إهمال القادة الروحيين ، وفسح المجال للطائشين الظالمين ، وخمول المظلومين وإحنائهم ظهورهم لهؤلاء الشياطين .

« فقل له لك الى لك أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى » :

يعلم الله رسوله كيف يواجه ويخاطب الطاغية بأحسن الأساليب وأقواها جاذبية ، جامعة برهان العاطفة والعقل والإحساس ، لعله يتذكر أو يخشى .

إنه أمر بالذهاب إلى فرعون، فاستدعى من ربه أن يشرح له صدره وييسر له أمره ويحل عقدة من لسانه، ويجعل له وزيراً من أهله هارون أخاه ؛ فأوتي سؤاله فضم إليه أخاه عماداً ومسانداً وناصرأ ، واصطنعتك لنفسى . إذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى . إذهباً إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولاً ليئلاً لعله يتذكر أو يخشى . قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى . فأتياه فقولا إنا رسول ربك فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » (٢٠ : ٤١ - ٤٨) .

لا نجد أليّن من هذا الكلام عند ألن حقايم الطغيان : « هل لك إلى أن تزكى » . يبتدىء بالسؤال عن ميله إلى التزكى ، دون أن يحتّم عليه أنه قدّر فيجب عليه التزكى « هل لك » ؟ ! هل لك ميل ورغبة إلى ما يرغب إليه كل إنسان ؟ « أن تزكى » ولا يخلو من رغبته المتزكون أيضاً فكيف بمن سواهم من الأدناس !

إن الإنسان كائناً من كان ، يشعر دوماً بالنقصان ؛ لذلك يحاول فكراً وعملياً أن يزيل عن نفسه وصمة النقصان إلى الكمال والأكمل ، وما من أحد يرى نفسه بالغاً إلى ذروة الكمال رغم « أن حب الشيء يعمي ويصم » .

وهذه الحالة هي لزام الإنسان ككائن من الكائنات المخلوقة ، مهما كانت ادعاءاته الكاذبة أنه بالغ ذروة الكمال .

إذا فكل إنسان - بل وكل حيوان - له اندفاع إلى الكمال والأكمل ،
وكل مرحلة تالية تزكّي بالنسبة للسابقة وإن كانت هي أيضاً تزكياً لسابقتها .

إذا فهذا سؤال لا جواب له إلا الإيجاب : « بلى إن لي رغبة إلى أن
أتزكى » .

ثم شعور النقص هذا ، وأنه متدرج إلى الكمال ، يدفعه أن يعتنق عقيدة
الإله ، الرب الذي لا ينقص شيئاً ولا ينقصه شيء ، وهو الذي يُدرج إلى مدارج
الكمال دون أن يتدرج هو نفسه .

ففرعون هذا ، الذي ظن أنه الرب الأعلى ، عليه أن يشعر بهذا البرهان أنه
ليس رباً ، وإنما عبدٌ في نقصان ، عليه محاولة التزكي ، ثم عليه أن يهتدي إلى ربه
فيخشاه فلا يطغى ؛ فما أَلَيْبَنَّهُ كلاماً وأنعمه ! وما أبلغه برهاناً وأقومه !

« وأهديك إلى ربك فتخشى » ، « إنما يخشى الله من عباده العلماء » العلماء
بالله ، وما عدم الخشية من الله إلا لعدم العلم والمعرفة به وعدم الهداية إليه .

إن الهداية إلى الرب : « المالك المدبر » هي السبيل المنحصرة في التزكي ،
فإنه يملك الإنسان فيدبر أمره كأحسن ما يكون دون حاجة منه إليه ، والمتزكي
عند الرب المحتاج - الذي لا يملكه فلا يملك تزكيته - إنه ما يفسد أكثر مما يصلح .

إن مرض الصبيان المبطل به فراعنة التأريخ لا علاج له إلا الشعور بالنقصان
ثم محاولة التزكي بالهداية إلى الرب تبارك وتعالى ، فما أحلى دلالة تضم بيان المرض
وعلاجه كأنقن وأحسن ما يتصور .

« فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى » :

أراه الآية الكبرى ، الحسية ، بعدما أراه الآية الكبرى العقلية ؛ ليجمع له الآيتين
ويُلْزِمه بالحجتين ، فما هي الآية الكبرى هنا ؟ !

إنها ليست هي الآية الكبرى بين الآيات، وإنما هي منها وكما أراها موسى من قبل : « لنريك من آياتنا الكبرى » (٢٠ : ٢٣) وإنما هي العصا التي انقلبت ثعباناً مبيناً بعدما انقلبت حية تسمى ، هذه العصا التي نتجت عنها آيات تدرى : فقد فلق بها البحر « فانفلق فكان كل فرقة كالطود العظيم » (٢٦ : ٦٣) وضرب بها الحجر : « فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا » (٢ : ٦٠) ثم الآية الكبرى : « فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين » (٧ : ١٠٧ و ٢٦ : ٣٢) آية أراه ربه إياها إذ كان بالواد المقدس طوى ، ثم أراها فرعون فكذب وعصى : « فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون » (٢٦ : ٤٥) .

« فكذب وعصى » لم يزد هذا البلاغ إلا فراراً ، فلم يفلح هذا الأسلوب الحبيب في إلانة قلبه المقلوب الحاوي من معرفة الله ، فكذب موسى واستمر في عصيانه لله ولموساه ، وتجاوز عن طغيانه الأول إلى أشر وأطغى « فقال أنا ربكم الأعلى » تلك الكلمة الوقحة المتطاولة المليئة بالغرور والجهالة .

« ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » قال أجبثنا لتُخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى » (٢٠ : ٥٦ - ٥٧) أرى آيات الله كلها بما فيها من آيات ربه الكبرى ، فكذب وعصى ، تحقيق كما في علوم رباني

« ثم أدبر يسعى . فحشّر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى » :

ثم - بعدما كذب وعصى - أدبر عن موسى وعن آية الله الكبرى ، أدبر يسعى في كيدته فحشّر حشره وجمع جمعه فنادى ندائه كأحق حمقاء التاريخ : « فتولى فرعون فججمع كيدته ثم أتى » (٢٠ : ٦٠) : إنه تولى وسعى وجمع كيدته وجمعه وعله مرتين : مرة لدعواه : « أنا ربكم الأعلى » وأخرى لمكافحة السحرة بسحرهم آيات الله الكبرى ، أوعله مرة واحدة جمع فيها بين الكيدين : استخف قومه أنه ربهم الأعلى ، فأطاعوه فيما أراد .

« فقال أنا ربكم الأعلى » : إنه تدرج في ربوبيته المزعومة المدعاة حتى إذا

وصل إلى ذروتها ، والتدرج بنفسه برهان لا مرد له على كذبه في دعوى الربوبية .

يقولها الطاغية مخدوعاً بغفلة جماهيره الحقاء وغفوتهم وإذعانهم له وانقيادهم ، أجل وإنما الجماهير الذلول تخني له ظهورها كالحير فير كبها ، وتدل له أعناقها فيجرها ، وتخني له رؤوسها فيستعلي عليها ، وتتنازل له عن حقوقها الإنسانية فيطغى : « فاستخف قومه فأطاعوه » .. وما كان له أن يتقول بهذه القولة الكافرة لو وجد أمة واعية أبيّة كريمة مؤمنة عارفة أنه عبد كسائر العباد ، إن يسلبه الذباب شيئاً لا يستنقذه منه ضعف الطالب والمطلوب .

فرعون في تضاد الآلهة :

إنه قد يعبد آلهة كما يعبدها غيره « وقال الملأ من قوم فرعون أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويَذُرْك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون » (١٢٨ : ٧) آلهته اعتباراً أنه كان يعبدها ، أم آلهته لأن قومه كانوا يعبدونها ، أم بالاعتبارين .

وقد يدّعي هو الألوهية لأن له ملك مصر بما فيها الآلهة « ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون » أم أنا خير أم هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين « (٥١ : ٤٣ - ٥٢) .

ويهدد موسى إن اتخذ إلهاً غيره ، توحيداً لنفسه في الألوهية : « قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين » (٢٦ : ٢٩) يعني إلهاً لا أرتضيه وهو الإله الحق ، فإنه كان يعترف بوجود أرباب وأنه أعلام : « فقال أنا ربكم الأعلى ، هناك أرباب متفرقون وأنا أعلام وربهم أيضاً إذ أملكهم بمالي ملك مصر .

يبقى في طغيانه وغيبه هكذا : « حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . الآن وقد عصيت وكنت من المفسدين » (١٠ : ٩٠ - ٩١) .

« فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً

لمن يخشى » :

نكال الآخرة تتقدم هنا على الأولى ، ولأنها أشد وأبقى ، وأنها تشمل حياتي
البرزخ والأخرى ، فأما نكال الأولى بما أنه يمثل نكال الآخرة تمثيلاً ضئيلاً ، فهو
غرقه بمن معه في اليم على حين غرة وغفلة وطغيان : « ولقد أوحينا إلى موسى
أن أسر بعبادي فأضرب لهم في البحر طريقاً يديس لا تخاف دركاً ولا تخشى .
فأتبعهم فرعون يجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم . وأضل فرعون قومه
وما هدى » (٢٠ : ٧٧ - ٧٩) .

فلما غشيهم اليم بما طغى « قال آمنت .. الآن وقد عصيت ؟ فاليوم نُنَجِّيك
ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون »
(١٠ : ٩٢) .

هذا هو نكاله في الأولى ، بقي عذاباً على روحه القدرة ما دام بدنه لمن خلفه
آية ، ثم نراه حين الغرق يدخل جحيم البرزخ ، ثم يوم القيامة أشد العذاب :
« فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يُعْرَضُونَ
عليها غُدُوراً وعشيّاً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب »
(٤٠ : ٤٥ - ٤٦) ، وعلى حشد تعبير باقر العلوم عليه السلام : « أُملى الله لفرعون
ما بين الكلمتين أربعين سنة » ^(١) .

(١) نور الثقلين ٥ : ٥٠٠ . عن الحاصل عن زرارة عن أبي جعفر (ع) « قال : أُملى الله لفرعون
ما بين الكلمتين أربعين سنة ثم أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فكان بين أن قال الله تعالى
لموسى وهارون : « قد اجيبت دعوتكما » وبين أن عرفه الإجابة أربعين سنة ثم قال : قال
جبرئيل (ع) نازلت ربي في فرعون منازلة شديدة فقلت : يا رب تدعه وقد قال أنا ربكم الأعلى ؟
فقال : إنما يقول هذا عبد مثلك » أقول والكلمتان قوله « أنا ربكم الأعلى » وقوله « آمنت أنه
لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل » .

فإذا كان نكال الأولى عفيفاً قاسياً دائماً على روحه ببدنه ، فكيف بنكال
الآخرة وهو أشد وأنكى وأبقى ؟ « إن في ذلك لعبرة لمن يخشى » .

عبرة ما أعظمها بما يُرى بدنه القذر في الأهرام ، يراه السائحون الوافدون
إلى مصر ، عبرة لمن يخشى الله ويخشى نكاله الآجل والعاجل ، وكل سائر على
نهجه ، وكل إنسان يعمل على شاكلته .

* * *

.. « أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ^{٢٧} رَفَعَ سَمَكَهَا
فَسَوَّاهَا ^{٢٨} وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ^{٢٩} وَالْأَرْضَ بَعْدَ
ذَلِكَ دَحَاهَا ^{٣٠} أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ^{٣١} وَالْجِبَالَ
أَرْسَاهَا ^{٣٢} مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ^{٣٣} ..

جولة أخرى لها جرسها الصارخ في أعماق الأسماع ، تُندّد بالمشركين الطغاة
المعتدين المغترين بقوتهم ؛ رداً لهم إلى شيء من مظاهر القوة الإلهية الكبرى
الملموسة المحسوسة ، التي لا تحسب قوتهم يجنبها شيئاً يذكر .

« أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا » :

قوة وصلابة ورموزاً وغموضاً ، بدءاً وعوداً .

« أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا » :

بناها كسما لا كسبع سموات ، لأن دحو الأرض وإخراج مائها ومرعاها ،

كل ذلك كان قبل خلق السماء سبعة كما تفصلها الآيات في « فصلت » : « قل
 إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب
 العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة
 أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا
 طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في
 كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم »
 (٤١ : ٩ - ١٢) .

فخلق السموات السبع متأخر عن خلق الأرض وتعميرها بمرحلة ، وخلق
 أنجمها بما فيها الشمس متأخر عنه بمرحلتين .

بناها من مادتها المنبثقة عن المادة الأولية « ماء » باضطرامها ، وهي الغاز
 « الدخان » ثم استوى إلى السماء وهي دخان . . . بناها وسواها من ذلك الغاز ،
 أن « رفع سمكها فسواها » .

فها بنا آن : بناء السماء ، وبناء السبع الشداد ، والآيات هذه بصدد بيان البناء
 الأول ، ولقد نبأنا عن البناء الثاني - من قبل - سورة النبا .
 « رفع سمكها فسواها » :

والسمك هو الطاق المسموك بما يسمكه ويمسكه من السقوط ، وهو هنا عمد
 لا ترونها ، كما السموات أيضاً بأنجمها : « رفع السموات بغير عمد ترونها » (٢ : ١٣) .
 فسمك السماء قبل السبع ، وسمك السموات السبع ، إنها كليهما « بغير عمد
 ترونها » فَمَّ عَمْدٌ وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهَا وَعَلَىٰ حَدِّ تَفْسِيرِ بَاقِرِ الْعُلُومِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

« فسواها » سماء يرفع سمكها ، فلولا سمكها لم تكن سماء ، بل كانت تتساقط
 إلى أعماق الأجواء كما سوف تتناثر الكواكب عند قيامتها واسترجاع سمكها
 وجاذبيتها .

« فسواها » سماءً عادلة الأطراف ، متساوية الجوانب والأكتاف ، دون اختلاف بين أجزائها لأنها كانت كلها الغازات الأولية على حراراتها وظلماتها وإشراقاتها ، فتلك ليلها وهذه ضحاها ، إذ لم تخلق بعد شمسها المضحية وشموسها المشرقة وكراتها المستنيرة أحياناً والمظلمة أخرى .

« وأغطش ليلها وأخرج ضحاها » :

أصل الغطش من الأغطش وهو الذي في عينه شبه عمش ، والتغطاش هو التعامي عن الشيء ، فإغطاش ليل السماء هو جعله مظلماً ، وعلمته يرمز إلى أن الدخان السماوي كان نيراً لما خلق من تفجر المادة الأولية « الماء » فلما تصاعد دخاناً أظلم : أن أحاطت الظلمة جوانبها المجاورة للفضاء ، والنور والضياء باطن في بطنها ، ثم الله أخرج ضحاها إذ نشر الدخان في الفضاء وقلبه ظهر بطن فأصبح ليلاً وضحى ، نوراً وظلاماً فـ « أغطش ليلها وأخرج ضحاها » .

كل ذلك تؤيده السنة الممتدية بالكتاب وعلى حد تفسير باقر العلوم عليه السلام (١) كما ترى تفاصيلها في البحث الفصل عن خلق السماوات والأرض عند مواضعها الأنسب .

مركز تحقيق كامبوتر علوم إسلامي

(١) نور الثقلين ٥ : ٥٠١ في روضته الكافي بالأسناد عن محمد بن عطية عن أبي جعفر (ع) أنه قال لرجل من أهل الشام : وكان الخالق قبل المخلوق ولو كان أول ما خلق من خلقه الشيء من الشيء إذا لم يكن له انقطاع أبداً ولم يزل الله إذا ومعه شيء وليس هو يتقدمه ، ولكنه كان إذا لا شيء غيره وخلق الشيء الذي جميع الأشياء منه فجعل نسب كل شيء إلى الماء ولم يعمل الماء نسباً يضاف إليه . وخلق الريح من الماء ثم سلط الريح على الماء فشقت الريح متن الماء حتى ثار من الماء زبد على قدر ما شاء أن يشور ، فخلق من ذلك الزبد أرضاً بيضاء نقية ليس فيها صدع ولا ثقب ولا صعود ولا هبوط ولا شجرة ثم طواها فوضعها فوق الماء ، ثم خلق الله النار من الماء فشقت النار متن الماء حتى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء أن يشور ، فخلق من ذلك الدخان سماء صافية نقية ليس فيها صدع ولا ثقب وذلك قوله : والسماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، قال : ولا شمس ولا قمر ولا نجوم ولا سحب ثم طواها فوضعها فوق الأرض ثم نسب الخلقين فرفع السماء قبل دحسو الأرض فذلك قوله عز ذكره : والأرض بعد ذلك دحاها ، يقول بسطها .

دحو الأرض وطحوها :

« والأرض بعد ذلك دحاها » :

إن دحو الأرض وطحوها : « والأرض وما طحاها » (٩١ : ٦) إنه كان
أياً كان - بعد خلق السماء ، لا بعد السماوات السبع ، لما درسناه في الآيات من
« فصلت » أن تسبيح السماء كان بعد خلق الأرض ببركاتها وجبالها ، فما هو دحوها
وما هو تأثيره عليها ؟

إن الدحو والطحو هما : الرمي بقهر والإزالة والرحي والدحرجة ^(١) ،
والأخيرة هي أشمل معانيها وأكفاها دلالة على أن دحوها هو الحركة المنظمة ،
أو بدايتها المكلفة بإرساء الجبال في أعماقها وعلى حد تعبير الأمير ^{عليه السلام} « وعدل
حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشتاخيبي الشثم من صياخيدها فسكنت
على حركاتها من أن تميد بأهلها أو أن تسبخ بجملها » و « سكنت الأرض مدحوة
في لجّة تياره ، وردّت من نخوة بأوه واعتلائه وشموخ أنفه وسمو غلوانه وكفّته
على كظّة جريئة فهدد بعد نزقانه ولبد بعد زيقانه وثباته » ^(٢) .. وسكون
الدحو هنا هو السكون عن الاضطراب بانتظام حركاتها في دحوها .

(١) في تاج العروس « دحى السيل بالبطحاء رمى ، والمطر الداحي الذي يدحو الحصى عن
وجه الأرض بنزعه ، والدحو الحجارة المراماة بها ، ويقال للفرس : مر يدحو إذا رمى
بيده رمياً .

وفي غريب القرآن للراغب « لأصبهاني دحى المطر الحصى من وجه الأرض ، أي جرفها .
ثم ذكر بقية المعاني السابقة » والحركة المنظمة والدحرجة ظاهرة هنا وهناك .
(٢) وبداية الخطبة « كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة ولجج بحار زاخرة يلتطم أراذي
أمواجها وتصطفق متقاذفات أثباجمها وترغو زبداء كالفعول عند هياجها فخضع جياح الماء
المتلاطم لثقل حملها وسكن هيج ارتقائه إذ وطأته بكلكلها وذل مستعدياً إذ تمكنت عليه
بكواهلها ، فأصبح بعد اصطعاب أمواجه ساجياً مقهوراً وفي حكمة الذل منقاداً أسيراً » ..
أقول : والظاهر هنا ومن غيره أن الأرض رويت لأول مرة بالفرق ولم يكن سبيل لترويتها
إلا هذا ، ثم ابتلعت الماء ثم أخرج الماء منها بدحوها .

وقد ذكرنا مسبقاً - سناداً إلى آيات - أن الأرض كانت متحركة منذ خلقت ، ثم جعلها الله تعالى ذلولاً بعد شماسها ، وهنا تعرفنا على بدايتها في انتظام حركاتها أنها بعد خلق السماء قبل تسبيحها .

وفي روايات مستفيضة أن الدحو كان من تحت الكعبة - زادها الله شرفاً - . فعن إمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام : « إن شامياً سأله عن مكة المكرمة لم سميت مكة ؟ قال : لأن الله مكّ الأرض من تحتها ، أي دحاها » .

والملك هو الدحرجة كما في القاموس ، وعنده عليه السلام أيضاً : « فلما خلق الله الأرض دحاها من تحت الكعبة ثم بسطها على الماء » .

وهذه كرامة لمكة المكرمة أنها نقطة الإبتداء لانتظام حركات الأرض الناتجة عنه مختلف ألوان الحياة ، وكما أن حج البيت قيام في الحياة وانتظام للحركات الإنسانية في مختلف مجالاتها « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » أي نقطة تلاق وانطلاق لكافة المتطلبات الحيوية الجماعية الإسلامية السامية .

هذا ، وإن تفسير الدحرجة لدحو الأرض ما تصرّح به اللغات الصراح والأحاديث المفسرة لحق المعنى منه ، ولا تنافيه اللغة والأحاديث التي تفسره بالبسط ، لأن انبساط الأرض في نفسها والحياة هو لزام حركاتها المنظمة المعقولة الدورانية ، إذ كانت لينة تتأثر بالحراك على أثر قانون الفرار عن المركز ، ولم يفسره بـ « البسط » إلا لغة التفسير ، وكما نراه في الكثير من كتب التفسير ، وكذلك الأحاديث التي تعني تفسير النتيجة الهامة من دحوها وحراكها ، ومن الشاهد عليه أننا لا نرى البسط في معنى الدحو إلا بالنسبة للأرض لا سواها !

وإن أهم ما أنتجه دحو الأرض وطحوها هو بسطها وإخراج مائها ومرعاها وإرساء نجبالها في أعماقها ، بعد أن كان مأوها مخبواً فيها ، وجبالها لينة دون رسوٍ في قطع أديمها .

إن بداية ظهور الجبال هي من حصيلة الأمواج التي ظهرت على سطح الأرض

نتيجة الحركات والإصطدامات بالجو البارد ، وقانون الفرار عن المركز ، وكما عن علي بن أبي طالب حين يُسأل : « ممّ خلقت الجبال ؟ قال : من الأمواج » : أي أمواج السطح المذاب ، الضارب إلى الإنجذاب في المواضع المستعدة .

فلقد مدّت الأرض وسطحت على أثر حركاتها الأولية ، ثم على أثر دحوها ، فألقي فيها رواسي شقت من فوقها وأرسيّت في بطنها : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي » (١٥ : ١٩) « هو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً » (١٣ : ٣) .

والرواسي الملقاة تعم المخلوقة الممتدة على سطح الأرض إلى باطنها ، والتي انبثقت من تفجرات البراكين ، والتي سقطت من نجوم السماء .

ومن أهم ما نذكره هنا كأبلغ نموذج روائي بعد الآيات ما عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بشأن الجبال : « وجبل جلاميدها ونشور متونها وأطوادها فأرساها في مراسيها فالزمها قرارتها فمضت رؤوسها في الهواء ورست أصولها في الماء ، فأنهدّ جبالها عن سهولها وأساخ قواعدها في متون أقطارها ومواضع أنصائها فأشقى قلاها وأطال أنشازها وجعلها للأرض عماداً وأرّزها فيها أو تادأ فسكنت على حركاتها من أن تميد بأهلها أو تسبخ بحملها أو تزول عن مواضعها » .

فقد سطحت الأرض ومدت بمسا دحيت « وإلى الأرض كيف سطحت » فهبّت لرسو الجبال وإرسائها في قطع أديمها ، ثم « أخرج منها ماءها ومرعاها » .

« أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها » :

عرفنا مسبقاً أن مياه الأرض كلها من السماء ، وهنا نعرف أنها نزلت عليها قبل دحوها وقبل تسبيح السماء وخلق أنجمها ، فما كان الماء ليخرج من كبد الأرض - وهي مجنونة الحراك والحرارة ، يتصاعد منها بخاراً إلى السماء - لو كانت على حرارتها ، أو كان بخاراً مكنوناً في جوفها لكي لا يفر عنها لو ظهر

على سطحها ، حتى إذا دحاما ربُّها ، فأرسي جبالها المتكونة من الأمواج على سطحها الذائب ، أرساها في قطع أديمها بعدما كانت ليئة غير راسية ، ثم إرساء الجبال - ولزامه برودة الأرض شيئاً ما - هيئاً الأرض لإخراج مائها ومن ثم مرعاها : « متاعاً لكم ولأنعامكم » .

وإرساء الجبال يوحى بتكوينها قبل إرسائها ، وكما الآيات المسبقة تسدل أنها نصبت ثم أرسيت « وإلى الجبال كيف نصبت » ..

فلقد خلقت الأرض محترقة مذابة لا ماء فيها ولا كلاء ولا جبال ، ثم الله أنزل عليها من السماء ماءً بعدما بردت شيئاً ما ، ولكنها ابتلعت ماءها خوف ارتجاعه إلى السماء نتيجة الحرارة الزائدة ، وأخذت الجبال تظهر عليها من الأمواج ، ثم دحاما فأرسي جبالها وأخرج منها ماءها ومرعاها (١) .

« متاعاً لكم ولأنعامكم » :

كل ذلك ليمتتعكم وأنعامكم ، يتبع أنعامكم لكي تتنعموا منها ، ويمتعم إلى أجل مسمى لتذكروا نعمة ربكم وتشكروه عليها .

* * *

.. فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى^{٣٥} يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ

مَا سَعَى^{٣٦} وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى^{٣٧} فَأَمَّا مَنْ طَغَى^{٣٨}

وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا^{٣٩} فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى^{٤٠} وَأَمَّا مَنْ

(١) في الدر المنثور بالاستاد عن قيس بن عباد قال : إن الله لما خلق الأرض جعلت تمور ، فقالت الملائكة : ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً ، فأصبحت صبحاً رقيقاً رواسي فلم يدروا من أين خلقت .

خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ فَإِنَّ الْجَنَّةَ
هِيَ الْمَأْوَىٰ ۚ» ..

« فإذا جاءت الطامة الكبرى :

هي الداهية الغامرة المتفاقمة التي تنسي الدواهي كلها ، ولا تطاق لمن
واقاها (١) ، وهكذا سوف تكون الساعة « والساعة أدهى وأمر » . وما أمر
الساعة إلا كالمح بالبصر » (٥٤ : ٤٦) .

إن هناك طامات ، داهيات غامرات ، والقيامة الكبرى كبراها ، فطامة
الموت (٢) ، وطامة قيام القائم (٣) ، وطامة الرجفة والصيحة ، إنها كلها
طامات ، إلا أنها غير تامات ، إلا الأخيرة الآخرة ، فالصيحة والرجفة الثانية
هي الطامة الكبرى التي تغمر الكون أجمع فلا تبقي ولا تذر ، لواحة للبشر ،
« ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر » .

إن الحياة الدنيا وتمعها كلها متاع ينتهي إلى أجل ، فإذا جاءت الطامة
الكبرى غطت كل شيء ، على المتساع وعلى إنسان المتاع ، وعلى الأرض والسماء

(١) طمه : ملأه ، والماء غمر والشئ كثر والأمر عظم وتفاقم ، والعدد الكثير والداهية ،
والقيامة تطم ، أي تغمر كل شيء ، والطمطمطم وسط البحر ، والطامة الداهية التي لا تستطاع
واصله من طم الفرس إذا استفرغ جهده في الجري ، وطم الماء إذ أملا النهر كله .

(٢) نور الثقلين ٥ : ٥٠٦ ، القمي عن النبي (ص) « كفى بالوئ طامة يا جبرائيل ! فقال
جبرائيل : إن ما بعد الموت أطم وأطم من الموت » .

(٣) المصدر في كتاب كمال الدين وقام النعمة عن أمير المؤمنين (ع) بعد ما يذكر الدجال
ومن يقتله وأين يقتل « ألا أن بعد ذلك الطامة الكبرى ، قلنا : وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال :
خروج دابة الأرض من عند الصفا معها خاتم سليمان .. وذلك بعد طلوع الشمس من مغربها .. » .

المتاع، إنها تطمئ وتعم الكون بمن فيه وبما فيه، ولكي تبدأ الحياة جديدة داخرة ،
ثم لا يبرز هناك إلا ما سعاد الإنسان وقدمه لأخراه .

« يوم يتذكر الإنسان ما سعى » :

يتذكر ما نسيه أو تناساه ، وما لم يكن ليتذكره يوم الدنيا لغفلته :
« يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء
شديد » (٥٨ : ٦) : يتذكره ما هو ؟ « علمت نفس ما قدمت وأخرت »
(٨٢ : ٥) (علمت نفس ما أحضرت » (٨١ : ١٤) إذ كان حين الدنيا يعلم
ظاهره دون باطنه ومصيره ، كما ويتذكر بما يسمعه ويراه من أقواله وأعماله ،
من حله وترحاله ، التي كان ربه يستنسخها في ذاته وفي أرضه .. « يوم تجد كل
نفس ما عملت من خيرٍ مخضراً وما عملت من سوءٍ تود لو أن بينها وبينه أمداً
بعيداً » (٣ : ٣٠) « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » (٧٨ : ٤٠) .

صحيح أن الإنسان يتذكر ما سعاد يوم البرزخ أيضاً ، ولكنه برزخ وليس
تاماً ، وكما أن طامته ليست تامة ، فيوم الطامة الكبرى سوف يكون تذكر
الأعمال تاماً كما الجزاء « يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى » (٨٩ : ٢٣)
وأنى ! ولات حين مناص ، ولا تنفعه الذكرى .

« وبرزت الجحيم لمن يرى » :

بروزاً للرؤية للناظرين ، من أهله وسواهم ، وبروزاً لصلي الغاوين : « وبرزت
الجحيم للغاوين » (٢٦ : ٩١) . « تسعّر الجحيم بمن يدخلها من أصول الضلالة ،
بعد أن كانت خامدة : « وإذا الجحيم سعرت » (٨١ : ١٢) « ثم إنهم لصالوا
الجحيم » (٨٣ : ١٦) .

والجحيم هي نار شديدة التأجج بوقودها النامس والحجارة أعدت للكافرين .
وتبرز الجحيم هو إظهارها بعد خفائها ، ولقد كانت الجحيم مع أهلها يوم الدنيا ،

غافلين عنها ، جحيم الذوات والأفكار والأعمال ، وهي تبرز يوم يقوم الأشهاد :
« لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد »
(٥٠ : ٢٢) وما الجحيم يوم الطامة الكبرى إلا بروزاً لحقائق الأعمال ، منها
كانت أرضها حاضرة .

« فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هي
المأوى » :

تقسم ثنائي للناس أجمعين من أهل الجنة والجحيم بمن فيها من درجات ،
ويذكر لكل مرجعه بما قدمت يداه .

« فأما من طغى » : على ربه وعلى المربوبين ، تجاوز عن طوره وعن الهدى ،
فمدى الطغيان هذا أوسع مما لذوي الجبروت والسلطان ، شاملاً لكل مجاوز
حده ، الذي يحيا حياة الطغيان ، التي هي ممات للعق وذوي الحق ، وليس
الطغيان إلا نتيجة عدم المعرفة بالله ، وعدم الشعور بالمسئولية ، وأن يحسب
الإنسان نفسه كأنه الكل : مدار رحي الكون .

« وآثر الحياة الدنيا » : إن الطغيان يدفعه إلى إثارة الحياة الدنيا على الحياة
العليا ، وكما الإثارة يدفعه إلى الطغيان : « كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه
استغنى » (٩٦ : ٦) .

ليست الحياة الدنيا هي الحياة في دار التكليف ، فإن الدنيا مدرسة الآخرة ،
وإنما أن يعيشها الإنسان حيواناً لا يعرف القيم الإنسانية ، فإذا أهملت الحياة
العليا ، المناسبة للآخرة والأولى ، اختلت كل الموازين والقيم في تقدير الإنسان ،
واختلت كل ضوابط الإدراك الحق والسلوك العدل في حياته ، وأصبح حيواناً
وحشياً على صورة الإنسان .

« فإن الجحيم هي المأوى » : لا في أخراه فحسب ، بل وفي أولاه أيضاً ،

فما أن المأوى هو الملجأ والمسكن ، فالذي يعيش الحياة الشريرة ، فحياته جحيم لنفسه ومن سواه ، مهما كان غافلاً عن جحيم الحياة ، وسوف تظهر حقيقة هذا الجحيم يوم الطامة الكبرى .

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى » :

« وأما من خاف مقام ربه » : خاف مقامه ، دون أن يخافه : « ولنسكنكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد » (١٤ : ١٤) فليس خوف المقام هنا إلا لخوف الوعيد الناتج عن مقام الرب .. فما هو المقام ؟

مقام الرب هنا هو قيامه بالعدل والجزاء الوفاق للحسنات والسيئات ^(١) ، هذا هو مقامه وكما شهد : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » (٣ : ١٨) .

ومن قيامه بالقسط هو الجزاء العدل على الحسنات والسيئات وإن كانت الحسنات فيها فضلاً بعد العدل .

فالله تعالى لا يحيف حق يخاف من جورته : « أفي قلوبهم مرض أم يخافون أن يحيف الله عليهم » (٢٤ : ٥٠) وإنما يخاف من الجائر الفاجر « تخافون أن يتخطفكم الناس » (٨ : ٢٦) .

إذاً فلا يخاف الرب ، وإنما يخاف مقام الرب العاصي لمصيانه ، والعاذل فلا يعصي : « إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » (١٠ : ١٥) .

فخوف الله ليس لألوهيته ، وإنما لعدله برؤوبيته : « إني أخاف الله رب

(١) فإن المقام بين كونه اسم مصدر واسم زمان واسم مكان والأخيران لا يتناسبان مقام الربوبية إذ لا زمان له ولا مكان .

العالمين » (٥ : ٢٨) ، فالذين يخافونه فلا يعصونه : « الذين قالوا ربنا الله
ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة
التي كنتم توعدون » (٤١ : ٣٠) . « ولن خاف مقام ربه جنتان »
(٥٥ : ٤٦) .

والجنتان هما الجسدانية والروحانية وهي أكبر : « وعد الله المؤمنين
والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات
عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » (٩ : ٧٢) . « للذين اتقوا
عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان
من الله والله بصير بالعباد » (٣ : ١٥) .

« ونهى النفس عن الهوى » : إن خوف مقام الرب لا يثمر إلا بنهي النفس
عن الهوى . « إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي » (١٢ : ٥٣) فالنفس
البهيمية هي التي تدفع الإنسان إلى خطوات الشيطان وإلى الطغيان على الرحمان
وإلى أن يؤثر الإنسان الحياة الدنيا ، فليعيش الإنسان حياته يجناحي السلب
والإيجاب : أن يسلب عنه هوى النفس الطائشة الطاغية تنزيهاً وتركياً ، وأن يفرض
على نفسه خوف مقام ربه تجلية له وتجليه ، فيطير يجناحيه إلى معراج المعرفة
والعبودية الكاملة : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

« فمن علم أن الله يراه ويسمع ما يقول ويعلم ما يعمل من خير أو شر
فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس
عن الهوى » ^(١) « فلا تدع النفس وهواها فإن هواها في رداها وترك النفس
وما تهوى دأؤها ، وكف النفس عما تهوى دأؤها » ^(٢) « واحذروا أهواءكم

(١) نور الثقلين ٥ : ٥٠٧ ح ٤٤ عن الصادق (ع) في الآية .

(٢) في ح ٤٥ عن أبي الحسن الرضا (ع) : اتق المرتقى السهل إذا كان منحدره وعراً ،
قال : وكان أبو عبد الله (ع) يقول : لا تدع النفس ..

كما تحذرون أعداءكم فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم وحصائد
ألسنتهم» (١).

هذه هي الطريقة المثلى في تزكية النفس إذ ألهمت طغواها وتقواها : أن
أن يتقي فجورها ويقوّيها في تقواها : « ونفس وما سواها . فآلها فجورها
وتقواها . قد أفلح من زكّاها . وقد خاب من دساها » (٩١ : ٩ - ١٠) .

والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام نزعات النفس وهوساتها ، كما أن
نهيها عن الهوى يساعد على خوف أكثر وأتمّ فيها متناصران في هذا الميدان .

وإنما الإنسان إنسان بهذا النهي وهذا الخوف دون أن يترك نفسه لهواها
فتأخذ حريتها فتعيث في الأرض فساداً .

« فإن الجنة هي المأوى » : في الأولى بحياة سعيدة آمنة آمنة ، وفي الأخرى
بحياة خالدة هي أسعد وأبقى ، فهناك جنة في الحياتين وهناك جحيم فيها .

إن الأول يرتفع وينتهي لحياة رفيعة طليقة ، والآخر يرتكس وينتكس في
درك الجحيم إذ هدر إنسانيته فانهدرت ، فيرجع أخيراً وقوداً للنار كما بدأ الحياة
وقوداً لمشاكل الحياة الجهنمية الفادرة .

فالؤمن جنة أينما حل ، والكافر نار حيثما دار ، وإلى دار القرار .

والدواء الأول والأخير لأدواء الإنسان ككل ، ما عن الرسول الأقدس ﷺ
« إن الله يقول : وعزتي وجلالي وكبريائي ونوري وعلوي وارتفاع مكاني لا يؤثر
عبدٌ هواه على هواي إلا شئتُ عليه أمره ولبتست عليه دنياه وشغلّت قلبه بها ولم
أوته منها إلا ما قدّرت له ، وعزتي وجلالي وعظمتي ونوري وعلوي وارتفاع

(١) في ج ٤٩ بإسناده إلى أبي محمد الدابشي عن الصادق (ع) .

مساكني لا يؤثر عبد هواي على هواه إلا واستحفظته ملائكتي وكفّلت
السموات والأرضين رزقه وكنت له من وراء تجارة كل تاجر وأتته الدنيا وهي
راغمة» (١).

* * *

.. يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ^٢ فِيمَ أَنْتَ مِنْ
ذِكْرِهَا ^٣ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ^٤ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ^٥
كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ^٦ .



مرسى الساعة ومنتهاها :

« يسألونك عن الساعة » :

يسألونك المتعنتون عن مرمى الساعة ، كما وعن الساعة نفسها : « يسألك
الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله » (٣٣ : ٦٣) فما هي الساعة ؟ وما هو
مرساها ؟ وما هو منتهاها ؟

أصل الساعة من ساع الشيء إذا ضاع وزال ، وساعت الإبل : سرحت
وتخلت بلا راع ، فالساعة هنا وفي سواها من آيات إلا القليل ، هي وقت ضياع
الكائنات وزوالها بأسرها وكأنها سرحت بلا راع يرعاها ، ويقال لجزء من الزمان
ساعة ، لتصرّفه وضياعه ، وكما الزمان كذلك بأسره .

وبما أن زوال الكائنات تستقبله القيامة الكبرى ، قيامة الأموات ، اعتبرت

(١) نور الثقلين ٥٠٧ : ٤٨ بإسناده إلى أبي جعفر (ع) قال : قال رسول الله (ص) :

هي أيضاً ساعة ، فالرجفتان : رجفة الإماتة ورجفة الإحياء ، كلتا هما الساعة ،
والأولى أولها والثانية منتهاها ، و « يوم يرونها » : الساعة ، توحى إلى الثانية
لقوله « لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » فهي إذاً ساعة الإحياء . كما أن هنا آيات
توحى إلى الأولى وإليها أيضاً .

فالساعة هنا هي زوال الزمان وضياعه بكائناته ، والانتقال إلى زمان لا زوال
له ولا انتهاء ..

فما هو مرساها ؟ إنه من الإرساء وهو مقابل الجريان : « قال اركبوا فيها
بسم الله مجراها ومرساها » (١١ : ٤١) « وجيغان كالجواب وقدور راسيات »
(١٣ : ٣٤) « والجبال أرساها » ثبتها ووتدّها في كبد الأرض .

فمرسى الساعة ثباتها أو زمن الثبات^(١) ثباتها واقعياً ، أم ثبات الاختلال
والزوال المعني من الساعة ، أم وقفة الزمان لهذا الكون ، تبديلاً إلى زمان دون
وقفة وانتهاء .

« أيان مرساها » : كالمؤثر علوم ردي

أي زمان يكون إثباتها أم ثباتها ؟ ..

كل ما نعرف عن الساعة – بما عرفنا الله – أنها قريب : « إقتربت الساعة
وانشق القمر » (٥٤ : ١) « وما يدريك لعل الساعة قريب » (٤٢ : ١٧)
ولا معنى لقربها ، إلا أن الكائنات تجاوزت عن النصف من عمرها حين نزول
القرآن – إذ يعتبر انشقاق القمر من أشراط الساعة وآيات قربها – وإلا أن كل
آت قريب .

(١) لكونها مصدراً ميمماً أو اسم زمان لا اسم المكان إذ لا معنى لمكان رسو الساعة .

هذا - ثم لا نعرف - ولا يعرف وحق النبيين - عن زمن الساعة شيئاً ،
إلا عن علاماتها حينها بما أوحى الله : « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو
أقرب » (١٦ : ٧٧) .

« فيم أنت من ذكرها » :

أنت بعيد عن ذكرى الساعة كل البعد ، وهي خفية لحدّ يكاد الله يخفيها
حق عن نفسه المقدسة : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس
بما تسعى » (٢٠ : ١٥) .

رغم أنه من المستحيل خفاء أمر عن الله ، ولذلك قال : « أكاد أخفيها »
لا « أخفيها » إخباراً بشدة خفائها عن سواه إلى حيث يكاد يخفيها حق عن
نفسه المقدسة وليس يخفيها عنها ، وإنما من اختصاصات الربوبية علمها وإقامتها :
« إليه يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ » (٤١ : ٤٧) « وعنده عِلْمُ السَّاعَةِ »
(٤٣ : ٨٥) .

وفي أحاديث عدة أن الرسول ﷺ كان يسأل الله عن الساعة ، إذ كثرت
أسئلة المشرّكين حول الساعة فنزلت الآية « فيم أنت من ذكرها » (١) .

« إلى ربك منتهاها » :

منتهاها علماً وإقامة ، ومنتهى زمن الدنيا والبرزخ المتداخل معها ، وهو
الساعة أيضاً إذ تضمحل الكائنات ، لا منتهى زمن الآخرة إذ لا منتهى لها ،

(١) الدر المنثور ٦ : ٣١٤ ، أخرجه ابن مردويه عن علي بن أبي طالب عنه (ص)
وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس والبخاري وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن
مردويه عن عائشة ، وأخرجه عبد بن حميد والنسائي وابن جرير الطبراني وابن مردويه عن
طارق بن شهاب عنه (ص) .

وإن الساعة ليست هي اليوم الآخر كله ، إنما ساعة منه لها بداية : « الرجفة الأولى » ولها نهاية : « الرجفة الثانية » رجفة الإماتة والإحياء ، فإلى ربك منتهاها كما منه مبتدأها .

من هنا وهناك نستوحي أن السؤال عن الساعة كان عن مرساها ومنتهاها ، عن زمن رجفة الإماتة والإحياء ، والثانية هي الأصل وهي المعاد ، فمنتهاى الساعة التي هي الإحياء إنما هو إلى الله ، لا يشاركه فيه أحد ، ولا يعلمه غيره أحد ، كما ورجفة الإماتة منه لا سواء ، وإنهاء الكائنات إلى ساعة الضياع أيضاً منه لا سواء .

« إنما أنت منذر من يخشاها » :

ليس لك إلا الإنذار بشأنها ، دون أن تعلم أو تقدر على شيء منها ، ولا يؤثر إنذارك إلا فيمن يخشاها : « الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون » (٢ : ٤٦) وأما الناكرون لها والشاكون فيها فليس لك إلا إلقاء الحجبة عليهم ، وإن كانوا : « سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » (٢ : ٦) سواءٌ عليهم إذ لا يتذكرون ، لا سواءٌ لك - فـ « إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » (١٣ : ٤٠) .

« إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم » (٣٦ : ١١) .

فهذه من حدودك الرسالية أنت تنذر بها من ينفعه الإنذار ، وهو الذى يشعر قلبه بحقيقتها فيخشأها ويعمل لها ويتوقعها في مواعدها الموكل إلى صاحبها .

زمن لبث البرزخ :

« كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » :

يُخَيَّلُ إلى الناكرين الشاكين في اليوم الآخر وساعته ، يخيل إليهم يوم يرون الساعة : صيحة الإحياء - فإنها من ساعة ذلك اليوم - أنهم لم يلبثوا في الحياة قبلها - برزخ وسواه - لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ، يحسبونهم لبثوا هذا القليل القليل من الزمن ، لضخامة وقعة الساعة وقرعة القارعة ، بحيث تتضاءل إلى جواره ما لبثوه قبلها بأشياء وأشياء وأحداثها ، فتبدو في حسهم كأنها « عشية أو ضحاها » وهو ليس كما يزعمون .

أو أنه ساعة من نهار : « ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم » (١٠ : ٤٥) بل ويقسمون عليه أيضاً : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون » (٣٠ : ٥٥) .

أو يوماً أو بعض يوم : « قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فساء العاديين . قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون » (٢٣ : ١١٥ - ١١٧) .

أو عشر ليال أو سنين : « يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً . يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرآ . نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً » (٢٠ : ١٠٣ - ١٠٥) .

إن المجرمين - على مختلف درجاتهم - يحسبونهم لبثوا في الأرض - أرض التكليف وأرض البرزخ - : لبثوا ساعة من نهار، أو يوماً أو بعض يوم، أو عشية أو ضحاها أو عشر ليال أو سنين ، وكلهم على خطأ فيما حسبوه من تحديد زمن مكثهم ، إلا في أنه كان قليلاً يجنب الحياة الآخرة الخالدة ، وقد يصدقهم الله

تعالى في أصل القلة : « قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون » ويكذبهم في هذه التي زعموها من الزمن ، إذ يجيب عن زعمهم « ما لبثوا غير ساعة » بقوله : « وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون » (٣٠ : ٥٦) .

والقلة لمكث الدنيا هنا قلتان : ١ - القلة يحنب الآخرة من كافة الجهات غير التكليفية ، وقد صدقها الله تعالى تنديداً بمن كان يؤصلها ويكثرها بنكرات الآخرة ، أو أنها كمثل الدنيا : « قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون » (٢٣ : ١١٧) ، فإن الحياة الدنيا مها طالت وازدهرت فهي قليلة يحنب الحياة الخالدة .

٢ - وقلة يزعمها المتخلفون أننا ما أمهلنا في حياة التكليف إلا قليلاً لا يكفي لأداء الواجب ، فهذا ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم : « يوم يدعونكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً » (١٧ : ٥٢) .

وهم الذين يلتمسون من الله الرجوع إلى الدنيا لكي يعملوا صالحاً غير الذي كانوا يعملون ، كأن الوقت ما كان كافياً لما هم يأملون : « ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » (٣٥ : ٣٧) .

أجل وإن حياة التكليف كثيرة - مها قلت - لمن أراد أن يتذكر ، إذ إنها - كلها - ذكرى لمن ألقى السمع وهو شهيد .. مها كانت هي وحياة البرزخ قليلة يحنب الحياة الآخرة الخالدة .

ولبت البرزخ يحسب قليلاً وهو صادق بما عاشوها من حياة أكثرها النوم ، وبما قاسوها إلى الآخرة ، وهو كاذب على ما حددوه من ساعة أو يوم أو بعض يوم أو عشر .

فأهل البرزخ أغلب أوقاتهم في غفوة ونوم إلى حيث سمي البرزخ مرقداً :
« يا ويلنا من بعثنا من مرقداً .. » (٣٦ : ٥٢) وإنما يقظتهم في الغدو والعشي
« النار يعرضون عليها غدواً وعشياً » (٤٠ : ٤٦) « ولهم رزقهم فيها بكرة
وعشياً » (١٩ : ٦٢) .

.. فمن قائل من المجرمين أنه لبث ساعة من نهار ، ومن قائل : عشية
أو ضحاها ، وكما يناسب يقظتهم ، وعمل المسلمين أيضاً يحييهم عن قدر مكثهم أنه
أحد الجديدين : ليل أو نهار ، فإنهم - ومعههم غيرهم : « لا يتعارفون لليل صباحاً
ولا لنهار مساءً ، أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً » (١) فإن ذهبوا في
نهار لم يعرفوا له ليل ، أو في ليل لم يعرفوا له نهاراً .. لذلك يترددون في قدر
مكثهم بين عشية أو ضحاها ، أو ساعة من نهار أو عشر ، لكن الصادقين في
إيمانهم منهم ، الذين أوتوا العلم والإيمان ، إنهم لا يحددون موقف البرزخ بهذا
وذاك ، وإنما مقالته « لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا اليوم البعث
ولكنكم كنتم لا تعلمون » (٣٠ : ٥٦) .. ولئن قالوا إنهم لبثوا قليلاً فقد صدق
الله مقالته : « قال إن لبثتم إلا قليلاً .. » (١٧ : ٥٢) ، فإنه - حقاً - كان
قليلاً يجنب الحياة الآخرة ، ولأنهم كانوا في البرزخ رقاداً نوماً إلا قليلاً ، فهم
- إذا - ينظرون إلى أصل القلة لا حدّها ، كما ويصدق المجرمون أيضاً في أصلها
وقد يروى عن الرسول الأقدس في تفسير الآية قوله : « إن الله إذا أدخل أهل
الجنة الجنة وأهل النار النار ، قال لأهل الجنة : كم لبثتم في الأرض عدد سنين ،
قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قال : لنعم ما تجرتم في يوم أو بعض يوم رحمتي
ورضواني وجنتي ، اسكنوا فيها خالدين مخلدين ، ثم يقول : يا أهل النار كم لبثتم

(١) عن علي أمير المؤمنين في نقل السيد الشريف الرضي في نهج البلاغة .

في الأرض عدد سنين ، قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، فيقول : بشس ما تجرتم في يوم أو بعض يوم ناري وسخطي ، امكثوا فيها خالدين « (١) » .

« .. لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » إن هذه الحياة الدنيا التي يتنافس لأجلها المتنافسون ويتطاحنون ، والتي يرتكبون لأجلها ما يرتكبون ، إنها تنطوي في نفوس أصحابها فإذا هي عنهم عشية أو ضحاها .

هذه القصيرة العاجلة ، والزهيدة الهزيلة التافهة ، أفمن أجل عشية أو ضحاها يضعون بالآخرة .. إنها الحماقة الكبرى ، لا يرتكبها ذو حجى .



(١) الدر المنثور ٦ : ١٧ ، أخرجه ابن أبي حاتم عن إيفع بن عبد الكلاعي عنه (ص) .

﴿سورة عبس — مكية — وآياتها اثنان وأربعون آية﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • عَبَسَ وَتَوَلَّى ^١ أَنْ جَاءَهُ
الْأَعْمَى ^٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ^٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ
الذِّكْرَى ^٤ أَمَا مِنْ أَسْتَغْنَى ^٥ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ^٦ وَمَا عَلَيْكَ
أَلَّا يَزَّكَّى ^٧ وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى ^٨ وَهُوَ يَخْشَى ^٩ فَأَنْتَ
عَنْهُ تَلَهَّى ^{١٠} كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ^{١١} فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ^{١٢} فِي صُحُفٍ
مُكَرَّمَةٍ ^{١٣} مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ^{١٤} بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ^{١٥} كِرَامٍ
بَرَرَةٍ ^{١٦} .. »

« عبس وتولى • أن جاءه الأعمى » :

من هذا العبوس القمطري ؟

العبوس قطوب الوجه من ضيق الصدر لمن كان له صدر ، والقطوب المعنى
لسواه : « يوماً عبوساً قمطيراً » (٧٦ : ١٠) وبنفس الاعتبار قيل العبس لما
يبس على هلب الذنب من البعر والبول ، وعبس الوسخ على وجهه ، وقد وصف

الله ألد أعدائه المعارض لكتابه، بالعبوس : « ثم نظر . ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحرٌ يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر » (٧٤ : ٢١ - ٢٦) .

فمن هذا العبوس ، ضيق الصدر ، القدر الخلق كالبحر اليابس والبول على هلب الذنب ؟ والذي يعده الله صلي سقر لأنه عبس وبسر ثم أدبر واستكبر ..؟

من هذا العبوس القمطير الذي يعبس في وجهه المؤمن الأعشى الضير الفقير ؟ في حين ينصدي لعميان القلوب من الكفار الأقذار الأشرار ؟

من هذا الأحق الذي يتلهى عن يسمي إلى الحق وهو يخشى الله ، ويتصدى لمن استغنى عن الله ، وهو يسمي ليعيث الفساد في الأرض ويهلك الحرث والنسل .

من هذا الغي البعيد البعيد الذي يردعه الله تعالى بهذا العنف عن فعلته السخيفة ويسوقه إلى التذكرة التي هي في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة . كرام بررة ؟

هل يجرؤ مسلم أن يتقول القولة الجاهلة الفاتكة : أنه الرسول الأقدس محمد ﷺ ؟ وهو على خلق عظيم ! والعظيم عند الله إله العظمة ، فما للخلق العظيم أصبح كالأم اللثيم ؟ فما لمن شرح الله صدره بضيق صدره لما شرحه الله به : بضيق لمن يستعلمه شيئاً من القرآن ، أكراماً لألحق المحاربين للقرآن ؟

إن نقلت الأخبار هنا أنه الرسول ﷺ وحاشاه ، لم يراعوا كيان الرسالة المحمدية حق رعايتها ولا شيئاً منها ، أم جهلوا أو تجاهلوا مدى التنديد الشديد في هذه الآيات بشأن الذي عبس وتولى أن جاءه الأعشى ، وهم لم ينقلوها إلا عن الهوى ، ولم يسندوا فيها إلى ركن وثيق من كتاب أو سنة ، إلا نقلاً عن هذا وذاك ، عن الذين لا تسمن أقوالهم ولا تغني من جوع .

في حين أن الرواية عن أهل بيت الرسالة المحمدية تكذب هذه الواقعة بشأن الرسول ﷺ ، تصديقاً لطبع الرسالة القدسية ، وللقرآن هنا وفي سواها من آيات .

فمن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله : « كان رسول الله ﷺ إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم قال : جاء ومرحباً مرحباً ، والله لا يعاتبني الله فيك أبداً وكان يصنع به من اللطف حتى كان يكف عن النبي مما يفعل » (١) .

فالرسول الأقدس يقسم بالله أنه ليس هو المعاتب بشأن الأعمى ، ثم حفيده الصادق عليه السلام يقول : « إنها نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي ﷺ فجاءه ابن أم مكتوم ، فلما جاءه تقدر منه وعبس في وجهه وجمع نفسه وأعرض بوجهه عنه » (٢) .

وفي نقل آخر عنه عليه السلام : « نزلت في عثمان وابن أم مكتوم ، وكان ابن أم مكتوم مؤذناً لرسول الله ﷺ وكان أعمى فجاء إلى رسول الله ﷺ وعنده أصحابه وعثمان عنده فقدّمه رسول الله ﷺ على عثمان ، فعبس عثمان في وجهه وتولى عنه » (٣) .

إذا فلا يُعبأ بما يتقول أو يُنقل أنه الرسول ﷺ (٤) ، إذ يتنافى والكيان

(١) البرهان ٤ : ٤٢٨ - ٢ ، الطبرسي عنه (ع) .

(٢) البرهان ٤ : ٤٢٨ - ١ ، الطبرسي عنه (ع) .

(٣) البرهان ٤ : ٤٢٧ - ١ ، علي بن إبراهيم عنه (ع) .

(٤) كما في الدر المنثور ٦ : ٣١٤ - ٣١٥ ، وليس شيء منها عن المعصوم ، وحاصلها بإلقاء المكررات « أن النبي (ص) كان عنده رجل أو رجال من عظماء المشركين يدعونه إلى الإسلام فجاء ابن أم مكتوم - وهو مؤذن الرسول - يسترشده ويستقرئه شيئاً من القرآن قائلاً : يا رسول الله عطني بما علمك الله ، فأعرض عنه وعبس في وجهه وتولى وكره كلامه وأقبل على الآخرين ، فلما قضى رسول الله (ص) نجواه وأخذ ينقلب إلى أهله أمسك الله بيمض بصره ثم خفق برأسه ثم أنزل الله « عبس وتولى » عن عائشة وأنس وأبي مالك والحكم وابن زيد وابن عباس » .

الرسالي ، والقرآن الحاكي عن كيان الرسول وخلقه العظيم ، والآيات في هذه السورة نفسها .

فالأيتان الأوليان تنقلان العبوس والتولي عن غائب : « عبس - تولى - جاءه » ، والقرآن موجّه بالذات إلى الرسول ﷺ فهو المخاطب في آياته الكريمة لا سواه ، إلا بدليل قاطع ، وفيما إذا خاطب غيره ، فإنما هو بواسطة ، إذ إنَّ وحي القرآن ليس إلا إليه : « نزل به الروح الأمين على قلبك » (٢٦ : ١٩٤ - ١٩٥) .

لا يقول : عبست وتوليت . أن جاءك الأعمى ، وإنما « عبس وتولى » فمن هذا الذي يشكو إليه الله تعالى عنه ، هل هو غير من يوحى إليه بالقرآن ؟ وإذا كان هو النبي ﷺ فهل يشكو إليه عن نفسه المقدسة شكاةً منه إليه ؟

ثم نرى هنا التفاتاً من الغيبة إلى الحضور ، فالمخاطب ثانياً هو الغائب أولاً ، وليست الغيبة في البداية إلا لأنَّ العابس هو البعيد البعيد ، لا يستحق الخطاب لبعده بعبوسه عن ساحة القرب ، يشكوه ربه إلى نبيه ، ثم يخاطبه بعناد وعتاب قاس : « وما يدريك .. » ؟ إضافة إلى نسبته إلى الكفر أو الكفران : « قتل الإنسان ما أ كفره » ولم يسبق هنا من الكفران إلا العبوس والتولي .

ومن وجهة النظرة العامة إلى القرآن فيما يعرف الرسول ﷺ أو يكلفه ، نرى من المستحيل أن يكون العابس هو الرسول ﷺ : فقد سبقت آية العباس

والاعتذار بما يظنون من عبس النبي (ص) أنه (ص) كان مستخلاً بصنديد من صنديد قريش وهو يدعو إلى الله وهو يرجو أن يسلم إذ أقبل ابن أم مكتوم ، فلما رآه النبي (ص) كره مجيئه وقال في نفسه : يقول هذا القرشي إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد ، فعبس فنزل الوحي ، كما عن مجاهد .

هذا الاعتذار يتنافى والقرآن القائل : « وما عليك ألا يزكى » إذ لو رجا إيمانه لكأن مكلفاً بالتصدي له ، ويتنافى وخلق الرسول من إكرامه للمؤمنين ، فليضرب بهذه الأخبار عرض الجدار .

آيةُ الخلق العظيم : « وإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ » (٦٨ : ٤) ولزمته آيةُ خفض الجناح للمؤمنين : « وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » (١٥ : ٨٨ - ٨٩) أفتَحَسِبَ الرسولُ يتركُ أمرَ الله وهو أولُ العابدِينَ « (٤٣ : ٨١) ويتركُ الخلقَ العظيم ، تكذيباً لما قرره رب العالمين : « وإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ » ، كل ذلك تصدياً وإكراماً للطغاة اللثام المستغنين ، فيعبس في وجه مؤذنه الفقير الضرير لأنه استقرأه آيأ من الذكر الحكيم ، فيتولى عنه قولياً عما أمر أن يعيشه طوال حياته المنيرة ؟ « وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » !

إن العبوس لم يكن من رِشِمِ النبي ﷺ مع الأعداء المباينين فضلاً عن المؤمنين المسترشدين ، وقد أمر أن يصبر نفسه معهم : « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا » (٢٨ : ١٨) . وألا يطردهم : « وَلَا تُطْرِدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ » (٦ : ٥٢) . وأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين « وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » (٢٦ : ٢١٥) .

وألا يكون فظاً غليظ القلب : « وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » (٣ : ١٥٩) .

وأن يعرض عن المشركين : « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » (١٥ : ٩٤ - ٩٥) .

هذه وما إليها من أوامر وتعليمات ربانية ، وإنها من أوليات الشروط الرسالية من بدايتها ، أفهل يتركها الرسول فيعامل مؤذنه الضرير الفقير بهذه الفظاظة والغلظة فيطرده فيكون من الظالمين التاركين لأوليات شروط الدعوة ؟

أمن العقل والعدل أن يهتك الرسول العظيم ﷺ ويفتك به هكذا ذوداً عن فرع من فروع الشجرة الملعونة في القرآن : وكما نراه كثيراً^(١) ؟ وليس اختلاق هذه الروايات إلا من التعصب الأعمى واللامبالاة بالدين وعدم الإكتراف بشأن الرسول الكريم ، الذي كان يحابه من يهينه بكل لين واحترام ، فكيف يواجه هذا المؤمن بكل شقوة واخترام ؟ فهل لأنه سأل عن شيء من القرآن ، أو لأنه لا يملك من زخارف الحياة شيئاً ؟! أو مجرد أنه جاءه كما الآية تشير : « أن جاءه الأعمى » لا « أن كلّمه » فاستنكر مجيئه وقال في نفسه : يقول هذا القرشي إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد فعبس فنزل الوحي كما عن مجاهد ! وهو ﷺ كان يمارس طوال حياته ورسالاته عشرة الفقراء المؤمنين كما أمره الله ، وبطبعه الرسالي !.

« عبس وتولى » : عثمان الأموي الاستقراطي الفخور « أن جاءه

(١) في كتابنا « علي والحاكمون » نجد الكثير من هذه الاختلافات في تفضيل الخلفاء الثلاثة على الرسول الأقدس (ص) نرويها عن مسانيد إخواننا السنة :
ففي روضة المجالس أن اسم أبي بكر نقش على خاتم النبي بخط الله تعالى .
وعن أنس بن مالك كان أبو بكر شيخاً يعرف والنبي شاب لا يعرف .
هذه وأمثالها تفصيلاً لأبي بكر على النبي (ص) قبل النبوة وبعدها ، فيما لها من فضيحة فائكة هائكة !

ثم نرى الخليفة عمر لا يحب الباطل والله والنبي يحبان الباطل !
فعن الأسود بن سريع قال : أتيت النبي (ص) فقلت : قد حمدت ربي بمحامد ومدح وإياك ، فقال : إن ربك يحب الحمد فجعلت أنشده فاستأذن رجل طويل أصلع فقال لي رسول الله (ص) : اسكت ، فدخل فتكلم ساعة ثم خرج فأنشدته ثم جاء فكنتي النبي (ص) فتكلم ثم خرج ففعل مرتين أو ثلاثاً ، فقلت : يا رسول الله من هذا الذي أسكتني له ، فقال : هذا عمر لا يحب الباطل .

نرى أمثال هذه الاختلافات الزور بين الروايات عن عالم من الجاهل وسوء الأدب ، ومنها ما وردت في أن العبوس هو الرسول دون عثمان ! حفاظاً على عثمان الأموي وإضراراً بالرسول الأعمى (ص) ! فبما له مراماً ما أبعد وزوراً ما أغفل !

الأعمى .. جاءه ابن أم مكتوم مؤذن النبي ﷺ ذلك المؤمن الهرم الفقير
الضريب ، جاءه بأمر النبي ليحلّ محله ويجلس مجلسه إذ قدمه الرسول ﷺ على
عثمان في مجلسه :

فقد جاء النبيّ ليستقرأه آياً من الذكر الحكيم ، وعنده صناديد قريش وإلى
جانبه عثمان ، فأكرمه النبي وأجلسه بجانبه وأخّر عثمان ، فضايق صدره منه
وعبس في وجهه وتولى عنه وتقذر وجمع نفسه عنه ، سخطاً على عماء وفقره ،
وردأ على حكم الله ورسوله ، فنزلت الآيات بالتنديد الشديد على عثمان ، وردعته
أخيراً عن فعلته المشثومة أرجاعاً إلى تذكرة : في صحف مكرمة ، بأيدي سفرة ،
كرام بررة ، والرسول الأقدس من أكرم السفرة والبررة ، وقد حدث ما حدث
بمحضره الشريف .. لذلك نرى الآيات تقتل عثمان بعدما تندد به : « قتل الإنسان
ما أكفره .. » .

هكذا يبدأ الرسول دعوته ورسالته ، وبكلمة جامعة لا يحصى عنها :
« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فلا موضع - هنا - للأجناد العائلية ، والفخفخات
المالية ، والطنطنات القومية ، والإدعاءات الجوفاء ، ففي حين نرى سورة فذة
تلعن أبا لهب عم النبي وهو من أعرق قريش ، نجد سلمان الفارسي يحتل من
الكرامة ما يغبطه بها العالمون : « سلمان من أهل البيت » لا تقولوا سلمان
الفارسي بل قولوا سلمان المحمدي .

ولذلك نراه ﷺ يكرم عبد الله ابن أم مكتوم - بعدما هتكه عثمان -
أكثر مما كان يكرمه قبله : « فلما نزلت الآية دعاه فأكرمه واستخلفه على المدينة
مرتين »^(١) ، « وكانت عائشة تكرمه بأمر النبي ﷺ : تقطع له الأترج وتطعمه
إياه بالعسل »^(٢) .

(١) الدر المنثور ٦ : ٣١٥ ، أخرجه ابن سعد وابن المنذر عن الضعاف .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٣١٥ ، أخرجه الحاكم وصححه وابن مردويه في شعب الإيمان
عن مسروق .

كل ذلك إكراماً لمن أهانه ابن عفان واعلاناً لمهانة عثمان جبرائلاً للمُهان .

« وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتتفعه الذكرى » :

ما يدريك أيها الأعمى القلب، لعل هذا الأعمى العين يتزكى أكثر مما تتزكى، بما يستقرئه ويستعلمه النبي الأقدس ﷺ أو - على الأقل - يتذكر بما يذكره النبي فتتفعه ذكره في أن يتزكى بها، يتزكى معرفياً ثم عملياً، فما يدريك أن يتحقق هذا الخير الكثير، أن يتطهر هذا الرجل الضير الفقير الذي جاء الرسول راغباً فيما عنده من الخير الغزير !

ما يدريك أن يشرق هذا القلب المنير بما هو أنور بقبس من نور الله، فيزداد نوراً على نور فيستحيل منارة في الأرض تستقبل نور السماء؟ .. أفهكذا تواجه المؤمن الفقير؟ !

« أما من استغنى . فأنت له تصدى . وما عليك ألا يزكى » :

هنا تعلو نبرة الخطاب وتشد لهجة العتاب أن كيف تقسم هكذا قسمة ضيزى بين من استغنى ولا يزكى ومن جاءك يسئ وهو يخشى « كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى » (٩٦ : ٦ - ٧) فهؤلاء الطواغيت المستغنون المتأنفون المتعنتون الذين « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » (٦ : ٢) الذين لا يتركون وليسوا بصدد التعري عن الهدى .. فهؤلاء الحقاء الطواغيت أنت لهم تصدى !

إن التصدي أن يقابل الشيء مقابلة الصدى ، أي الصوت ، الراجع من الجبل . « فأنت له تصدى » : تتصوت له كالقوق وكأنه إله يُعبد .. فإنه يستغنى عن شرعة الله ويطغى ، ثم أنت له ولتبجيله تتصوت وتتعربد .. ليس إلا لأنك من زمريهم دون استحياء من النبي الأقدس ﷺ .

« وما عليك ألاّ يتركى » : ما كُثِّفت أنت بتركيتك ، إذ لست رسولا ، ولو كنته فإذ هو لا يتركى فسواء إنذاره وعدم إنذاره ، فليس هذا التصدي الباطل يبرره رجاء أن يتركى ، فليس عليك بأس ألا يتركى ، لا سيما إذا كان التصدي له بقيمة إبطال قيم الإيمان والعبس في وجه المحرب الصامد في الإيمان . أو ماذا عليك ألا يتركى ؟ ماذا يضررك بعد ألاّ يهتدي رغم المحاولات في هدايته ، في حين أن العبس في وجه المؤمن هو عليك وعلى كرامة الإيمان ! أو : لا يهلك أنه ليس بصدده التزكى ، وإنما تهلك الظواهر المغرية ! (١) .

فهذه حالتك الإيجابية وجاء الطغاة الذين لا يرجى خیرهم وهوامهم ، ثم سلبيتك لمن يسمى وهو يخشى .

« وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى » :

من جاءك ساعياً إلى رسول الهدى ، جاءك ليجلس مجلسك بمقربة من الرسول ، يسعى إلى الخير ليستزيد منه ، إلى منار الهدى ليستنير منه ، وإلى مدينة العلم ليستعلمه ويستقرئه .

جاء يسعى ، مسرعاً في مشيه رغم عماه ، ومتسرعاً إلى الاستزادة ابتغاء كل الفرص ، مطبقاً أمر الله في سعيه وتسرعته : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة » (١٣٣ : ٣) .

من جاء بهذا النمط اللطيف « وهو يخشى » : يخشى الوقوع على الأرض لعماه وسرعته في سعيه ، ويخشى الكفار أن يخذعوه أو يفتالوه ، ولكنه لا يبالي كل ذلك لأنه يخشى الله ، دون كبرياء واستغناء ودون أنفة ورياء ، وإنما يسعى إلى

(١) هذه احتمالات ثلاث في « ما » أن تكون غافية أو استهامية ، وعلى الأول أن تكون أخبارية أو تنديدية أنه لا تفرق عندك تركيته وعدمها .

الرسول ، ويقترّب إليه منجياً إياك يا عثمان! بأمر الرسول ، يسعى بدافع الخشية
و : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (٣٥ : ٢٨) والقرآن تذكرة لمن يخشى
دون من يطغى : « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى »
(٢٠ : ٣ - ٥) « سيذكر من يخشى » (٨٧ : ١٠) .

« فأنت عنه تلهى » : أنت الذي تتصدى وتهتم بمن يطغى ولا يزكى ، أنت
تلهى عن يسعى ويخشى ويزكى ، تلهى عنه عابساً في وجهه مولياً عنه إلى
الطواغيت ، أفعبساً في وجه الإيمان وتلهياً عنه إلى وجه الطغيان ؟

هنا نسال ذوي الضمائر الصافية ، هل من المحتمل - إذا - أن يكون العابس
المولى وجهه عن الأعمى ، اللاهي عنه إلى الطواغيت ، المتصدي لهم ولا يرجي
إيمانهم ، أنه الرسول الذي هو خير العابدین وهو على خلق عظيم ؟! فبذلك تتهدم
دعائم رسالته وأساس دعوته .

كلا - إنه من أرذل الناس وأسوأهم أدباً وأجهلهم بالأدب الإسلامي
والإنساني ، إنه فرع من الشجرة الملعونة في القرآن .

« كلا » : ليس هذا هو الأدب ، ليست هذه هي الشيعة الإسلامية ،
ليس الإسلام بالذي يقرّك على هذه الحالة الرديئة ، وليس الرسول بالذي يسكت
عن التذكرة ، وليس بالذي يقدمك على الأعمى ولى في مجلسك ..

« كلا » : بعداً لخلقك اللئيم ، البعيد البعيد عما جاءت به الصحف المكرمة
بأيدي سفرة ، كرام بررة .

إنّ عليك أن ترجع إلى رسالة السماء ، إلى كتب السماء ، إلى الكرام البررة ؛
لتخرج من هذه اللثامة ؛ لتخرجك من الظلمات إلى النور ؛ إلى صراط العزيز
الحميد .

« كلا » لا يكون هذا هو النبي البار الكريم ، وعلى حد قوله ﷺ :
« والله لا يعاتبني الله فيك أبداً » ..

« كلا » فإنه تذكرة للغافلين ، وتنبيه للجاهلين .

« كلا إنها تذكرة . فمن شاء ذكره . في صحف مكرمة .
مرفوعة مطهرة . بأيدي سفرة . كرام بررة » :

« كلا .. » إنها تذكرة رسالات السماء ، بأيدي سفراء السماء رجالات الوحي ،
يَقْدُمُهُمُ الرسول الأقدس محمد ﷺ ميثاقاً ووثاقاً ، وهو آخرهم مبعثاً .

هذه الدعوة المقدسة مكرمة مطهرة ، مستغنية عن كل أحد وعن كل سند ،
وإنما هي لمن يريد لها لأنها دعوة السماء ، ولأنها كريمة في كل اعتبار ، عزيزة لا
يُتَصَدَّى بها للمعرضين ، ولا يُتَلَهَى بها عن المؤمنين .

« إنها تذكرة » : أي الذكر الحكيم هي تذكرة لمن ألقى السمع وهو
شاهد .

« فمن شاء ذكره » : ذكر ما تذكره به الآيات^(١) تذكرة حاصلها الذكر
لمن شاء أن يتذكر .. تذكرة لما سجله الله تعالى في كتاب الفطرة والعقل ،
فإنها لا تجانب الفطر والعقول ، وليست جديدة لا صلة لها بأعماق ذواتنا وما
تطلبه حيواتنا ، وإنما كيانه أن تذكرنا بما غفلنا عنه واستغفلناه ، بما رأت
على قلوبنا ، وسُتِرَ على عقولنا « إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى » .

فمن الآيات ما تعرفها عقولنا إذ تتذكر بها ما نسيته ، ومنها ما لا تنكرها
لأنها لا تنافيها ، فالكل - إذا - تذكرة .

« إنها تذكرة . فمن شاء ذكره . في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة » :

(١) ضمير المذكر في « ذكره » لا يرجع إلى « تذكرة » فإن الذكور لا يذكر التذكرة وإنما
يتذكر به أمراً آخر كان عنه غافلاً ، فـ (هـ) يرجع إلى حاصل التذكرة وهو الأمر الآخر ،
ذكره : أي ما تذكره التذكرة .

الصحيفة هي المبسوط من الشيء دون خفاء وخباء ، وإنها صحف القرآن في القرآن وفي صحف النبيين أجمعين ، فإن القرآن يحمل الوحي الصادق النازل عليهم من قبل ، وفيه زيادات خالدة ، وأنه بينة ما في الصحف الأولى : « أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى » (٢٠ : ١٣٣) أتتهم في خاتمة الوحي ، في القرآن .

وإنها مكرمة عند الله وعند ملائكة الله ورسول الله ولمن ألقى السمع وهو شهيد ، مكرمة عند من يكرم عقله وضميره ويهدف لإكرام نفسه في الحياة .

وهي مرفوعة عن وحي الأرض ، فإنها وحي السماء ، مرفوعة عن تدخل الأرض وتحريفها ، مرفوعة عن أن تتألف أيدي الدس والتحريف والنسخ والتزييف .

وهي مطهرة من قذارة الباطل ولغو القول والريبة والتناقض : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٤١ : ٤٢) « إنه لقول فصل . وما هو الاهزل » (٨٦ : ١٤) « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » (٤ : ٨٢) .

وجماع القون في تلكم الصحف أنها لا ينقصها شيء من الكمال والجلال والبهاء والجمال ، فهي الحجة البالغة الدامغة على من تصله ، هذه ذاته وطبيعته المتعانة .

ثم نرى وسائطها الملائكية والبشرية أنهم كرام بررة ، لا يزيدونها إلا جلاء ونوراً وبهوراً .

« بأيدي سفرة . كرام بررة » : سفرة ربانيون مرسلون ، سماويون وأرضيون ، أرسلهم الله تعالى للبلاغ : من جبريل أمين الوحي وملائكته الأعوان ، إذ ينزل بها على قلب الرسول الأقدس محمد ﷺ خاتمة الوحي وأفضله : « نزل

به الروح الأمين على قلبك » (٢٦ : ١٩٤) « إنه لقول رسول كريم . ذي قوة
عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين » (٨١ : ٢١) .

وإذ يوحي ملائكته الأعوان معه إلى سائر النبيين مسا نجده خالصاً موجزاً
خالداً في الذكر الحكيم ..

وأنهم سفرة : مرسلون سافرون ، دائموا الحركة في البلاغ ، بوجوه سافرة :
بشاشة ، وصدور سافرة ، وقلوب سافرة ، وألسنة ناطقة بالحق سافرة ،
كيانهم السفور في الحق لا يختبون أمرهم أمروا ببلاغه ، يعيشون حياتهم السفارة
الإلهية كما الله أراد .

فالسفارة هي الكشف والحركة والتنقل بالكشف ، فهم يكشفون السر عن
الحقائق بما أوحى إليهم ، ويتنقلون مناكب الأرض لتحقيق هذه السفارة الإلهية ،
جماعة كشافة وهم كرام بررة^(١) .

إنهم كرام بررة في رسالاتهم وبلاغاتهم ، وليسوا لثاماً خبيثاً ، وأكرمهم
وأبرهم في بلاغ الوحي هو الرسول الأمامي الأبطحي محمد ﷺ كما الأكرم في
الملائكة هو جبرائيل ومن فوقهم الروح زعيمهم العظيم .

فلينجح نحوم ونحوه في مواجهة المؤمنين أمثال ذلك العابس المتولي اللثيم
ليخرج عن عبوسه ولؤمه تخلفاً بخلقه العظيم ، وليذكر بذكراهم المستغنون
الكافرون .

(١) وقد يقال أن السفرة من السفارة بمعنى الكتبة ولكنه بعيد إذ أن الكتبة هنا أسماء
كتبة الأعمال الكرام الكاتبون - ولا يناسب المقام من عدة جهات - أو أنهم كتبة الوحي فليسوا
هم الملائكة ولا النبيون ، والكتبة غير المعصومين ليست لهم تلك الأهمية البالغة التي تخصهم بالذكر
دون المرسلين .

وقد يحتمل أن السفرة بمعنى المصلعين ، ولا بأس أن يعنى مع المعنى الظاهر ، الرأى .
فإنهم هم المصلعون الكرام البررة .

فهذه هي الرحلة الثانية في توجيه ابن عفان العابس ومن تصدى هوله ، من الطواغيت ، بعد تأنيبه أولاً ، توجيهاً له إلى الصحف المكرمة بأيدي سفرة رآكرهم هو الرسول الأقدس ﷺ الذي أساء الأدب بمحضره الشريف .
ثم تأنيب ثالث يقتله وأمثاله بالكفران ونسيان نعم الرب المنان ، ويقتل من استغنى ولا يتزكى .

* * *

.. قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ^{١٧} مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ^{١٨}
مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ^{١٩} ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ^{٢٠} ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ^{٢١}
ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ^{٢٢} كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ^{٢٣} ..

« قتل الإنسان » : إخبار أنه مقتول هو وه غبائه ، قتلته نفسه الأماراة بالسوء ، قتلت روحه وضميره وقلبه ، فالمثل العليا فيه مفضولة ميتة مقبورة ، ومثل الحيونة والطغيان فيه حية ماثلة ، وكما عرفناه من ابن عفان ، وأخرى منه في من استغنى ولا يريد أن يزكى ، تنديداً بالمتصدي والمتصدي له ، كل ما حده .

هذه هي اللعنة التي يستجرها الإنسان إلى نفسه بأخلاقه وأعماله الملعونة ، وعلى حد تفسير الإمام عجلت عليه السلام : « لعن الإنسان »^(١) .

أجل إنه إخبار من الله بهذه اللعنة ، وليس دعاءً وكيف يدعو الله ! اللهم إلا عن ألسنة السفرة الكرام البررة يدعون لهكذا إنسان بالقتل ، أن يقتله الله ختماً على قلبه ويزيفه « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » .

(١) نور الثقلين ٥ : ١٠٠ ح ١٠ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين علي (ع) .

وإنه يستحق القتل على فظيعة تصرفه ، فإنها صيغة تقبيح وتفضيح ، وإفادة
إنه يستوجب القتل لشناعته وبشاعته ، إن قتلاً لأخلاقه التي قتلت إنسانيته ،
أو قتلاً وازهاقاً لروحه الجهنمية التي سواء عليها الإنذار وعدم الإنذار :
« وما عليك ألا يزكى » .

« قتل الإنسان ما أكرهه » :

استفهام انكاري : ما الذي ستره ؟ ستر عقله وضميره وفطرته وبصيرته
فأعماه !.. أم فعل التعجب : عجب منه كيف يكفر بربه ناساً كيانه ؟ كيف
كان وكيف صار ؟..

علام يستغني ويستكبر ؟ ولِمَ يتصدى له من يدعي الإيمان ، عابساً في وجه
المؤمن ؟!

والكفر هنا يعم كل ستر وحجاب على بصيرة الإنسان يحجب ربه ، شاملاً
دافة ألوان العصيان ودرجاته تجاه رب العالمين ^(١) .

« من أي شيء خلقه » :

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » (٧٦ : ١)
كان شيئاً لا يذكر لتفاهته وقذارته لحدوث كان يستحي من ذكره باسمه وقتذاك
« مني » .. خلقه من هذا الذي لم يكن يذكر ، أصل لا قوام له ولا قيمة ، عفن
نقن رجس مهين ، نطفة من مني^١ يمينى .

نطفة عجيبة في خلقها وشكلها على حين مهانتها ، نطفة أمشاج من بحر لجي من
علق . « خلق الإنسان من علق » : الدودات الصغيرة السابحة في البحر المنوي

(١) من كفران النعم وإن كان من الموحدين المسلم ، ومن كفر العصيان كذلك ، إلى آخر
درجات الكفر ، فالشيطان خطرات في الاضلال كلها كفر وظلام .

« إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » : نطفة في وحدتها أمشاج : أخلاط من عناصر عدة ، ومن أشكال عدة من أخرياتها الخلط الثنوي بين الحيوان المنوي والبويضة^(١) ، فلماذا يستغني وأوله نطفة قدرة ، وآخره جيفة مذرة ، وهو بينها حال عذرة ؟ ! ولماذا يستغني وأوله دليل على قدرة الله وحكمته أن كيف خلق النطفة ؟ وتقديره وتيسره وإلى نهاية أمره ، كل ذلك دليل على اتقان الصنع وإحكامه .

« من نطفة خلقه فقدوره » :

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (٢٣ : ١٤) .. هكذا خلقه من نطفة وهكذا قدره جسدياً وروحياً دون أن يكون خلقه فوضى ، دون تقدير ولا غاية .

خلق من نطفة فقدوره إنساناً ، بدله من دودة تافهة نتنة إلى أحسن المخلوقين ، ولأنه أحسن الخالقين .. قدره وهياً لتفهم السبيل وتقبل السبيل .

« ثم السبيل يسره » :

يسر السبيل ذاته لا أنه يسره لها أو يسرها له . ليت السبيل منفصلة عن ذاته ، إنما هي في ذاته - فطرته وعقله - ومن ثم يتزود زيادة الهدى من آفاقه : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (٤١ : ٥٣) . إن السبيل هي الدين : المعرفة فالطاعة لله لا سواه : « فأقم وجهك للدين

(١) نجد تفصيل البحث عن كيان المنى والنطفة في مناسبات أخرى .

حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٣٠ : ٣٠) .

كذلك ويسره سبيل الشر ليجتنبه كما يسره سبيل الخير ليسلكه : « وهدينا النجدين » (٩٠ : ١٠) .

والتيسير هنا وهناك علمي وتطبيقي ، يسرهما الله تعالى له في ذاته « فألهما فجورها وتقواها » (٩١ : ٩) .

والهدف الأصل هو سلوك سبيل الخير على بصيرة « وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بغيره » (١٥٣ : ٦) .

وأي تيسير أقرب وأسهل من كون السبيل المقصودة مندغمة في ذوات المكلفين ، دون حاجة في ابتغائها إلى طي مسافة وغور مفازة ، وإنها هي النعمة الكبرى والحجة العظمى الربانية أن زودنا بسفراء في ذواتنا ، ومن ثم سفراءهم كرام بررة يذكروننا بما فطرنا ربنا عليه ، ثم الكائنات كلها شهود صدق لهؤلاء السفراء في أنفسنا وفي الآفاق .

يسره سبيله تعالى وسبل الحياة كلها ، لرحلات الحياة والاهتداء فيها : « سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى » (٨٧ : ٣ - ٤) .

إنه ليس تقديره الإنسان بالذي ينافيه اهتداء السبيل التي يسره : فإنه تقدير لخلقه ، ثم تقدير لأفعاله أن يحصل عديد منها دون اختياره وهي التي لا يثاب عليها ولا يعاقب ، وأخرى باختياره وهي التي يعاقب عليها ويثاب ، تقدير أ وقضاء بالاختيار ، ونفس الاختيار من التقدير .

يسره السبيل وأمره بسلوك السبيل وأمهله وعمره ما يتذكر فيه من تذكر حتى إذا قضى نحبه .

« ثم أماته فأقبره » :

فكما الخلق والتقدير في الحياة الدنيا نعمة ، كذلك الموت فإنه قفزة إلى حياة أوسع وأرقى ، حياة البرزخ التي تظهر لنا حقائق أعمالنا : رحمه للمؤمنين إذ انتقلوا إلى رحمة الله ، وللمن سواهم أيضاً إذا انقطع بموتهم المزيد من دوافع وأسباب العذاب ، ورحمة للباقيين أن يتخلصوا من أذاه ، ورحمة بصورة عامة إذ لولا الموت لأصبحت الحياة عذاباً فوق العذاب ، كيف لا ومع واقع الموت نرى كيف يظلم بعضهم البعض ؟ وكيف يفترسون ؟ ! فالموت إذاً من رحمت الله كما الحياة الدنيا ولأنها مدرسة الآخرة .

وكما الموت له نعمة كذلك قبره بعد الموت - وعلى حدّ تعبير الإمام الرضا عليه السلام : « لئلا يظهر الناس على فساد جسده وقبح منظره وتغيّر ريحه ولا تتأذى به الأحياء بريحه وبما يدخل به الآفة والدنس والفساد ، وليكون مستوراً عن الأولياء والأعداء فلا يشمت عدوّ ولا يحزن صديق » (١) .

« فأقبره » : ينسب قبره إلى نفسه تعالى إذ هو علّمنا كيف نواري سوآت موفانا ؛ « فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين » (٥ : ٣١) فهذه بداية معرفة الإنسان كيف يواري سوآت الأموات تحت التراب ، ومن ثم أمر الله تعالى بدفن الأموات كرامة لهم ورعاية ، فلم يجعل السنة أن يُتركوا على ظهر الأرض للجوارح والكواسر ، والأمر بالقبر هو الإقبار كما الدفن وهو فعل الإنسان هو القبر ، فلذلك نسب الإقبار إلى نفسه لا القبر .

ثم نعمة أخيرة هي مفتاح نعمة الخلود لمن عرف قيمة الحياة ولم يهملها سدى .

(١) نور الثقلين : ١٠٠ . علل الشرائع فضل بن شاذان سمع الرضا (ع) فإن قال فلم أمر بدفنه ؟ قيل : لئلا يظهر ..

« ثم إذا شاء أنشره » :

بمشيئته خلقه وقدّره ثم السبيل يسره ثم أماته وأقبره ، ثم بمشيئته ينشره مرة أخرى ، قفزة إلى الحياة الأخيرة الخالدة ، و « لتجزى كل نفس بما تسعى » ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وإن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى .

« أنشره » : يحسمه وروحه وحيث يجمع أجزائه الأصلية المتوفاة المكفولة عنده وعند ملك الموت وملائكته : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّل بكم . ثم إلى ربكم ترجعون » (٣٢ : ١١) تَوَفَّيْنَا فِي الْأَجْسَادِ وَالْأَرْوَاحِ ، فَلَا تَضِلُّ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وعن ملائكة الموت مها ضلت عنا « وقالوا إذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد . قل يتوفاكم .. » .

« ثم إذا شاء أنشره » : « أychسب الإنسان أن يترك سدى » (٧٥ : ٣٦) كلا : إنه سوف ينشر للحساب بمشيئة من إليه الحساب .

أنشره للحساب بعد طيّه في التراب ، والإنشار هو الإحياء للتصرف : تصرف رب العالمين في الحساب ، وتصرف المربوبين فيما قدموه لأنفسهم ، فليس هو الإحياء دون قيد وكما يدلنا قرنه بالحياة : « ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً » (٣٠ : ٢٥) . وإذا « جعل النهار نشوراً » فما أنه حياة التصرف ، وإن كان ليس كاملاً كحياة النشور يوم النشور ، وكما لا ترى الآيات في خلسق الإنسان تعبر عنه بالنشور .

ثم - وبعد هذه النعم ، وبعد هذه الحجج ، هل يا ترى الإنسان قاضياً بما أمره ربه ، أمره لصالحه في مختلف مراحل الحياة ، لا لصالحه سبحانه .

« كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ » :

الإنسان ككل ، الإنسان كعمامة النوع ، إن كيانه هو كونه . « كلا » :

ليس كما أراد الله فيها هداة .. « لَمَّا » : وحسبى قبره .. وحسبى نشره
 « لما يقض » لم يؤد « ما أمره » الله ربه ، لم يقض هذه المرحلة على الأرض في
 الاستعداد ليوم الحساب .. وهو هكذا بطبعه الثاني المتخلف ، رغم خطوته
 المهتدة ، فهو هكذا في مجموعه ، فوق أن الكثرة تستغني ولا تنزكى ، وتتكبر
 على الهدى ، ومعها من يعبس في وجه الهدى ، ثم لمن استغنى تتصدى .

فيا له مراماً ما أبعد « قتل الإنسان ما أكفره » ! « إن الإنسان لظالم
 كفار » (١٤ : ٣٤) وأكفر من كل كفّار : « إنا عرضنا الأمانة على السموات
 والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان انه كان ظلوماً
 جهولاً » (٣٣ : ٧٢) .. فالأمانة قد تؤدّى وقد تحمل ، وليس الإنسان يؤدّى
 للأمانات الإلهية لأنه ظالم جهول ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا
 بالحق وتواصوا بالصبر وقليل ما هم ، والباقيون يحملون أمانة الله ولا يؤدونها .

* * *

.. فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ٢٤ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ٢٥
 ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ٢٦ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ٢٧ وَعَيْنًا وَقَضْبًا ٢٨
 وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ٢٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ٣٠ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ٣١ مَتَاعًا
 لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ٣٢ ..

فلكي ينتبه الإنسان لشكر الخالق ، لينظر إلى طعامه كيف خلق ، وما هو
 الجدير بطعمه لصالحه ، نظرات عدة من جهات عدة لكي يصبح طعامه طعام
 الإنسان .

فلينظر الإنسان إلى طعامه : هنا الآيات تنبهنا على كيفية خلق طعام الأبدان

ثم يتلوها - وبالأحرى - وجوب النظر إلى كيفية تحصيله من حلاله وحرامه ، من ضاره ونافعه ، جسدانياً .

فتم إذا ما كان النظر إلى طعام الأبدان واجباً شرعياً ، فهل ياترى النظر إلى طعام الأرواح ليس واجباً ، والبدن مدرسة الروح وقنطرة لكماله؟! .. لذلك ترى الإمامين الصادقين يسألان عن معنى الطعام يحييان : « علمه الذي يأخذه عن يأخذه »^(١) تفسيراً موسعاً وبالمصداق الحقي ، أو تأويلاً وما أحسنه تنبيهاً لغير الخالدين إلى الأرض .

إن الطعام ألصق شيء بالإنسان بعد خلقه ، وألزمه له استبقاءً لكيانه كحيوان . فهلاً يلصق به كإنسان طعام الإنسان ، طعام الروح : المعرفة والعلم ، وغذاء القلب : الإيمان ، فإذا « لا » فإنه قسمة ضيزى ، وإلا فلينظر الإنسان إلى طعام الروح ماذا يجب أن يكون ومن ؟ .. إنه من الله ، من وحيه وإلهامه ، من مصادر الوحي والإلهام ، حيث لا يتخالطه مثوب الأرض ، طعام من الصحف المكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة .

فلو لم ينظر الإنسان إلى طعامه المادي وفي صلوحه لغذائه ، مرض ، أو أنه مسموم ، مات ، أو في أنه من محل أو حرام عصي ربه ، وكل ذلك قابل للجيران وغايته فيما سوى الأخير فناء الجسم وما عليه لو سلم القلب من كدر الكفر والعصيان .

وأما إذا لم ينظر في طعام الروح في أصله فيبقى الروح جائعاً ، أو في نوعه فسمٌ الروح أو قتل ، فهناك الطامة الكبرى مها كان الجسم قوياً صحيحاً ناضجاً .

(١) تفسير البرهان ٤ : ٤٢٩ محمد بن يعقوب بسنده عن زبد الشعام عن الصادق (ع) والشيخ المفيد في الاختصاص بسنده عنه عن الباقر (ع) .

قد تؤخذ المعرفة من مصدر الضلالة على غرة الجهالة دون نظرة عميقة فتصبح الروح جهنمية شاردة عن مصدر المعرفة ، فتقتل بسمها القاتل طول الحياة وإلى الخلود ، كهؤلاء الذين يتبعون كل ناعق وناطق بهواه ، همج رعاع ، لا ينظرون إليهم نظر العقل ، يميلون مع كل ريح ولا يستضيئون بنور العلم ، هؤلاء هم المقتولون بذات أيديهم إذ لا ينظرون إلى طعامهم .

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صبينا الماء صباً ﴾ :
هنا نستوحي من النظر إلى طعام الجسم ، إلى أصوله ومهيأته ، نستوحي نظراً إلى طعام الروح .

« أنا صبينا الماء صباً » : عله أو أنه هو الصب الأول على كرتنا الأرضية ، إذ كانت محترقة عطشانة ، صب عليها ماء ثجاجاً ؛ ليخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً .

إن درجة حرارة الكرة الأرضية - بداية ترسبها زبداء عن التفجر الأول للعادة الأولية « الماء » - إنها كانت هائلة جداً ، لم تكن لتقبل الماء ولا أن يتحد جزأه « الأوكسجين والهيدروجين » إلا بعد أن هبطت حرارتها إلى زهاء أربعة آلاف درجة حرارية ، حينذاك تكوّن الماء في الفضاء الخارجي البعيد عن كرتنا فصب عليها صباً ثجاجاً لحدّ غرقت الأرض في ثجاجها ، ثم يبست بعدما إذ - - - ما من الماء وأبخرت الباقي فشقت الأرض شقاً .

فانشقاق الأرض ، المهيء لخروج النبات فيها ، كان متراخياً بزمن عن صب الماء عليها المشار إليه بـ « ثم » .

« ثم شقنا الأرض شقاً » :

بعد موجان ذائبها ، وموجان مياها ، وبعد انجهاها شيئاً ما ، انشقت الأرض في ظواهرها .

فشق الأرض هو المرحلة التالية لصب الماء ، فما لم تشق لم ينفذ فيها الماء ولم يخرج منها الكلاء ، وبما أن الشق هو الحزم في الشيء ، فقد يشمل تفتت صخور القشرة الأرضية بسبب الفيضانات ومختلف العوامل الجوية التي تفرض انشقاقات الصخور الصلبة الكاسية وجه الأرض ، ولكي توجد الطبقة الطمية الصالحة للزراع .

ولا شك أن هذه الانشقاقات ابتدأت من دحو الأرض وقد عدلت حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الشم من صياخيدها ، وفي الدور الرابع من الأدوار الأرضية حسب التفصيل في الآيات من « فصلت » .

« فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا » :

صب ثم شق فلأنبت الحب ، أول ما أنبت على وجه الأرض وهو من أوليات ضرورات الحياة وأشملها .

الحب هو أصل المأكولات كلها ، تنبت عنه ثم تنبت أيضاً استبقاء لها ، لكي يبذر مرة الحياة ؛ فينبت مختلف النبات .

فقد خلق الله تعالى حبوب النباتات أولاً بعد شق الأرض ، ثم أنبت منها نبات الحبوب ونبات الفواكه والأشجار ، وكل نباتات الأرض : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا . لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا » (٨٧ : ١٤ - ١٦) .

« وَعِنَبًا وَقَضْبًا » :

عنباً وخضروات : بقولات تقضب ، أي تقطع مرة بعد أخرى ، خضروات متواصلة النبات ، تقطع فروعها وتترك أصولها .

« وزيتوناً ونخلًا » :

« شجرة مباركة زيتونة » (٢٤ : ٣٥) « تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن
وصبغ للأكلين » (٢٣ : ٢٠) .. إنها مباركة لحدّ يقسم بها ربها فيما يقسم
« والتين والزيتون » (٩٥ : ١) « والنخل باسقات لها طلع نضيد » (٥٠ : ١٠)
شجرتان مباركتان تختصان بالذكر من بين الشجر ، ولأنها أهمها وأعمها
وأنتها نفعاً .

« وحدائق وغلّياً » :

البساتين المحوطة ذات الأشجار العظيمة الغليظة .

« وفاكهة وأباً » :

« فاكهة » يتفكه بها الإنسان بعد إدام الطعام ، عوناً على انهضام الطعام ،
وتصليحاً وتفزيراً للحياة .

« وأباً » : عشباً وكلاماً ، يتمتع بها أنعامكم ، وكما تتمتعون أنتم بالفواكه
والحدائق الغلب والنخل والزيتون والحب وسائر النبات .

« متاعاً لكم ولأنعامكم » :

هذه كلها لكم ، ولأنعامكم التي هي أيضاً لكم ، والتعرف إلى المعنى من الأب
لا يكلّفنا أكثر من أن نميز بين أكلنا وأكل أنعامنا بين المذكورات ، فما هي
أكل الأنعام منها ؟ وما هي أكلنا ؟ معلوم أن الفاكهة لنا فللأنعام الأب ..
فهل الأنعام تتمتع إلاّ بالأعشاب ، فلتكن هي الأب ، ثم للإنسان الفاكهة ، منها
اشتركا في البعض من هذه وتلك .

وهنا العجب العجيب من الجهالة المتواضعة ! ممن تصدّروا أمور المسلمين ،

وادَّعوا أنهم من خلفاء الإسلام ، كيف لا يعرفون - فيما لا يعرفون - معنى « الأب » كأنهم بدافع التواضع والحائطة على القرآن جهلوه !

وكما عن أمير المؤمنين علي عليه السلام إذ بلغه جهل أبي بكر بالأب : « سبحان الله ! أما علم أن الأب هو الكلاء والمرعى وأن قوله تعالى « وفاكهة وأبا » اعتداد من الله بإنعامه على خلقه فيما غذاهم به وخلقهم لهم ولأنعامهم بما تحمى به أنفسهم وتقوم به أجسادهم »^(١)

(١) نور الثقلين ٥ : ١١١ في إرشاد المفيد . ينقل الرواية التالية دون الذيل الذي نقلناه في المتن ، وقصة « الأب » مشهورة متضافرة عن خليفتي المسلمين « أبي بكر وعمر » : فقد « سئل الخليفة أبو بكر عن قوله تعالى « وفاكهة وأبا » فقال : أية سماء نظاني أو أية أرض تغلني أم أين أنعم ؟ أم كيف أصنع إذا قلت في كتاب الله بما لم أعلم ؟ أما الفاكهة فأعرفها وأما الأب فالله أعلم فبلغ ذلك أمير المؤمنين علياً (ع) فقال : إن الأب هو الكلاء والمرعى .

ذكره الزنجشري في الكشف ٣ : ٢٥٣ ، والقزطبي ١ : ٢٩ ، وابن تيمية في مقدمة أصول التفسير ٣٠ ، وابن كثير في تفسيره ١ : ٥ وصححه في ٦ ، وابن القيم ١٥٨ - ١٥٩ ، والحافظ أبو نعيم الأصبهاني ٤٢٠ وحلية الأولياء ٢ : ٤٠ ، والبيهقي في إعلام الموقعين ٢٩ وصححه ، والحازن في تفسيره ٤ : ٣٧٤ ، والنسفي في هامش الرازي ٨ : ٣٨٩ ، والسيوطي في الدر المنثور ٦ : ٣١٧ ، وابن حجر في فتح الباري ١٣ : ٢٣ ، والكلبي في تفسيره ٤ : ١٨ . وقد قرأ الخليفة عمر على المنبر : « فأنبتنا فيها حباً وعباً وقضباً وفاكهة وأبا » قال : كل هذا عرفناه فما الأب ؟ ثم رفع عصا كانت في يده فقال : هذا لعمر الله هو التكلف ، فما عليك أن لا تدري ما الأب ، اتبعوا ما بين لكم هداة من الكتاب فاعملوا به وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه » .

أخرجه سعيد بن منصور في سننه وأبو نعيم في المستخرج وابن سعد وعبد بن حميد وابن الأنباري وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وابن جرير في تفسيره ٣٥ : ٣٨ ، والحاكم في المستدرک ٢ : ٥١٤ وصححه هو وأقره الذهبي في تلخيصه والخطيب في تاريخه ١١ : ٤٦٨ ، والزنجشري في الكشف ٣ : ٢٥٣ ، ومحب الدين الطبري في الرياض النضرة ٢ : ٩ ، والشاطبي في الموافقات ١ : ٢١ و ٢٥ ، وابن الجوزي في تفسيره ٤٥ : ٣٧٤ ، والسيوطي في الدر المنثور ٦ : ٣١٧ وكنز العمال ١ : ٢٢٧ ، وابن سعد في طبقاته والبيهقي في شعب الإيمان وأبو السعدي في تفسيره والقسطلاني في إرشاد الساري ١٠ : ٢٩٨ ، والمعيني في عمدة القاري ١١ : ٤٦٨ ، وابن حجر في فتح الباري ١٣ : ٢٣ .

نرى هنا وهناك كيف نؤمر بالنظر إلى الكون ، نظر البصر والبصيرة ،
النظرة العلمية والإعتبارية ، كل نظر ممكن لنا فيها وحبه الله إيانا ، ولكننا مع
الأسف ، تركنا النظرات العلمية في الكائنات لغيرنا ، ثم ولم نعتبر بالعبر ، عبر
هذه الكائنات ، ومن الناحية الروحية لأنفسنا .

.. إن النباتات التي أنبتها الله من حبوبها ، لا تحصى عدداً وأنواعاً ، منها يعددها
علم النبات اليوم إلى نصف مليون صنفاً ، إضافة إلى الأصناف المنقرضة المحفوظ
بعضها في المتاحف دون أن يسميها الإنسان بإسم^(١) .

ثم منها ما هو للتغذية ، وما هو لللبس ، أو للدواء ، أو فاكهة ، أو ما هو
للبيهاثم .

وإذا ما فتحنا القيلع المغلقة علينا في مختلف الحبوب ؛ لوجدنا عالماً من مختلف
العناصر ، ليس اختلاف الأصناف فيها إلا لاختلاف المقادير ، فالكل متشابهة
العناصر .

لنأخذ مثلاً حبة القمح التي لا يهمننا إلا أكلها ، فإذا نحلل ألف غرام منها
نجد الماء فيها ١٣٤ غراماً والنشاء ٦٦٣ غراماً وملح النوشادر ٦٠ غراماً والخشب ٣٠ غ
والزيت ١٥ غراماً والمائيزيا ٢٠٢ غراماً والبوتاسا الكاوية ٦٠٦ غراماً والسفور المائي ٩٠٢٧ غ
وكبريت العمود المائي ١٥ غراماً وإلى عناصر أخرى كالصوديوم .. ثم ونجد أكثر هذه
المواد باختلاف المقادير في القطن ، فأصبح من الملابس بعد أن كانت في القمح مطاعم ،
وهكذا في الفواكه : « فليتنظر الإنسان إلى طعامه » .

إن النظر التام إلى الطعام لا يتم إلا بدراسة علم الكيمياء وعلم النبات وهما
أيضاً لا يتان إلا بدراسة علوم عدة ، وهذه هي النظرة الأدنى إلى الطعام ،

(١) من مقالات « اللورد أفبري » في كتابه « محاسن الطبيعة » .

قنطرة لما هو أعلى نطاقاً وهو الوصول إلى معرفة أعلى في الحكمة والقدرة الإلهية ،
ومنه النظرة العميقة الأنيقة إلى طعام الروح : العلم - وكما عن باقر العلوم عليه السلام
« إلى علمه الذي يأخذه عن يأخذه » .

* * *

.. فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ^{٣٣} يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ^{٣٤}
وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ^{٣٥} وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ^{٣٦} لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ
شَأْنٌ يُغْنِيهِ^{٣٧} وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ^{٣٨} ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ^{٣٩}
وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ^{٤٠} تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ^{٤١} أُولَئِكَ هُمُ
الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ^{٤٢} .

« فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ » :

الصاخة هي الصاكة - بشدة صوتها - الأذان ؛ فتصمها ، وكما أن لفظها
أيضاً ذو جرس صاكٍ يخرق صماخ الأذان ، تناصر اللفظ والمعنى ، ولكي نشهد
المشهد الهائل ، مشهد الفرار دون قرار ، للذين تربطهم يوم الدنيا روابط لا تنقسم ،
ولكن الصاخة تمزقها تمزيقاً بما أن لكل يومئذ شأن يغنيه ، ولحدّ كأنه ينسى
حق نفسه .

إنها يوم الفصل ، ومنه فصل الأنساب والأحساب ، روابط القرابات
والصدقات ، لا يحكم فيها حاكم الأنساب ولا يتساءلون عنها : « فَإِذَا نَفَخَ فِي
الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » (٢٣ : ١٠١) وإنما العداة هي
التي تنوب كل هذه وتلك إلا للمتقين : « الْأَخْيَارُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا
الْمُتَّقِينَ » (٤٣ : ٦٧) .

إنها هي الساعة الصاخة (صيحة الإحياء) فإذا هم إلى ربهم ينسلون ،
صيحة تصيح الأسماع وتقرعها ، وتجعل الإنسان يفر من ذويه ، لكل امرئ منهم
يومئذ شأن يغنيه .

« يوم يفر المرء من أخيه ... » :

ولأن الهول هناك هولٌ نفسي يفزع النفس ويفصلها عن محيطها وعنّها أيضاً :
« وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » (٢٢ : ٢) ،
لذلك تراه - وبالأحرى - يفر من ذويه الأقربين والأنسب « من أخيه وأمه
وأبيه وصاحبه وبنيه » .

فهل يا ترى لماذا الفرار « وان الآخرة هي دار القرار » (٤٠ : ٣٩) ؟
فهل لأن كلا ظالمٌ بحقوقهم فيفر ؟ كيلا يطالبوه بظلمهم ؟ وليس كل امرئ
ظالماً !

أم مخافة أن يطالبوه بشفاعته ولأنه من أهلها ؟ وليسوا إلا قلة قليلة !
أم لأنهم لا ينفعونه شيئاً ؟ وهذا لا يستوجب الفرار .
أم لأنهم لا يعرفونهم « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » ؟ فكذلك
الأمير !

أم مخافة أن يتعلقوا به لماذا قصرت تجاهنا ؟ وليس الكل هكذا !
إذا فلماذا ؟ لا نجد أخصر وأشمل من هذا التعبير الذي يشغل الحس
والضمير :

« لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » :

يكفيه - شأنه الشائن ، وهو له الكائن إثر الصاخة القارعة ، هذا يكفيه
عما سواه وعن سواه .

هول أول مفاجيء لا يدع الإنسان - أياً كان - أن يفكر في غيره ، فهو يفرّ وحق عن أقاربه ، فراراً فكرياً فبالأقدام ، ولحدّ لا يكاد يرى بعضهم البعض ، وكما يروى عن الرسول الأقدس ﷺ قوله : « يبعث الناس حفاة عراة غرلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شعوم الآذان ، قيل : يا رسول الله ﷺ ! واسوأناه ينظر بعضنا إلى بعض ، الرجال إلى النساء ؟ قال : شغل الناس عن ذلك نشرّ الصحائف فيها مثاقيل الدرّ ومثاقيل الخردل » لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ^(١)

شأن يغنيه ، إضافة إلى المحتملات المسبقة حسب الدرجات : فراراً عن المطالبة بالتبعات ، يقول الأخ : ما واسيتني ، والأبوان : قصرت في حقنا ، والصاحبة : لم تصاحبني كما يجب ، والبنون : ما ربيتنا كما يحق .
أو فراراً عن الشفاعات ، والأصل الشامل هو الذي قال الله « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .

« وجوه يومئذ مسفرة • ضاحكة مستبشرة » :

تقسم ثنائي لوجوه الناس إلى مسفرة ، والتي عليها غيرة : مسفرة مشرقة بعد الهول العام ، إذ نعرف نجاحها يومذاك ، مسفرة لأنها سافرت مع السفرة ، كرام بررة ، قتلت صحفهم المظهرة ، وطبقتها وعاشت حياتها ، ولأنها اتجهت حياتها إلى الوجّهات الربانية وأعرضت عن الشيطانية .

فكما الصبح يسفر بعد الظلام بخرقه ؛ فينير ، كذلك هذه الوجوه تسفر بعد ظلام الصاحبة ، العام ، منيرة متهلة مشرقة ، تتغير شأنها الذي كان يهيمها ويغنيها ، ثم - علتها - تنعطف إلى الذين يلتصقون بها لشفاعتهم ، إن قريباً أو بعيداً ، فد « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

(١) الدر المنثور ٦ : ٣١٧ ، عن سودة بنت زمعة وسهل بن سعد وأم سلمة وعائشة عن النبي (ص) نقلنا المجموع كرواية واحدة رهابة للاضافات .

إنها مسفرة ضاحكة فرحة مستبشرة، تتطلب بشارات الرحمة كما الله بشرها
يوم الدنيا لهذا اليوم، ولأنها عرفت مصيرها وتبين لها مكانها ومكانتها بعد
حريتها من هول الصاخة المذهل المبكي .

وإنها الوجوه الناعمة الراضية : « وجوه يومئذ ناعمة . لسميها راضية »
(٨٨ : ٧ - ٨) .

والناصرة الناضرة : « وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة » (٧٥ : ٢١ - ٢٢) .

« وجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قفرة . أولئك هم الكفرة
الفجرة » :

تعلموها غبرة الحزن والحسرة وسواد الذل والانقباض والانكماش ، فهي إذاً :
« باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة » (٧٥ : ٢٥ - ٢٤) وهي : « خاشعة .
عاملة ناصبة » (٨٨ : ٢ - ٣) .

وجوه مغبرة عليها غبرة الحزن والأسى ، ترهقها : تغشاها - قفرة : هي سواد
الذل - وترغمها ، يبقى عليها هول الصاخة ، ويزيد إذ عرفت ما قدمت
لأنفسها - من سخط شديد وعذاب عتيد .

إن هذه الغبرة الظاهرة على تلك الوجوه هي شيء من فوضى الحياة المغبرة
التي عاشوها ، وهنا يعرفون بها « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي
والأقدام » (٥٥ : ٤١) وكما المؤمنون « سيماهم في وجوههم من أثر السجود »
(٢٩ : ٢٨) .

« أولئك هم الكفرة الفجرة » : كفروا بالله وأنعمه ، وفجروا حرمت الله
وما راعوها .



سورة التكويمكية وآياتها تسع وعشرون ﴿١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ^١
وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ^٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ^٣ وَإِذَا الْعِشَارُ
عُطِّلَتْ ^٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ^٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ^٦
وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ^٧ وَإِذَا الْمَوْءَدَةُ سُئِلَتْ ^٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ
قُتِلَتْ ^٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ^{١٠} وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ^{١١} وَإِذَا
الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ^{١٢} وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ^{١٣} عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا
أُحْضِرَتْ ^{١٤} ..

« إذا الشمس كورت » :

أحداث كونية ضخام جسام تشير إلى أن هذه الكائنات المنسقة في نظامها
وحركاتها سوف ينفرط عقد نظامها وتتناثر أجزاؤها .
فهذه الشمس التي هي نور كل ظلام ، وحياة الأحياء مع المساء ، هذه النبعة

الحياة النورية الحرارية سوف تموت وتقرض ، تكوّر وتدور ، فما هو كورها؟ وما هو دورها ؟

فهل إن كورها أن يحاط عليها ؟ كما : « يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل » (٣٩ : ٧) إحاطة الليل على النهار بظلامه ، والنهار على الليل بضوئه ، إحاطة ماحية لكيان كلٍّ منهما بكل منهما ، فكذلك يحاط على الشمس بما يدمرها ويظلم عليها ، وهذا هو كور الطاقات المدمرة للشمس ؟

أو كورها في نفس ذاتها بضم بعضها إلى بعض ككور العمامة ولفها بنحو الإدارة ؟

أو انه جمعها وصرعها ، بنقص كيائها ونورها ؟

أو زيادتها في حرارتها وسرعتها عند احتضارها . . . بن الرسول ﷺ قوله : « أعوذ من الحور بعد الكور » ، أي من النقص بعد الزيادة .

أو كورها على أخيها الأصغر : القمر ، بشمولها عليه « وجمع الشمس والقمر » (٧٥ : ٨) (١) ؟

كلّ محتمل (٢) ، أو أنها مرادة بجمعاء ، فإن قيام الشمس تضم ضمها ولفها وجمعها وصرعها ونقصها في كيائها وزيادة سرعتها ونورها في اللحظات الأخيرة من عمرها (٣) ، ثم برودتها وانطفاء شعلتها وانكماش ألسنتها الملتهبة التي تمتد الآن

(١) وفي كور القمر أ . . البخاري عن النبي (ص) قوله : الشمس والقمر مكوران يوم القيامة (الدر ٦ : ٣١٨)

(٢) هذه المعاني اللغوية للحدس . نستفاد بعضها من القرآن والحديث ، ذكرت في لسان العرب . وعن ابن عباس تفسير الكور بالانظلام والأغوار وكما عن مجاهد وسعيد بن جبير الأخير وعن أبي صالح « نكست » وعن مجاهد اضمحلت وعن الضحاك وقتادة ذهب ضوءها ، ومرجع الكل واحد كما عرفناه .

(٣) ولعلها المعنية هنا . روي عن الرسول (ص) « كورت في جهنم (المصدر) » إن اللحظات الأخيرة من عمرها تصبح كأنها جهنم من شدة حرارتها ، إذ تنقبض إلى النهاية فتعترق إلى النهاية .

من جوانبها إلى ألوف الأميال حولها في الفضاء ، فسوف تكوّر لا السنة لها حداد لها ولا امتداد ولا جريان ولا ضياء ، وهذا هو مصير الشمس كلها ، إذا جاء أجلها فتتت ورجعت لحالها الأولى ، وأحيلت إلى المصانع الإلهية في العوالم الأثيرية لبصاغ منها عالم جديد .

نرى بعض علماء الفلك يؤكّدون أن منبع الطاقة الحرارية للشمس ليس إلا "انقباضها وانكماشها وكورها التدريجي" ، وهذا هو الأثر الملموس في كل انضغاط وانكماش ولا سيما في الجسم الحار في نفسه كالشمس .

وحسب قانون الجاذبية لـ (نيوتون) نتأكد أن التشعّشات الشمسية هي إلى النقصان المستمر ، زهاء كيلومترين في كل قرن ، وبهذا تتأكد نظرية الانقباض لـ (هلمولتز) ، وبالإمكان ألا يدرك هكذا نقصان في الشمس طول تاريخ الإنسان ، لكنه قياساً إلى الزمان في أدوار معرفة الأرض ، يظهر كثيراً وملحوظاً ، فالقدر الناقص عن جرم الشمس حتى الآن زهاء (2×10^{47}) أرباً ، وهي أقل بآلاف المرات من الطاقات العامة المنفصلة عنها حتى الآن .

إن نظرية الانقباض وإن كانت محل من التصديق ، إلا أن من المؤكد وجود منبع آخر لها أثقل من الطاقة الكيماوية والثقالة ، ويقول (جورج قاموف) بعد تحقيقات عدة^(١) أن حرارة الشمس من الطاقة تحت الذرية .

ويقول : « ليس بالإمكان أن يتجاوز عمر الشمس $(1 / 1000000)$ مما هو الآن ، لو كان المنبع الحراري لها شيئاً من المواد الكيماوية ، لذلك فليكن القسم الأكبر من منبعها الحراري من العناصر الخالصة التي هي آخر المطاف للتبدلات الكيماوية لكل العناصر غير الخالصة » .

هذا — وحرارة الشمس الآن — في سطحها ثلاثة آلاف درجة وفي باطنها

(١) في كتابه موت الشمس .

سبعون مليوناً ، ولولا نزول الأمطار المتناوبة عليها لأحرقت الأرض وانقرضت هي أيضاً قبل أجلها ، وكما عن باقر العلوم قوله : « إن الشمس تطلع ومعها أربعة أملاك ، ملك ينادي يا صاحب الخير أتمم وأبشر ، وملك ينادي يا صاحب الشر إنزع وأقصر ، وملك ينادي أعط منفقاً خلكاً وآت ممكناً تملكاً ، وملك ينزحها بالماء ، ولولا ذلك اشتعلت الأرض (١) » .

ويؤيد الرواية ما عن الدكتور (دونالد منزل) الفلكي الأميركي الشهير : « إن اختلاف الأشكال في القطع المرئية في وجه الشمس ، إنها نتيجة نزول أمطار غزيرة دائبة عليها ، وقد أظهر هو قطعة من الأفلام المصورة عن الشمس ، وفيها صورة أمطار شديدة تنزل على الشمس من ارتفاع ثمانين ألف كيلومتر ، وآها مرسلوا الفلكيين في المؤتمر المعني لذلك (٢) » .

إذا فالشمس في كور دائم شيئاً فشيئاً حتى يخلص دورها فتنتهي إلى كورها الأخير ، جارية في هذا الكور لمستقر لها ثم لا دور لها ولا كور : « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » (٣٦ : ٣٨) .

ومما يطول عمرها أكثر ، ما تسيل عليه من الأمطار الغزيرة ؛ فتتمدها في تباطؤ كورها ؛ وتغنمها أن تحرق الأرض وسائر الكرات القريبة منها إلى أجل ممدود .

« وإذا النجوم انكدرت » :

النجم هو الكوكب الطالع ، وعلة يعم طلوع التمدن فيه أيضاً وأخرى ، والإنكدار من الكدرة وهي الظلمة ، أو كانكدار الطائر إلى الأرض وهو انقضاضه وسقوطه نحوها .

(١) بحار الانوار ج ١٤ كنباني ص ١٢٤ عن الكافي روى الجابر عن الباقر (ع) ..

(٢) نقلته جريدة اطلاعات الايرانية المنشورة يوم الخميس ١٥ ربيع الاول ١٣٦٩ هجرية قمريه الموافق ١٩٥٠ ميلادية ، نقلته عن مكتوب الدكتور دونالد منزل .

فالكواكب الطالعة سوف تغرب عن ضوئها وعن تمدنها ، وسوف تتساقط هذه الطائرات الجوية السائرة على أفلاكها ، بما معها من الكواكب غير الطالعة : « وإذا الكواكب انتثرت » (٨٢ : ٢) والكوكب يعم الطالع وسواء ، والانتثار هو من جراء الإنكدار ، كما تنتثر الطير وتتساقط إلى عمق الفضاء عقب إنكدار حياتها ، فما دامت حية لا تنتثر بمسكة الحياة ، فإذا انكدرت عليها حياتها انتثرت .

إن المعنى من طلوع الكوكب هو واقع الطلوع ، لا بالنسبة لإنسان الأرض ، ومع الصيون المجردة ، إنما واقع الطلوع أينما كان موقعه من السماء .

والكوكب منذ خلقه ليس طالعا ، ثم يتكامل ؛ فيصبح طالعا نيراً ، ومن ثم قد يصلح للحياة والتمدن وهو الطلوع الأخير .

فمن الكواكب ما لم يطلع بعد ، أو هو في الطلوع الأول أو الأخير ، ومنها ما طلع طلوعاً أو طلوعين ثم غرب ، والإنكدار يعني الغروب النهائي والوقوف عن الحراك ، والتساقط إلى أعماق الفضاء ، فالانتثار هو المرحلة الأخيرة من غروبها ^(١) .

يتبدل النجم كوكباً « لا نجم » ثم ينتثر وينطمس « فإذا النجوم طمست » (٧٧ : ٨) طمس الكيان النجمي ، طلوعاً وحراكاً وتجمعاً ، ارجعاً إلى الحالة الغازية الأولى التي خلقت هي - باديء ذي بدء - منها « والسماء ذات

(١) قد يؤيد كون النجم أخص فأكل من الكوكب أن الآيات المستعوضة للخلق لا تأتي إلا بذكر الكواكب ، ثم نرى ما تذكر الحالات المتوسطة والاختيرة تذكر للنجوم ، فمن بسين ثلاث عشرة مرة تذكر النجوم ، لا تجد ولا مرة واحدة استعاض خلقها ، وإنما : الامتداد بها في ظلمات البر والبحر » (٩٧ : ٦) وأنها مسخرات بأمر الله (٥٤ : ٧) وأن لها مواقع (٧٥ : ٥٦) ثم أنها تطمس وتتكدر ، بينما الكواكب تذكر بخلقها « إنا زينا السماء الدنيا بزيانة الكواكب » (٦ : ٣٧) ثم قيامتها : « وإذا الكواكب انتثرت » (٨٢ : ٧) .

الرجع » (٨٦ : ٩) : ترجع بأنجمها إلى ما كانت عليه : « الدخان » :
« .. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض : أثبتا طوعاً أو كرهاً ،
قالتا : أتيننا طائعين ، فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء
أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم » (١٢ : ٤١) .

أجل - وإن هناك انكداراً وانتشاراً وانطياساً ، فالكواكب تنتثر ، والنجوم
تنطمس وتتكدر ، وهذه حوادث جلل وظلمات كبرى تقضي على السماء وكرامتها
حيث الطمس هو المحو وإزالة الأثر .

إن النجوم والكواكب لا تنحصر فيما نراه في السماء بالعيون المجردة أو بواسطة
المراسد الفلكية ، إنها هي العوالم السماوية كلها ، التي لا يعلم عددها ومواقعها إلا الله ،
ف وراء ما نرى منها بمراصدنا مليارات من الفضاءات والمجرات لا نعرف لها عدداً ،
فمنها ما هي بعيدة عنها بما لم يصلنا ضوءها منذ خلقت ، وبعد مليارات السنين ،
والضوء يسير كل ثانية ٣٠٠.٠٠٠ كيلو متراً ، فيا لها غوراً وبعداً عنا !

ومنها ما انقرضت قبل أن يصل إلينا ضوءها ، وعلّ منها ما لن يصل إلينا
ضوءها إلى حين انكدارها وانتشارها ، ومنها ما لم تخلق بعد : « والسماء بنيناها
بأيدينا وإنا لموسعون » (٥١ : ٤٧) . إنه تعالى دوماً في توسيع المملكة السماوية
وحق القيامة الكبرى ، ومن ثم سوف يخلق عوالم أخرى ، فـ « كل يوم هو في
شأن » (٥٥ : ٢٩) .

« وإذا الجبال سيرت » :

« .. وسيرت الجبال فكانت سراباً » : إن هذه الجبال الرواسي الأوتاد
سوف تصبح كالسراب ، تحملها القدرة الإلهية وأرضها حمل التدمير : « وحملت
الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » (٦٩ : ١٤) بعدما كانت تحملها قبل
قيامتها حمل التدمير : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تر مر السحاب صنع

الله الذي ألقن كل شيء « (٢٧ : ٨٨) : هذه قدرة الصنع والتمجير وتلك هي —
قدرة السحق والتدمير وكلتاها من حكمة الخبير البصير .

والأنباء المسبقة عن قيامة الجبال في سورة النبأ كافية لحدّ ما فيما توحى لنا
آيتنا هذه ، وسوف يأتيكم نبأها الفصل في طيات التفسير .

« وإذا العشار عطلت » :

العشار — جمع العشراء — هي النوق الجبال في شهرها العاشر ، وهي أعلى
ما تكون بما هي قريبة الولد ، صاحبة اللبن .. فهي تعطل يوم الطامة الكبرى
في الصيحة الأولى : عطلة عن الحراك والولد والحليب ، إذ تضع حملها قبل أوانه ،
ويحف حليبها لشدة الوقعة .. وهي تهمل عن صواحبها — ف « لكل امرء منهم
يومئذ شأن يغنيه » وكيف لا ؟ وهي الساعة التي : « تذهل كل مرضعة عما
أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن
عذاب الله شديد » (٢١ : ٢) .

والعشار — بما هي أثن ما كانت تملكه العرب المخاطبون وقت النزول —
إنها ، وبصورة عامة ، تمثل أثن ما يملكه الإنسان ويتنافس فيه المتنافسون ، فهو
يشتغل عنها بنفسه في صيحة الإمامة ، وكما يفر عن ذويه في صيحة الإحياء ،
ف « لكل امرء يومئذ شأن يغنيه » .

« وإذا الوحوش حشرت » :

فما هي الوحوش؟ وما هو حشرها؟ .. فهل إنها كل الدواب سوى الإنسان؟
وليست الكل نافر عن الإنسان ، متنافرة مع بعض ، حتى تكون وحوشاً
كلتها !

أم هي غير الآنسة والمتآنسة من الدواب ، ومن الإنسان ؟ أظنه أسلم من

غير الإنسان خاصة ، ولأنه أعم ، ويساعده عموم اللفظ ، ومن الإنسان الوحش ما هو أوحش من وحش الحيوان !

ثم هل إن حشرها هو جمعها يوم الجمع في صبيحة الإحياء كسائر الأحياء من بني الجن والإنسان؟ قد ينافيه أن الآيات الست الأول من السورة وهي خامستها، أنها كلها تصف حالة الكائنات في رجفة الإمامة ، وأن الحشر المطلق هو مطلق الجمع عن تفرق وافتراق دون اختصاص يجمع خاص ، فما لوحوش الحيوان تختص بهكذا حشر ؟

أم هو جمعها للموت كما الآية تخبر عن رجفة الإمامة ؟ ولكنها الجمع هذا لا يختص بالوحوش ، فإنه يعمها والكائنات الحية وسواها بأسرها .

أم هو جمعها بعد تفرقها ، وأنسها بعد توحشها وتزرقها ، فإنها نسيت نفسها من هول الواقعة القارعة ، فكيف بتفرسها وتوحشها؟ .. وإنها تضي هائلة على وجوها كأنها زالت طباعها المتنافرة الوحشية ، وكما هو الحال في كافة المتنافرين المتوحشين من الإنس ومن سائر الحيوان ، فهي إنما تفر وتهجم وتضر ما لم تر حادثة أشد وكارثة أعتد ، ففيها إذا انفزعت بالفرع الأكبر نسيت وتناست ما بينها من عداة ، وتآلفت واجتمعت وحشرت .

كما وقد يكون هكذا حشر لشتمول العدل إذا لا ظلم ولا تحسير ، وهو الحشر الأول في القيامة الوسطى ، في دولة القائم المهدي محمد بن الحسن العسكري عليه السلام إذ « تصطليح في ملكه السباع » (١) .

(١) نجد هذه الجملة في روايات مستفيضة اسلامية وآيات عدة من كتب الانبياء السابقين فصلتها في كتابي « رسول الاسلام في الكتب السماوية » ومنها : في كتاب أشعياء ١١ : ٦ - ١٠ « فيسكن الذئب مع الحمل ويربض النمر مع الجدي ويكون المعجل والشبل والمعلوف معاً وصبي صغير يسوقها ، ترعى البقرة والذئب معاً ويربض أولادها معاً والأسد يأكل التبن كالثور . ويلعب المروض على حجر الاعمى ويضع القطيع يده في نفق الارقم ٨ ، لا يسيثون ولا يفسدون في كل جبل قدسي لان الارض تمتليء من معرفة الرب كما تفر المياه البحر ٩ ، وفي ذلك اليوم أصل يسي القائم راية للشعوب إياه تترجى الامم ويكون مثواه جيداً ١٠ » .

هذا هو الحشر بالمعنى العام : الجمع عن التوحش ، وأما فيما إذا كان الحشر إلى الله فهو الحياة بعد الموت لعامة ذوي الحياة ، ولتجزى كل نفس بما تسعى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون » (٦ : ٣٨) .. وهذا هو الحشر بمعنى الإحياء في صيحة الإحياء ، يشمل الدواب والطيور كلها ، وحشاً وسواها ، إنساناً وسواه ، وعلّ الدابة في الأرض تشمل ما تمشي عليها وما في جوفها وفي بحارها ، دبتاً على الماء والأرض وفي باطن الأرض .

وفما إذا سئلنا عن حشر الحيوان غير الإنسان : لماذا يحشر ويحصى ؟ ألكي تجزى بما تسعى ؟ فكيف تجزى الدابة ولا عقل لها ولا شرعة ومنهاجاً ؟

فهنا الجواب : أن الجزاء يعم ذوي الشعور كما تشعر ، إن عاقلة أم لا ، فإنما المدار في الجزاء معرفة الله وإمكانية معرفته ، وشعورٌ يميز بين العدل والظلم ، كل على قدره ، والطيور والدواب كلها تعرف الله تعالى دون تكلف واكتساب : « ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطيور صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون » (٢٤ : ٤١) « والله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون » (١٦ : ٤٩) .

ثم نراها قد تظلم وقد تظلم وهي شاعرة أنه قبيح والله لا يحب القبيح ، فلولا شعورها بالقبيح فلماذا تفر من الظلم ، أو تعض وتركل أو تفترس من يهاجمها من نوعها أو سواه ؟

ثم الله أحل لنا أكل لحوم قسم منها ، فعليه أن يبدلها -- بما ذبحت -- برحمة منه في حشرها .

وقد نرى الإنسان يظلم ما يملكها فلا يؤدي حقها ، والله تعالى أعدل من أن يدرها سدى لا يقتص لها من ظالمها .

وكل ذلك يتطلب لها حياة بعد الدنيا ، من عدل الله ورحمته ، ولكي تجزى كل بما تسعى .

هذه الآية هي الفريدة في نوعها ومن حيث حشر الدواب ، ثم تضاف الروايات قدلنا على ما استوحينا منها^(١) .

« وإذا البحار فجرت » :

البحار هنا هي كل البحار ، أرضية وسماوية ، والتسجير هو تهيج النار ، من سجرت الثور إذا أوقدتها ، فكيف تهيج البحار بالنار ، فأين الماء وأين النار ؟

الجواب : أن الآية توحى للمصير الأخير للبحار يوم تكوير الشمس وانكدار النجوم ، وأنها سوف تنقلب ناراً بعدما كانت بحاراً كالترتيب التالي :
إن البحار تفجّر في البداية : « وإذا البحار فجرت » (٨٢ : ٣) تفجّراً على أثر زلزال الأرض وانشقاقها ، والتفجر هو الانشقاق الواسع ، تفرقاً وانشقاقاً لياها ، وتغلغلا عن حراكها الشديدة - والحركة تولد الحرارة - وعن ازدياد حرارة الشمس عند تكويرها .

(١) ففي نور الثقلين ١ : ٩٢ هـ عن الفقيه أن النبي (ص) أبصر ناقة معقولة وعليها جهازها فقال : أين صاحبها ؟ مرره فليستمد غداً للخصومة .
وفي المجمع عن أبي ذر قال : بينا أنا عند رسول الله (ص) إذا انتطحت عنزان ، فقال رسول الله (ص) : أتدرون فيما انتطعا ؟ فقالوا : لا ندري ! قال : ولكن الله يدري وسيقضي بينها .

وعن محمد بن جرير وغيره بزيادة : قال أبو ذر : لقد تركنا رسول الله (ص) وما يقاب طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً . (الدر المنثور ٣ : ١١) .
وعن الكافي بالاسناد عن سماعة بن مهران قال : أخبرني الكلبي النسابة قال : قلت لجعفر بن محمد (ع) ما تقول في المسح على الخفين ؟ فتبسم ثم قال : إذا كان يوم القيامة ورد الله كل شيء إلى شيء ، ورد الجلد إلى الغنم فترى أصحاب المسح أين يذهب وضوؤهم .

ثم تحول لها بخاراً يخرج الكرة النارية المذابة من بطن الأرض ، ثم تحول
البخار ناراً كما كان بداية خلق الأرض والسموات وهذا هو تسجير البحار ، فإن
التسجير هو تهيج النار وكما هم : « في النار يسجرون » (٤٠ : ٧٢) فكما النار
تحرق بلهيبها دون اقتصار على الإغلاء ، كذلك البحار تسجّر ، تبداً إلى لهيب
النار بعد أن تفجّر ، وكما البحر المسجور من العذاب الواقع : « والبحر المسجور .
إن عذاب ربك لواقع » (٥٢ : ٥ - ٦) .

إن المواد الكيماوية كلما زادت حرارتها تفسخت وتفجرت عن تركيباتها
وأخذت سبيلها إلى البساطة وإلى المادة الفردة الأولية ، التي هي آخر المطاف في
التقلبات الكيماوية ، وهي تتحمل حرارة أشد وأكث ، كلما كان التحلل عن
التركيبات أكثر وأكثر .

لذلك نجد الشمس في مركزها أثقل وأحر مما في سطحها ، إذ إنها تحمل
أبسط الذرات الكيماوية « الهيدروجين » التي هي آخر المطاف في التقلبات
الكيماوية فيما نعرفه حتى الآن ، وتمر إلى المادة الفردة التي لا نعرفها حتى الآن ،
وقد تحمل مليارات المرات من الحرارة التي نجدها الآن .

وهذه هي مصير كل المركبات والعناصر الكيماوية ، ترجع إلى ما كانت ،
ومنها الماء ، فالبهار تفجّر وتسجّر ، كما الكائنات كلها تسجّر ، فلا يبقى إلا
مسجور محروق .

أجل - وإن الزلازل والبراكين سوف تزيل الحواجز بين البحار فتغفل
على أثرها ، وسائر العوامل الحرارية المسبقة وإلى انفصال ذرقي الماء : الأوكسجين
والهيدروجين ، وإلى تفجرهما أيضاً .. وآخر المطاف أن البحار تسجّر : تصبح
نيراناً ملتهبة هائلة لا يتصور مداها .

وأن تفجّر قدر محدود من الذرات بالقدر المحدودة البشرية في القنابل الذرية
يحدث الهول الذي لا نتحملة ، فكيف بنا إذا انفجرت الذرات كلها ومعها
البحار ، بحار الأرض والسماء ؟!

فمن القمي عن الصادق عليه السلام في الآية قال : « تتحول البحار التي تحول الدنيا كلها نيراناً »^(١)

« وإذا النفوس زوجت » :

التزويج هو قرن كل شيء إلى شئيه ، أو مثله ، أو ما يحق أن يقرن به ، وعلة لا يشمل هنا النكاح لأنه يخص أهل الجنة دون النفوس كلها ، وأن الآية تستعرض قيامة الإحياء قبل الحساب والجزاء ونشر الصحف وتسعير الجحيم وإزالة الجنة ، وقبل أن تعلم كل نفس ما أحضرت^(٢) اللهم إلا أن يعنى من تزويج الأشرار غير النكاح ، وأن خلط الآيات في القيامتين يسمح بشمول التزويج للنكاح وإن ذكر قبل الحساب^(٣) .

إذن فهو التزويج العام يوم القيامة ، الشامل لكل نفس خيرة وشريرة ، قرناً في كل شيء .

من قرن الأجزاء الأصلية المعادة - لكل نفس - بعضها ببعض . دون أن تضل أو أن تتصل إلى غير بدنّها ، وقرن كل نفس ببدنها الأصلي الذي عاشته طوال حياة التكليف ، دون تقمّص غير قميصها ، ودون أن تضل الأرواح ولا الأجساد : « وقالوا إذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد . قل يتوفاكم

(١) نور الثقلين ٥ : ١٤٤ ح ٦ .

(٢) هذه الآيات تجمع بين علامات قيامة الامانة والاحياء ، فمن تكوير الشمس إلى تسجير البحار تشير إلى الأولى ، ومن تزويج النفوس إلى نشر الصحف إلى الثانية ، ثم ترجع إلى الأولى في كسط السماء ، ثم بقية الآيات إلى الثانية ، جمعاً بين القيامتين لوحيدتهما في الطامة واتصالهما .

(٣) ويؤيده المروي عن الامام الباقر (ع) في الآية قال : أما أهل الجنة فزوجوا الخيرات الحسان ، وأما أهل النار فمع كل إنسان منهم شيطان ، يعني قرنت نفوس الكافرين والمنافقين بالشياطين فهم قرناؤهم (نور الثقلين ٥ : ١٤٤ ح ٧ في رواية أبي الجارود عنه (ع)) أقول وهذا من بيان بعض المصاديق الظاهرة .

ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون » (٣٢ : ١٠)^(١) ، وقرن كل نفس بما تجانسه وتقارنه في عقيدة الإيمان وعمل الإيمان من السابقين وأصحاب اليمين ، أو ما تشاركه في تركها من أصحاب الشمال : « وكنتم أزواجاً ثلاثة . فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة . وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة . والسابقون السابقون . أولئك المقربون » (٥٦ : ٣ - ٧)^(٢) ، وقرن كل تابع بمتبوعه وكل مأموم بإمامه : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون فاهدوهم إلى سواء الجحيم » (٣٧ : ٢٢) « يوم ندعو كل إناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » (١٧ : ٧١ - ٧٢) . وقرن كل ساع بسعيه : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » وقرن المؤمنين بالمؤمنات والحوريات في الزواج ، وغير ذلك من التشكيلات المتجانسة ، عدلاً في كل مجالاته ، إذ ليس الملك هناك إلا الله الواحد القهار ، دون الحياة الدنيا التي يقرن فيها الشيء بضده أو نقيضه .

« وإذا المؤمنة سئلت : بأي ذنب قتلت » :

المؤودة من « وأد » مقلوب « آد » : أنقل ، فهي المثقلة وكما توحى إليه آية الكرسي « ولا يؤوده حفظها » : لا يُثقله ويتعبه ثقل السماوات والأرض ،

(١) الدر المنثور ٦ : ٣١٩ عن ابن عباس : « ترسل الأرواح فتزوج الأجساد فذلك قول الله : وإذا النفوس زوجت » ومثله عن أبي العالية والشعبي .

(٢) في الدر المنثور ٦ : ٣١٩ ، أخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير سمعت رسول الله (ص) يقول : « وإذا النفوس زوجت : هما الرجلان يعملان العمل يدخلان الجنة والنار » . أقول : وهو تزويج كل إنسان بعمله أي قرنه به ، وفيه أخرج الفراء عن عكرمة في الآية قال : يقرن الرجل في الجنة بقرينه الصالح في الدنيا ويقرن الذي كان يعمل السوء في الدنيا بقرينه الذي كان يعينه في النار .

وكذلك المؤودة كانت ثقلاً عند العرب الجاهلي ، وفي عصر الصاروخ أيضاً من جهات عدة .

ان المؤودة ، المسؤولة - عنها ولها - هي البنت إذ كانت عبثاً وثقلاً - زعم العرب الجاهلي - في الحياة : المادية منها والمعنوية سواء ، ثقل المعيشة وثقل العار ، فكانوا يثقلونها بالتراب تخفيفاً عنهم ثقل الحياة ، وعلتها سميت مؤودة لهذه الأثقال الثلاثة كلها .

ورغم أن الوأد « الثقل » الأول كان خاصاً بالفقراء ، وأكثرهم كانوا فقراء : « ولا تقتلوا أولادكم من اطلاق - خشية اطلاق - نحن نرزقهم وإياكم » (١٥١ : ٦ - ١٧ : ٣١) . كان الأخيران يعم عرب الجزيرة كلهم : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشره أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون » (١٦ : ٥٧ - ٥٨) .

وإذا المؤودة التي زعمت ثقلاً : مادياً ومعنوياً - ولذلك كانت تثقل بالتراب - إنها سئلت ، بأي ذنب قتلت .

ولقد كان من هوان تاريخ الإنسان عادة وأد البنات المظلومات خوف الفقر والعار ، والقرآن يندد بها في مواضع عدة ، وأنهن إذا كن عاراً فلماذا تنسبون إلى الله البنات : « أم له البنات ولكم البنون » (٥٢ : ٣٩) « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين . وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمان مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين » (٤٣ : ١٦ - ١٨) .

يختص القرآن هذه العملية الوحشية القاسية هنا بذكرها في طيات علامات الطامة الكبرى وآثارها ، إجماعاً إلى أنها من أقسى وأوحش ما مضى على تاريخ الإنسان ، إنها طامة من الطامات ، يحاسب بها فاعلها أول ما يقوم يوم الحساب ،

يذكره في سياق هذا الهول الهائج المائج كأنه حدث " كوني من هذه الأحداث العظام .

إن العرب الجاهلي الوائدين للبنات كانوا على فرق شقي ، تعمها الصورة القاسية الوحشية لهذه العملية العارمة .

فمنهم من كانوا يجلسون المرأة حين وضعها فوق حفرة هيارها من قبل ، فإن كان المولود بنتاً رمي بها فيها ورُدّت .

ومنهم من كان يتركها إلى السادسة من عمرها ثم يقول لأُمها زينبها وطيبها لكي أذهب بها إلى أحمامها فيأخذها إلى حميم البشر ، يدفعها فيها بكل قساوة وضراوة ، ويهيل التراب عليها « أم يدست في التراب » .

والبعض القليل كانوا يمسونها مهينة « أيمسكه على هون » إلى أن تقدر على الرعي فيلبسها جبة من صوف أو شعر ويرسلها في البادية ترعى له إبله ، وفيما إذا تزوجت ومات زوجها جاء وليه فألقى ثوبه عليها منعاً لها عن زواج آخر ثم يرثها أو تقتدي نفسها منه .

هذه وتلك كانت العادة الجاهلية بحق البنات عند العرب ، فما كان لقبيل الأنثى أيّ كيان عندهم ، بل كنّ أنزل مكانة من الحيوان أيضاً وأرذل كياناً .

ولقد كانت في نظر بعض الأجيال صفراً وتحت الصفر ، ففي الجيل الخامس الميلادي كانت تعقد المجامع للنظر في : هل هي إنسانة لها نفس إنسانية ؟ أم هي دون الإنسان رغم صورتها الإنسانية ، وهكذا كان العصر السابق على الإسلام عصر ضياع المرأة ، وكان للرجل كل حق عليها وحق وأدها دون أي نظام يطالبه بالتجريم أو يحكمه بالتحريم ، كأن الوأد هو القانون ، حتى جاء الإسلام مشنعاً بهذه العادات ، ومنتعها بحقوقها واعتبرها بنتاً وزوجة وأماً ، وخلصها

من وأدها وحرماتها حقوقها، ورفع لها من درجاتها كما نحت في كافة مجالات الحياة فردية وجماعية .

فهل تظن الآن أن البنات خلصن من الوأد، وفي عصر تحضّر المرأة وتقدمها مع كل ما وصلت إليه المدنية الحديثة ؟ .. كلا . . وإنما الآن مؤودة أشد مما كانت في الجاهلية الأولى .

إن الآيات تنده بمن يثد البنات أيتا كان ، وأدأ في التراب أم وأدأ في تباب ، قبل الولادة وبعدها ، جسدانياً أم روحياً ، وأحرى أن يسمى الوأد الروحي وأدأ ! فإنه يُعدُّ عن حياة الروح ، وذلك عن حياة الجسم .

فإذا كانت الجاهلية الأولى ثد البنات ، فالجاهلية المتحضرة تثدمن مع الذكور بعملية الإجهاض المتبعة في كافة البلاد ، وتثدمن جميعاً بالأمراض التناسلية الناتجة عن تفشي الفحشاء والخلط بين الجنسين ، لحد تولّد الولائد المرضى ، المبتلين بالأمراض المهلكة ، أم تقتلها قبل ولادتها ، وما إلى ذلك من ألوان الوأد لحدّ لا يحصى .

وإذا كانت الجاهلية الأولى تدفن البنات تحت التراب مخافة الفقر أو العار ، فالجاهلية الأخيرة تدفنهن بشبابها وتدفعها إلى كل عار ودمسار وبوار خلقي ورذالات جنسية مهجية ، وأدأ لكرامتها ودفنها لإنسانيتها ، جاهلية أعمى من الأولى ، غليظة الحس ، حيوانية التصور ، هابطة في درك البشرية إلى حضيض مهين وضلال مبین ، فقدت المرأة ميزتها الإنسانية وانحطت إلى أحط الورطات والنكبات الحيوانية ، لحدّ توزن بثقل جسدها وجمالها وشبابها ونضارتها الجنسية ، كأنها حيوانة خلقت لإرضاء ناحية الجنس ليس إلا .

فإذا يصف أمير المؤمنين عليه السلام الجاهليين الأولين بما يصف - والآخرون أخرى بوصفه - يخاطب الناس فيه : « أيها الناس إن الله تبارك وتعالى أرسل إليكم الرسول - إلى أن يقول : - ودفنوا في التراب المؤودة بينهم من أولادهم ،

أو لا يختارون دونهم طيب العيش ورفاهية حفوض الدنيا ، لا يرجون ثواباً ولا يخافون والله منه عقاباً ، حينهم أعمى نجس ، وميتهم في النار مبليس فجاءهم بنسخة ما في الصحف الأولى» (١) .

فهل يا ترى إن وأد البنات وقتلن في أجسادهن مخافة الفقراء والعار المزعوم ، هل إنه أوحش وأفحش ، أم دفنن في الملاهي والشهوات والدعارات وألوان العار والبوار ، أن يصبحن لعبة للرجال دونما حمى ولا حجز ، نتيجة عدم الإكتراث بشأنهن ؟

فهذا دفن الروح والجسم معاً وذاك دفن الجسم ، هذا دفن المثل العليا والقيم الإنسانية ، وذاك دفن القيم الجسدانية ، فهو أشد من قتل الأجساد ووأدها وكما توحى إليه آيات عدة : « والفتنة أشد من القتل — أكبر من القتل » (٢ : ١٩١) (٢ : ٢١٧) وأية فتنة أشد وأكبر من فتنة اللامبالاة بين الفتيان والفتيات ، الناتجة عن تركهم سدى في خوضهم يلعبون وفي غيهم يعمهون .

وقد يفسر الإمامان الصادق والباقر عليها السلام القتل في الآية : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » (٣٢ : ٥) يفسرانه بقتل الروح وعلى حد قولهما : « من أخرجها من هدى إلى ضلال فقد قتلها » بياناً لأهم المصايق ، كما يفسر الحياة أيضاً بحياة الروح ، ومن أحيّاها فكأنما أحيى الناس جميعاً . من أخرجها من ضلال إلى هدى (٢) .

فسؤال المؤودة يوجه إلى الآباء الحاليين قبل أن يوجه إلى القدامى ، حيث القتل في عصور الحضارة أشد وأكبر منه في الجاهلية الأولى .

إن مؤودة الجاهليات « سئلت » تسأل هي بأي ذنب قتلت : سؤال

(١) نور الثقلين ٥ : ١٥٥ ، الكافي بإسناد عن مسعدة عن الصادق (ع) عنه (ع) .

(٢) المصدر ١ : ٥١٤ ح ١٥٣ . ومثله عن الباقر (ع) بسند آخر .

ترحم واعتذار ، ويسأل وائدها سؤال تقحّم وإنذار ، سئلت :
« لها وعنهما » .

إن السؤال في لفظ الآية لم يوجّه إلى الوائد وهو المسؤول ! إذ خرج بفعلته
الوحشية عن أهلية الخطاب ، والمؤودة هي المؤهلة للسؤال ، أن تسأل ترجماً
واعذاراً يجنب المسؤول ، وتنديداً وإنذاراً للمسؤول ، وكما السيد المسيح سئل :
« وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون
الله » (١١٦ : ٥) .

فقد انحطت درجة المسؤول هنا وهناك لحدّ لا يوجه إليه وحقّ خطاب
العتاب فكيف بسائر الخطاب : « ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم
عذاب أليم » (١٧٤ : ٢) .

« وإذا الصحف نُشِرت . وإذا السماء كُشِطَتْ » :

نشر الصحف وكشط السماء ، فما هي الصحف المنشورة ؟ وما هو كشط
السماء ؟ فما هي النسبة بينهما إذ قرنا ؟

الصحيفة هي المبسوط من الشيء ، وهي غير منشورة يوم الدنيا لأهلها ،
ثم تنشر : تبسط وتخرج عن الخفاء والخباء ، وإنها : صحف الوحي ، وصحف
الأعمال من الأعضاء ومن الأرض ، وصحف القلوب والصدور والأفكار ، التي
كانت مبسوطة ، عليها سطور الهداية وسجلات الأعمال ، ولكنها كانت خفية
عن غير أصحابها ، أو خفية عن بعض أصحابها ، الذين خفيت صحائف عقولهم
« إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى » وصحائف قلوبهم « كلاً بل ران على
قلوبهم ما كانوا يكسبون » (٨٣ : ١٤) « وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدم
عن السبيل وكانوا مستبصرين » (٢٩ : ٣٨) .

أخفوا على بصائرهم صحف الوحي ، وأخفيت عن أبصارهم سجلات الأعمال ،

وحقائق الأعمال، وخفيت على أنفسهم أنفسهم فهم في غمرتهم وسكرتهم يعمهون وفي غيهم يترددون .. وكان بإمكانهم أن يرووا الصحف صحفاً منشورة عندهم ، رغم خفائها على من سوامهم ، ولكنهم عموا وصموا حتى جاءهم وعد الله .

إن نشر الصحف هناك يفيد كشفها ومعرفتها فلا تعود خافية ولا غامضة وهذه العلنية الشاملة يوم المحشر أشد على إنسانها وأنكى ، فكم من سوءة يخجل صاحبها منها في نفسه ويرجف ويذوب من كشفها ، فكيف إذا رآها منشورة حاضرة مشهودة !

إن صحف الإنسان تتكشف للحجة والحساب ، وكما يتكشف الكون ، بأرضه كما عرفناه ، وبسمائه إذا كسحت : تحلت عن كونها سماءً إلى ما كانت عليها من دخان : « يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب اليم » (٤٤ : ١١) تكشط وتكشف لتحضير موقف الحساب ومصير أهل الحساب : « وإذا الجحيم سعرت . وإذا الجنة أزلقت » .

فذلك يوم الكشف والكشط ، يوم ظهور الحقائق دون خفاء ، فما هو إذن كشط السماء ؟

إنه من كشط الناقة - أي تنحية الجلد عنها - ومنه استعير انكشط روعه أي زال ، فكما الناقة تكشط بعد نحرها فتقطع ، كذلك السماء سوف تكشط بعد موتها في الطامة الكبرى ، ينحى عنها جلدُها وجلدها ، وينزع عنها رباطها ، وترجع إلى ما كانت « والسماء ذات الرجوع » (٨٦ : ٩) وأنها تنشق بكشطها : « إذا السماء انشقت . وأذنت لربها وحقت » (٨٤ : ١ - ٢) انشقاقاً وافتراقاً عن امتدادها والتأماها ، فكانت وردة كالدهان : « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » (٥٥ : ٣٧) واهية مسترحية : « وانشقت السماء فهي يومئذ واهية » (٦٩ : ١٦) ويومئذ تتساقط وتنتثر أولادها من حجرها وتفرج : « وإذا السماء فرجت » (٧٧ : ٨) « وإذا الكواكب انتثرت »

(٨٢ : ٢) وفتحت بعد غلقها : « وفتحت السماء فكانت أبواباً » (٧٨ : ٢٠)
وتنور وتكون كالمهل : « يوم تنور السماء موراً » (٥٢ : ٩) « يوم تكون السماء
كالمهل » (٧٠ : ٨) ، « حينذاك ينقضي دور السماء وتطوى طياً : « يوم تطوى
السماء كطي السجل للكتب » (٢١ : ١٠٤) .. يطوى طومار السماء كما تطوى
طوامير الإنسان وصحفه ، ثم تنشر الصحف المطوية بعد النشر وقيامه الحشر
ولتجزي كل نفس بما تسعى .

إنها ليست هي السماء بمفردها التي تكشط وتسترخي عن الجاذبية العامة ،
إنها رخوة الكائنات كلها أن تعمل فيها فوضى الطاقات رجعاً إلى حالتها الأولى ،
تدميراً شاملاً بعد تعمیر ، فكما الله أعطى كذلك الله يأخذ .

هنا نعرف أن كشط السماء وقشطها ليس عن جلدها الظاهر فحسب ، وإنما
عن كيائها السماوي - ككل - وإلى طينها ، تبدلاً إلى غيرها : « يوم تبدل الأرض
غير الأرض والسماء وبرزوا لله الواحد القهار » (١٤ : ٤٨) وكما عن باقر العلوم
عليه السلام في قوله : كشطت ، قال : أبطلت^(١) .

« وإذا الجحيم سعرت » وإذا الجنة أزلفت :

إن الجحيم قبل دخول أهلها غير بارزة ولا مسعرة ، وإنما تسعيرها هو
التهاب النار فيها ، وإنه بوقود الأجساد الجهنمية وأعمالها من الخالدين فيها ، فإنهم
« سيصلون سعيراً » (١٠ : ٤) أي يوقدونها : « مأواهم جهنم كلما جنت زدناهم
سعيراً » (١٧ : ٩٧) .

إن السعير هذا معدّ للكافرين مهما كانت أرضها حاضرة ، والإعداد استعداد
الواقع لا الواقع نفسه : « إن الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيراً » (٣٤ : ٦٤)

(١) نور الثقلين ٥ : ٥١٦ ح ١٤ عن القمي في تفسيره .

« بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً » (٤٧ : ١٣) « إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً » (٧٦ : ٤) .

فإعداد السعير شيءٌ وتسعير الجحيم شيءٌ آخر ، إذا فالجحيم موجودة الآن دون نار مسعرة ، أو أن فيها نارٌ غير مسعرة .

وإزلاف الجنة تقريبها لأهلها إذ قدموا وقربوا لها ما يؤهلهم لأحرازها ، قريباً بقرب : « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد » (٥٠ : ٣١) أزلفت للمتقين - إليهم - وعلاها إلى الجحيم أيضاً ليتراءى أهلوهما فتزداد رحمة أهل الجنة وعذاب أهل الجحيم بهذه المواجهة

وإزلاف الجنة للمتقين يوحى لمكرمتين : ١ - أنها كانت جنة قبل القيامة لأنها من فضل الله دون أن تحتص بقدر الطاعات ، وإن كانت تزيد نضارة وطراوة بدخول أصحابها ، ٢ - أنها على عظميتها تقرب إلى أهلها دون أن يتكلف أهلوها لطي مسافة إليها .

ذلك ولأن النار إنما هي على قدر الأعمال عدلاً من الله فلا تتأجج قبل أوانها ، والجنة هي على قدر فضل الله فليس له جيدٌ يعرف ، وإن كانت الصالحات هي التي تؤهل لإزلافها ودخولها .

وحيث تسعّر الجحيم بوارديها وتزلف الجنة لروادها الموعودين بها أو الموعوظين لها ، عندئذٍ لا يبقى لدى النفوس أية ريبة في حقيقة ما أحضرها ، إذ هم يرون أنفسهم في آثاء الأعمال وحقائق الأعمال بعدما يرون صور الأعمال .

« علمت نفس ما أحضرت » :

بعد هذه الحوادث العظام ، وبعدما كانت النفوس جاهلة بما عملت ، علمت كل نفس ما أحضرته من خير أو شرٍّ ، علماً بما يرى ويسمع من أفعاله وأقواله :

علم العيان : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » (٣ : ٣٠) .

تجدها وجداناً واقعياً فلا تملك إنكارها ولا أن تغير شيئاً منها ولا أن تزيد عليها أو تنقص منها ، فقد جفّ القلم عما كان ولا يحضر إلا ما كان .

صحيح أنه تبدّل كل شيء وتغير ، ولكننا الأعمال لا تتغير ، فإنما تبرز بحقائقها كما ارتجعت الكائنات كلها إلى حقائقها التي صدرت منها .

إن الحياة الدنيا رغم كونها حياة العناء ، ولكنها حياة التقديم ، تخلص وتحضر للآخرة ، وكتابتها : « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » .

إن الحياة الآخرة حياة العلم الضروري ، تعلم فيها ما قدمت شئت أم أبيت ، تعلم عن جهل أو تجاهل كما في الكافرين ، أم بعد علم كما في المؤمنين ، فهم وإن كانوا على علم - منها اختلفت مراتبه - علم بما يحضرون ، ولكنها الغفلة أحياناً من ناحية ، والجهل بحقيقة الأعمال من أخرى ، جعلاه جاهلاً ، ثم يعلمها علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، وإن كان أولياء الله الأكرمون يعلمون قبل الميعاد ، وكما عن الإمام علي عليه السلام : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً » والدنيا كلها غطاء تكشف بالموت ، الموت الاختياري عن الشهوات : « موتوا قبل أن تموتوا » أو الموت الاضطراري « ولات حين مناص » : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

* * *

.. فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ١٥ الْجَوَارِي الْكُنُوسِ ١٦ وَاللَّيْلِ
 إِذَا عَسْفَسَ ١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩
 ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ٢١ وَمَا
 صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ٢٢ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى
 الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ٢٥ فَأَيْنَ
 تَذْهَبُونَ ٢٦ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٢٧ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ
 يَسْتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٩ .

« فلا أقسم » : نجدها في ستة مواضع أخرى ، ومنها التي تنحو منحاتها
 هنا : « فلا أقسم بما تبصرون ، وما لا تبصرون » . إنه لقول رسول كريم .
 وما هو بقول شاعر قليل ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليل ما تذكرون .
 تنزيل من رب العالمين ، (٦٩ : ٣٨ - ٤٣) « فلا أقسم بمواقع النجوم » . وإنه
 لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون . لا يمسه إلا
 المطهرون . تنزيل من رب العالمين . أفبهذا الحديث أنتم تدهنون . وتجعلون
 رزقكم أنكم تكذبون ، (٥٦ : ٧٥ - ٨٢) .

في هذه المواضع الثلاثة نجد موضوع الالقسم أنه صدق القرآن وحياً ،
 وصدق بني القرآن موحىً إليه .

ثم نجدها في سواها باختلاف المواضع : « فلا أقسم بالشفق » . والليل .
 وما وسق . « كثر كبنٌ طبقاً عن طبق » (٨٤ : ١٦ - ١٨) « لا أقسم بهذا »

البلد . وأنت حلٌ بهذا البلد . ووالد وما ولد . لقد خلقنا الإنسان في كبد ،
(٩٠ : ١ - ٣) « لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة . أيجسب
الإنسان أن لن نجمع عظامه » (٧٥ : ١ - ٣) « فلا أقسم برب المشارق
والمغارب إنا لقادرون . على أن نبذل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين »
(٧٠ : ٤٠ - ٤١) .

وموضوع الالقسم في الأخيرين هو القدرة الإلهية على تجديد الحياة يوم المعاد ،
ولعل ركوب الإنسان طبقاً عن طبق ، وخلق في كبد ، عله أيضاً يوحي إليه
أو يعمه فيما يعنيه .

إذا فمدار الالقسم في هذه المواضع السبعة إنما هو أصل الرسالة القرآنية
وأصل المعاد .

فهل ياترى إن القرآن وهو أعظم برهان ، إنه بحاجة إلى برهان سواء ، يدل
عليه ؟ « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » (٢٩ : ٥١) ..

هذا القرآن - وكله برهان - نور لا تطفأ مصابيح ، هل يحتاج في إثبات
وحيه إلى سواء ، وهو الشمس تشرق في الظلمات ؟! فما بال الشمس تستضيء بنور
غيرها ، وما بال النور يستنير بسواء ؟ .. كلا : إنه الدليل يدل إلى خير سبيل ،
برهان لنفسه وفرقان لسواء : يميز الحق عن الباطل في كافة الميادين .

ليست في الرسالة المحمدية أية خارقة تدل عليها كالقرآن وكما يقسم لإثبات
هذه الرسالة السامية بحكمة القرآن : « يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين .
على صراط مستقيم » (٣٦ : ١ - ٤) فسماع الوحي الذي هو النبوة ،
والرسالة على صراط مستقيم ، يتوسطها القرآن الحكيم ، برهاناً
لامردّ له ، لها .

إذا فما هي الحاجة لإثبات وحي القرآن أن يقسم له بالحنس الجواري الكنس
والليل إذا عسعس ، حتى والصبح إذا تنفس^(١) ؟ .

فهل في الحنس : (المنقبض المتأخر المستتر) والجواري الكنس : (المحتجب
الداخل في كناسه) هل فيها دلالة لإثبات وحي القرآن ؟ والكائنات كلها
منقبضة متأخرة مستترة تجاه نور القرآن وبرهانه ، وهو المنشرح المتقدم الظاهر
الباهر كالشمس في رابعة النهار ؟ !

كلا ؛ ولا في الصبح إذا تنفس لأنه أول النفس والقرآن بلغ من أنفاس الحياة
المعنوية منتهاها .

كلا ؛ ولا بمواقع النجوم وهي الظاهرة لكل ذي بصر ، رغم أنه لقسم
لو تعلمون عظيم !

كلا ؛ ولا بأيّ من كائنات العالم : « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون »
إذ لا أظهر من القرآن حتى يظهره ويدل عليه ، أغيره من الظهور ما ليس له ؟
عميت عين لا تراه !

ثم وما هي النسبة الدلالية بين الحنس الجواري الكنس لإثبات وحي
القرآن ، والآية تصرح بنفي القسم : « فلا أقسم » : تقريراً على الآيات الكونية
السابقة كالشمس المكوّرة والنجوم المنكدرة ، أنها وأمثالها من نيرات الكون
مصيرها إلى التكوير والإنكدار ، وشمس القرآن لا تكوّر ولا تنكدر ،
وقد قتلاً أكثر وأكثر حينما النيرات تنكدر ، فهي أيضاً من الحنس الجواري

(١) وقد يشهد له المروي عن علي (ع) في « والصبح إذا تنفس » قال : « يعني بذلك
الأوصياء » يقول : إن علمهم أنور وأبين من الصبح إذا تنفس » (البرهان ٤ : ٤٣٣ ح ٤)
أقول وهو يؤيد اللاقسم ، إذا لا يقسم بالنور لإثبات الأنور ، وعلم الأوصياء هنا مثل عن علم
القرآن .

الكنس ، وكيف يقسم بها لإثبات وحي القرآن وضوئه الذي لا يكنس ولا يخنس ! : « فلا أقسم بالخنس . الجوارى الكنس » .

وقد يجوز - فيما لا يجوز - كون الليل المعس والصبح المتنفس مقسمًا بها لمكان الواء : « والليل - والصبح » كما في « والضحي » والليل إذا سجي . ما ودّعك ربك وما قلى » (٩٣ : ١ - ٣) : ليس ترك الوحي للفترة التي ترك فيها - وهو سجي ليل النبوة - ليس إعراضاً عن النبي بتوديع ولا قلى ، إنما هو من الله ، لحكمة قضت ، وكما أن استمرارية الوحي - وهو ضحي نهار النبوة - إنه من الله تعالى .

كذلك ليس وحي القرآن إلا كالصبح إذا تنفس ، في حين أن ما سواه من وحي الأرض هو الليل إذا عسعس : أن ميزة وحي السماء في نورها كميّزة الصبح أن يشق نوره ظلم الليل الدامس العسعس .

فهذا هو الكتاب المنير ، وعلى حدّ تعبیر الرسول البشير النذير : « هو النور المبين والحبل المتين والعروة الوثقى والدرجة العليا والشفاء الأشفى والفضيلة الكبرى والسعادة العظمى » من استضاء به نوره ومن عقد به أموره عصمه الله ومن تمسك به أنقذه الله ، ومن لم يفارق أحكامه رفعه الله ، ومن استشفى به شفاه الله ومن آثره على ما سواه هداه الله ومن طلب الهدى في غيره أضله الله ومن جعله شعاره ودثاره أسعده الله ومن جعله إمامه الذي يقتدي به ومعوّله الذي ينتهي إليه أدّاه الله إلى جنات النعيم والعيش السليم ، و « فإذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن .. له نجوم وعلى نجومه نجوم .. فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليل المعرفة لمن عرف الصفة ، فليجلّ جلال بصره وبلغ الصفة نظره ينبج من عطب ويتخلص من نشب ، فإن التفكير حياة قلب القصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور .. » .

وعلى حدّ تعبیر علي أمير المؤمنين عليه السلام : « نور لا تطفأ مضابيحهُ ومراج

لا يخبئ توقده ، وبحر لا يدرك قعره ، ومنهاج لا يضل نهجه ، وشعاع لا يظلم
ضوؤه ، وفرقان لا يخمد برهانه ، وبينان لا تهدم أركانه ، وشفاء لا تخشى
أسقامه ، وعز لا تهزم أنصاره وحق لا تخذل أعوانه .. » .

من هنا وهناك نستوحي غنى القرآن البرهان عن أي شاهد وبرهان ،
اللهم إلا لمن كلت بصيرته ، فليستدل لأنواره المعرفية المعنوية بالأنوار المادية
المحسوسة كالضحى والصبح إذا تنفس ، ويستدل لظلمات ما سواه بالليل إذا سجد
وعسم ، بما أنها باهران في المثال ، دون الخنس الجواري الكنس ، إذ الخفي
المتذبذب ، المستتر المختبئ ، لا يمثل الظاهر الجلي ، اللهم إلا للدلالة على وحي الأرض
الخنس العس ، فـ « فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس » : فقد يكون ، إذن ، قسماً
ولا قسماً : « لا أقسم .. » للدلالة على نور الوحي ، ولو أقسمت فإنما لظلمة وحي
الأرض ، ولكي يعرف تجاهه وحي السماء .

« فلا أقسم بالخنس . الجوارى الكنس » :

إن الجواري الكنس هي الخنس بشاهد عدم العطف ، خلافاً لكافة المفسرين
الفاصلين بينها ، كان الثاني غير الأول وهما واحد !

فالخنس هي التي تبيع وتستسر وتخفى وتستتر ، كما الكنس هي المتوارية
المستغفية : سواء في ذلك النجوم الظاهرة الزاهرة بالليل ، والمستسرة المتبعدة
بالليل^(١) .

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٢٠ عن علي (ع) في قوله تعالى : فلا أقسم بالخنس ، قال : هي
الكواكب تكنس بالليل وتخنس بالنهار فلا ترى .
أقول : هذا من التفسير بالصدق الظاهر ، وجمع الخنس والكنس للكواكب يشهد لما استوحينا
من وحدتها .

وفيه أخرج الحاكم أبو أحمد في الكنى عن العديس قال : كنا عند عمر بن الخطاب فأتاه رجل
فقال : يا أمير المؤمنين ما الجواري الكنس ، فطعن عمر فخصه معه في عمامة الرجل فالتقاها عن =

وكذلك الشمس الخانسة يومياً ، المكورة نهائياً ، كما وإن كل طالع في الحياة من الكائنات ، إنه بين طلوع وغروب حتى تغرب نهائياً ، وقد ذكرت منها مسبقاً الشمس والنجوم والبحار والوحوش والسماء والجبال ، وهي من أبرز وأقوى الخنس الجوّاري الكنّس ، تجري دوماً طلوعاً وغروباً وإلى الغروب الدائب .

لا أقسم بها مهما كانت نجوماً وشموساً ، وهي مثال لشموس الفصاحة والبلاغة التي خفيت ، خنست وكنست ، عند بزوغ شمس الرسالة المحمدية في أفق الجزيرة ، إذ إن القرآن شمس لا تخنس ولا تكنس ، تحريضاً للجهال لكي يستيقظوا ، واستنهاضاً لهم أن يفكروا في القرآن نفسه ولكي يقتبها أنه هو برهان وحيه بنفسه ، دون حاجة إلى سواه ، حيث البراهين كلها خانسة كانسة تجاه القرآن الذي كله برهان ، وكيانه - ككل - أنه نور وبرهان .

« والميل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس » :

« عسعس » لفظة مؤلفة من « عس » مرتين ، وأصله طلب الشيء بالليل ، والعسعة من الأضداد ، فهي الإقبال والإدبار : إقبال الليل وإدباره ، وإقبال الطالب بالليل وإدباره فيه للحصول على المطلوب^(١) .

= رأسه ، فقال عمر : أحروري ! والذي نفس عمر بن الخطاب بيده لو وجدتكم مخلوقاً لأخيت القمل عن رأسك .

أقول : أفهكذا يجاب من يسأل عن القرآن ؟ فإذا جهل الخليفة معنى آية من القرآن فلماذا يتك من يستعلمه ؟ ولماذا يفترى عليه ؟ .

عل الحق مع الخليفة يؤدب من يستعلمه وليس المسؤول من أهل الذكر ، والله تعالى يقول : فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون .. ولكنه هل من الخطأ أن يظن بخليفة المسلمين بعض الخير : أنه يعلم بعض الشيء من القرآن فيستعلم ؟ أنا لا أدري ! (راجع كتابنا علي والحاكمون في باب ثقافة الخليفة) .

(١) في لسان العرب : العساس الخفيف من كل شيء ، والسمعة قيل هي الإقبال ، وقيل هي الأدبار ، وقيل هو من الأضداد كما عن أبي إسحاق .

والليل المعسّس هنا مثال لزمن الفترة الرسالية بين السيد المسيح وسيدنا محمد ﷺ إذ كان يُقبل أحياناً بظلمات الجهل العارمة ، ويدبر أخرى تخفيفاً عنها ، ولقد كان طلاب الحقيقة في هذه الفترة العسّ الداعس ، كانوا حيارى ، بين من لا يجد إلا الظلام ، ومن يجد خليطاً منه ومن النور عن كتابات الوحي الخلطة من الغث والسمين .

والصبح إذا تنفس بالنور والحياة والحركة إذ أخذ يفجر ظلم الليل العسّ ، والتنفس هنا خروج ضوء الصبح من عموم غسق الليل ، فكأنه متنفس من كرب ، أو متروح من هم ، ومن ذلك قولهم : قد نفّس عن فلان الحناق أي انجلى كربيه وانفسح قلبه .. أو بمعنى انشق وانصدع من قولهم : تنفس الإناء إذا انشق وتنفست القوس إذا انصدعت .

وهذا مثال للقرآن إذ أخذ يفجر منذ بزوغه ظلم الأوهام التي خنقت البشرية طوال الفترة الرسالية ، ففي الصبح الذي بزغ نور الوحي القرآني على القلب الحمدي ، لمست البشرية وتنفست بحياة جديدة بعد موت عارم خيم بظلمه على بني الإنسان إذ كانوا في ليل داج عسّس ، ولم تكن الأنوار في الأرض إلا خنساً كنساً : فأنوار وحي الأرض كانت غاربسة ، وأنوار وحي السماء كانت خليطة بشيء كثير من وحي الأرض ، حتى تنفس صبح الرسالة القرآنية ، مهيمنة على وحي الرسالات كلها .

« إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين » :

ليس القرآن قول إنسان ومنه ، ولا قول ملك ومنه ، وإنما هو قول رسول إلهي ، يحمل هذه الرحمة الواسعة الربانية دون ابتغاء جزاء أو شكور ، وهذا هو معنى كرم الرسول ، فكما الوحي كرم من الله ، كذلك من يحمل الوحي كريم يبلغه مها بلغت به الصعوبات في هذه السبيل دون قهر ولا أجر ولا أنفة ولا كبر ، وإنما حياته هي الرسالة الكريمة بدء ختم .

وهذه الحقيقة الناصعة لا يستشهد لها بأبي من كائنات الوجود « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلًا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلًا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين » (٦٩ : ٣٩ - ٤٤) .

بل ولا بأظهر ما تبصرون « فلا أقسم بمواقع النجوم » . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين . أفبهذا الحديث أنتم تدهنون . وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » (٥٦ : ٧٥ - ٨٢) .

فهذه النجوم السماوية الواقعة في عمق الفضاء ، من النيازك النارية التي تقذف الشياطين المسترقين السمع في الملاء الأعلى ، والأحجار السماوية التي تقذف شياطين الأرض ، ومن النجوم الواقعة في مداراتها لتطلع أو لتغرب .. لا أقسم بها لإثبات أن الآي القرآنية هي نجوم سماء الوحي الضاربة في أعماق الأفكار والقلوب ، المنيرة للمهتدين ، والمظلمة على المعاندين .

لا أقسم بها ، لأن نجوم القرآن هي أظهر للبصائر ، رغم الأبصار الكليّة التي تعمى عنها أو تتعمى ، وكيف يقسم للنجوم الزاهرة الخالدة بالحنس الجوّاري الكنّس ! .

وقد يكون لا أقسم في حين كونه « اللاقسم » توجيهاً لما يصلح أن يكون قسماً لمن كانت بصره أقوى من بصيرته ، جمعاً بين جماع الناس ، فمن أراد أن يتذكر بالآيات الكونية لإثبات وحي القرآن ، فالكون كله يصلح له شاهداً مما يُرى منه وما لا يُرى : ما يُرى من النجم والشمس والقمر ، وما لا يُرى من العقول والفكر والفطر .

ومن أراد أن يستدل بالقرآن نفسه على وحيه فما هو القرآن أظهر برهان وأزهره « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

فسواء القسم واللا قسم هنا وهناك ، فالقرآن برهان لا مرد له على وحيه
« أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم .. » .

« إنه لقول رسول كريم » : فليس قول محمد ولا جبريل ، إنما قول الله يحمله
الرسول كرسول ، فقول الرسول ليس إلا قول المرسل يحمله كما أوحى إليه ،
فمن هو الرسول هنا ؟ هل إنه جبريل رسول الله إلى الرسول ؟ أم هو الرسول
محمد ﷺ رسول الرسل ومعلم جبريل ؟ أم هما المعنيان هنا من : « رسول كريم »
إذ إن الرسالة واحدة والقول واحد يحمله ملك الوحي إلى رسول الوحي ؟

أقول : طالما الرسالة الإلهية تعم الرسولين ، ولكنها هنا - حسب القرائن
الموجودة - ليست إلا الرسالة المحمدية ، حيث الأوصاف الإيجابية والسلبية
المسرودة هنا للرسول تختصه بالرسول الأقدس محمد ﷺ .

فها إنه « كريم - ذي قوة - عند ذي العرش مكين - مطاع ثم أمين -
وما صاحبكم بمجنون - ولقد رآه بالأفق المبين - وما هو على الغيب بضنين -
وما هو بقول شيطان رجيم » .

وهناك « وما هو بقول شاعر - ولا بقول كاهن - فلا أقسم بما تبصرون .
وما لا تبصرون » إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلاً ما
تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون » (٦٩ : ٣٨ - ٤٣) .

وجل هذه الصفات - أو كلها - لا تنطبق إلا على الرسول محمد ﷺ
وإن كان القرآن قوله ﷺ وقول جبريل كرسولين ، ولكننا الرسول محمد ﷺ
هو موضوع البحث هنا أصالة كموضوع الرسالة (١) .

(١) وعليه يحمل ما يرى من تفسير « ذي قوة عند ذي العرش مكين » بجبريل و « مطاع
ثم أمين » برسول الله كما في نور الثقلين ٥ : ١٨ ، القمي بالاسناد إلى الصادق (ع) فلا ينافيه
ما عن الرسول (ص) أن « مطاع ثم أمين » - أيضاً - هو جبريل (المصدر عن الجمع) =

فكلنا نعلم أن جبريل لم يصاحب غير الرسول لكي تستدل بصحبته وعشرته للمخاطبين أنه غير مجنون ، ولم ينسب إليه الشعر ولا الكهانة ولا الشيطنة ولا الجنون لكي تنفي عنه ، فالمشركون لم يكونوا ليعترفوا بوجوده - حتى ينسبوه إليها ، وأهل الكتاب كانوا يحترمون فكيف يتهمونه بالشيطنة والجنون ! في حين أنهم نسبوا إلى محمد ﷺ كل هذه : « إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين » (٣٤ : ٨) « إنا لناركوا آلهتنا لشاعر مجنون » (٥٢ : ٢٩) « أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين » (١٨٤ : ٧) .. « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون » (٥١ : ٥٢) .

ومن جهة أخرى نعلم أن جبريل ليس هو موضوع الرسالة والوحي لكي تحاول الآيات إثبات رسالته وأنه لا يسحر ولا يكذب ، وإنما دوره دور الوسيط في الوحي المفصل ، ولا يثبت له كيان إلا بعد ثبوت الرسالة المحمدية وسواها ،

— ثم لا يتفهم أن الآيات خاصة بالرسول تنزيلاً ، وكما تدل القرائن فإن أمثال هذه الروايات تحمل تفسير التأويل : أن جبريل (ع) يحمل وحي القرآن كما يحمله الرسول محمد (ص) ، فتنزيل الآيات بشأن الرسول وتأويلها بشأن جبريل ، وكل من يحمل وحي القرآن من فروع الرسالة المحمدية من أئمة أهل بيته الكرام .

ثم رواية ثالثة تفسر « مطاع ثم أمين » بالرسول (ص) كما في الدر المنثور (٦ : ٣٢١) ، أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : قال النبي (ص) لجبريل ليلة الإسراء : أكشف عن النار ، فكشف عنها ، فنظر إليها ، فذلك قوله مطاع ثم أمين على الوحي وما صاحبكم بمجنون ، محمد (ص) .

في حين نرى ابن عساكر يخرج عن معاوية بن قررة أن الرسول (ص) قال لجبريل : ما أحسن ما أتى عليك ربي « ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين » فيما كانت قوتك وما كانت أمانتك ؟ ..

فليس من الواجب طرح الروايات التي تفسر الآيات بجبريل ، وإنما نقول إنها من تفسير الجري والتأويل ، نزلت في رسول الله وجرت في كل من يحمل وحي القرآن وأولهم جبريل - تأمل .

فهي التي 'تعرفنا الغيب ومنه الوحي ومنه ملائكة الوحي الغائبون عن الإحساس .

إنما موضوع الرسالة هنا هو الرسول محمد ﷺ الذي صاحبهم عمراً قبلها ، وهم ينسبونهم إلى الشعر والسحر والكهانة والشيطنة والجنون ، الصفات التي تتنافى والكرامة والمكانة عند الله والقوة الروحية التي تؤهلها لتلقي الوحي ، والمعرفة الإلهية لحـد الرؤية : كأنه رآه ! « ولقد رآه بالأفق المبين » وكونه مطاعاً في دوره الرسالي وأميناً في دعوته .

« ذي قوة » : فكما الله هو شديد القوى : « علمه شديد القوى » كذلك الرسول ﷺ ذو قوة : « ذو مرة فاستوى » قوة معرفيه تؤهلها لتلقي الوحي ، فليس ضعيفاً يتشبث بالشعر والكهانة والسحر ، ولا ضعيف العقل مجنوناً ، ولا ضعيف التمييز لكي لا يميز وحي الرحمن عن وحي الشيطان ، ولا ضعيف الإيمان لكي يخون في الوحي الإلهي - وإنما : « ذي قوة » وكما الله شديد القوى .

نلمس هذه القوى الروحية من القرآن نفسه ، دون أن تكون دعوى بسلا برهان لرسول القرآن ، فقوة القرآن تشهد لقوة الرسول وكما قوة الرسول تشهد لقوة القرآن : قوتان متناصرتان .

« عند ذي العرش مكين » : ذي قوة عند ذي العرش ، مكين عنده ، أو : ذي قوة ، مكين عند ذي العرش ، والأول أولى وأليق ، أن الرسول محمد ﷺ ليس ذا قوة في موازين الأرض : أنه قوي الساعد شجاع في الحروب ، وإنما « ذي قوة عند ذي العرش » والقوة عند الله إله القوى ، قوة ربانية لا قبل لها ولا مثيل في ملا العالمين من الملائكة ومن الجنة والناس أجمعين .

والقوة عند ذي العرش - وهو صاحب عرش الألوهية - إنها قوة عرشية تعلو سائر القوى وكما القدرة الإلهية تعلوها ، ولكن قوة ذي العرش « شديد

القوى ، وهي من ذاته المقدسة ، وأما « ذي قوة عند ذي العرش » فإنما له قوة من القوى غير شديدة ، وهي من ذي العرش ، دون أن يملك الرسول هذه القوة لذاته ، وإنما هي رحمة من الله خاصة لرسوله الكريم الأمين .

لكننا القوة هذه على قلتها وعدم شدتها تجاه القوة الإلهية ، إنها تعلو القوى غير الإلهية كلها ، ملائكية وبشرية وسواهما .

« مكين » : عند ذي العرش ، إن له مكانة عرشية خاصة عند ذي العرش ليست لغيره من ذوي المكانات من حملة الرسالات الإلهية .

« مطاع ثم أمين » :

« مطاع » عند ذي العرش يطيعه من عنده من أصحاب القوى وذوي المكانات ، وكما نرى جبريل ، رسول الله إلى الرسل ، يخدمه ويطيعه ، فليس كيانه إلا كيان الوسيط بينه وبين الله ، لا لأن الرسول بحاجة إلى وساطته - إذ هو أقرب إلى الله وأقوى - وإنما لكي لا يظن به الناس ما ظنوه في بعض المرسلين من الألوهية كأنهم يقولون من عند أنفسهم دوننا وحى ، فإذا بصرح الرسول ﷺ أن جبريل هو الوسيط بينه وبين ربه في وحيه ، فهنا تنطمس الظنون : « قل نزل روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى لبشرى المسلمين » (١٦ : ١٠٢) .

فليست الغاية من نزول روح القدس إلا تثبيت المؤمنين ، لئلا يقولوا ما قيل من قبلهم للرسل إنهم آلهة كما ظنوا في المسيح عليه السلام .

« ثم أمين » : عند ذي العرش ، أمين على وحي الله ورسالة الله ودين الله ، ولقد عاش قبل الرسالة أيضاً أميناً لحدّ سموه محمد الأمين ، وهذه الأمانة المسبقة في الناس وعند الناس ، تجعله - وبالأحرى - أميناً عند الله : « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراككم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون »

(١٠ : ١٦) : عمرأ بوفور العقل والأمانة ، فكيف تهموني الآن بالجنون والحيانة ؟!

فالأمين عند الرعية أخرى له أن يكون أميناً عند ذي العرش ، فهو إذ لا يخون الناس وهم ضعفاء ، فكيف يخون الله وهو شديد القوى ؟!

.. أجل وإن وحي القرآن ليس ليحمله إلا رسول كريم ذو قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين .

فلولا الكرم - وهو الرحمة العظيمة الواسعة دون ابتغاء أجر - لكان وحي القرآن في مضيق يختص بمن يؤتي الأجر دون الناس كافة !

ولولا القوة العرشية لما كان بمستطاعه تلقي الوحي - فأين التراب ورب الأرباب - .. إنه لا بد من قلب عرشى قوى لكي يقوى على تلقي الوحي من ذي العرش .

ولولاها لما كان يقوى على إبلاغ الوحي كما يجب ، صبراً على المزالق والمشاق في سبيل الدعوة الشاقة .

ولولا مكانته العظيمة عند الله لما كان يستحق هذه الكرامة الخاصة في تحمل الوحي الأخير وحمله إلى الناس كافة .

ولولا أنه مطاع في دوره الرسالي ، وعند سائط الرسالة وعمال رب العالمين ، لما استطاع أن يحقق ويطبق الرسالة الخالدة .

ولولا الأمانة لكانت منه الخيانة ، أو ممن كانوا يتربصون الدوائر بوحى القرآن أن يبدلوه ويحرفوه كما حرفوا كتب السماء من قبل .

ولكن أمانته وقوته وصموده وصلابته ومكانته جعلت وحي القرآن خالصاً عن كل شين ، خالداً إلى يوم الدين .

« وما صاحبكم بمجنون » :

لقد اتهموه - فيما اتهموه - بالجنون ، لا المشركون فحسب ، بل وأهل الكتاب أيضاً ، وهم يعلمون أنه صاحب وحي وإلهام كما التوراة تشير :

ففي الأصل العبراني من « كتاب هوشع ٩ : ٥ - ٩ » :

(مَهْ تَعْسُو لِيَوْمُ مَوْعِدْ^١ وَ لِيَوْمِ حَكْ ادوناي^٢ كِي هَنِيَه هالْحَنُو
مِيشود^٣ مِصْرِيْمِ تَقْبِصِمْ مَوْفْ تَقْبِصِرِمْ^٤ مَحْمَد لِكَسْفَام قِيمُوش
يِراشِم حُوحَ^٥ بِاهَا لِيهِمْ^٦ بَانُوا يَتِي هَفِقُودَاه بَانُوا يَتِي هَشْلُوم^٧ يَدْعُو
يِسْرَائِلْ إوَيْلْ هَنَابِيءَ^٨ مَشُوكَاعَ إِيْشْ هَارُوحَ^٩ عَْلْ رَّبْ^{١٠} عَوْنِهَا
وَرَبَّتَاه مِصْطَاه^{١١} صُوفَه إِفْرِيْمِ عَمِ إِلُوهَاي نَابِيءَ^{١٢} فَحْ ياقُوشْ^{١٣} عَْلْ
كَالْ دِرَاخَانُو مِصْطَاه بَيْتِ إِلُوهَانُو^{١٤} كَعْمِيْقُوا شِيحِيْطُو كِمِ
هَكِيْبَعَاه يِزْكَوْر عَوْنَام يِفْقُود هَطُونَام^{١٥}) :

أي : « ماذا تصنعون يوم الاحتفال ويوم عيد الرب^{١٥} ها إنهم يرتحلون لأجل
الخراب ، فمصر تجمعهم وموقف تدفنهم و« محمد » لفضتهم والقراص يرتهم
والعوسج يستولي على أخبيتهم^{١٦} تأتي أيام التمييز ، تأتي أيام الجزاء ، سيعلم
إسرائيل : -

أن النبي السفيه ورجل الروح مجنون لكثرة إثمك وشدة الخلق^{١٧} إن النبي
رقيب ، أفرأيت عند إلهي قد صار فح صياد على جميع طرقه وحنقاً في بيت إلهه^{١٨}
لقد توغّلوا في الإفساد كما في أيام جبعة فهو يذكّر إثمهم ويفتقد خطاياهم^{١٩} » (١) .
هذه الآيات المبشرة بسيدنا محمد ﷺ تندد باليهود الذين اتهموه بالجنون

(١) تفسير هذه الآيات إلى كتابنا « رسول الاسلام في الكتب السماوية » ص ٧٣ - ٧٩ .

وهم يعلمون أنه صاحب الروح الرسالية، اتهموه لكثرة إثمهم وحنقهم وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » (٢ : ١٤٦) . « ويقولون إنه لجنون وما هو إلا ذكر للعالمين » (٦٨ : ٥١) .

وتقول التوراة أيضاً : « يدعُو ييسرائيل إوابيل حنبيا مشوكاع إيش هاروح عّل رُوب عوُنخا ورباه مَسِطْناه » :

« بنو إسرائيل يعلمون ويعرفون أن النبي الأمي المجنون صاحب روح إلهامي وصاحب وحي » .

هكذا يجابه ويواجه أعقل العقلاء : أنه مجنون - مستور العقل - لا شيء إلا لأنه يدعوهم إلى غير ما يشتهون؟ فهل لأنه يضاد آراءهم المفندة أصبح مجنوناً؟ إذا فكل الناس مجانين لأنهم - كلهم - مختلفون في آرائهم، يجنّ بعضهم البعض! فمجانين بالإجماع !.

أو لأنه يعمل الأعمال المجنونة من ضرب وفتك وهتك وسب وقتل وحركات أخرى لا يصدقها العقل . فما هي ؟ إنها ليست إلا التوجيهات التي تصدقها العقول والفكر والفطر ، فإذا دحض حججهم وفند آراءهم يتمسكون بما يزيّف مكانته ، من الجنون والسحر والكهانة والشعر دونما حجة إلا الدعايات والعريجات الهمجية .

« وما صاحبكم بمجنون » : إنه لبث فيكم عمراً قبل الرسالة وصاحبكم عاقلاً صادقاً أميناً لحدّ سُمّي بمحمد الأمين ، فهذه المصاحبة العاقلة الأمانة هي الكافية لدفع تهمة الجنون عن ساحته القدسية ، فإذا جاءكم بما يصلحكم تقولون إنه لجنون؟ وما هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم .

« ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين .

وما هو بقول شيطان رجيم : »

فمن هذا الذي رآه الرسول الكريم بالأفق المبين، الرؤية التي عدت من دلائل رسالته الإلهية ومن مفاخرة المعنوية ؟

هل إنه جبريل وسيط الوحي ؟ ولم يسبق له ذكر ! والآيات المسرودة تركّز على رسول واحد ، محمد أم جبريل ، فهل رأى أحدهما نفسه في الأفق المبين ؟ ثم رؤية الرسول لجبريل لا تختص بالأفق المبين ، فلقد كان يتشرف ملك الوحي بحضرة الرسول عدد الوحي المفصل ، مئات المئات من المرات ، ثم ليست رؤيته لجبريل من مفاخره ، ولا دليلاً على رسالته ، وإنما سماع الوحي ومعداته الروحية ، وإنما رؤية الرسول هي مفاخرة لجبريل ، رؤية التلميذ أستاذه في تعليم الوحي ، رغم أنه كان وسيطاً في الفاظ الوحي وشيئاً من معانيه حسب مقدرته .

فإنما الرؤية هنا كمال المعرفة والرفق الممكنة للممكنات، للرسول الأمين، أن رأى ربه بالأفق المبين : « الأفق الأعلى » أعلى الآفاق المعرفية بأعلى الآفاق الكونية : « والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلاّ وحي يوحى . معهتكم شاييد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى . أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى : (٥٣ : ١ - ٢٢) .

هذه الآيات تركز على التعليم والرؤية ، وليس لرؤيته ﷺ جبريل ، ولا أنه وسيط وحيه ، ليست لهما كثير أهمية ، ولا أن هناك من ينكر الرؤية والوساطة : أبعد التصديق أنه نبي ؟ أم مع نكران نبوته ؟ فلا تصل النبوة - إذا - إلى نكران الرؤية !

وكما درسناه مسبقاً في سورة النجم ، بشهادة الآيات أنفسها والروايات : ليس شديد القوى إلا الله ^(١) ، وإنما رسوله - أيأ كان - هو ذو قوة ، لا شديد القوى .

وشديد القوى - هنا - أوحى إلى عبده ما أوحى ، فهل ياترى أن محمداً تنزل إلى درجة العبودية لوسيط الوحي المفصل ؟.. ثم جبريل لم يصاحب الرسول إلى عمق المعراج ، إلى سدره المنتهى ، فكيف رآه الرسول عند السدره نزلة أخرى ؟

ثم القسمة الضيزى بين رؤية محمد ما رأى ، وبين رؤية المشر كين اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ليست هذه القسمة الضيزى « الظالمة » إلا في رؤية الإله ، إن رؤية بالبصر كاللات والعزى ، أم بالبصيرة كما رأى الرسول ربه بنور المعرفة واليقين لآخر درجات الإمكان ، فنكران رؤيته ﷺ ربه هكذا ، في حين يرى المشر كون أربابهم ، هذا هو القسمة الضيزى ، لا نكران رؤية جبرائيل !

فقد درج الرسول بكيانه ككل ، بجسمه وروحه ، درج فخرج إلى الأفق الأعلى ، ولأنه ذو مرة : (قوة) فاستوى : استولى على الكون أجمع ، وإلى أعلى الآفاق : الآفاق الكونية إذ وصل إلى سدره المنتهى ، منتهى الكون وكاهله ، واضعاً قدميه عليه فرأى من آيات ربه الكبرى .

(١) في دعاء الندبة « يا شديد القوى يا من على العرش استوى - وفي دعاء : يا شديد القوى ويا شديد المحال » وفي نهج البلاغة : شديد القوى يعني به الله وكما في تفسير القمي أيضاً .

وإلى أعلى الآفاق العقلية والمعرفية من الملائكة والمرسلين، فقد عرج الرسول الكريم إلى معراج تسلّم الآفاق، خارقاً حجب الظلمات والنور، فما زاغ بصره وبصيرته، وما نقص في معرفة ربه، « وما طغى » : ان يراه ببصر العيان، أم يعرفه بالبصيرة حق المعرفة، وإنما ازدلف إليه وعرفه كما يمكن، خارقاً كافة الحجب إلا حجاب ذات الألوهية، المستحيل خرقه .

إن الرؤية هذه هي رؤية الفؤاد بنور اليقين « ما كذب الفؤاد ما رأى »^(١) فللقلوب أبصار كما للقوالب : « قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة » (٧٩ : ٧ - ٨) : أبصار القلوب الكلية أو البصيرة النيرة وكما في العساوي : « وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق حجب النور فتصل إلى معدن العظمة » وعندما يسأل : هل رأيت ربك ؟ يجيب : كيف أعبد رباً لم أره، لم تره العيون بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان .

وعن الرسول الأقدس ﷺ : « لم أره بعيني ورأيت به فؤادي مرتين ثم تلا « ثم دنى فتدلى » وهذا جواباً عن سأل هل رأيت ربك »^(٢) وقال ﷺ :

(١) في البحار ج ٦ ص ٣٨٠ عن ابن عباس قال : قال النبي (ص) فيما احتج على اليهود : .. حتى انتهت إلى السماء السابعة فجاوزت سدرة المنتهى عندها جنة المأوى حتى تعلقت بساق العرش فنوديت من ساق العرش : إني أنا الله لا إله إلا أنا السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الرؤوف الرحيم ، فرأيت به قلبي وما رأيت به بعيني .

وفي ٣٩٨ عن انس قال : قال رسول الله (ص) لما عرج به إلى السماء دنوت من ربي حتى كان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى .

وفي ٣٩٩ عن حمران قال : سألت أبا جعفر (ع) عن قول الله عز وجل في كتابه « ثم دننا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى » فقال : أدنى الله محمداً منه فلم يكن بينه وبينه إلا قعص أولو فيه فراش يتلأأ .

أقول : اللؤلؤ هذا المتلألئ هو نور الذات الأزلية التي لا تظهر إلا له سبحانه لا سواه .

(٢) في الدر المنثور ٦ : ١٢٤ ، أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي عن بعض أصحاب النبي (ص) قال : قالوا يا رسول الله (ص) ..

« نوراني أراه »^(١) ، وقال : « رأيت نوراً » .. كل ذلك إشارة إلى المعنى من الرؤية : أنها كال المعرفة بعد خرق الحجب الممكن خرقها لأفضل الكائنات وأشرف الموجودات .

والرسول الكريم وإن كان عارفاً بربه حق المعرفة طوال حياته الرسالية — منها اختلفت درجاتها طولها — إلا أن طبيعة الحال تقتضي في معراج هكذا ، وإلى الأفق الأعلى ، واضعاً قدميه على كاهل الكون ، تاركاً ما سوى الله تحت قدميه وبقباله ، بعد أن تركها بقلبه المنير ، متخلياً متحللاً منقطعاً عما سوى الله وحق عن نفسه المقدسة ، مشتغلاً بربه دون سواء ، منعزلاً عما أرسل إليهم لهذه الفترة ، فهذه الحالة تقتضي أن يكون هناك من ربه « قاب قوسين » : ليس بينه وبين الله أحد ولا حجاب « أو أدنى » : ليس وحق نفسه المقدسة وهي أقدم الحجب النورانية :

« بيني وبينك إني ينازعني فارفع بلطفك إني من البين »

فلم يبق آنذاك حجاب عن المعرفة إلا حجاب ذات الألوهية الذي لن يرتفع أبداً ، فقد خرق — إلى الأفق الأعلى وفيه — خرق حجب الظلمة وحجب النور ، ناسياً لها وتاركاً إياها مشتغلاً بربه ، ولو أن بقيت هذه الحالة التجردية للرسول الكريم لاشتغل عن الكون وعن رسالته وعن نفسه وقضى نحبه ، وهذا باب من المعسرفة لا يعرفها إلا صاحب المعراج ، وهي التي استدعاها موسى فأجيب : « لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني » إذ ليس في وسعه العروج إلى هذا الأفق المعرفي كما لا يتسع الجبل فوق ما يتحمل .

« وما هو على الغيب بضنين » : ليس الرب على غيبه بخيلاً : « عالم الغيب فلا

(١) المصدر أخرجه مسلم والترمذي وابن مردويه عن أبي ذر قال : سألت رسول الله (ص) هل رأيت ربك . فقال : نوراني أراه .

يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه
رصداً « (٧٢ : ٢٧) .

ليس الرب ضنياً برسوله الكريم على غيبه الممكن كشفه على غيره ، كما وأن
الرسول ليس على غيب ما أوحى إليه بضنين على الناس أجمعين ، فلا ضنة لا هنا
ولا هناك ، فقد كشف الله عن غيب معرفته وعن غيب وحيه لرسوله الكريم
ما لم يكشفه لأحد من العالمين ، ليس لأنه ضنين على من سواه من المرسلين ، وإنما
لأن القلوب أوعية المعارف ، لا تعي إلا على قدرها ، فلو حملت فوق استطاعتها
لتفتت كما والجبل لم يتحمل لما تجلى ربه له فوق ما يتحمل ، مثلاً لموسى إذ سأل
منتهى المطاف في المعرفة ، أنه لا يتحمل .

ولكن الرسول محمد ﷺ كان يؤهل لهكذا كشف عن الغيوب المكنونة
الممكن كشفها ، فإذا ليس الله على الغيوب هذه ضنياً ، وقلب محمد يعيها ، وإذا
ليس محمد على بلاغ الغيب ضنياً - ولأنه يحمل الشريعة الإلهية كلها ، ويتحمل
عبء الرسائل كلها - لهذا وذاك « رآه بالأفق المبين » « فأوحى إلى عبده
ما أوحى » .

مركز تحقيق كتاب نور علوم إسلامي

« وما هو بقول شيطان رجيم » : فهل الشيطان الرجيم يوحى بهذا المنهج
القويم لحدّ يفوق سائر الوحي النازل على أنبياء الله من قبل ؟

ثم هل الشيطان يعارض نفسه في شيطنة العقائد والتصرفات - طوال وحيه -
ويحافظ على كرامة الله ودين الله كما نلمسه تماماً في وحي القرآن ؟

فوحي القرآن ليس صادراً إلا عن الله - قضية قياسها معها - فليس وحيّاً
نفسياً من كاهن ولا مجنون ولا عاقل يتكلم عن وحي نفسه وإن كان عن عقل
وصفاء ، وليس وحيّاً من كاهن ولا شاعر ولا ساحر ولا شيطان ولا مؤمن عاقل
عبقري إليه ، فإننا لا نجد أياً من هذا وذاك يلمح من هذا الوحي العظيم ، وهو بنفسه

يشهد علمياً وعقلياً أنه وحي الله ألقاه إلى رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش
مكن مطاع ثم أمين .

« فأين تذهبون » :

أين تذهب بكم المذاهب وتتيه بكم عن هذه المواهب : عن هذا الوحي القويم
وهذا الرسول النبي الكريم ؟ أين تذهبون وأنى تؤفكون ، من حيث لا تعلمون
ولا تعقلون ؟ أين تذهبون في أقوالكم وادعاءاتكم وأحكامكم : أين تذهبون
منصرفين عن الحق وهو يواجهكم أينما ذهبتم وحيثما كنتم ، وماذا بعد الحق إلا
الضلال فأنى تصرفون ؟ .

« إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم » :

إن وحي السماء ورسل السماء - وبالأحرى رسول الرسل وأم الكتب -
إنها لا تأتي بما ينافي العقول والفطر أو لا يلائمها ، وإنما كيانها : « ذكر للعالمين »
ذكريات تذكروهم بما نسوا أو تناسوا ، بما درنت ورائت قلوبهم وكسفت عقولهم
ومسخت فطرهم .

إن هذه الذكرى الرسالية تتركز على الأحكام الكلية العقلية والمصاديق
الجزئية ، إزاحة لشبهات العقول ، وإنارة الدروب عليها ، لتتسابق فيما هو خيرها
في الأولى ، وإن كان الإنسان كإنسان الأرض لا يستطيع أن يعرف كافة الحكم
في الأحكام الجزئية اللهم إلا ما يذكّرنا وحي السماء ..

فوحي القرآن ونبي القرآن ليس له كيان إلا « ذكر للعالمين » تذكيراً عن
الغفلة والغفوة والجهل والجهالة ، ذكراً بما هو منقوش في كتاب الفطرة ، وتعرف
العقول المستقيمة .. « لمن شاء منكم أن يستقيم » .

فكما المقوّم يجب أن يكون مستقيماً، كذلك المقوّم، عليه أن يشاء الاستقامة ويعمل لها : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٣٠ : ٣٠) .

فمشيئة الاستقامة تأخذ بالإنسان إليها حيث المقومات من وحي السماء ورسل السماء تترى « ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

« وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين » :

هل إن آية المشيئة هذه تعلق مشيئة الإنسان بمشيئة الله : أنه مسيرٌ في مشيئته وليس بخيراً ؟ وهذا خلاف الواقع الملموس ، ولا تلائمه الآية المسبقة : « لمن شاء منكم أن يستقيم » إذ توحى باختيار الإنسان في مشيئة الاستقامة وسواها .

انقول انها — على احتمال ظاهر بين محتملاتها^(١) — تخرج الإنسان عن استقلاله في مشيئته ، وتجعله بين أمرين : « لا خير ولا تفويض بل أمر بين أمرين » فلا هو

(١) واحتمال آخر : وما تشاؤون استقامة إلا أن يشاء الله ذلك الاستقامة ، فليست مشيئة الله لتحقيق الاستقامة والهداية إلا بعد مشيئة العبد وهذا عكس الاحتمال الأول إذ كانت المشيئة الالهية فيه هي السبب لمشيئة العبد المحققة للاستقامة والهداية .

ومشيئة العبد مشيئتان : مشيئة أولى في البداية ، وثانية لتحقيق الغاية ، ومشيئة الله كذلك هنا في مرحلتين : تشريعية وتكوينية ، فما لم تكن الأولى لم تتحقق المشيئة الثانية للعبد لعدم الدلالة ، وما لم تكن الثانية لم تتحقق كذلك لأمرين في الخير وأمر واحد في الشر ، يزيد الخير على الشر في مشيئة التوفيق ويشارك في عدم تحقق المراد إلا بإرادة الله التي هي آخر المطاف في أسباب تحقق الغاية .

(راجع كتابنا حوار بين الآلهيين والماديين بات الأمر بين الأمرين) .

خَيْرٌ فِي مَشِيئَتِهِ الاستقامة كَفَوْضٍ إِلَيْهِ أَمْرُهُ^(١) ، وَلَا هُوَ مُسَيَّرٌ فِي أَمْرِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ بَيْنَ مَشِيئَتَيْنِ : مِنْ اللَّهِ وَمِنْ نَفْسِهِ : فَمَنْ نَفْسُهُ : أَنَّهُ يَخْتَارُ وَيَشَاءُ الاستقامة بِمَا جَعَلَهُ اللَّهُ مَخْتَاراً ، وَمِنْ اللَّهِ أَنْ وَفَّقَهُ لِلْوُصُولِ إِلَى مَا يَشَاءُ مِنَ الاستقامة ، فَلَوْلَا تَوْفِيقُ مِنَ اللَّهِ لَمْ تَكُنْ مَشِيئَةُ الْإِنْسَانِ - أَيَا كَانَ - لَتَوَصَّلَ إِلَى وَقَعِ الاستقامة فَالتَّذَكُّرُ بِذِكْرِ الْقُرْآنِ ، فَ« إِنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » وَ« مَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمِيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ » « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

فَإِذَا لَمْ يَكُنْ وَقَعَ الْهَدَايَةُ بِمَشِيئَةِ الرَّسُولِ ، وَإِنَّمَا لَهُ وَعَلَيْهِ الدَّلَالَةُ فَحَسَبَ ، فَأُولَى بَيْنَ سَوَاءٍ أَلَّا يَقْدُرُوا عَلَى وَقَعِ الْهَدَايَةُ لَأَنْفُسِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَمْلِكُونَ - هُمْ - مَشِيئَةُ الْاهْتِدَاءِ وَالاستقامة فَالذِّكْرُ ، ثُمَّ الرَّسُولُ دَلِيلُهُمْ فِي مَسِيرِ الْهَدَايَةِ تَشْرِيعِيّاً ، ثُمَّ اللَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْقَصْدِ يَهْدِيهِمْ إِلَى وَقَعِ الْهَدَايَةِ تَكْوِينِيّاً ، فَ« مَا تَشَاوُونَ : (تَحَقُّقِ الْهَدَايَةِ مَشِيئَةً تَحْقِيقِ تَوْصُلِكُمْ إِلَى حَقِّ الْهَدَايَةِ) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (أَيْضاً) لَكُمْ إِيَّاهَا تَشْرِيعِيّاً وَتَكْوِينِيّاً ، وَلَآئِنْ) رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

إِذَا فَتَحَقَّقَ الْاستِقَامَةُ وَالْهَدَايَةُ ، بِحَاجَةٍ أَوَّلًا إِلَى مَشِيئَةٍ مِنَ الْمُسْتَقِيمِ تَكْوِينِيّاً ، ثُمَّ مَشِيئَةٍ مِنَ اللَّهِ تَشْرِيعِيّاً لِلدَّلَالَةِ عَلَى كَيْفِيَّةِ الْاستِقَامَةِ وَالْهَدَايَةِ ، ثُمَّ مَشِيئَةٍ مِنْهُ

(١) وَيَشْهَدُ لَهُ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْوَدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ « لَنْ يَشَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ » قَالُوا : الْأَمْرُ إِلَيْنَا إِنْ شِئْنَا ، وَإِنْ شِئْنَا لَمْ نَسْتَقِمَ ، فَهَيَّطَ جَبْرِيلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (ص) فَقَالَ : كَذَبُوا يَا مُحَمَّدُ ! « وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » فَفَرَحَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) .

وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابْنُ الْمُنْذِرُ عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ عِمْرَانَ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ « لَنْ يَشَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ » قَالَ أَبُو جَهْلٍ أَرَى الْأَمْرَ إِلَيْنَا فَنَزَلَتِ الْآيَةُ ، الدَّرَجَةُ الثَّوْرُ ٦ - ٢٢ .
أَقُولُ فَالْآيَةُ كَمَا حَقَّقْنَاهُ تَعْنِي تَفْوِيزُ فِي الْأَمْرِ كَمَا الْأَوَّلَى تَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الْجَبْرِ ، فَلَيْسَ إِلَّا أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ .

تعالى تكوينياً أن يوفقه ويسهل له الوصول إلى واقع الهداية والاستقامة فلما تحققت المشيئتان الإلهيتان تبعتهما مشيئة العبد الأخيرة الملامسة لواقع الهداية والاستقامة ، وكل هذه نجدتها في الآيتين : « لمن شاء منكم أن يستقيم » : مشيئة أولى للمستقيم « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » : مشيئة ثانية ، وهي مع واقع الهداية والإستقامة ، ومشية تشريعية وتكوينية من الله تتوسطان مشيئتي العبد المستقيم - إذاً - فلا جبر في الهداية ولا تفويض بل أمر بين الأمرين ، أمر من الله وأمر من العبد ، لذلك فلتنسب الهداية إلى الله - وأخرى له - وإلى العبد أيضاً لاختياره ، وهذه في الحسنات أن الله يشاء ويدبر ويوفق : « يابن آدم أنا أولى بحسناتك منك وأنت أولى بسيئاتك مني » ذلك لأن الله تعالى لا يشاء السيئة لا تشريعياً ولا تكوينياً ، وإنما لا يجبر العبد على فعل السيئة ولا على تركها ، وله المشيئة التشريعية ألا يعصى ، فإذا خالف أمر الله وشاء المعصية يذره الله تعالى في طغيانه يعمه وفي غيّه يتردد ، إذ لا جبر في ترك المعصية كما لا جبر في فعلها .

مركز تحقيق كتاب نور علوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

وبما أن المخاطبين هنا هم المستقيمون ، ومن أصدق مصاديقهم هم الرسل والأئمة المعصومون ، لذلك وردت عن الصادقين أنهم هم المعنيون بالآية كما عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال : إن الله جعل قلوب الأئمة مورداً لإرادته فإذا شاء الله شيئاً شاؤوه وهو قوله : « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين » (١) ،

(١) نور الثقلين ٥ : ١٩٩ ح ٣٠ للقمي حدثنا محمد بن جعفر قال : حدثنا محمد بن أحمد عن أحمد بن محمد اليساري عن فلان عنه (ع) .

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام : وإن فعل أمنائه فعله كما قال : وما تشاؤون إلا أن يشاء الله (١) .



مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

(١) المصدر ح ٣١ في كتاب الاحتجاج للطبرسي حديث طويل عنه (ع) يذكر فيه جواب بعض الزنادقة عما اعترض به على التنزيل ..

أقول : وهذا استيعاء لطيف إذ يربط مشيئة أمناء الله بمشيئة الله ، وهذه هي العصمة في المشيئة تعصمهم وحتى عن أية مشيئة قبل أن يشاء الله ، المشيئة التشريعية والتكوينية سواء ، وإن كانوا يشاؤون دائماً الاستقامة والهداية ، ولذلك نجد الله يعصمهم ويهديهم لأفضل درجات الهداية ، وهنا بحث فصل نوافيككم به في طيات التفسير .

﴿سورة الانفطار — وآياتها تسعة عشر﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ^١
وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ^٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ^٣ وَإِذَا الْقُبُورُ
بُعْثِرَتْ^٤ عَلِمْتَ نَفْسُ مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ .. »



« إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ » :

علمت نفس — بعد قيامة الإمامة بانفطار السماء وانتثار الكواكب وتفجّر البحار ، وبعد قيامة الإحياء ببعثرة القبور — علمت نفس ما قدمت وأخرت ؟
إن الانفطار هو قبول الفطر ، وأصل الفطر الشق طويلاً ، وذلك قد يكون على وجه التعمير : « قال ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن .. » (٢١ : ٥٦) ، وقد يكون على وجه التدمير : « تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً » (١٩ : ٩٠) « السماء منفطر به كان وعده مفعولاً » (٧٣ : ١٨) .

فالأول شق إلى البناء حيث انشقت السماء عن الدخان : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان .. فقضاهن سبع سماوات » كما الثاني شق إلى التناء : « يوم

تأتي السماء بدخان مبین . تغشى الناس هذا عذاب أليم ، وذلك يوم تدمیرها
ورجعها إلى ما كانت من دخانها : « والسماء ذات الرجع » ، وكما شرحناه مسبقاً
في سورة التکویر والإنشقاق عن كشط السماء وقشطها ، أنها سوف تنمحي عن
کیانها السماوی وتنحى عنها جلدها وتنشق ، فهي يومئذ واهية ووردة كالدهان
وتثور موراً وتصبح كاللؤلؤ .

« وإذا الكواكب انتثرت » :

هنا شبهت الكواكب بآلئ منظومة المخروط سلكها فانثرت وتفرقت ،
إنها تنتثر بعد تماسكها في أفلاكها جارية بسرعات هائلة ، ممسكة في داخل
مداراتها ، مرفوعة في أجوائها بعمد لا ترونها : « رفع السماوات بغير عمد ترونها »
فثم عمد ولكن لا ترونها ، أعمدة القوة الجاذبية وسواها التي نجعلها حق اليوم ،
فلما ذهبت هذه القوى التي تشدها وتربطها في سماواتها ومداراتها ، ذهبت
— إذا — في الفضاء بدداً كما تذهب الذرة التي تنفلت من عقالها .

فهل إنها — وكما يزعمها السذج — تتناثر على أرضنا؟ كلا ؛ فإن أرضنا — وهي
من أصغر الكواكب — تنتثر معها إلى أعماق الجسوس وتنطمس وتنمحي وترجع
— كأماها السماء — إلى حالتها الأولى « دخان » وعلتها — ومعها الكائنات كلها —
ترجع إلى « الماء » المادة الفردة الأولى .

أجل — وإن الكواكب تنتثر كما النجوم تنطمس وتنكدر وتندحر :
حادثات جلل تقضي على المملكة السماوية بأمر الملك العلام .

« وإذا البحار فجرت » :

وكما عرفناه مسبقاً في التکویر ، سوف يعم البحار — كل البحار — تفجير يتلوه
تسجير ، فتصبح ناراً هائجة ملتتهبة بالتفجرات ، فالحرارات التي تتحكمها

فترجعها إلى ما بدأت ، رجعاً إلى النار وإلى المادة الفردية ، وكما جاء عن الصادق عليه السلام : « تتحول البحار التي حول الدنيا كلها نيراناً » (١) .

« وإذا القبور بعثت » :

وهذه قيامة الإحياء ، تبعثر القبور وتخرج الأجساد من الأجداث : « يوم يخرجون من الأجداث سراعاً » (٧٠ : ٤٣) « فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون » (٣٦ : ٥١) .

ولنعرف هنا ما هي القبور وبعثتها ؟ إن القبور هي مخايب الأبدان وأجسادها ، فالقبر - لغوياً - مقر الميت أين كان : جوف البر أو البحر ، في جسد حيوان يأكل إنساناً ، أم في جثث التراب ، أم على وجه الأرض ، أم أينما من الأماكن ، فإن الأبدان لا تفضل عن علم الله كما الأرواح لا تفضل ، مهما ضلت عن علمنا .

و « بُعِثَ » كلمة مركبة من « بُعِثَ أَثِيرٌ » وآيته أنها تشمل المعنيين : فبإثارة القبور تبعث ما في القبور ، إثارة القبور وما في القبور ، دون أن يضل شيء من الأجزاء الأصلية لكل جسد وفي كل جثث : « وقالوا إذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد . قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم ثم إلى ربكم ترجعون » (٣٢ : ١٠ - ١١) ترجعون إلى مَنْ : « لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض » (٣٤ : ٣) .

« علمت نفس ما قدمت وأخرت » :

علمت نفس : خيرة أم شريرة - دون استثناء - علمت علماً شاملاً كما الجزاء هناك كامل ، علمت بعد جهل تام يوم الدنيا ، وبعد علم غير تام يوم البرزخ ، كما

(١) نور الثقلين ٥ : ٥١٤ ح ٦ .

الجزء هناك برزخي دون تمام ، فالبرزخ برزخ من كافة الجهات ، ومنهما العلم بحقيقة الأعمال كالجزء بالأعمال .. فما هو المقدم من الأعمال والعقائد والأقوال وما هو المؤخر ؟

من الثابت قرآنياً أن كتاب الأعمال لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها « ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر » (٧٥ : ١٤) فالمقدم أياً كان والمؤخر أياً كان ، إنها سوف يحضران يوم القيامة وفي موقف الحساب ، دون مغادرة شيء منها ولا مثقال ذرة إلا أتى الله بها وكفى به حفيظاً وحاسباً .

علمت نفس ما قدمت : من الأعمال المنقطعة غير المستمرة خيراً أو شراً ، وما أخرت مما له استمرار يؤثر ، من خير أو شر ، فالثاني من الآثار والأول مقدم وكلاهما مكتوبان يحضران يوم القيامة : « ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » (٣٦ : ١٢) فالأعمال وإن كانت كلها مقدمة ليوم الحساب ، إلا أن البعض منها مؤخرة أيضاً بعدما قدمت ، تبقى دائبة تقدم دوماً ما دامت سنة يعمل بها طوال زمن التكليف ، سنة حسنة أو سيئة ، فللعامل المبدع المبتدئ نصيب مما عملوا بها ولا ينقص أولئك من أجورهم في الحسنات ، ولا من أوزارهم في السيئات ، وكما نجد لها أصلاً ثابتاً في الآيات وفي الروايات الماثورة عن الرسول الأقدس ﷺ والأئمة من أهل بيته الكرام عليهم السلام وفي تفسير هذه الآية بالذات (١) .

(١) نور الثقلين ٥ : ٢٠٠ عن المجمع : جاء في الحديث أن سائلاً قام على عهد النبي (ص) فسأل فسكت القوم ، ثم أن رجلاً أعطاه فأعطاه القوم ، فقال النبي (ص) : من استن خيراً فله أجره ومثل أجور من اتبعه غير منقص من أجورهم ، ومن استن شراً فاستن فعليهِ وزره ومثل أوزار من اتبعه غير منقص من أوزارهم ، قال : قتلا حذيفة بن اليمان « علمت نفس ما قدمت وأخرت .. » .

أقول : وفي الدر المنثور ٦ : ٣٢٢ ، أخرجه الحاكم وصححه عن حذيفة عنه (ص) من قوله « من استن - إلى - وأخرت .. » وهي من التواتر معنوياً .

و : علمت نفس ما قدمت من خير وما أخرت من شر ، فإن الخير تقدم للإنسان والشر تؤخر ، كما ويشير إليه القرآن : « وقدموا لأنفسكم » (٢٢٣ : ٢) « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً » (٧٨ : ٤٠) « يومئذ يتذكر الإنسان وأنسى له الذكر . يقول يا ليتني قدمت لحياتي » (٨٩ : ٢٤) ، « إنها لإحدى الكبر . نذيراً للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » (٧٤ : ٢٩ - ٣١) : تقدم في الحياة بتقديم الصالحات ، وتأخر عن الحياة تأخراً عن الصالحات وتورطاً في الطالحات ، فالحري للإنسان كإنسان ، والذي يُحس يوم الحساب للحساب ، حري له أن يقدم لحياته الأخرى من الصالحات ، فإن الطالحات تسبب التأخر عن الحياة السعيدة ، وإن كانت الأعمال كلها - خيرها وشرها - تقدم ليوم الحساب ، فـ « لتنظر نفس ما قدمت لغد » (٥٩ : ١٨) .

والآية : « علمت نفس ما قدمت وأخرت » تتحمل المعنيين ، أن الإنسان سوف يعلم خيره وشره ، ما قدمه وأثاره ^(١) .

وهناك نفوس قدسية علمت حقائق أعمالها قبل موتها وقبل قيامتها ، هي نفوس المعصومين ، فلا تشملهم « نفس » لأنها منكورة لا تستغرق النفوس ، وعليها - أيضاً - تشير بتنكيرها إلى النفوس العادية غير البالغة درجة العصمة ، فها هو أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً » !

* * *

(١) كما أخرج الدر المنثور عن عكرمة وقتادة ومجاهد ، قرأهم في الآية : ما أدت إلى الله بما أمرها به وما ضيعت (٦ : ٣٢٢) .

.. يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ..

خطاب جميل جليل يهز الإنسان في كيانه الإنساني إذ يستيقظ إنسانيته ،
ويحرض وجدانه وشعوره ، ويدخل من قلبه شغافه ، ويفتبه أنه كإنسان ،
لا يحق له الغرور بربه الكريم ، فما الذي يغره بربه ويلهبه عن خالقه ؟!

يقول الرسول الأقدس ﷺ : « غره جهله »^(١) ، ويشرحه علي عليه السلام :
« أدحض مسئول حجة ، وأقطع مغتر معذرة ، لقد أبرح جهالة بنفسه إياه ،
يا أيها الإنسان ما جرّأك على ذنبك وما غرك بربك ، وما آانسك بهلكة نفسك ،
أما من دائك بلول ، أم ليس من نومتك يقظة ، أما ترحم من نفسك ما ترحم من
غيرك ، فلربما ترى الضاحي من حرّ الشمس فتظله ، أو ترى المبتلى بألم يمضّ جسده
فتبكي رحمة له ، فما صبرك على دائك ، وجلّدتك على مصابك ، وعزّاك عن البكاء
على نفسك وهي أعزّ الأنفس عليك ، وكيف لا يوقظك خوف بيّات نقمة ،
وقد تورطت بمعاصيه مدارج سطواته »^(٢) .

أجل ، وإن جهله وجهالته بربه يغره به ، أن يحسب نفسه كأنه يستقل
عن الله أم يترفع عنه أو يفسق عن طاعته .

ومن الجهل غرور بعض الناس بكرم الله ، قائلين : - حينما يسأل أحدهم عما
قصر - « الله كريم » ! جاهلين أو متجاهلين أنه كريم عادل ، ومن عدله ثواب
الصالحين وعذاب الطالحين : « نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم » وأن عذابي
هو العذاب الأليم .. فأبي فرق بين من يعصيه فأكراً كرمه ، ومن يعصيه جاهلاً

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٢٣ ، أخرجه عبد بن حميد عن صالح بن مسمار قال : بلغني أن
النبي (ص) تلا هذه الآية « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم » ثم قال : جهله .

(٢) نور الثقلين ٥ : ٥٢١ ، عن نهج البلاغة .

موقفه في كرمه ؟ فكلاما غرور بالرب الكريم ! أجل وكما سبق عن
الرسول ﷺ « غره جهله » : بكرم الرب أو بمقام الكرم .

إن واقع الكرم الربوبي ، الذي نلمسه ونعيشه دائماً ، إنه يستتبع العلم به ،
وهو يقتضي العلم بموقف الكرم هنا وفي الآخرة ، ففي الأولى وسعت رحمته كل
شيء ، وفي الآخرة يصيب بعذابه الناكبين عن صراطه المستقيم ، وهو أيضاً من
عدله ومن رحمته لمن يستحقها : « قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت
كل شيء فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون »
(٧ : ١٥٦) .

فكرمه ورحمته الواسعة يوم الدنيا يدفع العقلاء الناهيين إلى طاعته وشكره ،
ورحمته المكتوبة يوم الآخرة للمتقين تمنعهم عن التورط في عصيانه وحرماته ،
وكرمه للعاصين يحرضهم على التوبة والإنابة إليه ، وألاًّ يعتبروا عصيانه غنماً
لموقف كرمه ، ولا سيما في المعاصي الكبيرة التي لا تكفّر : « .. إن تجتنبوا
كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً »
(٤ : ٣١) ..

فإنما الغرور بالرب ، الدافع إلى التساهل في طاعة الله ، وإلى التورط في
حرمات الله ، هذا الغرور ليس إلاّ بدافع الجهل بكرمه والجهل بمعنى كرمه
وموقفه تعالى في كرمه ورحمته : « .. ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر
فإن ربي غني كريم » (٢٧ : ٤٠) إذاً فليس يقتضي كرمه العفو عن كفر ،
فإنما يراد هنا أنه لا تضره معصية من عصاه كما لا تنفعه طاعة من أطاعه ، إنه
غني كريم .

إن أوّل الكرم الرباني للإنسان هو إنسانيته « فتبارك الله أحسن الخالقين »
الإنسان الذي خلق في أحسن تقويم ، في بنيته وروحه ومهيئاته للبلوغ إلى
ذروة الكمال .

فهذا الخطاب المنبّه العتاب ينادي في الإنسان أكرم ما في كيانه : «إنسانيته»
المتجلي فيها كرمه وتكريمه : « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ..
وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » (١٧ : ٧٠) .

فما هذا الغرور بربك الذي أغدق عليك من كرمه هذا الإغداق ، وأغلق
عليك أبواب الجمل والغرور هكذا إغلاق ، بما بصرك في فطرتك وعقلك
وأنبيائه وبيئاته !

وهناك مغريات ومغرات عدة منبثقة كلها عن الجهل والجهالة بالله ، وأما
العلماء بالله فلا يغترون بما يغترّ به الجاهلون : من غرور الأماني : « ولكنكم
فتنتم أنفسكم وتربصتم وارقبتم وغرّتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغرّكم بالله
الغُرور » (٥٧ : ١٤) ومن الحياة الدنيا : « ذلك بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً
وعزّتم الحياة الدنيا » (٤٥ : ٣٥) .. « فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم
بالله الغُرور » (٣١ : ٣٣) .. ومن الافتراء بالله : « وغرّهم في دينهم ما كانوا
يفترون » (٣ : ٢٤) .. افتراء الظلم : أنه كريم بالمتخلفين المتورطين في
اللامبالاة ، وافتراء الكذب : أنه لا يدخلهم النار بل ويجمعهم مع الأبرار ..
ومن تقلّب الذين كفروا في البلاد : « لا يغرنك تقلّب الذين كفروا في البلاد متاعٌ
قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » (٣ : ١٩٧) .

فهذه المغريات المغريات المغرات من الأماني والغرور ومن الحياة الدنيا وقول
الزور على الله ومن تقلّب الذين كفروا في البلاد .. هذه وأمثالها لا تغرّ وتغري
إلاّ الجاهلين بالله ، وعلى حدّ قول الرسول الأقدس محمد ﷺ :
« غره جهله » .

فالغرة هي الجهالة والغفلة ، يقال : غررت فلاناً ، أي أصبت غرته ،
ولا يؤتى الإنسان ويصاب إلا من غرّته وغفوته وغفلته عن الله ، وعلى حدّ قول
الإمام الصادق عليه السلام : « من كان ذاكر الله على الحقيقة فهو مطيع ومن كان

غافلاً عنه فهو عاص ، والطاعة علامة الهداية والمعصية علامة الضلالة وأصلها من الذكر والغفلة^(١) .

فالغرور هو كلما يغتر الإنسان من مال وجاه وشهوة وأماني وضلال ، وسمي الشيطان غروراً لكثرة ما يغتر الإنسان ..

ثم الخطاب نفسه يدلنا أن المخاطبين هم المغرورون المكذبون بالدين من سائر العصاة غير الآثمين وغير التائبين ..

* * *

.. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ^٢ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ^٣ ..

إشارة عابرة إلى الكرم المعطوف في إنسانيته ، في خلقه وتسويته وعنده تركيبه في الصورة الإنسانية الجميلة صورة وسيرة ، علانية وسراً ، وهو في هذه المراحل مخلوق في أحسن تقويم في جسمه وروحه .

خلق وتسوية وتعديل ، كل شيء تلو الآخر ، وإلى تركيبه في صورة إنسانية بمختلف الأشكال والأجناس والحالات على وحدة الصورة الإنسانية فيما به الإنسان إنسان .

ولقد كرّمنا ربنا وأكرم بنا في هذه المنازل كلها ، آخذاً بنا من النقص إلى الكمال والأكمل « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

فما هي التسوية بعد الخلق ؟ وما هو التعديل بعد

التسوية ، ثم ما هو التركيب في الصورة المقصودة ؟

نقول إن تسوية الإنسان هي تكملة الناحية الجسدانية ولكي تصلح لقبول

(١) مصباح الشريعة أحسن كتاب في المعارف والأخلاق ينسب إلى الامام الصادق (ع) .

الروح الإنسانية : « الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين .
ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم
السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون » (٣٢ : ٧ - ٩) « أكفرت
بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً » (١٨ : ٣٧) « ألم يك نطفة
من منى يمسى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى »
(٧٥ : ٣٧ - ٣٩) « الذي خلق فسوى » (٨٤ : ٢) « ونفس وما سواها .
فألهمها فجورها وتقواها » (٩١ : ٧ - ٨) .

نستوحي من هذه الآيات البينات أن الخلق هو تكملة الجسم ، وتسويته هي
تهيئته لكي يقبل الخلق الآخر وهو الروح ، فخلقه يعم مراتب التكامل الجنيني
كلها : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار
مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا
العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (٢٣ : ١٢ - ١٤)
فهذا الخلق الآخر عله تسويته بعدما سواه جسدياً ، لقبول هذه التسوية
الروحانية .

وأما عدله فعله تعديل قواه في الناحيتين الجسدية والروحية ، كلا
بالنسبة لزميله ، أو قرينه ، أو البيئة المنفصلة عنها ، سواء داخل الرحم أم
خارجه ، فهذه الحالات الخمس بحاجة إلى تعديل لكي يصلح الإنسان الجنين
أم سواء للحياة وإدماها :

- ١ - فما لم تتناسب قوى الإنسان وأعضائه لم تتناصر في كيانه الواحد ،
- ٢ - وما لم تتلاءم الطاقات الروحية لم يك بالإمكان أن تتوحد فتوحد الحياة
صالحة ،
- ٣ - وما لم تتوافق جنود الروح والجسم لا تشكل إنساناً واحداً ،
- ٤ - وما لم تلائم حيوية الجنين فضاء الرحم لم تستقم الحياة هناك ،
- ٥ - وما لم
تتناسب هذه الكيانات الموحدة الحياة الخارجية استعالت الحياة وإدماها بعد
الولادة .. فهذه كلها تعديلات لجزأي الإنسان بعد الخلق والتسوية .

« في أي صورة ما شاء ركبك » .. إنها ليست صورة ركبنا فيها ربنا بعد الخلق والتسوية والعدل فحسب ، إذ لم يفرعها على الثلاثة الأول ، فالتص « في » لا « ففي » وعلّ الصورة تشمل صورة الحياة بعد الولادة ، فإن المدبّر الحكيم يفيض علينا الصور الحياتية كما نرسمها ويشاء « وأن ليس للانسان إلا ما سمي » صورة اختيارية لنا .

كما وتشمل الصور الجنينية الجسدانية والعقلية ، التي يفيضها الله تعالى على الجنين دون اختيار من الجنين ، من ذكورة وأنوثة ، وجمال وقبح ، ونقص وكال ومن مختلف الألوان والبنى والقوى ، ومن عقلية قوية ومتوسطة ودانية ، أو جنون وخبل ومن .. كل ذلك حسب الحكمة العالية ووفق مقتضيات الوراثة جسيماً وروحياً « وأن الله ليس بظلام للعبيد » وقد يركز الرسول الأقدس ﷺ تفسيره للآية حول اختلاف الصور ، على الوراثة (١) .

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٢٣ ، أخرج البخاري في تاريخه وابن جرير وابن المنذر وابن شاهين وابن قانع والطبراني وابن مردويه من طريق موسى بن علي بن رباح عن أبيه عن جده أن النبي (ص) قال له : ما ولدك ؟ قال : يا رسول الله (ص) ما عسى أن يولد لي ، إما غلام وإما جارية ، قال : فمن يشبه ؟ قال : يا رسول الله (ص) ما عسى أن يشبه إما أباه وإما أمه ، فقال النبي (ص) عندها : « مه » لا تقولن هذا ، إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضر الله كل نسب بينها وبين آدم فركب خلقه في صورة من تلك الصور ، أما قرأت هذه الآية في كتاب الله « في أي صورة ما شاء ركبك » من نسلك ما بينك وبين آدم .

ورواه مجمع البيان عن الامام الرضا (ع) عن آبائه عن النبي (ص) باختلاف يسير . وفي الدر أيضاً : أخرج الحكيم الترمذي والطبراني وابن مردويه بسند جيد والبيهقي في الاسماء والصفات عن مالك بن حويرث قال : قال رسول الله (ص) : إذا أراد الله أن يخلق النعمة فجامع الرجل المرأة طار مائه في كل عرق وعصب منها ، فإذا كان اليوم السابع أحضر الله كل عرق بينه وبين آدم ، ثم قرأ « في أي صورة ما شاء ركبك » . وفيه أخرج الحكيم الترمذي عن عبد الله بن بريدة أن رجلاً من الأنصار ولدت له امرأته غلاماً أسوداً ، فأخذ بيد امرأته فأتى بها رسول الله (ص) فقالت : والذي بمثلك بالحق لقد تزوجني بكراً وما أقعدت مقعده أحداً ، فقال رسول الله (ص) : صدقت إن لك تسعة وتسعين عرقاً وله مثل ذلك ، فإذا كان حين الرلد اضطربت العروق كلها ليس منها عرق إلا يسأل الله أن يجعل الشبه له .

إن الرب الكريم يركبنا في صورة من هذه وتلك ، ما شاء من حكمة وقوة وما إلى ذلك ، فالصورة هي البنية التي تميل بالتأليف إلى مماثلة الحكاية ، وهي من « صاره » إذا ما له .. فهي تعم صور الخلق والتسوية والتعديل أولاً ، وصور الحياة أخيراً .

والتركيب تخليط ، والإنسان خليط منذ البداية إلى النهاية ، فإن نطفته أمشاج : أخلاط « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » (٧٦ : ٢) .

« ما شاء ركبك » تركيب أجزاء الجسم بعضها ببعض ، وتركيبه بالروح كالعكس ، وتركيب أجزاء الروح .

فكيان الإنسان هو مشيئة الله وكرمه ، فما هذا الذي يغره بربه الكريم ؟ إن خلق الإنسان في صورته الإنسانية - أيًا كانت - السوية المعدلة الجميلة^(١) لما يفرض عليه كإنسان أن يفكر فيه طويلاً فيزداد شكراً لربه الكريم ، فقد كان له أن يركبه في صورة مشوهة وسيرة لثيمة ولكنه ما فعل ، وكما عن الصادق عليه السلام : « لو شاء ركبك على غير هذه الصورة »^(٢) .

إن دراسات علم الأعضاء والأجزاء والدراسات المعمقة في بيئات الأرواح ، إنها تعجز أن توصل الإنسان إلى جزء من مليارات الدقائق في خلقه وتسويته وتعديله ، التي ندرسها في طبقات الآيات التي توحى لنا .

* * *

(١) نور الثقلين ٥ : ٥٢٢ ، في أمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى أبي جعفر الباقر (ع) إن النبي (ص) قال لعلي (ع) قل : ما أول نعمة أبلاك الله عز وجل وأنعم عليك بها ؟ قال : أن خلقتني جل ثناؤه ولم أكن شيئاً مذكوراً ، قال : صدقت - إلى قوله - فما الثالثة ؟ قال : أنساني فله الحمد في أحسن صورة وأعدل تركيب ، قال : صدقت .

(٢) نور الثقلين ٥ : ٥٢٢ .

.. كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ٩ ..

إن دافع الغرور - الأصيل - هو الجهالة ، وأجهل الجهالة هو التكذيب بالدين : بطاعة الله والجزاء عليها ، تكذيباً عقيدياً أو عملياً ، فقد تتخذون كرمه تعالى ذريعة إلى اللامبالاة بشأن الطاعة ، وهذا تجاهل عن معنى كرمه ومداه ومورده ، وهذا تكذيب بالجزاء العدل الوفاق يوم الجزاء ، ومن لا يفرق بين المسلمين والمجرمين ليس كريماً ، وإنه لثم ظلوم : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » (٣٨ : ٣٦) وذلك في معنى تركه تعالى الإنسان سدىً هملًا ، رغم كرمه بخلقه وعنايته بهم في البداية ، فكيف يتركهم سدىً في النهاية : « أبحسب الإنسان أن يترك سدىً » (٣٦ : ٧٥) « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » (٢٣ : ١١٥) « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » (٣٨ : ٢٧) .

فالتمسك بكرمه تعالى في عفووه عن المفسدين المجرمين تكذيب بالدين كل الدين : بالدين العقيدة : أنه تعالى ظلوم يلعب بخلقهم ، ويعبث بهم ويتركهم سدىً هملًا ، وبالدين الجزاء : أنه يسوي بين المجرمين والمسلمين إما جهلاً أو ظمناً أو خلفاً لوعده أو خوفاً أو لؤماً أو ما إلى ذلك من نكران الحق في الله أو نكران الإله الحق وتكذيبه في واقعه وأقواله ووعوده .

إنه ليس التكذيب بالحياة بعد الموت فقط ، بالذي يفر المغرورين ، إنما التكذيب بالجزاء الوفاق يوم الدين ، والتكذيب بما يتطلبه الجزاء الوفاق من صفات الله الحسنى ، أو التكذيب بالله ووعوده ، كل ذلك يفر الإنسان وكما تفره الرحمة الإلهية اللانهائية والشفاعة والمغفرة ، وأخيراً أنه تعالى ليس بحاجة إلى تعذيب العصاة .

فالتصديق بالإله الحق وصفاته الحسنى ، وبالجزاء الحق ، والعرفان بحدوده

الشفاعة والغفران ، والتبصّر إلى المعرفة الحقة في أمور الدين ، كل ذلك يصد الإنسان عن الغرور بربه الكريم .

فما يكذب القلب بالحساب العدل ومتطلباته ثم يستقيم على هدى ولا خير وطاعة .

إن نأكر الحساب العدل والجزاء الوفاق لا يندفع إلى أدب ولا طاعة ، ولا يهتدي إلى نور أو كتاب منير ، ولا يستيقظ فيه ضمير ، حتى يعقل الدين عقل وعاية ورعاية كما هو الدين ، وكما ينطق به القرآن المبين ، ودراسة حدود العفو والغفران وظروفها ، وحدود الشفاعة وتكفير السيئات ، نجدها في طيات الآيات التي توحى لها فصلاً واضحاً .

* * *

.. وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَغَامُونَ مَا
يَفْعَلُونَ ۝ ١٢ ..

كما أن الرب الكريم لم يخلقكم لعباً وهماً في بدايتكم وغايتكم ، كذلك لم يترككم وأعمالكم هملاً وسدى عابثين ، فقد بعث عليكم حافظين من الملائكة والنبیین ، يحفظونكم من أمر الله : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله .. » (١٣ : ١١) حفظاً صادراً من أمر الله ، حفظاً لنفسه عن دوافع الموت والدمار ، وحفظاً على أعماله ، رسلاً من الله للحفاظ والحفظ الحق : « وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » (٦ : ٦١) : يحفظونكم وأعمالكم ثم يتوفونكم بأجسادكم وأرواحكم وأعمالكم دون تفريط ولا مثقال ذرة .

إنّ الحافظين قد يكونون لثاماً جاهلين فلا يؤبه بحفظهم ، ولا يرسل ربنا

هكذا حافظين، وإنما يبعث كراماً كاتبين عالمين لا تخفى عليهم خافية ولا يعزب عنهم عازب .

إن الأوصاف المسرودة للحافظين هنا تثير في قلوب الناس إحساس التحجل والتجمل بحضرتهم ، إنهم كرام يعلمون كل شيء من ظاهر الإنسان وخافيه ، وإنهم كاتبون فلا ينسون ، إذا فالأعمال تبقى ليوم الحساب لتشهد بواقعها في موقف الحساب .

وكما عن الرسول الأقدس ﷺ : « .. فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم .. » (١) .

وعلى حدّ قول حفيده الإمام الصادق عليه السلام في شأن الملائكة الموكلين : « استعبدكم على خلقه ليكون العباد للآزمتهم إياهم أشد على طاعة الله مواظبة وعن معصيته أشد انقباضاً ، وكم من عبد بهم بمعصيته فذكر مكانها فارعوى وكف فيقول : ربي يراني وحفظني عليّ بذلك تشهد ، وإن الله برأفته ولطفه وكلهم بعباده يذوبون عنه مرده الشياطين وهوام الأرض وآفات كثيرة من حيث لا يرون بإذن الله إلى أن يحيي أمر الله » (٢) .

« كراماً كاتبين » : والكتابة هي الثبوت ، واللائق برسل الله الحافظين ، واللائق بحضرة الربوبية ، واللائق لإثبات الحجة يوم الحساب ، ان يكون ثبت الأعمال كاثبت ما يمكن وأبقاء ، وهو ثبوت الأعمال بأقوالها وأفعالها ، بأصواتها وصورها ، تسجيلها في مسجلات خواطرم المقدسة ، ومسجلات أعضاء العاملين ،

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٢٣ ، أخرجه البزاز عن ابن عباس .

(٢) نور الثقلين ٥ : ٥٢٢ في الاحتجاج للطبرسي يسأل السائل أبا عبد الله الصادق (ع) : ما علة الملكين الموكلين بعباده يكتبون ما عليهم ولهم والله عالم السر وما هو أخفى ؟ قال : ..

ومسجلة الأرض وفضائها ، وأمثالها من مسجلات عارفة عامة أو سواها » بأن ربك أوحى لها .

هذه هي كتابة الأعمال كما يشهد بها الاعتبار وتشهد بها الآيات والروايات ، لا نقش الحبر على الورق إذ لا حجة فيه ، وكما عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام : « .. فإذا فعلها (الحسنة) كان لسانه قلمه وريقه مداده وأثبتها له .. »^(١).

أجل ، وإنه كتاب ورقه اللسان القائل ، والأعضاء العاملة ، وريقه نفس القول والعمل ، والكرام الكاتبون - الحفظة منهم - الملائكة الموكلون بالمكلفين ، يحفظونه من أمر الله ويحفظون له وعليه أعماله بإذن الله .

* * *

.. إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ^{١٣} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ^{١٤}
يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ^{١٥} وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ^{١٦} وَمَا أَدْرَاكَ
مَا يَوْمَ الدِّينِ^{١٧} ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ^{١٨} يَوْمَ لَا تَمَلِكُ
نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ^{١٩} .

(١) نور الثقلين ٥ : ٥٢٤ ، أصول الكافي بإسناده إلى عبد الله بن موسى بن جعفر عن أبيه (ع) قال : سألت عن الملوك هل يعملان بالذهب إذا أراد العبد أن يفعله أو الحسنه ، فقال (ع) : ربيع الكنيف والطيب سواء . قلت : لا ، قال : إن العبد إذا هم بالحسنة خرج نفسه طيب الريح ، فقال صاحب اليمين لصاحب الشمال : قم فإنه قد هم بالحسنة ، فإذا فعلها كان لسانه قلمه وريقه مداده وأثبتها له ، وإذا هم بالسوء خرج نفسه منتن الريح ، فيقول صاحب الشمال لصاحب اليمين : قف فإنه قد هم بالسوء ، فإذا هو فعلها كان لسانه قلمه وريقه مداده وأثبتها عليه .

« إن الأبرار لفي نعيم » :

لا بعد الموت فحسب ، بل ومنذ كونهم أبراراً ، فإن البرّ هو النعم بذاته ، لنفسه ولجتمعه ، مها كان بروز نعيمه بحقيقته يوم القيامة الكبرى ، فلفظ الآية « لفي نعيم » يوحى ظرفاً فعلياً مستمراً لنعيمهم ، لا « سوف ينعمون » لكي يختص نعيمهم بالمستقبل ، فهم نعيم وفي نعيم ، حاضراً ومستقبلاً وغابراً ، ما داموا أبراراً .

« وإن الفجار لفي جحيم » :

كما « وإن الفجار لفي جحيم » ما داموا فجاراً ، فهم جحيم : نارٌ شديدة التأجج ، يوم الدنيا ويوم الدين ، هم وقود نيران الخلافات والعداءات والويلات يوم الدنيا - وعلى أثره - هم وقود الجحيم يوم الدين ، يصلون الجحيم بأفكارهم وأعمالهم وذواتهم ، فما الصلي إلا وقوداً ، وليس كل أصحاب الجحيم وقوداً لها : « فأنذرتكم ناراً تلتظي . لا يصلها إلا الأشقي . الذي كذب وتولى » (٩٢ : ١٥ - ١٧)

فها شقي وها أشقي ، ولا يصل النار إلا الأشقي ، وإن كان يدخلها كل من الشقي والأشقي ، فالأشقي صلاءٌ ووقودٌ ، والشقي يحرق به ، وقد يجنبها بعدما ذاق جزاءه الوفاق .

فالصلي هنا ليس دخولاً في النار كما يزعم ، وإنما هو إيقاد ، كما الإصطلاء هو الإستيقاد : « لعلّي آتيكم بها بنخب أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » (٢٨ : ٢٩) .

لذلك لا نرى صلي الجحيم - حسب القرآن - إلا للأشقين

الكذابين^(١) ، وكما نرى آيات الوقود والحصب تختص بهم : « إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار » (٣ : ١٠) .

فرؤوس الكفر وأس الضلالة كما كانوا - هم - وقود النار وصلبوا يوم الدنيا ، يعيشون حياتهم التضليل والتدجيل ، كذلك هم صلي النار ووقودها يوم الدين جزاء وفاقاً ، فهم يحملون أوزامهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين أضلّوهم دون أن ينقص أولئك الأذناب من أوزارهم شيئاً .

« وما هم عنها بغائبين » :

فالوقود لا يغيب عن ذاته ، وأصحاب الجحيم الذين يصلونها لا يغيبون عنها ما داموا ودامت ، إلا بعد فنائهم بفنائها ، كما الوقود يُحرق بنفسه ويُحرق ما دام موجوداً ثم لا حريق ولا محروق .

وكما أنهم لم يكونوا ليغيبوا يوم الدين عما عن وقودهم - تصرفاتهم الجهنمية - كذلك يوم الدين ، فما هم عنها بغائبين ، *بؤس علوم ردي*

وهذه الآيات ثنائية التقسيم ، تتحدث عن موقف هؤلاء الذين محضوا الإيمان محضاً ، أو محضوا الكفر محضاً ، فإما إلى النعيم وفيه ، دون أن يمسه عذاب ، وأما إلى الجحيم وفيها ، دون أن تمسه رحمة ، ثم المتوسطون - وهم درجات -

(١) « سيصلي ناراً ذات لهب » (١١١ : ٣) « إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً » (٤ : ٥٦) والآيات : ٤ : ٨٨ و ١٢ : ٨٤ و ٣٢ : ٨٧ و ١٨ : ١٧ و ١٥ : ٩٢ و ١٠ : ٤ و ٢٩ : ١٤ و ٥٦ : ٣٨ و ٨ : ٥٨ و ٦٤ : ٣٦ و ١٦ : ٥٢ و ٣١ : ٦٩ و ٢٦ : ٧٤ و ١١٥ : ٤ و ٣٠ : ٤ و ١٦٣ : ٣٧ و ٥٩ : ٣٨ و ١٦ : ٨٣ و ٩٤ : ٥٦ و ٧٠ : ١٩ .

نرى في هذه الآيات كلها كيف يختص الصلي بالكاذبين والكافرين .

ليسوا في جعيم خالص ولا نعيم خالصة ، مهما كانت جعيم الحجة فنعيم العفو والرحمة والشفاعة ، أو جعيم النار غير خالدين فيها أو خالدين غير آبدن ، ثم إلى نعيم مقيم ، فهم بين جعيم ونعيم ، ثم إن مرجعهم إلى النعيم ، كما كانوا يوم الدنيا بين برّ وفجور ثم ماتوا مؤمنين ولو شيئاً مآء ، أو ماتوا فاسقين دون محض الفسق واللامبالاة .

« وما أدراك ما يوم الدين . ثم ما أدراك ما يوم الدين » :

« وما أدراك » ؟ سؤال تهويل وتهويل وتجليل : أن حقيقة يوم الدين ليس بالأمر الهين الذي يدركه الإنسان إلا بوحى السماء .. فإذا أنت دريت ما يوم الدين ما كان يدريك إتياء وحي الأرض وعقل الأرض وعلمها .. وإنما وحي السماء ليس إلا ، فالإنسان - أيّا كان - يحل يوم الدنيا حقيقتها ، فأحرى به أن يحل يوم الدين ^(١) .

والدين هو الطاعة ولها يومان ، يوم تطبيقها : يوم الدنيا ، ويوم بروزها بحقيقتها في جزائها وهو يوم الدين ، فيوم الدنيا هو يوم الدين تشريعياً ككل ، وتكوينياً بالاختيار ؛ ويوم الدين هو يوم الدين تكوينياً دون اختيار ، وإنما جزاء الاختيار وفاقاً وعدلاً ، أو فضلاً .

« ثم ما أدراك » ؟ علّ الدراية الثانية هي عين اليقين وحقه لما تقوم القيامة ، كما الأولى هي علم اليقين ، وفي كلتا المرحلتين ليست الدراية إلا من رب العالمين ، لكننا الرسول عرف يوم الدين حق المعرفة واليقين قبل القيامة : حيث النص :

(١) التعبير « ما أدراك » يختلف عن « ما يدريك » إن الأول سؤال عما تحقق ، عن سببه ، والثاني عما بالامكان أن يتحقق ، عن سببه وكما يروى عن ابن عباس « كل ما في القرآن من قوله تعالى : ما أدراك ، فقد أدراه ، وكل ما فيه من قوله عز وجل : ما يدريك ، فقد طوي عنه .

« ثم ما أدراك » ولم يقل « ثم ما يدريك » أدراه إياه وحي السماء كأنه رآه وأكثر ، وكان القيامة قامت ، طالما لم يدرك وقتها ، فإنما عليها عند الله لا يجليها لوقتها إلا هو .

فهكذا سؤال يوقع في الحس عظمة الموقف وأن الأمر أعظم جداً وأهول من أن يحيط به إدراك البشر المحدود ، فهو فوق كل تصور مألوف وكل واقع معروف .

« يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » :

هنا نعرف ونُدري شيئاً ما من يوم الدين ، وما يختلف به عن يوم الدنيا أنه : يبطل ملك بني الدنيا إلا من تملكه رضا الله فيملكها بإذنه ، فيقف موقف الشفاعة بإذن الله « من أذن له الرحمن ورضي له قولاً » .

نحن نملك أسباباً يوم الدنيا بما ملكتنا الله إياها ، ولكنها تنقطع يوم الدين : « وتقطعت بهم الأسباب » (١٦٦ : ٢) .. كما نقوى شيئاً ما من القوى يوم الدنيا ابتلاءً وتكليفاً ثم لا نملك شيئاً منها يوم الدين : « ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً » (١٦٥ : ٢) .

صحيح "إننا ما كنا نملك يوم الدنيا شيئاً إلا مجازاً وتخويلاً من شأن التكليف ، ولكننا نفقد المجاز أيضاً يوم الدين ، ولا يبقى أمر ولا ملك إلا الله الواحد القهار : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » (١٦ : ٤٠) والملك هذا من الأمر الذي كلفه يومئذ لله .

إنه المعجز الكامل والشلل الشامل ، وانفصال بين النفوس وانشغال عنها ، ف « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » (٨٠ : ٣٧) ولو انشغلت نفس عن نفسها ، واتجهت إلى غيرها ، لم تكن لتفيده وتغنيه ، إذ لا تملك هناك شيئاً لنفسها فضلاً عن سواها .

وعلى حدة تعبير باقر العلوم عليه السلام إن الأمر يومئذ لله والأمر كله لله ، إذا كان يوم القيامة بادت الحكام قلم يبق حاكم إلا الله ^(١) .

إن الأمر كله لله يوم الدين ، أمر الملك والإحياء والإدانة والعفو والشفاعة والحكم والتنفيذ وما إلى ذلك ، وإن كان كذلك يوم الدنيا ، إلا أنه حررنا يومها في بعض الأمر ، وخيرنا بين الإيمان والكفر ، ولأنها دار التكليف .



مركز تحقيق كالمبيوتر علوم اسلامی

(١) نور الثقلين ٥ : ٢٧ ح ٢٨ دوى عمرو بن شمر عن جابر عنه (ع) .

﴿سورة المطففين - مكية - وآياتها ست وثلاثون﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ ^١ الَّذِينَ إِذَا
اُكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ^٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ
يُخْسِرُونَ ^٣ .. »

هذه السورة تهدد المطففين شؤون الناس وحقوقهم ، المقتسمين الحقوق بينهم
وبين الناس قسمة ضيزى ، كأنهم يملكونهم بأنفسهم وأموالهم ، يحسبونهم قطب
الرحى تدور عليهم ولصالحهم الكائنات كل الكائنات .

« ويل للمطففين : »

فالويل هو الهلاك والخسار والبوار والدمار ، لفظة تقال في مواقف التأوه
والتقبيح ، لفظة الذم والسخط لمن يسببون الويلات النفسية والعقائدية والاقتصادية
والعملية .. وهؤلاء الذين يهددهم القرآن بالويل ، هم ويل في صفاتهم وأفعالهم
وأفكارهم وتصرفاتهم ، فدواتهم ويل .. أينما حلت ، لأنفسهم ولجتمهم .

والويل من الله ليس دعاءً والتاساً ، فمن هذا الذي يلتمس منه ربنا لتحقيق غير
الحاصل ؟ اللهم إلا نفسه المقدسة ، فهل يا ترى إنه يلتمس من نفسه ؟ ! كلا وإنه

خبرٌ لا دعاء ، يخبر عن واقعهم أنه ويلٌ ما عاشوا تلكم التخلفات ، ويلٌ في الأولى والآخرة .

والتطفيف - رغم ما يقال - لا يختص بالمال ولا بالشيء القليل الطفيف ، فهل إن واقعة الطف - تلك الحادثة الدامية الكبرى ! - هل إنها كانت خفيفاً طفيفاً ؟ .

كلا : إنه الانتقاص بحق الآخرين وبخسهم في أشياءهم : أنفسهم ونفائسهم « ويا قوم أوفوا المكيال والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين » (٧ : ٨٥) .. أشياءهم كل أشياءهم : الأشياء النفسية : العقلية والإيمانية والعلمية والعرضية وأشبابها ، والأشياء المالية وكل ما يتعلق بالناس أياً كان .

وبعد كل ذلك فالآيات التالية تفسر التطفيف دون حاجة إلى مفسر سوى القرآن : « الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » .

« الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون » :

فالأكتيال يوحى بالإحتيال في الشراء ، ثم « على » هنا بدل « من » توحى إلى الإضرار والبخس والتطفيف في هذا الأكتيال الإحتيال ، إحتيال في الإضرار ، فلم يقل « إذا كالوا من الناس » وهو يعني أخذ الحق وافياً دون نقصان ، على أن أخذ الحق في الإشتراء لا يخلف ويلا ، اللهم إلا إذا جمع مع بخس الحق في البيع ، وليس هذا تطفيفاً في كلتا الحالتين ، وإنما في البيع فحسب ، والظاهر هنا أن كلا البيع والإشتراء تطفيف .

لأنهم يستوفون في أكتيالهم بشق ضروب الإحتيال والزور والغرور ، كأن لهم سلطاناً على البائعين يجعلهم يستوفون كما يهون فوق حقهم بسلطان الرئاسة

والجاء القبلي ، وسلطان حاجة الناس -- المدقعة لما في أيديهم ، واحتكارهم للتجارة لحدّ يضطر الناس إلى تقبل هكذا اكتيال عليهم ..

وليس استيلاؤهم من أموال الناس فحسب ، بل ومن أرواحهم ومشاعرهم أيضاً عن طريق العقائد الباطلة ، فهم عندما يشترون منهم ما عندهم ببغس الثمن واستيفاء الثمن ، يشترون كيانهم أيضاً ويملكونهم بأموالهم ، فهم محتكروا النفوس والنفائس .. يملكون أصواتهم وذاتياتهم ببغس الثمن كما يملكون أموالهم به .

« وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » :

ومرة أخرى يملكونهم عندما يبيعونهم ، فلا يكيلون لهم ولا يزنون ، وإنما يكيلونهم ويزنونهم : أنفسهم وأموالهم وكيانهم ككل ، فيخسرونهم هنا كما أخسروهم هناك ، ملكية معقدة مزدوجة ، دون أن يبقوا لهم رمقاً ولا نفساً ولا نفساً ، وهذا أخطر دركات التطفيف ، وقد يكون الإشتراء السليم والبيع المحسر داخلاً في نطاق الآية ولكنه تطفيف طفيف لا ويل له إلا في هكذا جمع خامس وقسمه ضيزى ، أنه يستوفي حقه مستثيراً ولا يوفي الحق الآخرين بائعاً ، ولكننا الويل كل الويل لمن يخسر في الحالتين ، ولذلك نرى الإسلام يرفع صوته عالياً معلناً لحرب الويل في وجه البغس الساحق الماحق على جبهة المحتكرين المستغلين المسيطرين على الجماهير الفقيرة المخطئة البائسة ، دون أن يحدّثهم ويصبرهم على الظلم والضم حياتهم .

فهذا سوط الإسلام وصوته يرفعه عالياً على رؤوس الفرعونية الكافرة والقارونية الجائرة ، والبلعمية المائرة ، ثلوث منحوس طوال التاريخ : الإستهمار والإستثمار والاستحمار ، وقد تجتمع في شخص واحد ، ثلاثة في واحد ، وواحد يحمل ثلاثة ، فرعون قارون بلعم ، إله واحد في أقانيم ثلاثة ! . يستحمر الناس فيخذلهم ويصبرهم على الظلم والضم ، ويستعمرهم ويستثمرهم ، ورمزاً إلى حرب

شعواء ضد هذا الثالث يؤمر الحاج أن يرمي الجمرات الثلاث إشارة إلى وجوب ضرب الثالث ابتداء من الشيطان الأكبر ، جمره العقبة . ثم مردقه ، ولكيلا يكبروا فيصبحوا كمولاهم .

والقرآن يرفع سوط الويل من هذا الثالث المنحوس ويحرض الشعوب المحطمة لينهضوا نهضة مدمرة لإيقاف هذه النعسة عند حدها ، وليعيش الناس على رغد الأمن والعيش ، في حياة سليمة مسلمة غير مستسلمة للظلم والضم .

فكما الويل للمطففين ، كذلك هو للمطففين الذين 'يحنون ظهورهم لمن يستعمرهم ويستثمرهم ويستعمرهم ويمتص دماءهم ، اللهم إلا الضعفاء الذين لا يعرفون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فعلى المؤمنين ذوي الحنكة والقوة الحفاظ عليهم والدفاع عنهم .

فآية التطفيف لا تختص بالتطفيف منه مها كان مورد نزولها تطفيف الكيل في المبايعات ، فقد نزلت على نبي الله ﷺ حين قدم المدينة وهم يومئذ أسوء الناس كيلا فاحسنوا الكيل^(١) وحذرهم الرسول الأقدس ﷺ عن تطفيف الكيل^(٢) ولكننا الآية تذكر الكيل في الاشتراء كشال ، كما توحى إليه إضافة

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٢٤ عن ابن عباس ورواه علي بن ابراهيم القمي في تفسيره عن أبي الجارود .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٣٢٤ عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ص) : ما نقض قوم العهد إلا ساءل الله عليهم عذرم ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين .

وفي تفسير الرازي (ج ٣١ : ٨٨ - ٨٩) « وقيل : كان أهل المدينة تجارا يطففون وكانت بياعاتهم المنابذة والملازمة والمخاطرة فنزلت هذه الآية ، فخرج رسول الله (ص) فقرأها عليهم وقال : خمس بخمس ، قيل : يا رسول الله (ص) ما خمس بخمس ؟ قال : ما نقض قوم العهد إلا ساءل الله عليهم عذرم وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر وما ظهر فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم المطر » .

الوزن في البيع ، ودون اختصاص بكيل شيء أو وزنه ، وإنما « كالهم أو وزنهم » . كيل المشترين ووزنهم بما يتعلق بهم ، كأنما البائعون لهم والمشترون منهم هم 'متع' لا يملكون لأنفسهم شيئاً إلا قدر رحمة المطففين ، يعيشونهم كأرذل العيشة وأنذل من عيشة الحيوان ، ولكي يعيشوا مترفين على مساعي هؤلاء المستضعفين المنكوبين المرضوضين ، عمالاً لا يحق لهم الحصول على ما يحصلون !

* * *

.. أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ
يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ..

والظن هنا مطلق الاعتقاد الراجح ، عقلياً أو قلبياً ، فالمعتقدات العقلية - غير المتعاملة مع الواقع العملي - هي ظنون قلبية ، وإلى درجة الشك والنكران ، والمتعاملة منها مع الواقع هي ظنون قلبية إلى الصعود وإلى درجة اليقين القلب ، والظنون العقلية هي شكوك في القلب ، وحق الظن أبداً كان أن يردع الإنسان عن التخلف ، سواء أكان ظناً عقلياً فشك قلب ، أو يقيناً عقلياً فظن قلب ، فأبي منها حصل - لمن يحترم عقله ويخاف سوء الحساب - إنه كاف أن يكفّه عن التطييف وأكل أموال الناس وإيكاها ، وهدر نفوس الناس وإبطاها ، واستخدام سلطان الزور بحقهم ، فالأعمال ليست إلا صوراً واقعية عن نفسيات الإنسان ، وعلى حدّ تعبير الإمام الصادق عليه السلام : « القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء » (١) .

ومن أعجب العجائب أن يقين الحساب يتمثل شكاً في الواقع ، وعلى حدّ تعبير

(١) بحار الأنوار ، باب العقل والجهل .

الإمام الرضا عليه السلام : « ما خلق الله يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت » (١) .

« ألا يظن أولئك » :

فاللامبالاة هذه في تصرفاتهم تشهد كأنهم لا يظنون البعث لأي مرحلة من مراحل الظن ، وبعضهم كأنهم يوقنون بعدم البعث !

والخطاب العتاب هذا ، تنديد بمن يظن ومن لا يظن ، فالأولون يحق لهم بحكم ظنهم بالحساب أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا وأن يزوها قبل أن يوزنوا ، فلا يطففوا في معاملاتهم مع الناس في أموالهم وأحوالهم .

والآخرون كان عليهم أن يعتبروا بالآيات الآفاقية ، ويتذكروا بفطرهم وعقولهم أن البعث والحساب حق لا محيد عنه .

وقد عبر عن يقين العقل هنا بالظن - حيث يشمله - توهيناً لهكذا يقين ، كيف لا يظهر في العمل الخارجي ! عكس ما عبر عن يقينه الصالح بالظن في قوله تعالى : « واستمعنوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون » (٢ : ٤٥) فبما أن الخشوع من حالات القلب ، فظن الخاشعين كذلك قلبي وليس عقلياً ، هذا الظن الذين يجعلهم خاشعين لله خاضعين ، فليست الصلاة ولا سواها من تكاليف ، كبيرة لهم ثقيلة .. فهذا الظن لا يظهر في العقل إلا كدرجة عالية من درجات اليقين ، كيف لا والكثير من المصدقين بمقولهم لا يخشعون ولا يصدقون بأعمالهم .

وقد أول الظن هنا وهناك باليقين في المروي عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام دون أن يكون تفسيراً لغوياً وإنما يجري وتطبيقاً : « الظن ظنان ظن شك وظن

(١) الحاصل للصدوق بالاسناد عنه (ع) .

يقين، فما كان من أمر المعاد من الظن فهو ظن يقين، وما كان من أمر الدنيا فهو على الشك^(١) وهو يعتبر الظن في الآيتين ظن اليقين^(٢). منها كان في آية المطغفين شاملاً لظن الشك أيضاً، فإن الإمام يبين هنا المصدق الحقي (ظن اليقين) دون تكرار لسائر الظن.

ألا يظن أولئك الظانون حتى يدفعهم ظنهم إلى العدل في الناس، ولم لا يظن هؤلاء الشاكون في البعث، ودلائل العلم بآخرة وشواهد ظاهرة.

ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم؟! عظيم ما أعظمه مدى الدهر إذ يقوم الناس بأرواحهم وأجسادهم من أجداثهم، يقومون لأعظم عظيم، الله رب العالمين، لحساب عظيم، يقوم هذا الصغير الصغير لغير النهاية، لهذا العظيم العظيم لغير النهاية، يقومون له - لا - إليه، فإن رب العالمين لم يكن بعيداً عنهم قبل قيامهم وفي دنيا الحياة، منها كانوا - هم - عنه بعيدين.

فهم يومئذ يقومون له، بعدما كانوا قائمين في دنيا الحياة لأنفسهم إلا قليلاً، هؤلاء القلة القائمة لله طوال الحياة، يقيمهم الله له ليربهم أعمالهم بالحسنى، والكثرة القائمة لأنفسها يقيمهم الله ليجازيهم بما عملوا جزاءً وفاقاً، ف«قوموا لله قانتين» يوم الدنيا، ولكي تقوموا له أيضاً يوم الدين فيقيمكم في عِلين.

يوم يقوم الناس لرب العالمين: ليروا ربوبيته العالمية حقها يوم الجزاء، فإن ربوبيته تعالى يوم الدنيا قائمة على أساس الاختبار والاختيار والتكليف، ثم هي قائمة يوم الدين على أساس الحساب والجزاء.

(١) نور الثقلين ٥ : ٢٢٨ عن الاحتجاج للطبرسي.

(٢) المصدر عنه (ع) فسيما يكون تأويله على غير تنزيله قوله: «الذين يظنون أنهم ملائكة ربهم» أي: يوقنون أنهم مبعوثون، ومثله قوله: «ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم» أي: ليس يوقنون.

إنه يوم القيامة ، لقيام الناس « يوم يقوم الناس » وقيام الإشهاد « يوم يقوم الإشهاد » وقيام الحساب « يوم يقوم الحساب » وقيام عالم جديد بعد خراب العتيق « وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للفاوين » (٢٦ : ٩٠) قيامات وقيامات في قيامة واحدة ، فد « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

يوم يقوم الناس — متجردين — لرب العالمين ، ليس لهم يومئذ مولى سواه ، ولا رب سواه ، فقد ضلت الأرباب ، وتقطعت الأسباب ، والأمر يومئذ لله .

* * *

.. كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا
 سِجِّينٌ ٨ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ٩ وَبِلَ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١٠ الَّذِينَ
 يُكَذِّبُونَ بَيَّوْمِ الدِّينِ ١١ وَمَا يُكْذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ
 أَثِيمٍ ١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ١٣
 كَلَّا بَلْ رَأَوْا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١٤ كَلَّا إِنَّهُمْ
 يَوْمَئِذٍ عَنِ رَبِّهِمْ لَمَحْجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ١٦
 ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تُكَذِّبُونَ ١٧ ..

« كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ » :

الْفُجَّارُ هم الذين يفجرون ستر العبودية والحياء ، المتجاوزون الحدود المقررة لهم ، الهاتكون لها ، والفجور يقابل التقوى وهي الحفاظ على شؤون العبودية : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها » (٩١ : ٧ - ٨) .

والكتاب هنا وفي أمثاله هو كتاب الأعمال ومسجلاتها الضوئية ، صوتية وصورية ، أن تُسجل في نفوس الفجار وفي أعضائهم وفي الأرض والفضاء كما قدلنا آيات سجلات الأعمال والأقوال ، فإن الكتاب هو المكتوب أي المثبت ، والأشياء الثابتة عن المكلفين ، التي تليق أن تكون حجة لهم أو عليهم يوم الدين ، إنها ليست إلا صور الأعمال وأصوات الأقوال ، وكما يروى عن الرسول الأقدس ﷺ قوله : « إن الملك يرفع العمل للعبد يرى أن في يديه منه سروراً حتى ينتهي إلى الميقات الذي وصفه الله له فيضع العمل فيه فيناديه الجبار من فوقه : إرم بما معك في سجين ، وسجين : الأرض السابعة ، فيقول الملك ما رفعت إليك إلا حقاً فيقول صدقت إرم بما معك في سجين » (١) .

وهذه الأعمال الشريرة الفاجرة تجعل من دوح الفاجر سجينا كما أنها أيضاً سجين ، وهي تدخل سجين ، وعلى حد قول باقر العلوم عليه السلام : « وأما الكافر فيصعد بعمله وروحه حتى إذا بلغ السماء نادى مناد اهبطوا به إلى سجين .. » (٢) .

والسجين مبالغة في السجن ، وكتاب الفجار بأنفسهم وأعمالهم لفي سجين ، سجين لا يظهر تماماً يوم الدنيا ، وهو يبرز تماماً يوم الدين .

« كلا إن كتاب الفجار لفي سجين » : ليس كما يزعمه المطففون والمجرمون كل المجرمين أنهم متحللون عن أعمالهم وعقباتها ، فلا حساب ولا جزاء ، وأنهم أحرار يوم الدنيا وأحرار كذلك يوم الدين ، لو كان هناك حساب أو لم يكن .. إنهم يزعمونهم أحراراً وليسوا إلا في سجين ، فأرواحهم سجون الفضائل

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٢٥ ، أخرجه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : حدثني رسول الله (ص) ...

(٢) نور الثقلين ٥ : ٥٣٠ نقلاً عن مجمع البيان .

والمعطيات الربانية ، تسجنها وتدفعها ، وأعمالهم سجون لهم ولجتمعهم ، هؤلاء المطففون وأمثالهم البخلاء الذين يحصرون ويسجنون كل شيء لهم ولشهواتهم ، ولا يسمحون لأحد حرية إلا ويحددونها ، ولا ثروة إلا ويستقلونها ، ولا وجهة إلا ويستقلونها .. فيحسبون أنفسهم كل شيء ، ولا يعتبرون غيرهم إلا خداماً لهم ولكي يستعمروهم ويستثمروهم ويستحرموهم ..

فهؤلاء الفجار البخلاء الذين ليس كيانهم في المجتمع إلا أنهم سجون للناس وهم أحرار في استغلالهم ، ويحسبونهم أنهم يحسنون صنعا .
هؤلاء هم السجين ، أنفسهم ، نفوسهم وأعمالهم ، إنهم أولاً وأخيراً سجين وفي سجين .

« وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم » :

هنا تبرق حقيقة - كانت خفية - هي أن السجين - وفي القيامة - هو كتاب مرقوم ، وهو الخط الغليظ ، إنه ليس كتاباً مخطوطاً بالمداد لكي تكون دلالة غير ظاهرة وقابلة للتأويل أو التكذيب ، وإنما « كتاب مرقوم » مكتوب بخط غليظ ، بقلم القدرة والنور ، حيث تكتب وتسجل صور الأعمال وأصوات الأقوال في نفوس المحرمين وأعضائهم وسواها .

فلو كان الكتاب السجين مخطوطاً بالمداد فما هي الحاجة لتوصيفه بالمرقوم ؟ فكل كتاب من شأنه أن يحمل - ولا أقل - خطوطاً .. ثم كيف يكون كتاب الفجار في كتاب مرقوم ، فهل كتاب في كتاب ؟ .

فإنما السجين ، وهو سجين الجحيم ومن أسجن ما فيه من السجون ، إنه ليس إلا نفس النفوس والأعمال ، فإنها الكتاب المرقوم ، الظاهر الذي لا يمكن إنكاره .

فكتاب الفجار ، وهو الاضبارات والمسجلات لأعمالهم الفاجرة ، هذا الكتاب

في سجين ، في كتاب مرقوم ، مما يدل على أن سجين الجحيم ليس إلا أعمالهم ، كتاب فجورهم ، الذي كان خفياً عنهم يوم الدنيا ، ثم يبرز مرقوماً ظاهراً يوم الدين : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (٥٠ : ٢٢) .

هذا وكما يقال أن خلافتك هذا لفي سجن ، إشارة إلى أن السجن نتيجة الخلاف ، كذلك كتاب الفجار ، نفوسهم الفاجرة بأعمالهم الشريرة ، إنها لفي سجين ، لفي جحيم هي حقيقة تلك الأعمال ، يحرق الفاجر بما أوقده ، بوقوده الذي هو نفسه وأعماله : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » (٢١ : ٩٨) .

لذلك نرى بعد آيات عدة يقول : « ثم إنهم لصالوا الجحيم » ، أي : لمحرقوا الجحيم ، بماذا ؟ بكتاب الأعمال ، بالأعمال أنفسها ، وبالنفس المجرمة الشريرة .

إذاً فكتاب الفجار هذا هو في نفسه الجحيم وهو السجن ، وهو الكتاب المرقوم ، الواضح الخط ، الغليظ المحتوى .

إن كتاب الفجار - الخفي يوم الدنيا ، غير المرقوم في أبصارهم الكلية - سوف يكون في كتاب مرقوم ، سوف يخرج عن الخفاء ، فبصرك اليوم حديد ، فالكتاب الخفي « كتاب الفجار » هو في كتاب جلي في النهاية ، كما كان الجلي في الخفي في البداية ، وكلاهما سجين وفي سجين ، سجين يوم الدنيا وسجين يوم الدين .

أو إنه كتاب مرقوم ليوم الدنيا والدين ، مرقوم لمن رقبه مها كان خفياً في الأولى عن أبصار الناظرين ، وهذا الكتاب المرقوم لفي سجين ، في حفاظ الله تعالى دون أن يمحي منه شيء إلى أن يشهد يوم الحساب ، فمعنى الآية إذاً :

إن أعمال الفجار لفي سجين إلهي ، محفوظ ثابت ، والسجين هو الكتاب المرقوم ، ظاهر بذوات الأعمال والأقوال .

فيا لهذا الكتاب المرقوم من جلاء وظهور ، مرقوم بخطه الذاتي إذ كتب : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » (٤٥ : ٢٩) .. ياله « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً » (١٨ : ٤٩) .. فهكذا رُقم أولاً .

ثم يتحول رقمه هذا - الظاهر - إلى رقمه الملكوتي الحقيقي ، تحول الأعمال إلى نتائجها ، جزاء ذاتي بنفس الأعمال ، دون أن يكون جزاءً قانونياً فقط ، إنما جزاء تكويني : أن تتحول الأعمال إلى نتائجها « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » (٥٣ : ٤٢) يجزي الساعي نفس سعيه ، الجزاء الأوفى ، جزاءً وفاقاً في السيئات وجزاء كريماً في الحسنات .

فالإنسان نفسه كتاب ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

« ويل يومئذ للمكذبين » الذين يكذبون بيوم الدين :

واحسرتاه في ذلك اليوم العصيب إذ برزت كتب الفجار بأرقامها ، للمكذبين يوم الدين ، أفهل يكذبون أيضاً بما عملوه يوم الدنيا حيث يظهر مرقوماً يوم الدين ؟

« وما يكذب به إلا كل معتد أثيم » :

فإنما الإعتداء والإثم هما القائدان صاحبها إلى التكذيب بيوم الدين ، فالفطرة السليمة لا تكذب ، والعقل لا يكذب ، وواقع الحياة لا يكذب ، وإنما المعتدي الأثم يكذب به ، ولكيلا يرى أمامه عقبة كثودة ، يكذب بالجزاء العدل الوفاق

مها صدق بالبعث ، إلا أنه بعث عبث ، أو يصدق بالحساب ، لكنه حساب
فوضى ، ومها يكن من شيء فالمعتدي الأثم يركز في جرمه على نكران الجزاء
الوفاق ، ولكي يصدقه البسطاء المتخلفون ، يكذب آيات البعث والحساب ضمن
ما يكذب ، رامياً لها أنها من أساطير الأولين وخرافاتهم ، ليس لها أصل
سماوي ، أو إذا كان فإنما هو من الديانات السابقة فلا جديد إذاً في القرآن يفرض
علينا اتباعه :

« إذا تتلى عليه آياتنا قالوا أساطير الأولين » :

خرافاتهم وأوهامهم المختلفة المسطورة التي تَنَقَّلُ للتفكك ، أو الآيات التي
نزلت على أنبياء الله من قبل ، إذا فلا جديد في القرآن من حقائقه وخرافته :
« وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين » (١٦ : ٢٤) أنزل في
قرآنه ما كان ينزله في كتاباته من قبل : « وقالوا أساطير الأولين أكتبتها فهي
تلى عليه بكرة وأصيلاً » (٢٥ : ٥) « لقد وعدنا هذا نحن وآبائنا هذا من
من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » (٢٣ : ٨٣) (١) .

فأين « آياتنا » ؟ وأين « أساطير الأولين » ؟ آيات الله هي بأنفسها تدل على أنها
إلهية إذ لا بسطع عليها إلا الله ، والأساطير الخرافية بأنفسها تدل على أنها من غير
الله ، بل ومن السفهاء ، ومن حماقة التعبير أن يقال عن آيات الله أنها أساطير
الأوليين ، وليس هكذا حكم أحق إلا لأن قلوبهم أصبحت مقلوبة بما كانوا

(١) أساطير أما جمع الجمع ، أي : أسطر وأسطور وأسطار ، فهو بمعنى ما سطره وكتبه
الأولون ، أو جمع أسطور وأسطير وهو أيضاً ما يكتب ، ولكننا الأسطور هو الحديث الذي
لا أصل له ، فالأساطير أعم مما سطره الأولون ولا أصل له أو ما له أصل قديم ، وعلى الوجهين
فرمي القرآن بأنه أساطير الأولين تجمله لا شيء ، إما أنه لا جديد فيه وإن كان صحيحاً ، أو أنه
من خرافات الأولين !

يكسبون، فليست هنا أية حجة ودافع لهم في هكذا تعبير إلا رين قلوبهم الناتج عن الإعتداء والإثم المتواصلين ، فبين القلوب والأعمال تعامل مزدوج يؤثر فساد كل في الآخر ، كما يؤثر صلاحه في صلاح الآخر .

إنّ فريتهم هذه على آيات الله البينات يدفعها عجزهم عن الإتيان بمثلا ، وإن ادعوا أنهم قادرون عليها « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين » (٣١ : ٨) .

فلو استطاعوا لأتوا بسورة مثله وهم يحتالون كل الحيل أن يعارضوها ، وهم بأمس الحاجة لعرقلة دعوة القرآن ، ولكنهم لم يفعلوا ولن « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (٢ : ٢٣ - ٢٤) .

لا يقدر على ذلك لا أهل الكتاب من كتابات الوحي ، ولا المشركون - وأخرى - من كتابات الأساطير .

« كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » :

إنها ليست آيات الله هي الأساطير ، وإنما هي شمس الهداية لأولي الأبصار دون عميان القلوب « وانها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور » (٢٢ : ٤٦) « فإن كثرة الذنوب مفسدة للقلب »^(١) « هي ترين كما يرين السيف

(١) كما في الدر المنثور ٦ : ٢٦ عن أبي الخير قال : قال رسول الله (ص) : أربع خصال تفسد القلب ، مجاراة الأحق ، فإن جاريته كنت مثله وإن سكنت عنه سكت عنه ، وكثرة الذنوب مفسدة للقلب ، وقد قال : بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، والخلة بالنساء والاستمتاع منهن والعمل برأيهن ومجالسة الموتى ، قيل : وما الموتى ، قال : كل غني قد أبطره غناه .

وجلائه «^(١) وهي 'تقلب بمواقعة الخطيئة فيصير أسفله أعلاه وأعلاه أسفله كما عن الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول ﷺ»^(٢) .

والقلوب هنا وفي سواها من آيات هي قلوب الأرواح ، التي هي بيضاء بما فطرها الله تعالى ، وهي تشتد بياضاً بمواصلة الطاعات ، وتسود بمتابعة السيئات إلى أن تصل إلى مرحلة الختم فلا ترى أبصارها نوراً وإنما تعمى عن مشاهدة الحقائق « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » (٤٠ : ٣٥) .

أجل - إن مكاسب السوء تعمي القلوب وتجعلها مقلوبة ترى كل شيء عكس الواقع ، فإنها تحجبها عن النور وتحجب النور عنها وتفقد الحساسية شيئاً فشيئاً حتى تتلبد وتموت .

فمن غفل عن ذكر الله واتبع هواه أغفل الله قلبه : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » (١٨ : ٢٨) وإثم الجوارح ينحدر إلى القلوب فتصبح آتمة كما هي « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإن آثم قلبه » (٢ : ٢٨٣) وذكرى آيات الله البينات ليست إلا لمن كان له قلب واع « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » (٥٠ : ٣٧) ومن ختم على قلبه بمكاسبه السيئة ليس له قلب فلا يتذكر بآيات

(١) نور الثقلين ٥ : ٥٣١ عن الكافي بإسناده عن النبي (ص) قوله : تذاكروا وتلاقوا وتحدثوا فإن الحديث جلاء للقلوب ، إن القلوب ترين كما يرى السيف وجلائه .

(٢) وفي الدر المنثور ٣٢٦ عن عبدالله بن عمر عن النبي (ص) في حديث : ولن يعذب الله أمة حتى تعذر ، قالوا : وما عذرهما ؟ قال : يعترفون بالذنوب ولا يتوبون ولتطمئن القلوب بما فيها من برها وفجورها كما تطمئن الشجرة بما فيها حتى لا يستطيع محسن إزداد إحساناً ولا يستطيع مسيء استعتاباً ، قال الله : كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

وفيه ٦ : ٣٢٥ عن النبي (ص) إن العبد إذا أذنب ذنباً فكنت في قلبه فكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وإن عاد زادت حتى تعانق قلبه فذلك الرين الذي ذكر الله في القرآن « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

الله ، دون المؤمن البصير « ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم »
(٦٤ : ١١) .

« كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » :

ليس كما يزعمه المجرمون أن لهم الحسنى في الآخرة أيضاً كما لهم في الدنيا على حد قولهم : « وما أظن الساعة قائمة ولئن رُجعت إلى ربِّي إن لي عنده للحسنى فَلَئِنَّبُئِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمَلُوا وَكَانُوا يَكْفُرُونَ » من عذاب غليظ »
(٥٠ : ٤١) .

« كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » .. كما حجّبوا أنفسهم يوم الدنيا عن البيّنات فغتم الله على قلوبهم ، كذلك يحجبهم عن ربوبيته المتمثلة في رحماته يوم الدين ، ومن أعظمها جنة المعرفة والرضوان ، محجوبون عن ربهم لا عن الله ، فإن الذات الإلهية محجوبة في الدارين وعن العارفين بالله أيضاً فضلاً عن سواهم ، وإنما يحجبون عن ربهم كما كانوا محجوبين عنه يوم الدنيا ، رغم أنهم لا تظهر لهم الحقائق يوم الدين حقها فلا يبقى حجاب « ويعلمون أن الله هو الحق المبين »
(٢٥ : ٢٢) ، ولكنهم بعيدون عن جناب الربوبية حجاب المعرفة والواقع .

هؤلاء هم الفجار ، وأما المؤمنون فقير محجوبين عن ربهم ، فد « وجوه يومئذ ناضرة » إلى ربها ناظرة « (٢٢ : ٧٥ - ٢٣) وجوه الأبصار إلى ربوبيته ، الظاهرة في نعمه ، ووجوه البصائر إلى ربوبيته الباطنة في معرفته وقربه ورضاه ، رغم الفجار ، فد « وجوه يومئذ باسرة » تظن أن يفعل بها فاقرة « (٧٥ : ٢٤ - ٢٥) باسرة في الوجهين ، كيلة في الحالتين : « ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم » (٧٧ : ٣) .

إن هناك حجبا عن ذات الله وليست لله ، فالخلق كلهم محجوبون عن ذات الله حجاب البصر والبصيرة ، سواء المؤمن والكافر ، وليس الله محجوباً عن

ذوات الخلقين ، فهو أقرب إليهم منهم إلى أنفسهم » ونحن أقرب إليه من حبل الوريد « (١٠ : ١٦) .

وإن هناك حجباً عن الرب ، عن ربوبيته ومعرفة ، وليست إلا من الخلق لا من الرب ، سواء حجب الظلمة وحجب النور ، وقد تحرق هذه الحجب بما يسعى السالك في سبيل المعرفة حسب الشرع ، وما يؤيده الله تعالى ويجذبه إليه وعلى حدّ تعبير الأمير عليه الصلاة والسلام : « وأنز أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تحرق حجب النور فتصل إلى معدن العظمة » وقد خرقت هذه الحجب كلها لمعراج الرسول الأقدس في مقام « أو أدنى » ! والطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق .

فما بقي في قلب الإنسان نور ، فبقدر هذا النور ينظر إلى معدن العظمة يوم الدنيا وبالأحرى يوم الدين .

فليس حجاب الفجار هو عن الرؤية لكي يعني أن المؤمنين سوف يرون الله ، فـ « إن الله تعالى لا يوصف بمكان يحل فيه فيحجب عنه فيه عباده ، ولكنه يعني أنهم عن ثواب ربهم محجوبون »^(١) ثواب الزلفي والمعرفة والرحمة ، كل حسب سعيه .

« ثم إنهم لصالوا الجحيم . ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون » :

هؤلاء المجرمون سوف يصلون الجحيم : يوقدون بأعمالهم المرقومة ، فلقد كان كتابهم سجينة وفي سجين ، وهذا هو وقود الجحيم ، هم بأنفسهم المجرمة وأفكارهم وأعمالهم ، أولئك هم وقود النار ، وكما كانوا يوم الدنيا وقود النار .

(١) نور الثقلين ٥ : ٥٢٢ عيون الأخبار عن الامام الرضا (ع) وفي التوحيد روى عن علي عليه السلام مثله .

فهذا جحيمهم الناتج عن أفكارهم وأعمالهم ، يحرقون به ، ثم مع الجحيم التائب مع ما شاهدوا من سوء أعمالهم وعلة أمر من الجحيم وأدهى ، يؤنبون بأمور عدة ، منها « .. هذا الذي كنتم به تكذبون » .. كنتم تكذبون بيوم القيامة ، قيامة الأموات وقيام الحساب والجزاء الوفاق ، وإن النار تصلى بالأعمال والأفكار النارية فهي وقودها ، فـ « إنما تجزون ما كنتم تعملون » .

* * *

.. كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنَ^{١٨} وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ^{١٩} كِتَابٌ مَرْقُومٌ^{٢٠} يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ^{٢١} إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ^{٢٢} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ^{٢٣} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ^{٢٤} ..

« كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنَ » :

كَلَّا ! ليس كما يزعمه الأشرار أن لهم عقبى الدار إن كانت لها عقبى ، كما لهم دنيا الدار ، فإن كتابهم لفي سجين طوال الحياتين على عكس كتاب الأبرار .

وأما عليّون فقد قيل إنه إسم أشرف الجنان كما أن سجيناً اسم لأشر النيران ، وقيل : إن مفردة « عِلِّي » كثير العلو ، وعليون هم الأعلون المقربون .

هذا ، ولكننا القرآن نفسه يفسر « عليين » بـ « كتاب مرقوم يشهده المقربون » فـ « عليون » على أية حال يوحى بالعلو العال ، كما سجين يوحى بالسفال ، فكتاب الأبرار إذاً هو عليون وفي عليين ، وكما أن الأبرار هم عليون ، علو الذات المنحدر إلى علو الأعمال والصفات ، المسجلة في مختلف السجلات عالية

رفيعة ، ثم ظاهرة يوم القيامة في جنات عاليات ونعم خالدات ، عكس ما كان كتاب الفجار .

فالأبرار هم عليون يدخلون بعليين الأفكار والأعمال في عليين الجنات ، فمن هم الأبرار ومن هم المقربون الذين يشهدون كتابهم المرقوم ؟

الأبرار جمع البرّ مقابل البحر ، استعير منه التوسع في الخير ، فالأخيار كلهم هم الأبرار ، من خالق البر والأبرار فد ، إنه هو البر الرحيم « (٥٢ : ٢٨) ومن سفرته « كرام بررة » (٨٠ : ١٦) ثم سائر المتقين المقربين ومن دونهم .

وآية الأبرار هنا إنما تعني المتقين غير المقربين من الخلق أجمعين ، فإت المقربين هم يشهدون كتابهم المرقوم ، ثم الله ليس له كتاب مرقوم له أو عليه .

فالمقربون هم المصطفون من الأبرار الذين قربهم الله تعالى إليه زلفى : « السابقون السابقون . أولئك المقربون . ثلثة من الأولين . وقليل من الآخرين » (٥٦ : ١٠ - ١٣) ولو كانوا هم كل المتقين لما كانوا قلة من الآخرين ، وثلثة من الأولين ، لأن شريعة الآخرين هي الخالدة إلى يوم الدين ، فليكونوا هم الثلثة والأولون القلة ، كلا - وإنما أصحاب اليمين من الآخرين هم الثلثة ، والمقربون وهم النبي ﷺ وعترته المعصومون هم القلة عدداً وجاء النبيين والوصيين السابقين « فأما من كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما من كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم » (٥٦ : ٨٥ - ٨٨) .. فالأنبياء من المقربين وكما المسيح عليه السلام « وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين » (٤٥ : ٣) ومن الملائكة أيضاً مقربون « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » (٤ : ١٧٢) .

ومن الشواهد على أن المقربين أعلى منزلة من الأبرار ، أنهم : يُسْفَهون « عينا يشرب بها المقربون » .

ثم كتاب الأبرار ، المرقوم ، يشهده المقربون ، فإنهم شهداء الأعمام .

فـ « عليون الأبرار » هو كتاب مرقوم يشهده المقربون ، شهوداً يوم الدنيا وشهوداً يوم الدين ، فشهادتهم في الأولى شهادة تلقى ، وفي الآخرة شهادة إلقاء يوم يقوم الأشهاد ، والكتاب المرقوم هنا - كما في كتاب الأشرار - هو الأعمال التي ترقم بصورها وأضوائها وعلى حد قول الرسول ﷺ : صلاة على أثر صلاة لا لغو بينها كتاب مرقوم في عليين^(١) .

الطينة العليينية والسجينة :

قد يشمل عليون الأبرار طيناتهم كما السجين طينات الأشرار ، كما في أحاديث عدة ، ولكن هل يترى إن الله يخلق الأبرار - حين يخلق - أبراراً ، والأشرار أشراراً ؟ فما هذا إلا تسييراً في البر والشر ينافي التخيير ، اللهم إلا أن يُعنى من الطينة الروحانية منها ، الحاصلة من الأعمال الصالحة للأبرار ، والطلاحة للأشرار ، على توفيق من الله للأبرار نتيجة برهم ، وختم على قلوب الأشرار نتيجة شرهم ، ولذلك نرى باقر العلوم عليه السلام يقول : « إن الله خلقنا من أعلى عليين وخلق قلوب شيعتنا مما خلقنا وخلق أبدانهم من دون ذلك فقلوبهم تهوي إلينا لأنها خلقت مما خلقنا » ثم يقرأ الآية « كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين . »^(٢) ، وعن الإمام الصادق عليه السلام قوله : « إن الله تبارك وتعالى خلقنا من نور مبتدع من نور سنخ ذلك النور في طينة من أعلى عليين » اهـ^(٣) .

« إن الأبرار لفي نعيم » :

وهو عليون الجنة بعليين الأعمال ، وتنكير « نعيم » هنا يوحي إلى تفخييمه ، فكما هم كانوا أبراراً : متوسمين في الخير ، فليكن نعيمهم واسعاً ، ثم وأوسع

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٢٧ أخرج ابن مردويه عن أبي إمامة قال : قال رسول الله (ص) :

(٢) نور الثقلين ٥ : ٥٣٣ ح ٣١ الكافي بالاسناد إلى أبي حمزة الثمالي عنه (ع) .

(٣) المصدر ح ٣٢ علل الشرائع بإسناده عن زيد الشحام عنه (ع) .

بما عملوا بفضل الله ، جزاءً فضلاً فوق الوفاق ، طالما كانت جزاء المجرمين
الجزاء الوفاق .

وكما الجحيم هي نار شديدة التأجج للفجار ، فليكن النعيم رحمة كثيرة
التبجح للأبرار .

« على الأرائك ينظرون » :

والأرائك جمع أريكة ، وهي سرير السلطان ، فارسية قديمة وكما في « أوستا
زرادشت » نرى « أرائك » بمعنى سرر السلاطين .

فالأبرار الذين كانوا - على الأكثر - فقراء منكوبين محجورين مهجورين يوم
الدنيا ، لم تكن أصحاب الأرائك تعتني بشؤونهم ولا تعتبر لهم وجوداً ،
هؤلاء سوف يجلسون في الجنة على الأرائك ينظرون : ينظرون إلى رحمت الله
وما وعدهم ربهم ، وينظرون إلى خدامهم والحواسب فيها ، وينظرون كذلك
إلى أصحاب النار محتقرين إياهم .

إنهم ينظرون حيث يشاءون دون غش ولا غشاة من مهانة أو مشقة ،
وظاهرهم يوحى عن باطنهم .

« تعرف في وجوههم نضرة النعيم » :

الظاهر هو عنوان الباطن ، فكل نظرة إليهم تكشف عن نضرة النعيم دون
أن يظهر منهم شيء بلفظة قول أو إشارة ، فهم نعيم بكيانهم ككل ، لا يؤس
فيهم ولا عبس .

* * *

.. يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ^{٢٥} خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ
فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ^{٢٦} وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ^{٢٧} عَيْنًا يُشْرَبُ
بِهَا الْمُقَرَّبُونَ^{٢٨} ..

خمر الدنيا والآخرة :

« يسقون من رحيق مختوم » :

يسقون من رحيق ، وما أدراك ما الرحيق ، إنه الخمر الصاخبة الخالصة من
كل غش ، وليست كخمر الدنيا التي هي غش للعقل وغش للجسم ، غش للفرد
وغش للمجتمع ، وكلها غش ، وإن كان فيها نفع فإثمها أكبر من نفعها بكثير .

لنأخذ مثلاً على الخمرين ، إنسانين ، أحدهما أبولهب عم النبي ، وثانيها هو النبي
الأقدس ، فهل ياترى أن اشتراكهما في الإسم وفي الهيكل الإنساني يجعلهما في
مستوى واحد ؟

كذلك البون بين خمر الدنيا التي يستر ويخمر عقل الإنسان وإنسانيته ،
ويستر عليه صحته ، وخمر الآخرة التي تستره عما سوى الله وترفعه إلى درجات
من معرفة الله ما كان يناهسا لولاها ، وتصلح وتصحح جسمه ، والقرآن يصف
خمر الجنة بما يخرجها عن كل غول وتأثم « وأنهار من خمر لذة للشاربين (١٥:٤٧)
لذة في العقل والروح ، ولذة في الجسم ، ولذة في المنظر ، ولذة في الطعم ، وخمرة
الدنيا مرة في طعمها ، مرة إذ تنقص العقل وتنفضه ، ومرة إذ تضر بصحته ،
وإن كان الجاهلون يحسبونها لذة ، فلأنهم يتحللون بسكرها عن أحكام عقولهم وعما
يقيدهم في الحياة ، لذة حيوانية عابرة تختلف ذلة كيانية لهم .

« يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم » (٥٢ : ٢٣) وخر الدنيا فيها كل لغو وكل تأثيم « ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير » (٢١٩ : ٢) والإثم ما يبطىء عن الخيرات ، فخر الدنيا تبطىء عن الخيرات ، وخر الآخرة تعجل له الخيرات وتفتح له أبوابها .

ولقد وصفت الرحيق بصفات عديدة تميزها عن خمر الدنيا ولحده عبر عنها بالرحيق كما في سواها من آياتها الواصفة لها في الجنة ، اللهم إلا واحدة تقرنها بما يخرجها عن شرها « وأنهار من خمر لذة للشاربين » (٤٧ : ١٥) .

« يُطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها يُنزفون » (٣٧ : ٤٥ - ٤٧) « بيضاء » وليست خمر الدنيا بيضاء ، « لذة » وليست هي لذة وإنما مرة تعقب لذة خيالية نتيجة التحلل عن العقل « لا فيها غول » وهو إهلاك الشيء من حيث لا يُحس ، وخر الدنيا تهلك العقل والجسم من حيث لا يُحس ، « ولا هم عنها ينزفون » لا يُنزعون عن عقولهم ولا يُفزعون « وكأس من معين . لا يُصدعون عنها ولا ينزفون » (١٨ - ١٩ : ٥٦) لا فيها صداع الرأس ولا فراغ العقل ونزفه .

فأين الخمر التي هي بيضاء لذة للشاربين لا غول فيها ولا لغو ولا تأثيم ولا صداع ولا نزف وهي صاحبة خالصة من كل غش ، أين هي من خمر الدنيا : حمراء نقمة للشاربين ، فيها كل غول وكل لغو وتأثيم ، وكلها صداع ونزف وهي شائبة مفسوشة ؟

نجد بينها بونا شامعاً لحد يحق تفريقها في الاسم أيضاً ، ولذلك لا تسمى خمرأ إلا في آية واحدة ولتوحي أن في خمر الآخرة ما في خمر الدنيا من لذتها - إن كانت لها لذة - وزيادة فوق الوصف ، دون أن تحمل إثمها وغولها ونزفها وشرها وضرها !

وهذه الخمرة الطيبة إنما يشربها من ترك خمر الدنيا الخبيثة وكما في وصية

الرسول الأقدس ﷺ لعلي عليه السلام : يا علي ! من ترك الخمر لغير الله سقاه الله من الرحيق المختوم ، فقال علي عليه السلام : لغير الله ؟ قال : نعم والله صيانة لنفسه فيشكره الله تعالى على ذلك^(١) .

فالرحيق (خمر الجنة) كما أزيل عنها اسم الخمر ، كذلك أوصافها بما وصفت بصفات طيبة هي « مختوم ختامه مسك ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون » .

« رحيق مختوم » : فالرحيق المختوم ، وكل طعام وشراب مختوم ، إنه أصلح للشرب والتناول لسلامته عن تصرف الهواء وتدخل الجراثيم ، فإنه مختوم عن التفاعلات الخارجية وتأثيراتها .

ثم هي مختومة في الخيرات كما هي مختومة عن الشرور ، لا خير إلا وقد جعله الله فيها ، ولا شر إلا أنها مختومة عنها ، رحيق مختوم عما يرهق من أضرار ومختوم فيما يرغب فيه الأبرار .

هذه الخمرة هي أشرف أصناف الخمر في الجنة ، ولأنها مختومة بالمعنيين وليست كذلك خمر النهر « وأنهار من خمر لذة للشاربين » وأن لها مزاجاً من عين المقربين من تسنيم .

فهذه معدة في أوانها مقفلة مختومة تفضُّ عند الشراب ، فما هو ختامها ؟

« ختامه مسك » :

ختم بالمسك ، دون الوحل المختوم به خمر الدنيا ، وختامه : عاقبته ، مسك عطر في الروح وعطر في العقل وعطر في الجسم ، كما أن بدايته مسك ،

(١) نور الثقلين ٥ : ٥٣٤ من لا يحضره الفقيه عنه (ص) والقمي عن الصادق (ع) مثله .

خلاف خمر الدنيا إذ هي عَفِيفَةٌ "بدايتها" وشريرة نَتَن ختامها ، لا تسَاقِي إلا بكل شرٍّ ورذيلة .

ففي مسك الخمرة وختمها بالمسك ، فيه إناقة ورفاهية ، صورة لا يدركها البشر إلا في حدود المعهود من الدنيا .

« وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » :

من المفروض أن يتنافس العقلاء في الحتام المسك عاجلاً وآجلاً ، لا في الشهوات العاجلة الفانية التنتنة ، فليتنافسوا في عليين وفي النعيم المقيم ، وفي نضرة النعيم ، وفي رحيق مختم بالمسك ، وكلّ نعيم الجنة مسك .

فالتنافس هو تنسّي كل نفس مثل النفيس الذي يكون لغيره ، ولا نفيس في الدنيا إلا ما يقدّم للآخرى ، فإنما الأولى بثينة تعيسة إلاّ ما حوّل منها إلى مزرعة الآخرة ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

إن التنافس في نعيم الآخرة يرتفع بأرواح متنافسيها جميعاً ، بينا التنافس في أمر الدنيا ينحط بها جميعاً ، إلا أن يكون لدنيا الآخرة ، فدنيا المتقين آخرة ، ولأنها مزرعة الآخرة ، لا يبصرون إليها فتعميهم ، وإنما يبصرون بها فتبصّروهم وتقربهم إلى الله زلفى .

فعلى المؤمن التنافس في ذلك ، تاركاً تنافسات الهوى والردى ، وإنه توجيه يمدّ بأبصار أهل الأرض وقلوبهم وراء رقعة الأرض الصغيرة الزهيدة ، بينما هم يعمّرونها ويقومون بالخلافة فيها ، عمران المدرسة للدراسة ، لا المستنقع الآسن والطويلة العالقة لحيونة الحياة والإخلاء إلى أرضها وسجينها .

« ومزاجه من تسنيم . عينا يشرب بها المقربون » :

إن لهذا الرحيق مزاج من تسنيم : عين المقربين ، ولأنه يقرب شاربيه إلى الله ، فإنه خمرة تخمر عن العقول ظلمها ، وتزيد الإنسان معرفة وسكرة بالله .

والتسليم ضد التسطيح، ماءً بالجنة يجري فوق العُرف يتسم عليهم من الأعالي إلى الأسفل ، عين فوقانية المصدر والنبع، تنحدر مستمة العليين، وإنما يشرب بها المقربون ، ولأبرار مزاج منها للرحيق المختوم ، وإن للمتقين عيوناً دور التسليم : « إن المتقين في مقام أمين . في جنات وعيون » (٥١ : ١٥) « عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً » (٧٦ : ٦) .

والكوثر - علة - العين أو النهر أو الخوض الخاص بأقرب المقربين ، محمد وآله الأنجبيين ﷺ ، عيون ثلاث لكل أهل خاص ، وإن كان الكل له نصيب من العين الأعلى مزاجاً في شرابه كما في رحيق الأبرار .

* * *

.. إِنَّ الَّذِينَ أُجِرُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ^{٢٩}
وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ^{٣٠} وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا
فَكِهِينَ^{٣١} وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ^{٣٢} وَمَا
أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ^{٣٣} فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ
يَضْحَكُونَ^{٣٤} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ^{٣٥} هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ
مِمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ^{٣٦} .

أصل الجرم هو قطع الثمرة سواءً من نفسه أم عن سواه أيضاً ، فالجرمون هم الذين قطعوا عن فطرتهم متطلباتها ، وعن عقولهم حاجياتها ، وعن حياتهم أهدافها اللائقة بها ، ثم هم يعيشون حياة الإجرام لمجتمعهم ، فهم رؤوس الضلالة

طوال التاريخ : « وما أضلنا إلا المجرمون » (٢٦ : ٢٩) وهم أعداء النبيين :
« وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين » (٢٥ : ٣١) وهم قطاع سبل
الخير في البلاد : « وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها
وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » (٦ : ١٢٣) .

« إن الذين أجرموا » :

قطعوا ثمرة الهدى عن شجرة الإنسانية ، وانقطعوا عن الله إلى سواه ،
هؤلاء المنقطعون عن ثمار الحياة :

« كانوا من الذين آمنوا يضحكون » :

يضحكون منهم ساخرين ناعمين أن آمنوا بربههم وانقطعوا إليه « هل تنقمون
منا إلا إن آمنا بالله » (٥ : ٥٩) وغريب في نوعه كيف يضحك المنقطع عن
كل خير من المتصل الواصل إلى كل خير ؟ هل لفقرهم ؟ وليسوا كلهم فقراء ،
وليس الفقر دافعاً عقلياً إلى الضحك ، أم لضعفهم عن رد الأذى ، وليسوا دوماً
ولا كلهم ضعفاء ، وليس الضعف مادة للسخرة ، أم لإيمانهم ؟ إذ زعموا الإيمان
رجعية وانعزالية عن الحياة ، وهو الحياة كلها ! وإذا كان الإيمان رجعية سوداء
والإجرام تقدمية بيضاء فليحاول هؤلاء القدامى في إقناع المرتجعين دون أن
يضحكوا عليهم ، فما الضحك والهزء إلا عجزاً عن العلاج ، وجهلاً وسوء أدب ،
ثم « ما أرسلوا عليهم حافظين » إلا رسالة شيطانية مجرمة ! .

تقول الروايات « إن أكابر المشركين كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاصي
ابن وائل السهمي كانوا يضحكون من عمار وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء
المسلمين ويستهزئون بهم ، وأن الرسول ﷺ جاء في نفر من المسلمين فسخر
منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا : رأينا اليوم

الأصل فضحكنا منه ، فنزلت الآية قبل أن يصل علي وأصحابه إلى رسول الله ﷺ (١) .

وهكذا يكون دور الإجرام طوال التاريخ ألا يكتفي المجرمون بعملياتهم الإجرامية ، بل ويحاولون بشق الأساليب أن يفتشوا جذور الإيمان ، ومن أخريات الوسائل وأشنعها عادة الإستهزاء على المؤمنين ينضموا إلى صفوفهم وكلا ، إذا كانوا مؤمنين حقاً .

« وإذا مروا بهم يتغامزون » :

مرور التنازع والتغامز ، هؤلاء المجرمون الأوغاد يواصلون دورهم الإجرامي إذ يمرون على المؤمنين الأوتاد ، مروراً ساخراً مائراً عليهم يرتبكون وينكسرون ، تغامزاً بالعيون والأيدي ، وتنازراً بالألقاب الساخرة المردولة قائلين : انظروا إلى هؤلاء الرجعيين كيف يتعبون أنفسهم ويحرمونها لذاتها الحاضرة لوعود كاذبة وأوهام لا أصل لها ، ويخاطرون بأنفسهم طلب الثواب !

« وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين » :

مرحين بطرين مما فعلوا بالمؤمنين ، آخذين ذلك فكاهة لأهلهم لعلمهم يفرحون ويمرحون ، كأنهم انقلبوا عن أفلام ممرحة ومسرحيات مفرحة ، راضين عن أنفسهم الخفيفة الرديئة ، مبتهجين بما فعلوا دون أن يتلوموا أو يندموا ويشعروا بحقارة ما صنعوا ، فويل لهم مما كسبت أيديهم ، وويل لهم مما يصنعون .

(١) التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ج ٣١ ص ١٠١ ونور الثقلين ٥ : ٣٥٥ عن علي ابن ابراهيم قال : نزلت في علي بن أبي طالب (ع) .

« وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون » :

هنا يوحد المجرمون فالوثم بحق المؤمنين : « إن هؤلاء لضالون » ضلوا سبيل الحياة ومتطلباتها فعاشوا كأنهم أموات ، تركوا لذة الحياة ونضارة الحياة وحبسوا أنفسهم عن الشهوات ، إن هذا إلا ضلال مبين !

ولا أعجب من هذا الحق العميق أن "تحسب الهدى ضلالاً والضلال هدى" ، فالعجور لا يقف لحدية ، وكلمتهم هذه من أفجر ما يتصور ، ولذلك لا تستحق الجواب إلا " كسخرية نزية عالية من هؤلاء الأغبياء الذين يتدخلون فيما ليس لهم :

« وما أرسلوا عليهم حافظين » :

فمن هذا الذي وكلهم للحفاظ على المؤمنين ؟ فهذا فضول على فضول : أن 'تسمى الهدى ضلالاً' ، وأن يتدخل في شؤون المؤمنين بلا رسالة ممن له أمرهم ، اللهم إلا رسالة الشيطان !

ثم وفي الآخرة ، إذا المؤمنون في الجنة والمجرمون في النار نرى معاكسة بين الفريقين :

« فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك

ينظرون » :

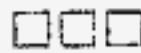
المؤمنون يضحكون عليهم جزاءً وفاقاً بما كانوا هم عليهم يضحكون ، كما ويضحك عليهم ملائكة الرحمة وملائكة العذاب وتضحك عليهم الجنة والنار بما كانوا يصنعون ، « على الأرائك ينظرون » إلى مقاماتهم العليا ونعيمهم المقيم ، تعرف في وجوههم نضرة النعم ، وينظرون إلى دركات المجرمين ، إلى وجوههم الباسرة التي رهقها قفرة وذلة .

« هل تُؤب الكفار ما كانوا يفعلون » :

فقد كانوا يزعمونهم حافضين على المؤمنين موكلين ، يحاولون إخراجهم من الإيمان إلى الكفر ، من الرجعية السوداء إلى التقدمية البيضاء ! فهل تؤبوا ؟ ومن ذا الذي يثيبهم إلا الذي عاشوا عمالته : الشيطان الرجيم ، فهل بإمكان الشيطان أن يثيب حزبه كما وعدهم ؟ : « وقال الشيطان لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمْ يَأْمُرْكُمْ أَنْفُسُكُمْ مَا أَتَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (٢٢:١٤) .

فطالما المجرمون يوجعون قلوب المؤمنين المضطهدين لأنهم مؤمنون ، فهم إذاً بحاجة إلى بلاسم لقلوبهم المجروحة يوم الدنيا ولكي يواصلوا نضالهم ، فالله هو الذي يراهم كيف يتفكه بآلامهم المتفككون ، إذن فهو الذي يبلسم قلوبهم إذ يفند آراء المجرمين ، وإذ يسخر منهم سخيرة رفيعة فيها تلميح موجع ، طالما لا تحسه قلوب المجرمين المقلوبة ، ولكن قلوب المؤمنين تستنيرها وتسريح إليها .

ثم هو الذي يذكرهم مشاهدتهم معهم يوم القيامة ، ولكي يعدوا لها عدتهم ، ولا يفشلوا فيها من حياة إيمانية طيبة ، رغم آلامها الجسدانية ، فهم ليسوا ممن يعيش حياة الجسد ، إلا كزراعة ووسيلة للحياة الروحانية .



سورة الانشقاق — وآياتها خمس وعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِذَا الشَّاهُ انشَقَّتْ^١
وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ^٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ^٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا
وَتَخَلَّتْ^٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ^٥ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ
إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ^٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ^٧
فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا^٨ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا^٩
وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ^{١٠} فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا^{١١}
وَيَصْنَعُ صَعِيرًا^{١٢} إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا^{١٣} إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ
يَحُورَ^{١٤} بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا^{١٥} فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ^{١٦}
وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ^{١٧} وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ^{١٨} لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ
طَبَقٍ^{١٩} فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^{٢٠} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ
لَا يَسْجُدُونَ^{٢١} بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ^{٢٢} وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

يُوعُونَ^{٢٣} فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ^{٢٤} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ^{٢٥} .

سورة تحمل عرضاً عن البعض من مشاهد الانقلاب الكوني عند الساعة وكما سبقت بصورٍ أخرى في سور : « النبأ - الانفطار - التكويم .. » ولكننا طابع الانقلاب هنا يظهر في مطلع الإستسلام والذلّ لإرادة الرب ، طالما كان فيما قبلها في جوى عاصف قاصف ، ولكي يتنبّه الإنسان النسيان عن غفوته وبطشه .

« إذا السماء انشقت » :

بما أن الشق هو الخرم الواقع في الشيء ، فانشقاق السماء هو اخترامها وافتراقها عن التثامها ، وانشقاق السماء - وليست كواكبها - يدلنا على أنها جرم متراكم وليست جواً خالياً فيها كواكبها ، إنها جرم وإن كانت تختلف خفة وثقلا ، ومن أثقل أثقالها كواكبها التي خلقت من تجميع أجزائها وأجرامها ، والمملكة السماوية دوماً في التوسع : « والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون » (٥١ : ٤٧) .

فانقلاب السماء يومه هو انشقاقها ، كما انقلاب نجومها وكواكبها هو انطامها وانكدارها وانتثارها دون انشقاقها ، حيث القرآن يختص السماء بالإنكشاف والانشقاق ، ويختص كواكبها بالانطام والانكدار والانتثار .

وعلى أية حال فلا مجال للانشقاق إلا في جرم متصل ملتئم ، وعلى أثر انشقاقها تتقلب عن صلابتها وتوهى : « وانشقت السماء فهي يومئذ واهية » (٦٩ : ١٦) وهياً لحدّ الدّهان : « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » (٥٥ : ٣٧) وكل شيء استرخى رباطه فقد وهى ، ومن رباط السماء الجاذبية العامة ، فالسماء

مرفوعة يوم الدنيا « بغير عمد ترونها. » فإذا انفلت رباط العمد غير المرثي واسترخى ، فهي إذاً تنشق ، كما الكواكب تنطمس وتتكدر .

وعلى أثر انشقاقها تكشط : انخلاعاً عن جلد لها وجلدها : « وإذا السماء كِشِطَتْ » (٨٤ : ١١) وتُفْرَج : « وإذا السماء تُفْرِجَتْ » (٧٧ : ٨) وتفتتح : « وفتحت السماء فكانت أبواباً » (٧٨ : ٢٠) وتُسْطَوِي : « يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب » (٢١ : ١٠٤) يُطَوَى طومارها ، فهي يومئذ واهية تمور موراً ، ووردة كالدهان ، وأخيراً تنقلب إلى ما كانت : دخاناً : غازاً متسانخ الأجزاء : « والسماء ذات الرجع » (٨٦ : ٩) « يوم تأتي السماء بدخان مبين » (٤٤ : ١١) .

« وأذنت لربها وحقت » :

سمعت لربها في انشقاقها لحد شكت من وقعة سماعها ، سماعاً تكوينياً إذ أجابت ربها في انشقاقها ، كما أجابته مع زميلتها (الأرض) عند تكوينها : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين .. » كناية عن نهاية طوعها لربها وعدم تنسها عن إرادته تعالى .

« وحقت » : « جعل حق الطاعة والسمع في ذاتها ، المفتقرة جوهرياً إلى ربها ، الذي : « بيده ناصبة كل شيء » و « ملكوت كل شيء » .

أجل إنها « حَقَّت » ، لا أنها « حَقَّ » لها ، فحق الطاعة ليس لها منفصلاً عن كيائها ، وإنما في جوهر ذاتها ، فلتأذن لربها وتشكو من وقع أذنها ، إذ لا تملك لنفسها إلا أن تأذن ، كما الكائنات كلها « أذُن » لربها ، في تعبيرها وتدميرها .

« وإذا الأرض مدت » :

مدّ التدمير في النهاية ، كما مدّت مد التعمير في البداية ، وبعدها ألقيت فيها

وعجرت رواسبها وجرت أنهارها : « وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً » (١٥ : ١٩) ثم بمد التدمير تلقى ما فيها وتتحلى :

« وألقت ما فيها وتخلت » :

« وأخرجت الأرض أثقالها » : انقلبت ظهر بطن على أثر زلزالها ومدتها العنيف ورجفتها الأولى المدمرة .

« وأذنت لربها وحقت » :

كزميلتها السماء على سواء في الأولى والآخرة ، فكما البداية لم تكن صدفة وفوضى ، أو تدخلا من غير الله أبداً كان ، كذلك النهاية ليست إلا بإرادته تعالى « فله الآخرة والأولى » (٥٣ : ٢٥) .

« إذا السماء .. يا أيها الإنسان .. » وهنا نسأل : أين جواب « إذا » ؟ هل إنه محذوف ليذهب ذهن السامع إلى أي مذهب ممكن فيكون أدخل في التهويل ؟ أو أن آية الكدح جملة معترضة لتزود الإنسان بذكري ما تتطلبه حياة الحساب ، ثم بعدها آية الجواب : « فأما من أوتي .. » ؟ أو إن « إذا » ظرف لدور الكدح إلى الرب ولقائه ، كدحاً يختص بأهوال القيامة وأحوالها ، قيامة الإماتة والإحياء ؟ كل محتمل ، وخيرها أوسطها ، إذ لا يحصر كدح الإنسان بأهوال القيامة رغم الأخير ، ولا يهمل « إذا » بلا جواب ، رغم الأول ، فالقرآن جواب عن غير سؤال ، فكيف لا يجيب عما يطرحه من سؤال !

« يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقية » :

وكا الكائنات كلها من أرضها وسماواتها كادحة إلى ربها فملاقية .

« يا أيها الإنسان » : الإنسان ، لا الناس ولا الأناسي ، خطاب شخصي مع كل

إنسان إنسان ، ولابد أن الكدح للجميع لا المجموع ، فكل كادح ، وعلى كل أن يكون كادحاً .

فما هو الكدح في ذاته ؟ وما هو هو إلى ربه ؟ وما هو الملقى بعد الكدح ؟
هل هو الكدح بنتاجه ؟ أم هو الرب المكدوح إليه ؟

الكدح هو السعي والعناء ، وهو دون الكدح ، وحقيقة الكدح هي المستقرة في حياة الإنسان أبداً كان ، وإن اختلف نوعه : نفسياً وجسدياً ، وإن اختلفت مراتبه حسب اختلاف الكادحين ، وإن اختلفت أهدافه ، فواحد إلى عناء دونه عناء الأرض ، وواحد إلى نعم يسبح على آلام الأرض كأنه لم يكدح .. فأنت أنت يا إنسان تقطع رحلة حياتك على الأرض كادحاً على أية حال .

ثم الكدح أبداً كان لا يقف لحده أو يقف ، إلا أن يمتاز به إلى آثاره عاجلاً وآجلاً ، شئت أم أبيت ، وإلا أن يمتاز بك إلى ربك : « وأن إلى ربك الرجعى » شئت أم أبيت ، « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » شئت أم أبيت ، فلا محيد لك ولا محيص عن هذين المصيرين اللذين ينتظرانك بعد الكدح ، في حياة الكدح وبعدها .

وإذا كنت - ولا بد - مسيراً إلى هذا المصير ، فأحسن السير تحسن المصير ، كن كادحاً إلى ربك عن تقصد وإخلاص ، وإلى نتائج كدحك عند ربك ، لتخرج يوم العرض والحساب عن الشغب والإفلاس .

فكدحك أيها الإنسان كدحان : كدح نتاجه كدح وأشقى هو للحيوان ، وكدح نتاجه راحة ورضوان من الله وهو كدح الإنسان ، فكن كادحاً كإنسان ، تراعي في أعمالك مرضاة الله تكسب الدارين ، والثانية أسعد وأبقى : « وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون » .

وإذا كان واقع الكدح إلى لقاء نتاجه وإلى لقاء الله ، فالحرى لمن يحترم عقله أن يتقصد هذين اللقائين ويعمل لهما ، دون أن يتجاهلها ، كما الكثيرون من الكادحين يتجاهلون ، كأنهم موقنون ألا لقاء هنا وهناك .

« يا أيها الإنسان إنك كادح » : متعب نفسك « إلى ربك » الذي ربك كيف تكدح تكوينياً وتشريعياً « فملاقية » : ملاقي كدحك وملاقي ربك ، فلتكن عاقلاً في كدحك لكي يكون اللقاء مشرفاً سعيداً يوم الدنيا ويوم الدين في اللقائين .

الكدح الصالح - نفسياً وجسدانياً - ينتج لقاءً صالحاً في الدنيا ، معرفياً عن النفسي منها ، وحيوياً معيشياً عن الآخر .. وينتج - وبالأحرى - لقاءً صالحاً وأصلح يوم الآخرة: إذ تلاقي ربك لقاء المعرفة العالية ، ولقاء الزلفى والرضوان ، نتيجة الكدح في سبيل الله ، وتلاقي عملك كذلك: « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً .. » فاستعد ليوم اللقاء ولأيام اللقاء ، ولتعمل عملاً صالحاً ولا تشرك بعبادة ربك أحداً .

إن الإنسان - كائناً من كان - إنما يعيش بعمله ، عيشة الإنسان أم عيشة الحيوان ، فليكن إنساناً كما رباه ربه ، وليستعد للقاء ربه بعمله .

شريعة الكادحين :

إن شريعة القرآن وسواه من شرائع إلهية غير محرفة ، إنها شريعة الكدح إلى الله في كافة النشاطات والمجالات ، ولا ترضى لأحد حياة الأريحية ، وأن يعمل كلّه على غيره ، فـ ملعون ملعون من ألقى كله على الناس .

فبإمكان الإنسان أن يعيش الكدح إلى الله حياته في كلّ الحقول : عبادية وسياسية واقتصادية وثقافية وحربية ، وأضرابها من حقول الحياة التي تتطلب - كلّها حسبها - أتعاباً فكرية وعضلانية وسواها ؛ فتصبح أعماله وأفكاره

— كلها — في سبيل الله: يعبد الله الله، ويسوس عباد الله سياسة صالحة لله، ويزرع الله، ويتجر ويعمل ويصنع الله، ويتعلم الله، ويحارب في سبيل الله، فيجعل كافة ميادين الحياة محارب يتمثل فيها هو مطيعاً لأوامر الله، وكما الكون أجمع محراب واسع تسجد فيه الكائنات لربها طوعاً أو كرهاً ثم إليه يحشرون .

فطوبى للكادحين إلى ربهم إذ لا يدركون عنايه بما ينتظرهم من رحمة خالدة، ورضوان من الله أكبر .. وبؤساً وتعساً للكادحين إلى الشهوات الفانية، فإنهم سوف يدركهم كدحهم السيئ، الماكر جزاءً وفاقاً، ولا يجتق المكر السيئ إلا بأهله .

طالما حياة التكليف هي حياة الكدح والآتعب، ولكنها تنتهي بلقاء الرب - مشرفاً - لو كانت متجهة إلى الرب: « كادح إلى ربك » ثم في لقاء الله ولقاء الأعمال يوم اللقاء، إن فيه راحة خالصة: « قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » حياة راحة خالصة لا تخلط تعساً ولا شغباً .

« فأما من أوتي كتابه بيمينه . فسوف يحاسب حساباً يسيراً » :

تقسم ثنائي لمصير الكادحين من الأخيار والأشرار، وعرض اللقاء الأعمال يوم العرض الأكبر، وقد عبّر عنه بالكتاب: الحالة الثابتة من الأعمال والنيات والأقوال، بما استنسخها الله تعالى بأقلام الأمواج على صحائف الأجواء والأعضاء والأكتاف: « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » وإذا استطاع هذا الإنسان الضعيف أن يستخدم الأمواج وتحويل الصور والأصوات على الشاشات التلفزيونية وأصراها، فله تعالى كتاب لأعمال الإنسان فوق هذا الكتاب: « مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » (١٨ : ٤٩) .

وقد يعنى من الكتاب هنا كتاب الشريعة، يؤتاه يمين المؤمنين إذ

عاشوه بين الحياة وركنها في الدنيا ، ويؤثاه شمال المجرمين أو وراء ظهرهم كما عاشوه هكذا ، صورة طبق الأصل ولا يظلمون نقيراً : « فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون قتيلاً » (١٧ : ٧١) « فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسابيه » (٦٩ : ١٩ - ٢٠) .

وقد تدل قراءة الكتاب (١٧ : ٧١) واستقرائه (٦٩ : ١٩) أنه ليس كتاب الشريعة ، فإنه لا يختص بأصحاب اليمين ، فليكن هو كتاب الأعمال ، ومعه كتاب النجاح يؤثاه أصحاب اليمين بأيمانهم علامة النجاح ، أو كتاب السقوط يؤثاه أصحاب الشمال بشنائلهم علامة السقوط ، ولا ينافيه تسويف الحساب : « فسوف يحاسب حساباً يسيراً » إذا عني منه كتاب التبشير أو الإنذار قبل الحساب ، للتدليل على موقف الحساب .

« فسوف يحاسب حساباً يسيراً » : لا يلاقي صعوبة في حسابه ، فلا يحاسب على سيئاته ، ولأنه ترك الكبائر : « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه فكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً » (٤ : ٣١) ولأنه كان تائباً منيباً إلى ربه نادماً عما اقترفه من اللمم : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم » (٥٣ : ٣٢) ، ولأنه عاش بين الحياة وترك كبائر الإثم والشهوات ، وكان مبدؤه في الحياة أنه من أصحاب اليمين ، وأولئك هم الذين يقرأون كتابهم مسرورين بما فيه ، ويدعون أهل المحشر - كذلك - ليقرأوا كتابهم ابتهاجاً بما فيه ، ومن هنا نعرف أن هذا ليس حساباً « فليس أحد يحاسب إلا هلك » وإنما ذلك عرضٌ وعلي حد قول الرسول الأقدس ﷺ ، « وبنا أن الكتاب فيه النجاح ، ويشير إلى يسر الحساب ، لذلك :

(١) نور الثقلين ٦ : ٣٢٩ ، أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والنوماني وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله (ص) : « ليس أحد يحاسب إلا هلك » .

« وينقلب إلى أهله مسروراً » :

فمن هم أهله ؟ فهل إنهم ولده وزوجه وذووه الأقربون ؟ « فيومئذ لا أنساب بينهم ولا يتساءلون » وقد يفر منهم : « يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبه وبنيه » (٨١ : ٣٦) ، أو هم أهلوه اليمينيون ؟ أم هم ومعهم كل من كانوا معه في بين الحياة ؟ أم أهله الذين أعد لهم الله له في الجنة ؟ كل محتمل ، إلا الأول ، والآية تشملهم إلا إياه ، ينقلب إلى أهله مسروراً هناك ، بعدما كان مذعوراً خائفاً هنا ، مما يجري عليه وعليهم في سجنهم ، في الحياة الدنيا ، بما ذاقوا من حقاء الطغيان .

« والناس يومئذ على طبقات ومنازل ، فعنهم من يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً ، ومنهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب لأنهم لم يلبسوا من أمر الدنيا بشيء ، وإنما الحاسب هناك على من تلبس بها ههنا ، ومنهم من يحاسب على النكير والقطمير ويصير إلى عذاب السعير » (١) ..

فالذين يدخلون الجنة بغير حساب هم السابقون ، والداخلون بحساب يسير هم أصحاب اليمين ، والذين يحاسبون على النكير والقطمير هم أصحاب الشمال ، وهناك من يدخل النار بلا حساب وهم أصحاب الوراء ، ولأنه لم يبقوا لأنفسهم مجال الرجاء .

= فقلت : أليس الله يقول : فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ؟ قال : ليس ذلك بالحساب وذلك العرض ، ومن نوقش في الحساب هلك « وفيه عنها : سمعت رسول الله (ص) يقول في بعض صلواته : اللهم حاسبني حساباً يسيراً ، فلما انصرف قلت : يا رسول الله (ص) ما الحساب اليسير ؟ قال : أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه ، إنه من نوقش في الحساب هلك .

(١) نور الثقلين ٥ : ٥٣٧ عن كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين حديث طويل يذكر فيه أحوال القيامة وفيه يقول ..

« وأما من أوتي كتابه وراء ظهره . فسوف يدعو ثوراً .
ويصلي سعيراً » :

هؤلاء هم الذين جعلوا كتاب الشريعة وراءهم ظهرياً ، مستدبرين إياه حياتهم ،
ومستقبلين الشهوات حياتهم ، تذبذبا الحياة كحيوان ، ولم يفكروا في حياتهم
كإنسان ، فلقد عموا عن رؤية آيات الله ، وصموا عن سماع كلمات الله ، وبذلك
تؤاخذهم كتبهم وراء ظهورهم فلا يقرؤونها ولأنهم أعمون : « فمن أوتي كتابه بيمينه
فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً . ومن كان في هذه أعمى فهو في
الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » (١٧ : ٧٢) « ومن أعرض عن ذكري فإن له
معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت
بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » (٢٠ : ١٢٦) ، وعل
وراء الظهر إشارة - أيضاً - إلى طمس وجوههم وردّها على أديبارها : « من قبل أن نطمس
وجوهاً فنردّها على أديبارها » (٤ : ٤٧) أو عليهم فرق شتى : بين عمي لا يبصرون ،
ومن ردت وجوههم على أديبارهم ، ومن يجمع لهم الأمران ، أو أنهم يؤتون كتابهم
بشمالهم من وراء ظهورهم ، كل محتمل تشعّلها الآية .

هذا - وإن كان البعض من أصحاب الشمال أيضاً يصلون الجحيم مع أصحاب
الوراء ، وعلمهم من الذين يخرجون عن النار قبل فنائها ، وأنهم كانوا هم المساعدين
الأول لرؤس الضلالة : « .. وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت
كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . يا ليتني كانت القاضيه . خذوه فغلوه . ثم الجحيم
صلّوه » (٢٩ : ٢٩) .

هذا التعميس البئيس الذي قضى حياته كدحاً إلى الوراء ، رغم كدحه إلى
الأمم : إلى ربه ، شاء أو أبى .. وهذا الأعمى الذي استقبل حيوانية الحياة
الهابطة إلى دركات اللذات ، واستدبر الحياة العليا .. هذا هو الذي يدعو بالويل
والهلاك .

« فسوف يدعو ثبوراً » : هلاكاً مثابراً : مواظباً على إتيانه ، ليس صدفة ودون سبب ، فقد كان الهلاك معه ، ثم برز يوم البراز .. يدعو ثبوراً وأي ثبور؟ لا ثبوراً واحداً ولا من نوع واحد : « دعوا هنالك ثبوراً . لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً » (٢٥ : ١٤) .

إنه كان ثبوراً في كيانه ، لنفسه ولمجتمعه ، في أعماله وأقواله ، في حله وترحاله ، في عقائده وأفكاره ، وما كان يدعو إلا سروراً ، غافلاً عما تقدمه نفسه ، ثم هنالك يدعو ثبوراً .

« ويصلى سعيماً » : ثبوراً يدعو ثبوراً ، وسعيماً يوحد سعيماً ، ولا يظلمون نقيراً .. وكل ذلك لماذا ؟ والجواب : انه ثبور حق بسرور باطل ، وعقيدة باطلة وحياة عاطلة .

« إنه كان في أهله مسروراً . إنه ظن أن لن يحور » :

مسروراً بحيونة الحياة لظنه أن لن يحور ، فأخذ حريته في الثبور دون أن يقف لحد .

مسروراً بما هو فيه ، غافلاً لا هيأ عما يعنيه ، لا يحسب له حساباً ، ولا يرجو لنفسه ثواباً ولا عقاباً : « ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون » (٢٤ : ٧٥) : حياة الفرح والمرح ، دون تعقل وإفاقة .

« إنه ظن أن لن يحور » : ظن أن لن يتردد إلى ربه وإلى عمله ، لن يكدر إلى ربه فلن يلاقيه بعمله ولماذا ؟ هل لأن ربه كان عنه غافلاً غير بصير ؟

« بلى إن ربه كان به بصيراً »

إنه يتردد ويحور ، وربّه بعمله له بالمرصاد ، ولأنه كان به بصيراً ، بما منه وما فيه ، بظاهره وخافيه ، فكيف لا يحيره إليه يوم الجزاء ، هل لمعجز

أو نسيان ، أو ظلم وطغيان ؟ أم لماذا ؟ « ولا تحسبن الله غافلاً عما
يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهبطين مقنعين رؤوسهم
لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء » (١٤ : ٤٢) .

هنا يعبر عن البعث بالخور ، لأنه ردة إلى الحياة للجزاء ، وكما يدور الحائر
إلى حيث كان ، فما الحياة إلا دائرة نسير عليها من نقطة حياة التكليف ، ثم
نرجع إلى نقطة الانتهاء : حياة الجزاء ، نقطتان متلازمتان كأنهما واحدة ،
ولأنهما يتشاركان في مبدئ الحياة ، يدور الإنسان فيها على محور الشخصية . عبر
الحوادث والحالات وإلى المنتهى

ثم لسنا بحاجة في البرهنة على حور الحياة ، زيادة على واقع الكائنات ، فهنا
الشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق : أدلة كونية تمثل لنا حور الحياة
ودورها . والله تعالى لا يقسم بها لفقد البرهان ، وإنما هو قسم بشيء من البرهان ،
وتم ينفيه موجهاً إلى برهان أعمق ، وتبيان أعرق ، هو أدلة الفطر والعقول .
« فلا أقسم بالشفق . والليل وما وسق . والقمر إذا اتسق .

لتركبن طبقاً عن طبق »

« فلا أقسم بالشفق » : الشفق هو ضوء النهار المختلط بظلام الليل عند
الغروب ، شفق لعنايته المختلطة بالخوف وهو الإشفاق ، فهو الوقت الخاشع
المرهوب بعد الغروب ، خاشع لضوء النهار ، مرهوب بظلام الليل ، بين الخوف
والرجاء .

« والليل وما وسق » : وكما في الشفق جمع بين المتفرقين : ضوء النهار وظلام
الليل ، كذلك الليل واسق : يجمع بين المتفرقات ، فهو يجمع ويضم ويحمل
الكثير من أشياء وأحياء وأحداث ومشاعر وعوالم خافية سارية في الأرض ،
غائرة في الضمير .

« والقمر إذا اتسق » : اجتمع نوره وتبدّر وتكامل واطّرد ، كما في ليلة بدره وتماّمه ، فائضاً على الأرض الظلماء الداعس ، بنوره الحالم الجابر لهذه الظلم .

قسماً بالليل وما وسق والقمر إذا اتسق ، ولا أقسم بالشفق فإنه خلط لا يبين ، وإنما الليل وما جمع ، يجمع ويؤوي المتفرقات ، على غفلة وغفوة منها ، كذلك حياة التكليف تجمع الأعمال والأقوال في متون المسجلات العضوية والأرضية بفضائها ، طالما المكلفون عنها غافلون ، ولكننا قمر الساعة يوم يقوم الحساب ، إنسه سوف يتسق ، يجمع نوره ليُري الناس أعمالهم ، طبقاً بحديد البصر يوم الحساب ، عن طبق في كلال البصر قبل يوم الحساب : « لقد كنت في غفلة عن هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ، فطالما ظلام ليل التكليف يمنع عن ظهور الأعمال ، ولكنه لا يمحّيها ، ثم القمر المتسق يبرزها يوم البروز .

فلا أقسم بالشفق ، ولأنه مشتبّه خلط ، فلا يقسم به لإثبات حقيقة ناصعة ، إنما أقسم بما يشل ركوب طبق عن طبق ، حال عن حال ، أقسم بالليل وما جمع ، ولا بد لهذا الجمع الأليل من ظهور ، وإلا فلماذا جمع ، وقد يظهر الجمع الخفي بالقمر إذا اتسق : تجتمع نوره وتبدّر ، وحسنئذ لا تخفى منهم خافية ، وهذا طبق عن طبق .

إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقية .. لتركن طبقاً عن طبق ، وإنما طبق اللقاء ، لقاء الرب ولقاء الأعمال ، إنه ناتج عن طبق الكدح .

« لتركن طبقاً عن طبق » : الطبق هو المطابقة ، وهو جعل الشيء فوق آخر بقدره .

إن كل حالة لاحقة للإنسان ، هي طبق عن سابقتها ونتيجة عنها « طبقاً عن

طبق « اللاحق صادر عن السابق ، لا « طبق بعد طبق » دون رباط بين التطبيقين ، إنما « عن طبق » ، فالإنسان إنما يركب - طوال الحياة : حياة التكليف وحياة الحساب - يركب مراكب الحالات اللاحقة عن الحالات السابقة : ركوب الجزاء الصادر عن العمل .

فالحياة الدنيا طبقات بعضها عن بعض ، والبرزخ طبق عن الدنيا ، والآخرة طبق عنها ^(١) ، تطابقاً في المساعي ، على قدر السعي والساعي ، بكده وكدحه « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

كل لاحقة من حياة ، مطيئة لسابقتها حسب الأعمال والنيات ، يخلقها الإنسان بما تقدمه نفسه « وأن الله ليس بظلام للعبيد . ولا تظلمون نقيراً » .. أحوال كأنها مطايا يركبها الكادحون ، واحدة بعد واحدة ، حتى تنتهي بهم عند غاية تؤدي إلى مرحلة جديدة هي حياة الجزاء السام ، كالأحوال المتعاقبة الكونية : طبق الليل وما وسق بعد الشفق ، ثم طبق القمر إذا اتسق ، وحتى ينتهي إلى وضوح النهار إذ يلاقون أعمالهم ظاهرة باهرة ، ولا تخفى عليهم خافية .

لتركن : جميعاً ومجموعاً - جميعاً لكل طبقه كأفراد ، ومجموعاً لكل أمة مثال ما للسابقة ، نتيجة التماثل الأممي في التصرفات الجماعية ، والكثير من الروايات تشير إلى الطبقات الجماعية لأمة الإسلام ، فيهم وفي قادتهم الروحانيين وأئمتهم الطاهرين : وكما عن الرسول الأقدس ﷺ قوله : « لتركبن سنة من كان قبلكم حذو النعل بالنعل ، والقذة بالقذة » لا تخطون طريقهم ، ولا يخطي شبر بشبر وذراع بذراع وباع بباع ، حتى أن لو كان من دخل حجر ضب لدخلتموه ، قالوا : اليهود والنصارى تعني يا رسول الله ﷺ ! قال : فمن أعني ؟ لتنقضن

(١) نور الثقلين عن المجمع روي مرفوعاً عن النبي (ص) أن قوله طبقاً عن طبق معناه : حياة ثم موت ثم بعث ثم جزاء .

عرى الإسلام عروة عروة ، فيكون أول ما تنقضون من دينكم الإمامة وآخره الصلاة (١) .

وعن الإمام الصادق عليه السلام : « إن للقائم غيبة يطول أمدها ، قيل ولم ذلك يا بن رسول الله ﷺ ! قال : لأن الله عز وجل أبى ألا يجري فيه سير الأنبياء عليهم السلام في غيبتهم ، وأنه لا بد من إنتهاء مدة غيبتهم ، قال الله تعالى : « لتركبن طبقاً عن طبق » أي : سير من كان قبلكم » (٢) .

فأمة الإسلام يركبون سنن الأمم السابقين ، طبقاً عن طبق ، ولأن كل مستقبل ابن ماضيه « جبر التاريخ » وأنهم يحذون حذوهم بخيرين لا مسيرين ، وأن الله يجمع في محيى الأمم القائم بالعدل ، ما جمعه من ميّزات قادة التاريخ : الروحانيين ، وليكّث المسيرة ، ويطبّق السيرة كاملة قاهرة ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً .

« فما لهم لا يؤمنون » وإذا قرأ عليهم القرآن لا يسجدون : «

هذه موحيات الإيمان كونياً وفطرياً وعقلياً ، تواجه بصر الإنسان وبصيرته ، وتتكاثر عليه أياً كان وأينما كان ، وتستجيش مشاعر التقوى وتستأصل دوافع الطغوى ، وتحمل الإنسان على الإيمان « فما لهم لا يؤمنون » ؟ ماذا حصل هنا وهناك فلا يؤمنون « كلابل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » فإنارة العقل مكسوف بطوع الهوى .

(١) نور الثقلين ٥ : ٥٣٨ - ٥٣٩ عن تفسير علي بن إبراهيم القمي .

(٢) نور الثقلين ٥٣٩ عن كتاب كمال الدين ونظام النعمة بإسناده إلى حنان عن أبيه عنه (ع) وفيه عن الباقر (ع) في الآية ، قال : يا زارة ! أرم تركب هذه الأمة بعد نبينا طبقاً عن طبق في أمر فلان وفلان وفلان ؟ « يعني الخلفاء الثلاثة الأول ؟ وفيه عن أمير المؤمنين (ع) في حديث تفسير الآية « أي : لتسلكن سبيل من كان قبلكم من الأمم في القدر بالأوصياء بعد الأنبياء » .

« وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون » : لا يخضعون له غايته ، رغم أن القرآن مثال عن العظمة الإلهية ، فكما السجود من الخلق لزام للخالق ، كذلك لصلواتهم .

ليس السجود المأمور به ، المندء بتركه - هنا - سجود التلاوة ، إذ ليست تلاوة القرآن - ككل - بالتي تفرض السجود هذا ، والنص « إذا قرىء عليهم القرآن » لا « آيات السجدة » ولا « هذه الآية » إضافة إلى أن الآية هذه ليست لتطلب السجود لنفسها وإلا لدار ، وإنما تطلب لغيرها من القرآن كقرآن ، فليس إلا القرآن كله ، لا آيات السجدة بخصوصها ، ولقد أجمع أصحابنا أنها ليست من آيات السجدة الواجبة ، اللهم إلا استحباً ورجحاناً .

وليس كذلك سجود الصلاة ، إذ لم تأمر الآية بالصلاة ، ولا القرآن كنه يأمر بها .

إذا فهو غاية الخضوع للقرآن إذا قرىء ، وأدنى ما يتطلبه الخضوع هو الإستماع والإنصات : (خضوع السمع) ثم التفهم : (خضوع الفهم) ثم الإيمان الصالح : (خضوع القلب) ثم العمل الصالح : (خضوع الجوارح) وسجود اللسان وهو الترتيل في قرائته وإبلاغه ونشره : وخضوع ككل : أن يعيش الإنسان القرآن - حياته بكل طاقاته - بما فيه .

هذه الآية تندد بالكافرين كيف لا يؤمنون بالقرآن ، ومن جراء الإيمان لم لا يسجدون ويخضعون للقرآن ، أخروجاً عن فطرة الإنسان ، الخاضعة لكل جمال وكمال ، فهل تجدد أجل من القرآن وأروع منه ، في كل ما يتطلبه الإنسان كإنسان من كمال وجمال ؟

وإذا كان الإيمان يفرض - لأول وهلة - غاية الخضوع للقرآن ، وأدناها الإستماع له والإنصات ، فأمرى أن يكون واجباً على المؤمنين وقد اجتازوا

المرحلة البسيطة الأولى ! فما للمؤمنين لا يؤمنون ؟ وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ، إذا فلا يُرحون ، تنقطع عنهم الرحمة الإلهية بتركهم أدنى مراتب الخضوع للقرآن : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون » (٢٠٤ : ٧) .

إنه لا يختص القرآن هنا بقرآن الصلاة جماعة ، وإن نزلت الآية في شأنها ، حيث المورد لا يخص ، إنه القرآن المطلق لأنه قرآن ، وإن كان فرض استماعه في الصلاة أولى ، والآية هذه تأمر باستماعه والإنصات له إذا قرىء ، وتعدُّ بالرحمة ، وتهتد بانقطاعها لولا الاستماع والإنصات .

والآية الأولى « .. لا يسجدون » تندد بمن لا يخضع للقرآن إذ يُقرأ ، وتعتبر هكذا خضوع من حصائل الإيمان لأول وهلة منه ، إذا فتارك الاستماع والإنصات للقرآن خارج عن أولى متطلبات الإيمان ، منقطع عن الرحمة الإلهية التي وعدها المؤمنون .

وهل يا ترى إن عظيماً من العظماء إذا كلمك مخاطباً ، ثم لم تستمع له ولم تنصت - ولو كان لصالحه هو لا أنت - فما هي إذا حالته ؟ فهلا يفضب أن هتكته ولم تحسب له حساباً ؟ إذا فما ظنك برب العالمين الذي يخاطبك في قرآنه - لك ولصالحك أنت - ثم أنت تلهو عنه إلى غيره من أشغال ، أو إلى كلام غيره ؟ أفلا تستحق إذا انقطاع الرحمة والتنديد الشديد : أنك لم تؤمن ؟ !

وتقول الروايات كما تقوله الآيتان ، أن فرض الاستماع المنصت لا يختص قرآناً دون قرآن ، ولا حالة دون حالة ، فهو عام في كافة المجالات قدر المستطاع .

فلاهمية فرض الاستماع نرى علياً عليه السلام يسكت في صلاته لمن يقرأ في غير

صلاة ، والقارىء مشرك ، والآية - في قصد القارىء - تندد به عليه السلام^(١) .

وما يظهر منه كأن فرض الاستماع خاص بصلاة الجماعة الجهرية^(٢) يحمل على

(١) نور الثقلين ٢ : ١٠٣ باسناد صحيح عن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله (ع) قال : سأله عن الرجل يؤم القوم وأنت لا ترضى به في صلاة يحمر فيها بالقراءة ؟ فقال : إذا سمعت كتاب الله يتلى فأنصت له ، فقلت : إنه يشهد علي بالشرك ! قال : إن عصي الله فأطع الله ، فرددت عليه فأبى أن يرخص لي ، قال : فقلت له : أصلي إذا في بيتي ثم أخرج إليه ؟ فقال : أنت وذلك ، وقال : إن علياً (ع) كان في صلاة الصبح فقرأ ابن الكوا وهو خلفه : « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » فأنصت علي تمظيماً للقرآن حتى فرغ من الآية ، ثم عاد في قرائته ، ثم عاد ابن الكوا فأنصت علي (ع) أيضاً ثم قرأ ، فأعاد ابن الكوا وأنصت علي (ع) ثم قال له : « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفئك الذين لا يوقنون » ثم أتم السورة ثم ركع . ورواه العياشي عن أبي كهمس عن أبي عبد الله (ع) من قوله : قرأ ابن الكوا .

وفيه عن تفسير العياشي عن زرارة قال : سمعت أبا عبد الله (ع) يقول : يجب الانصات للقرآن في الصلاة وفي غيرها ، وإذا قرأ عندك القرآن وجب عليك الانصات والاستماع . وفيه عن المجمع عن عبد الله بن أبي يعفور عن أبي عبد الله (ع) قال : قلت له : الرجل يقرأ القرآن وأنا في الصلاة هل يجب علي الانصات والاستماع ؟ قال : نعم إذا قرأ القرآن وجب عليك الانصات والاستماع .

(٢) نور الثقلين عن الفقيه في رواية زرارة عن أبي جعفر (ع) قال : وإن كنت خلف الامام فلا تقرأ شيئاً في الأولين وأنصت لقرائته ، ولا تقرأ شيئاً في الأخيرتين فإن الله عز وجل يقول للمؤمنين : وإذا قرأ القرآن - يعني في القرينة خلف الامام - فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون ، والأخيرتان تبعاً للأوليين .

أقول : عدم القراءة في الأخيرتين خلاف الاجماع سواء عني بها الحمد أم التسيبجات ، فالحديث مشوش متناً ، وغير صريح دلالة على اختصاص وجوب الاستماع بمورد خاص ، وهو الحديث الوحيد هنا ، وآخر مطلقه - لو عارض القرآن - أن يضرب عرض الحائط .

أنه أفضل الموارد ، ولأنه مورد نزول الآية ، وعموم اللفظ في الآية لا ينافي خصوص المورد^(١) .

فالقرآن - إذا قرئ - يجب الاستماع إليه والإنصات له ، سواء أكان القارئ مسلماً أم سواه ، مكلفاً أم سواه ، قراءة دون واسطة أو بالوسائل ، متصلة بالقارئ ، أم منفصلة مسجلة ، وما لم يصل إلى حد الحرج ، أو المشقة غير المتحملة ، أو لم يكن هناك واجب أهم منه .

كل ذلك لإطلاق الآيتين ، ثم أدلة نفي العسر والحرج ، وتكافؤ الدليلين في الفرضين ، أم تقدم البعض على البعض - تأمل .

« بل الذين كفروا يكذبون » :

يكذبون بالإيمان ، وبدلالات الإيمان ، وبما يتطلبه الإيمان من السجود للقرآن ، يكذبون لأنهم كفروا ، رغم نصوص البرهان .

« والله أعلم بما يوعون » :

ما يخبونه من الكذب والتكذيب ، ومن التدجيل والتدجيل ، في أوعية الضلالة : من أنفسهم الشاردة ، وقلوبهم الماردة ، ومن شياطينهم المردة ، وأجوائهم المظلمة ، وأقوالهم اللثيمة ، وأفعالهم المنافقة ، فهم يعيشون وعي الكفر وإيمانه « والله أعلم بما يوعون » .

« فبشرهم بعذاب أليم » :

ليست لهم بشارة إلا الإنذار ، فبشارتهم هي الإنذار ، فالعذاب الأليم

(١) الدر المنثور عن ابن عباس قال : صلى النبي (ص) فقرأ خلفه قوم فنزلت « وإذا قرئ القرآن » وفي معناه روايات مستفيضة .

خفيف تجاه كفرهم ، إذا فهو بشاره لهم حالكونه عذاباً ، بشاره للصالحين أن الله لا يسوي بينهم وهؤلاء ، وبشاره للمجتمع أن الكافر سوف يذوق وبال أمره ، وبشاره للكفار أنفسهم ولكي ينتهوا عن كفرهم ، وبشاره لهم أخيراً إذ لم تبق لهم بشاره إلا العذاب تهكماً وتنديداً ، وتقبحاً وتبيديداً .

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون » :

لا يُمنّ عليهم ، ولا يقطع عنهم ، إذ آمنوا وأصلحوا ، ووعوا وأوعوا ، وعاشوا حياة صالحة مصلحة ، اللهم اجعلنا منهم .



مركز تحقيق كتاب توير عا ۱۱۱۱

﴿سورة البروج — مكية — وآياتها اثنتان وعشرون﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٠ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ١
وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ٣ قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ ٤
النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ
بِالْمُؤْمِنِينَ شُحُودٌ ٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ ٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ شَهِيدٌ ٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ
يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ١٠ إِنَّ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ١١ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢ إِنَّهُ هُوَ
يُبْدِيهِ وَيُعِيدُهُ ١٣ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ١٤ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ١٥
فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ١٦ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ١٧ فِرْعَوْنُ

وَتَمُودُ^{١٨} بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ^{١٩} وَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِهِمْ
مُحِيطٌ^{٢٠} بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ^{٢١} فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ^{٢٢} .

قصور السماء :

« والسماء ذات البروج » :

البروج هي القصور العالية المتبرجة بالزينة ، سواء أ كانت في المدن السماوية التي عمرها ربها أم عمرها إنسانها أم غيره من العقلاء المتمدينين ، وعلى حد تعبير أمير المؤمنين علي عليه السلام : « هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل التي في الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمودين من نور طول ذلك العمود في السماء مسيرة مائتين وخمسين سنة »^(١) .

بروج في مدن السماء ، أم مستقلة مبنية خارجة المدن النجومية ، والجمع المحلى باللام (البروج) يقتضي شمول البروج هذه ، كل القصور السماوية ، مشيدة وسواها وكما في الأرض : « أيما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » (٨٤ : ٧٨) ومن مدرعة بجهزة بالمدفعية والقاذفات ، وسواها : « ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » (١٥ : ٨) « تبارك الذي جعل في السماء بروجا . وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا » (٢٥ : ٦١) .

فبروج السماء — إذا — قصور عالية : من حصنة جعلها ربها في السماء حفظا عن مسترقي السمع من الشياطين ، وسكننا للآلئ الأعلى : « لا يستمعون إلى الملا

(١) في تفسير القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن بعض الأصحاب عن الصادق (ع) أنت عليا (ع) قال : ..

الأعلى ويقذفون من كل جانب « قصور هي حصون ومدركات وقاذفات جوية تقذف مسترقي السمع من كل جانب : « دحوراً ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب » .

ومن قصور بناها إنسانها في مدن السماء ، وعلتنا في المستقبل نتسافر ونتأور كما القرآن يشير : « ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيها من دابة وهو على جمعهم إذ يشاء قدير » (٢٤ : ٢٩) : جمع الدواب المنبثة بين الأرض والسماء ، الدواب العاقلة بدليل « هم » في « جمعهم » جمعاً قبل القيامة الكبرى عن الإنبيثات ، لا جمعاً ليوم الجمع ، وأما أيتنا أسبق في الغزو ؟ إنسان الأرض إلى السماء ، أم إنسان السماء إلى الأرض ؟ لا ندري .

أجل - فلأنما بروج السماء هي قصورها ، وفي معناها لغوياً وفي القرآن ، وكما العقلية الإسلامية تصدق في تصريحات أصحاب الرسول ﷺ^(١) وقد يروى عنه ﷺ أنها الكواكب ، ولكنها هي الكواكب المتمدنة ذوات القصور ، دون أن يكون للبروج معنيان اثنان ، ويشهد له تفسيره ﷺ البروج المشيدة بالقصور^(٢) .

هذه هي البروج المعنية في السماء ، القصور والكواكب ذوات القصور ، المزينة المتبرجة بألوان الزينة ، المدرعة والمزودة بالمدفعيات والقاذفات ، إذا كانت إلهية أو ملائكية ، والآلهة بسكانها العمار المتمدنين إذا كانت بشرية ،

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٣١ ، أخرج ابن المنذر عن الأعمش قال : كان أصحاب عبد الله يقولون في : والسماء ذات البروج - ذات القصور - وفيه أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : البروج قصور في السماء .

(٢) وفيه أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن النبي (ص) سئل عن السماء ذات البروج فقال : الكواكب ، وسئل عن : الذي جعل في السماء بروجاً ، فقال : الكواكب ، قيل : بروج مشيدة ، فقال : قصور ، أقول : يعني بالكواكب ، التي لها قصور .

فهي كلها بروج على أية حال ، على اختلاف ارتفاعاتها ومهياتها وسكانها —
وتبرجاتها .

هذه — لا كافة الكواكب ، إذ لا وجه لتسميتها بالبروج ولا مجازياً ، حيث
الكواكب لا تشبه القصور إلا في علوها ، وليس كل عالٍ قصرًا ، وإلا فلتكن
الفواكه فوق الأشجار ، والسروج فوق المنار ، لتكن بروجًا ! فليست البروج
هي الأشياء الموضوعة على المرتفعات ، وإنما القصور الرفيعة المتبرجة أياً كانت ،
والتعبير الصالح عن الكواكب هو المصابيح : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح » :
قناديل منيرة علقت على متن السماء ، أو مسامير من فضة وتثدت فيها ، وإن
كانت النجوم — وهي أخص من الكواكب — علتها هي الكواكب التي طلع
فيها التمدن ومنه قصورها .

ثم وليست البروج هنا هي البروج الاثني عشر النجومية التي قررها
الفلكيون^(١) ، حيث القرآن لم ينزل وفق اصطلاحات علماء الفلك ، ولا غيرهم
من المصطلحين ، وإنما نزل للناس أجمعين ، بلغة العرب الفصحى ، التي يعرفها كل
عربي فصيح ، وليس في أخبارنا كذلك ، ما يؤيد تلكم البروج^(٢) .

(١) البروج حسب اصطلاح المنجمين هي منازل الشمس والقمر ، يسير القمر في كل برج
منها يومين وثلاثاً ، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً ، ثم يستقر ليلتين ، ويسير الشمس في كل برج
منها شهر ، والبروج الاثني عشر هي الصور النجومية التي اعتبرها المنجمون وهي : الحمل ،
الثور ، الجوزاء ، السرطان ، الأسد ، السنبلة ، الميزان ، العقرب ، القوس ، الجدي ، الدلو ،
الحوت ، وفلك البروج دائرة ترممها الشمس في سيرها في السماء في سنة واحدة ، وتقسم الدائرة
إلى اثني عشر كل واحد منها ٣٠ درجة .

(٢) وفي نور الثقلين ٥ : ٤١ هـ عن روضة الكافي بإسناده عن الأصمعي بن نباتة قال : قال
أمير المؤمنين (ع) إن للشمس ثلاثمائة وستين برجاً ، كل برج منها مثل جزيرة من جزائر العرب ،
وتنزل كل يوم على برج منها ..

أقول : عل هذه البروج هي قصور في فلك الشمس ، هي في كواكب على مسير الشمس ، أو
مستقلة كل بحاله في هذا المسير .

« واليوم الموعود » :

يوم القيامة الكبرى ، يوم يقوم الأشهاد ، يوم العرض والحساب والثواب والعقاب .

« وشاهد ومشهود » :

الشهادة هي الحضور مع المشاهدة ، بالبصر أو بالبصيرة ، تلقياً لما يحصل كما يحصل : « ليشهدوا منافع لهم » (٢٢ : ٢٨) أو إلقاءً له كذلك : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » (٢٤ : ٢٤) .

والشاهد الأول هنا هو الله تعالى ، فإنه خالق الشهداء وموفقهم لتلقيها وإلقائها والمهيمن على ذلك كله .

ثم النبيون والملائكة والأرض بأجوائها وأكنافها ، والإنسان نفسه ، وبأعضائه وأجزائه كما عرفناها مسبقاً ، والرسول الأقدس ﷺ هو شهيد الشهداء بعد الله تعالى بين المرسلين ، يوم الدنيا ويوم الدين : « ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء » (١٦ : ٨٩) .

فهو ﷺ يتلقى الأعمال والأقوال والنيات ، بما وفق الله له ووفقه الله ، يتلقاها في حياته وبعد مماته وإلى يوم الدين ، ثم يلقاها يوم تقوم الأشهاد .

== وفيه عن كتاب الخصال عن أبان بن تغلب قال : كنت عند أبي عبد الله إلى أن قال في مقارفة بين نفسه المقدسة وبين علماء اليمن : إن عالم المدينة يعلم ما في اللحظة الواحدة مسيرة الشمس ، تقطع اثني عشر برجاً واثني عشر براً واثني عشر عائلاً ، فقال له الياباني : جعلت فداك ما ظننت أن أحداً يعلم هذا أو يدري ما كنهه . « .

أقول : لو كانت هي البروج النجومية لم يكن علمها خاصاً بعالم المدينة ، الإمام الصادق (ع) إذ يعرفها الفلكيون وكثير سواهم ، إذاً فلا تؤيد البروج النجومية - تفسيراً لـ « السماء ذات البروج » لا تؤيد لا لغوياً ولا قرآنياً ولا روئياً فإن يذهبون !

والشاهد هنا يعم كافة الشهداء: « إلهياً وملائكياً وبشرياً وكونياً وعضوياً ، تلقياً وإلقاءً بأنواعها ، فليس الأفراد والتكثير في « شاهد » يعني فرداً ما ، وإنما هو لتعظيم جنس الشاهد أياً كان .

« ومشهود » : مشهود هو الأعمال تلقياً ، ومشهود به هي إلقاء : شهوده وشهد به ، ومشهود له أو عليه هو العامل ، ومشهود فيه مكان الشهادة بنوعيتها ، فلم يقل : « ومشهود عليه أو له أو فيه أو به » ولكي يشمل الكل إذ ألغيت المتعلقات وجرّد المشهود ، عنها : « ومشهود » .

ثم الشهادة - تلقياً وإلقاءً - تختلف حسب اختلاف الشهود ، فالشهود النفسية والعضوية والكونية تتلقى وتلقي صور الأعمال وأصوات الأقوال ، والشهود الملائكية والبشرية يشهدون باللسان كما شهدوا بالأبصار والبصائر وحفظوا بالأذهان ، وعمل الشهود الملائكية - إضافة إلى اللسان - يشهدون بما كتبوا ، لو أن كتابة الأعمال تشملها ، فالملائكة هم الكرام الكاتبون .

من هنا نعرف أن مختلف الروايات في تفسير « شاهد ومشهود » تعني المصاديق التي تشملها :

فإذا يفسر الشاهد بالله فلأنه خالق الشهداء وموفقهم لتلقيها وإلقاءها ، المهيمن على ذلك كله ، كما المشهود هنا أيضاً يوم الدين^(١) .

وإذا يفسر بمحمد ﷺ والمشهود بيوم القيامة ، فإنما محمد ﷺ هنا المتلقي للشهادة يوم الدنيا ، والملقي لها يوم الدين ، وهو مشهود فيه : « ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود » (١١ : ١٠٣)^(٢) .

(١) عن ابن عباس .

(٢) عن الامام الحسن بن علي (ع) .

أو أن الشاهد ابن آدم والمشهود يوم الدين ، فـجاء أن الإنسان بأعضائه يتلقى أعماله ويلقيها يوم تقوم الأشهاد^(١) .

أو أن الشاهد رسول الله ﷺ والمشهود أمير المؤمنين عليه السلام فلأن الرسول يجاء به شهيداً على كافة المكلفين ولهم ، فهو يشهد لعلي - فيمن يشهد لهم - أنه أدّى ما عليه ولم ينقص^(٢) .

أو أن الشاهد يوم الجمعة وعرفة والمشهود يوم القيامة ، فلأن الأيام - بها وبأماكنها وبمن فيها - تشهد لنا أو علينا ، في يوم القيامة^(٣) ، وقس عليها غيرها^(٤) .

كما وأن علياً - حسب القرآن - من شهود الرسول ﷺ : « أفمن كان على بيئته من ربه ويتلوه شاهد منه » (١١ : ١٧) فقد تلاه : تبعه في رسالته ، وخلفه في أمته طوال الرسالة وبعدها حتى قبض .

* * *

قسماً بالسماء ذات القصور المدرجة القاذفة للشياطين يوم الدنيا ويوم الدين :

مركز تحقيق كاميون علوم إسلامي

(١) عن مجاهد .

(٢) عن الإمام الصادق (ع) .

(٣) عن النبي (ص) والباقر (ع) .

(٤) كيوم الغدير ، يوم شاهد ومشهود ، مصباح الشريعة عن خطبة لعلي (ع) ، وأن الشاهد محمد والمشهود يوم عرفة ، عن الإمام الحسن (ع) وروى أن رجلاً دخل مسجد رسول الله (ص) فإذا رجل يحدث عن رسول الله (ص) ، قال : فسأته عن الشاهد والمشهود ، فقال : أما الشاهد فيوم الجمعة وأما المشهود فيوم النحر ، فجزتها إلى غلام كان وجهه الدينار وهو يحدث عن رسول الله (ص) فقلت : أخبرني عن شاهد ومشهود ، فقال : نعم ، أما الشاهد فمحمد وأما المشهود فيوم القيامة ، أما سمعت الله سبحانه يقول : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً » وقال : « ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود » فسألت عن الأول فقالوا : ابن عباس ، سألت عن الثاني فقالوا : ابن عمر ، سألت عن الثالث فقالوا : الحسن بن علي (ع) ، (نور الثقلين ٥ : ٥٤٢ - ٥٤٣) .

« إن الذين كفروا لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط » (٧ : ٤٠) .

وقسماً باليوم الموعود الذي تفرض فيه الأعمال والحلائق ، وقسماً بشاهد ومشهود ، إذ يفرق المكلفون في جو الشهود ، وإذ تلتقي السماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود .

قسماً بهذه وتلك لقد حدث حادث في تاريخ الإنسان يجرح الأكباد ويقرح العيون : « قتل أصحاب الأخدود .. » أقبل تزعم أن ظلامتهم تذهب هدراً ، والكون بمن فيه وما فيه شهود ؟ :

« قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود » :

الأخدود شق في الأرض مستطيل غائص ، وجمعه أخاديد ، والنار ذات الوقود هي التي أضرمت وأوقدت في الأخدود ، لحديث أصبح الأخدود كأنه نار ذات وقود ، إجماع بتلهب النار في الأخدود كله ، كأن لم يبق أخدود إلا الوقود^(١) فنفس الأخدود ضيق ، ثم قلبه ناراً ضيق على ضيق وعذاب فوق العذاب .

وأصحاب الأخدود هم الجبابرة الذين أوقدوا النار في الأخدود ، لا المؤمنون الذين أحرقوا فيها ، لأن أصحاب الأخدود - حسب النص - قتلوا ، والمؤمنون أحرقوا ، ولا يعتبر عن الحرق بالقتل ، وإن كان هو أيضاً قتلاً ولكنه بالحرق ،

(١) النار ذات الوقود بدل الاشتغال عن الأخدود ، جيء به كبديل الكل مبالغة في الوقود ، وهنا رواية في النار لطيفة : عن الحاصل عن الفضل بن عمر عن أبي عبد الله (ع) قال : سأله عن النيران فقال « أربعة : نار تأكل وتشرب ، ونار تأكل ولا تشرب ، ونار تشرب ولا تأكل ، ونار لا تأكل ولا تشرب ، فالتى تأكل وتشرب ففساد ابن آدم وجميع الحيوان ، والتي تأكل ولا تشرب فنار الوقود ، والتي تشرب ولا تأكل فنار الشجر ، والتي لا تأكل ولا تشرب فهي نار القداحة والحباحب » (نور الثقلين ٥ : ٥٤٧) .

كما المقتول بالصلب يقال عنه مصلوب ، لا مقتول : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

هذا - ولأن الضمائر التالية كلها ترجع إلى المحرقين لا المحرقين : « إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم .. » .

« قتل » : إنه إخبار عن قتل أرواحهم وضمائرهم لما أقدموا على إحراق المؤمنين ، فهم قُتِلوا إذ قَتَلُوا ، رغم حياتهم في الجسد ، قَتَلُوا ضمائرهم قبل أن يقتلوا المؤمنين ، فالضمائر الإنسانية الحية ، والأرواح الطاهرة ، لا تسمح لأصحابها هكذا قساوة وضراوة ، أن يلقوا المؤمنين والمؤمنات - بأطفالهم وضعفائهم - في النار ، وهم قريبون من عملية التعذيب البشعة ، يشاهدون أطوارها ، وفعلة النار في هذه الأجسام الطاهرة ، وهم في لذة وسعار .

أجل إنه إخبار بقتلهم وليس دعاء ، فإنه لا يليق بساحة الربوبية ، إخبار عن ماضيهم يوم الدنيا ، وعن مستقبلهم يوم الدين ، كيف يلاقون جزاءهم الوفاق يوم التلاق .

قصة أصحاب الأخدود مركز تحقيق كاميون علوم إسلامي

تختلف الروايات في : مَنْ هم أصحاب الأخدود ؟ أنه مهرويه بن بخت نصر ؟ حفر أخدوداً لدانيال وأصحابه ، وأوقد لهم ناراً فلم يُحرقوا ، فاستودعهم فيه بين الأسد والسباع بألوان العذاب حتى خلاصهم الله منه كما عن النبي ﷺ (١) .

أقول : إنه لا يلائم سياق الآيات الظاهرة في وقوع النعمة عليهم « وما نقموا منهم إلا .. » « إن الذين فتنوا .. » أي : أحرقوا ، فلا نصدق أنه عنه ﷺ .

أو أنه ذو نواس - آخر ملوك حمير - تهود واجتمعت معه حَمِير ،

(١) نور الثقلين ٥ : ٥٤٣ في كتاب كمال الدين وإتمام النعمة بإسناده عنه (ص) .

ثم حمل من بقي على النصرانية بنجران أن يتهودوا فابوا ، فاتخذ لهم أخدوداً
وأشعل فيه النار ، فمتمهم من أحرق بالنار ومنهم من قتل بالسيف ، ومثل بهم
كل مُثلة ، وبلغ عدد الضحايا عشرين ألفاً (١) .

أقول : وما سوى أخدود النار لا يلائم الآيات .

ورويت روايات أخرى مختلفة في أصحاب القصة وكيفيتها ، لا تهمننا
تفاصيلها ، فنُجمل عنها كما القرآن أجل ، ولندرس فيها درس التضحية والفداء
في سبيل الله ، وكما عن الرسول الأقدس ﷺ قوله : « ما ذكرت أصحاب
الأخدود إلا تعوذت بالله من جهد البلاء » (٢) .

وعن حفيده الإمام الصادق عليه السلام قوله : « قد كان قبلكم قوم يُقتلون
ويحرقون ويُنثرون بالمنابر ، وتضيّق عليهم الأرض برحبها ، فما يردم عمام
عليه شيء مما هم فيه ، من غير تسرة وتروا من فعل ذلك بهم ولا أذى ، بل ما
نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، فاسألوا ربكم درجاتهم ، واصبروا
على نوائب دهركم تدر كوا سعيهم » (٣) .

« إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود :
قتلوا » إذ هم عليها قعود ، على الأخدود - لا فيه - على شفير النار ومشارفها ،
البعيدة عنها عرضاً وعمقاً ، دون أن يتأثروا بها ، إلا تفرّجاً ونزهة ، فالداخل
في النار لا يقعد فيها ، إنما يقوم ويقعد ويقفز محاولة الفرار .
« وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود : حضصورٌ يسمعون صرخاتهم

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٤٤ في تفسير علي بن إبراهيم القمي .

(٢) البر المنثور ٦ : ٢٣٣ ، أخرجه عبد الحميد عن الحسن عنه (ص) ، وابن أبي شبة
عن عرف عنه (ص) .

(٣) نور الثقلين ٥ : ٤٧ في روضة الكافي محمد بن سالم بن أبي سلمة عن أحمد بن الريان عن أبيه
عن جميل بن دراج عنه (ع) .

وتسبيحاتهم ، ويرون ما تفعل النار يحسومهم الطاهرة ، شهود : شهادة تلقى مما فعلوا ، وشهود - يوم تقوم الأشهاد - شهادة إلقاء بأعضائهم وأجزاءهم ، بالسنتهم وأسماعهم وأبصارهم ، فهم شهود هنا وهناك ، وهم مشهود عليهم بأعمالهم هناك في اليوم المشهود : « وما كنتم تستترون أن تشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون » (٤١ : ٢٢) .

« وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » :

إن نعمة الإيمان هي دور المؤمنين طوال تاريخ الإنسان ، فليطلب المؤمنون أن يفرغ عليهم ربهم صبراً ويتوفاهم مسلمين : « وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين » (٧ : ١٢٦) « قل هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله » (٥ : ٥٩) .

إن قتل المؤمن لإيمانه هو أشد الكفر : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاءه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » (٤ : ٩٣) : يقتل مؤمناً لإيمانه وإن كان القاتل في زمرة المؤمنين ! فكيف بالكافر ! .

فيا حمقاء الطغيان ! هل إن الإيمان بالله يستوجب النعمة : والكران بالعقوبة وباللسان ؟ وهو الله العزيز في ألوهيته فأحرى أن يؤمن به ، وهو الحميد في عزته فأحرى أن يؤمن له ! الله العزيز الحميد .

« الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء

شديد » :

يملك الكون كله ، ويشهد عليه كله ، وسوف يشهد قبل الشهود ومعهم يوم تقوم الأشهاد ، ماذا نقمت من المؤمنين به ؟ فهو شاهد يوم ذاك ، وأعمالكم مشهود بها ، وأنتم مشهود عليكم ، والقيامة مشهود فيها .

« إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » :

« فتنوا » : أصل الفتن إدخال الذنب النار لتظهر جودته من رداءته ، واستعمل في إدخال الإنسان النار ، وعلة أيضاً لهذه الغاية ، قصدت أم لا .

فأصحاب الأخدود أحرقوا المؤمنين والمؤمنات بالنار نقماً منهم وكراهية لهم ، فلم يقصدوا تخليصهم بهذه الفتنة عما ربما يلتصق بالمؤمن من رداءة ، ولكن الله فوقهم ، حقق فيهم معنى الفتنة فصبروا عليها وماقوا مخلصين ، ذهباً خالصة عن الأخلاط ، فلاقوا ربهم خلصاً عن الرداءة .

هذا - وعلى سبيل التهم - يفتن الكافر أيضاً على النار : « يوم هم على النار يفتنون ذوقوا فتننكم .. » (٥١ : ١٣) : فتنة بفتنة ، تتشارك في الحرق ، وتختلفان في نتاجه صالحاً وطالحاً ، فالفتنة ، منها مفلحة كما للمؤمنين ، ومنها مسقطة كما للكافرين « ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » (٤٩ : ٩) .

« إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات » بمختلف العذاب وعذاب الحريق ، « ثم لم يتوبوا فلهم » الجزاء الوفاق : « عذاب جهنم » كبداً العذاب الذي ذاقه المؤمنون منهم « ولهم عذاب الحريق » بما أحرقوهم في الأخدود ، جهنم بما فعلوا ، وحريق بالأخدود ، ولكن أين حريق من حريق ؟ في شدته ومدته ، في عذابه ورحمته !

فحريق الأخدود - أوقدها إنسانها للعبه ، وحريق جهنم نار سجرتها جبارها لفضبه ، ثم الأول تنتهي للحظات ، والآخر آباد لا يعلمها إلا الله ، ومع حريق الأخدود رضي الله عن المؤمنين ، وانتصار لحق الإيمان ، ومع حريق الآخرة غضب الله والإرتكاس الهابط الذم .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير » :

فالؤمن حياته الجنة ، والكافر حياته النار ، وجنة الأبرار لا تختص بدار القرار ، إنهم يلتذون بما يُنقِمُ منهم في سبيل الله ، فطالما أجسادهم تعذب في جحيم الدنيا ، لكن الأرواح تلتذ بالفداء ، ثم لا تحس آلام الأجساد ، ثم هم يوم القيامة ينعمون ، وذلك الفوز الكبير : الظفر بالخير مع حصول السلامة ، وهذه هي النجاة الحقيقية ، والنجاح الكبير في معارك الحياة .

« إن بطش ربك لشديد » :

بطش رباني ما له من فواق ، دون بطشهم الهزيل الصغير ، بطش الضعاف المهازيل ، بطش الأحمق الذليل !

البطش هو تناول الشيء بصولة ، منها ظلمة ومنها عاذلة ، ويطش الرب جزاءً عن صولتهم الظلمة ، بصولة عاذلة ، وفي « بطش ربك » تطيب لِنَفْسِ النبي الأقدس ، ولكي لا يحسب هؤلاء البطاشين حساباً : « ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنمي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء » (١٤ : ٤٣) .

« إنه هو يبدى ويعيد » :

قسماً بالسماء ذات البروج ، واليوم الموعود . وشاهد ومشهود : قتل أصحاب الأخدود .. إن الذين فتنوا .. إن بطش ربك لشديد . إنه هو يبدى ويعيد . فهي كلها أجوبة الأقسام كلها ، لأنها تصلح لها ، والصلة بينها وبينها معلومة بما سبق .

« وهو الغفور الودود » :

وحق لأمثال أصحاب الأخدود لو تابوا وآمنوا واصلحوا ، فإنه منبع الغفران والود ، بوجه يغفر ، وبمغفرته يود ، أفلا نائب يتوب وآئب يؤوب . فتأخير بطش الرب - الشديد - ليس للغفلة أو الإهمال ، فالظالم في قبضته بدءاً وعوداً فإين يفر ؟ فقد يؤخر عل البطاشين المتخلفين يتوبون ، ولأن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل .

« ذو العرش المجيد . فعال لما يريد » :

صاحب عرش الألوهية ، ولقد ذكر العرش في واحد وعشرين موضعاً من القرآن ، مقرونة بقرائن قاطعة لفظية وعقلية ، تدل على أنه ليس عرشاً يتكى عليه ، وإنما هو كناية عن ملكه تعالى ، ونفاذ أمره في مملكة الوجود ، واستيلاء سلطانه على رعيته .

إن ألوهيته تعالى ونزاهته عن ذوات المخلوقين وصفاتهم ، إنها برهان لا مرد له - عقلياً - أن الذات والصفات والأفعال المنسوبة إليه ، مجردة عما للمخلوقين ، فإذا ينسب إليه العرش فهو إذاً مجرد عن عروش المخلوقين المحتاجين إليها ، والمتكئين عليها ، فهو مجيد في ألوهيته وفي عرشه « ذو العرش المجيد » وعروش الخلق ليست بمجيدة : متسعة في الكرم والجلال ، وإنما ضيقة دائرة متواضعة .

ولمحمده تعالى في عرشه ، هو « فعال لما يريد » وغيره تعالى من أصحاب العروش مغلوب على أمرهم ، لا يستطيعون أن يفعلوا ما يريدون ، إذ ليسوا أمجاداً في ذواتهم وصفاتهم وعروشهم ^(١) .

إنه ليس إهماله المجرمين لعجز أو جهل أو بخل أو نسيان أو ظلم وأمثالها ،

(١) نجد البحث الفصل عن العرش في المواضع الأنسب فالأنسب .

وإنما إملأه وابتلاه ، ولكي يثبت أنه « فعال لما يريد » يفعل - أحياناً - بالمجرمين ما لا يمكن أن يفسر بالصدفة أو العادة ، وإنما القصد الخارق للعادة ، ولكي ينتبه الغافلون .

« هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود . بل الذين كفروا في تكذيب . والله من وراءهم محيط » :

فقد أغرق الله فرعون وجنوده في الميم بعدما نجى بني إسرائيل ، ونجى فرعون ببدنه ليكون لمن خلفه آية : « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى . فأتبعهم فرعون يجنوده فغشيهم من الميم ما غشيهم » (٢٠ : ٧٨) .

وقد أخذ الله ثمود بعذاب بئيس بعدما أوعدهم ، بما كذبوا صالحاً وعقروا الناقة : « ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فإياخذكم عذاب قريب . فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يكن فيها شئ إلا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود » (١١ : ٦٨) .

« بل الذين كفروا » وأخذ الكفر شغاف قلوبهم ، لأنهم « في تكذيب » يعيشون التكذيب كأنهم غريقون في يمه « والله من وراءهم محيط » لا فيهم ، إذ هو بعيد عن ذواتهم بُعد القرب والمعرفة ، وبُعد الذات والصفة ، فهو من وراءهم محيط ، نافذ فيهم علمه ، غالبه عليهم قدرته ، قريب في بعده ، وبعيد في قربه ، محيط بهم وبعالمهم ، لا يفلت منه أحد ، ولا يغيب عنه أحد ، وبيده ناصية كل شيء .

« بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ » :

« بل » ليس كما يزعم أن القرآن قد ينال منه زيادة أو نقصان ، كما أن أمة القرآن ينال منهم بين الأمم ، « بل هو قرآن مجيد » : واسع في الكرم والجلال ، كما الله مجيد ، ولا نجسد وصف المجد في القرآن إلا للقرآن بعد الله تعالى : « ذو العرش المجيد ، قرآن مجيد » ، فكما من المستحيل أن ينال من ذات الله وصفاته وأفعاله « فالله غالب على أمره » ، وليس مغلوباً في أمره ، كذلك القرآن - حسب هذا النص - مجيد : واسع في كرمه وهدايته سعة الرحمة الإلهية ، جليل عزيز لا يُذل ولا يُغلب ، وما أكذوبة تحريف القرآن إلا ذلاً ودماراً ، يتنافى ومجده ، وهو المجيد الرفيع العريق الكريم ، وهل أُجحد من قول الله ذي العرش المجيد ؟

ومن لطيف الأمر أن الله تعالى يسوي بين مجده ومجد كتابه في الأصل وفي العدد : مرتين مرتين^(١) .

« في لوح محفوظ » كضمن الله تعالى حفظه عن التحريف والتصريف ، أي كان ، بزيادة أو نقصان ، أو أي تحوير وتغيير : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (١٥ : ٩) تأكيدات ست في جماع من القدرة والرحمة الربانية تؤكد حفظ القرآن عن الضياع والتحريف .

فلقد حُفِظَ القرآن المجيد ، في لوح محفوظ : صفحة لائحة ظاهرة لمن يتمجد به من المكلفين ، لا في لوح عند الله ، أو عند رسول الله وعترته المعصومين فحسب ، فإن ما هنالك ليس لائحاً إلا عند أهله ، ولوح القرآن مجيد واسع الكرم ، فهو محفوظ في كافة الألواح ، ألواح الصدور والصحف ،

(١) ق والقرآن المجيد (٥٠ : ١) بل هو قرآن مجيد ، إنه حميد مجيد (١١ : ٧٣) .
ذو العرش المجيد . وقد بحثنا عن صيانة القرآن عن التحريف في كتابنا (المقارنات) ص ٢٢٧
ونبحث في طيات الآيات المناسبة هنا .

والأواح الألسن الناطقة به ، ولا يقدر أحد أن يغيره فإنه مضمون الحفظ بالقدرة الإلهية .

وكما الله عزيز : غالب ممدوح ، كذلك كتابه عزيز : « إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٤١ : ٤٢) .

فالقرآن عزيز كمن أنزله ، لا يُغلب في الحجاج ولا من أي تغلب ، عزيز في دوامه ، عزيز في تبيانه وأحكامه ، فلا يأتيه الباطل وإن أتاه المبتلون ، نور لا تطفأ مصابيحها ، وسراج لا يخبئ توقده ، يذهب كل قائل بقوله ضياعاً ، والله بقوله ثابت لا يضيع .



سورة الطارق — مكية — وآياتها سبع عشرة ﴿١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ١ وَمَا
أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ٣ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا
حَافِظٌ ٤ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ٦
يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ٧ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ٨
يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ٩ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ١٠ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ
الرَّجْعِ ١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ١٢ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ١٣
وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ١٦
فَمَثَلُ الْكَافِرِينَ أَهْمِلُهم رُؤُودًا ١٧ .

• والسماء والطارق • وما أدراك ما الطارق • النجم الثاقب • :

قسماً بالسماء : الأجواء الواسعة الحاملة لمواكيد الكواكب ، وقسماً بالطارق :
النجم الثاقب ، فما هو الطارق ؟ وما هو النجم الثاقب ؟ وما هو الرباط بين السماء
والطارق ، وبين الحفاظ الإلهي على كل نفس ؟ .

الطارق هو الإنسان الذي يطرق ليلاً فيدق الباب ، فإن الطارق هو الدق* ،
كما المطرقة هي المدقة ، ويسمى الآتي ليلاً طارقاً لأنه يأتي في وقت يحتاج فيه
إلى الدق أو ما يقوم مقامه ، للتنبيه على طروقه والإيذان بوروده .

والنجم هو الكوكب الطالع بنوره - وعنه بطاوع التمدن فيه أيضاً -
والثاقب : هو النافذ بنوره وبطرقة ، يثقب ظلام الليل بنوره ، ويظلم الحياة
على مسترقي السمع الشياطين ، بوقعه : « إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب
ثاقب » .

فالسما حفيظة لأولادها الكواكب ، وطوارقها الثواقب ، حفيظة للملأ الأعلى
أن يُسمع إليهم : « لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب » :
المدرعات الجوية التي تثقب بنيازكها النارية النورية سرّاق السمع .

فالنجوم الثاقبة الطارقة ليلاً هي نور حياة للمهتدين ، وظلم على حياة المعتدين
كما وأن آيات الوحي تثقب بأنوارها ظلمات الضلالات ، وتثقب بوقعها كيان
الشياطين ، ومن أثقب النجوم في سماء الوحي هو الرسول الأقدس محمد ﷺ^(١) .

قسماً بهذه النيازك النارية والطوارق النورية ، الثاقبات الحافظات للكيان
الساوي ، إن واقع الحفاظ لا يختصها ، وإنما يعم كل نفس : بشري وملائكي
وجني وحيواني وسواها ، حفظاً عن الأخطار الموجهة إليها ، ومن أخطارها
الموجهة إلى غيرها :

« إن كل نفس لما عليها حافظ » :

إذ كل نفس إلا^(٢) عليها حافظ إلهي ، أو ملائكي وبشري بأمر الله ،

(١) كما في نور الثقلين : ٥٥٠ ح ٣ عن تفسير الفهمي عن الصادق (ع) .

(٢) تجيء « لما » بمعنى « إلا » في موضعين : أن . والقسم كقولك : سألتك بالله لما فعلت ،
ويحتمل أنها محففة فاللام للتأكيد و « ما » صلة مؤكدة . والأول أصح والثاني مشوه .

أو كوني كذلك : « فإله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » (١٢ : ٦٤) وهذه مقتضى ربوبيته : « وربك على كل شيء حفيظ » (١١ : ٣٤) هو حفيظ : و « هو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة » (٦ : ٦١) : حفظة يحفظونهم في حياتهم ، صادرين من أمر الله : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » (١٣ : ١١) : يحفظون نفوسهم بأبدانهم طوال الحياة وبعد الممات ، فلا تذهب سدى : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكتل بكم ثم إلى ربكم ترجعون » ويحفظون أعمالهم ويكتبون : « وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون » .

إن كل نفس إلا عليها حافظ ، عليها دنياً وعقبى ، عليها روحاً وجسماً ، عليها أعمالاً وأقوالاً ، وعليها دنياً ودنياً ، فإن نجوم الإهتداء تثقب القلوب المقلوبة المظلمة ببوارق الهداية : من عقله وفطرته : رسولان هما لزام الإنسان ، ومن آفاقه المحيطة به : رسالة الكون ، ومن رجالات الوحي : رسالة السماء ، فيا قبحاً لمن لا يحسب لهذه الحفظة حساباً ، فينفلت من حزب الرحمان إلى حزب الشيطان ، وإلى حزب الرجحان !

وهذه النجوم تثقب الضالين بحيلهم فينهزمون : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » (١٧ : ٨٢) .

فليست هنالك - إذاً - هيصة وفوضى ، دون حراسة إلهية ولا حفيظ ، إنما هو الحفاظ الدقيق المباشر وغير المباشر ، وسوف يظهر يوم تقوم الأشهاد .

ولكي يعلم الإنسان أنه محفوظ بعمله ليوم تقوم الأشهاد فلا ينكر البعث والمعاد ، فليُنظر :

« فلينظر الإنسان مم خلق • خلق من ماء دافق » :

« لينظر مم خلق » ؟ ولكي يعرف مصيره ، فمبتدءُ الخلق - دائماً - آية مصيره ، فعبر هذا النظر سوف يعتبر أنه ما هو في ماضيه ؟ وكيف يكون مصيره ومرجه ؟ .

لينظر مم خلق ؟ بعدما يعلم أنه خَلِقَ : هل خلق هو نفسه ؟ أم خلق مثله ؟ أم خَلِقَ من غير خالق ؟ : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » (٥٢ : ٣٥) .

ثم لينظر من أية مادة خَلِقَ ؟ خلق من ماء دافق : يخرج بدفق ، ورغم أنه ماءان : - يخرجان من بين صلب الرجل : عظام ظهره الفقارية ، ومن ترائب المرأة : عظام صدرها العلوية - رغم ذلك يعبر هنا عنها بماء واحد ، علته بما أصبحت واحداً من أمشاج : أخلاط : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه » (٨٦ : ٧) :

فهما ماءان وأمشاج، أصبحت ماءً واحداً لوحدة التشكيل والاتجاه إذ مُزِجَا ومُشِجَت .

ما كانت البشرية - طوال تاريخها - لتعرف أن الجنين مخلوق من هذين المائين ، إنما المزعوم : أنه من ماء أبيه ، أو الذكر من الذكر والأنثى من الأنثى ، كانوا يزعمونه هكذا حتى نزول القرآن ، إذ صرح هنا وهناك أن الجنين - أياً كان - مخلوق من المائين ، واكتشفوا علمياً في منتصف القرن الأخير : أن في عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل ، وفي عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة ، حيث يلتقيان في قرار مكين فيصيحان ماء الجنين ! فمن الماء الدافق إلى الإنسان العاقل الناطق !

« يخرج من بين الصلب والترائب » :

الصاب ما فيه النخاع الشوكي الذي فيه جمع الأعصاب ، فلو انكسر الصلب أو أصطدم لم يقدر الإنسان على الجماع والتوليد ، فمنشأ النطفة الرجولية إنما هو الصلب ، وإن كان المني ينحدر منه دوماً إلى البيضتين : الخزانتيْن الاحتياطيتين ، والماء الدافق يدفع من الصلب والترائب ، ومن خزينتي الإحتياط ، وعليها كمساعدة لنشوء الجنين .

والترائب جمع تربية وهي موضع القلادة من صدر المرأة ، فهي ضلوع صدرها ، أو مقاديم بدنّها من الثديين إلى الوركين : استيحاءً من جمع التربية ، فالترائب - إذا - هي مقاديمها كلها ابتداء من موضع القلادة ، وسوف نوافيكم في بحث فصل عن النطفة وتطوراتها في سورة العلق .

« إنه على رجه لقادر . يوم تبلى السرائر . فما له من قوة

ولا ناصر » :

إن الذي قدر على بدئه ، لقادر أيضاً على رجه : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » (٣٠ : ٢٧) إنه على رجه : إرجاعه إلى ما كان - كيفما كان - لقادر .

رجع أول : أن يرجعه الله إلى ما كان من ماء دافق : « كما بدأنا أول خلق نعيده » (٢١ : ١٠٤) « كما بدأكم تعودون » (٧ : ٢٩) : ودون رجس إلى الصلب والترائب .

ورجع ثان إلى ما كان من الخلق الكامل : 'يخلق من هذا الماء كما خلق أول مرة ، دون الزوائد غير الثابتة ، وإنما البدن الذي عاشه طواه حياة التكليف ، وكما « سئل الإمام الصادق عليه السلام عن الميت يبلى جسده ؟ قال : نعم ، حتى

لا يبقى لحم ولا عظم إلا طينته التي خلق منها فإنها لا تبلى ، تبقى مستديرة في القبر حتى يخلق منها كما خلق أول مرة «^(١) : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » (٣١ : ٢٨) .

ورجع ثالث ترجع فيه روحه إلى قلبه الأصيل ، الذي عمل فيه ما عمل حياته .

ورجع رابع ترجع فيه أعماله وأقواله كما صدرت ، ذلك بأن الله كان حفيظاً عليه بروحه وببدنه الأصيل وبأعماله ، دون أن تضل منها شيء وحتى عن ملك الموت : « وقالوا إذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون » (٣٢ : ١١) .

« يوم تبلى السرائر » : السرائر جمع السريرة وهي الطوية في النفس أو غيرها ، من أسرار وأفكار ، وإبلاؤها إظهارها ، فإنه ظهور الحقيقة بعبد خفائها ، وبالبلاء يظهر الخفاء ، فعمامة السرائر سوف تظهر كأشهاد ، يوم تقوم الأشهاد : بما أسره الإنسان في نفسه أو أبداه : « إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » (٢ : ٢٨٤) فما يبديه أيضاً يبقى سرّاً يسجل في المسجلات الإلهية ، ثم لا يبقى سرٌّ مما أسره أو أبداه إلا ويبلى يوم تبلى السرائر ، وقد يعد الرسول ﷺ أمثال الصلاة والزكاة من السرائر التي سوف تبلى^(٢) حال أنها ليست من الأسرار الخافية إلا شذراً نذراً فيما يخفيه صاحبه ، إلا الصوم الذي هو سر بطبعه ، وقد عده ﷺ في عداد غير الأسرار كالصلاة والزكاة .

(١) بحار الأنوار ج ٧ ص ٤٣ ح ٢١ .

(٢) في الدر المنثور ٦ : ٣٣٦ ، أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله (ص) : ضمن الله خلقه أربعة : الصلاة والزكاة وصوم رمضان والفعل من الجنابة وهن السرائر التي قال الله « يوم تبلى السرائر » .

إن السرائر المكنونة والمطوية سوف تبلى ، تخرج عن ظلمات الأسرار بطوارق الأَشهاد . بإرادة الله ، وكما ينفذ الطارق من خلال الظلام السائر ، وكما ينفذ الحافظ إلى المحجوبة بالسواتر ، كذلك تبلى السرائر يوم بتجرد الإنسان من كل قوة وكل ناصر :

« فما له من قوة ولا ناصر » : فلا هناك له قوة ذاتية تدافع عنه ، ولا ناصر عَرَضِي ينصره ، فما له من ضعف مضاعف حين تتكشف أسرارهِ في نهاية المطاف ، وعند انقطاع الأعمال والآمال !

« والسما ذات الرجوع »^(١) :

إن الكائنات كلها رجعيات ، ترجع إلى ما كانت ، وترجع أماناتها كما أخذت : فالسما سوف ترجع دخاناً كما كانت : « يوم تأتي السما بدخان مبين » وهي ترجع أماناتها إلى الأرض دوماً : من أبخرة المياه الصاعدة إليها ، إذ تتحول ثلوجاً ومياهاً ، ثم توزع في أكناف الأرض حقاً وعدلاً ، هذه السما لا تتأبى عن رجوعها لقيامتها ، ولا عن رجوع أماناتها ، على عظمتها وسعتها ! فهل إن هذا الإنسان الصغير الصغير يتأبى عن رجوعه ؟ أو يقدر أن ينجي أعماله وأفكاره في نفسه وفي الأَشهاد ؟!

« والأرض ذات الصدع » :

تتصدع لقيامتها ، وتنصدع عن مواليدها ، كأم تلد مواليدها بنطف المياه السماوية : ماء دافق يخرج من صلب السما ، وبالبذور المحبسة في ترائب الأرض ، فتلد مواليد النباتات ، ومن ثم الحيوانات .

أفلا تدل السما برجعها ، والأرض بصدعها ، والطارق بثقبها ، على إمكانية

(١) الرجوع استعمل لازماً ومتعدياً « لئن رجعت إلى المدينة » « لئن رجعتك الله إلى طائفة » وما المقصودان هنا .

رجع الإنسان شاء أم أبى ، وعدل الله ورحمته يفرضان هذا الرجوع ، ولتجزى كل نفس بما تسعى !

ثم قسماً بسماء الرسالات الإلهية ، التي ترجع أمانات الوحي إلى أصحابها ، وقسماً بأراضي القلوب المتصدعة بآيات الوحي النازلة لها :

« إنه لقول فصل • وما هو بالهزل » :

الهزل هو كل كلام لا تحصيل فيه تشبيهاً بالهزال ، فللقرآن تحصيل قولاً ومصادقاً ، فهو فصل مقالة وخبراً ، يفصل بين الفث والسمين والخائن والأمين ، فهو مقالةٌ يدل بحكمته على أنه كلام الله جداً ، وليس هزلاً ، وهو خبراً - ومن بين أخباره - خبر صدق : أن الإنسان سوف يرجع لفصل القضاء ، كما السماء والأرض راجعتان ، فالكائنات كلها راجعة إلى ربها ، مؤدية أماناتها ! فليكيّدوا - إذن - كيدهم ، فماذا يؤثر كيدهم ، فما كيّد الكافرين إلا في ثياب :

« إنهم يكيّدون كيّداً • وأكيّد كيّداً • فمهل الكافرين أمهلهم رويداً » :

كيّدٌ بكيد ، جزاءٌ وفاقاً ، وأين كيّد من كيّد ؟ فهم يكيّدون جهالاً عَجْزَةً خَوْنَةً ، يظنونهم ألا حيلة عليهم ولا حول ولا قوة ! والله يكيّد بتسجيل أعمالهم ، وإملائهم « وأملي لهم إن كيدي متين » (٧ : ١٨٣) ، وباللحم على قلوبهم ، وعدم تأييدهم للخير إذ تركوه عمداً ، وعدم الفصل بينهم وبين شرهم إذ اقترفوه عمداً ، ثم يفاجئهم يوم تقوم الأشهاد بالأشهاد ، فسما له من قوة ولا ناصر ! « أم يريدون كيّداً فالذين كفروا هم المكيدون » (٥٢ : ٤٢) .

فأنا « الله » إذ أمهلهم ، ليس عن عجز وقصور ، أو جهل وفتور : « ولا يحسن الذين كفروا أنما نملّي لهم خير » لأنفسهم إنما نملّي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين » (٣ : ١٧٨) « ولا تحسن الله غافلاً عما يعمل الظالمون • إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » .. أنا أمهلهم هكذا ، فأنت أيضاً :

« فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً » : فقد يكفيهم كيدي رغم إمهالهم ،
فمهّلهم مدى حياة التكليف دون جزاءٍ وفاق ، فالיום عمل ولا حساب ، وغداً
حساب ولا عمل .

وامهلهم رويداً : قليلاً : أترك كفاحهم إلى حين ، وحتى تؤمر به ، إذ كان
الأمر في مكة تركاً ، ولعدم الإمكانيات الحربية ، وفي المدينة حرباً ، دفاعاً
وانتقاماً .

ثم - ولجزاءٍ أشدّ وأنكى - أمهلهم إلى القيامة الوسطى : قيام القائم
المهدي عليه السلام الذي يدمرهم تدميراً^(١) .

ثم أمهلهم للقيامة الأولى : الموت ، إلى العذاب - شيئاً ما - في البرزخ .
ثم للقيامة الكبرى ، إذ يلاقون فيها جزاءهم الوفاق ، ولا يظلمون فتيلًا .
فهنّا تمهيل إلى يوم الدين ، وهناك إمهال رويداً رويداً ، إلى الحرب وإلى دولة
القائم ، وإلى نار البرزخ ، ثم إلى آخر المطاف في التمهيل^(٢) .

مركز تحقيق كاميون علوم إسلامي
□□□

(١) نور الثقلين ٥ : ٥٥٣ ح ١٩ في رواية القمي عن المعصوم في الآية : « لو قد بعث
القائم (ع) فينتقم لي من الجبارين والطواغيت من قريش وبني أمية وسائر الناس » أقول وهذا
من التفسير ببعض المصاديق .

(٢) بناء على ما فسرناه يختلف التمهيل عن الإمهال دون أن يكون تكراراً ، وقد يوحى
إلى ذلك نفس صيغة التفعيل وهي للتكثير وهو يعني هنا المهلة الكثيرة ، وصيغة الإفعال وهي
للدفعة ، وهي تعني المهلة القليلة .

﴿ سورة الأعلى - مكة - وآياتها تسع عشرة ﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى
الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ^١ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ^٢ وَالَّذِي أَخْرَجَ
الْمَرْعَى ^٣ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ^٤ سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنسَى ^٥ إِلَّا مَا شَاءَ
اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ^٦ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ^٧ فَذَكَرْ
إِنْ نَفَعْتَ الذَّكَرَى ^٨ سَيَذَكِّرُكَ مَنْ يُخْلَى ^٩ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ^{١٠}
الَّذِي يَصُلِّي النَّارَ الْأَكْبَرَى ^{١١} ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ^{١٢}
قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ^{١٣} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ^{١٤} بَلْ تُؤْثِرُونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ^{١٥} وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ^{١٦} إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ
الْأُولَى ^{١٧} صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ^{١٨} » .

« سبِّح اسم ربك الأعلى » :

هنا وهناك الربُّ يتبارك بذاته القدسية ، ويأمر بتسبيحها وذكرها ،
وقد يحلُّ محلَّها اسمه تعالى : « تبارك الله أحسن الخالقين » (٢٣ : ١٤)

« تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام » (٧٨: ٥٥) « يسبح لله ما في السموات وما في الأرض » (٦٢ : ١) « سبح اسم ربك » « اذكروا الله ذكراً كثيراً » (٤١ : ٣٣) « واذكر اسم ربك » (٧٣ : ٨) .

فما هو تسبيحه ؟ وما هو تسبيح اسمه ؟

التسبيح هو التنزيه عما لا يليق - أيًا كان - في ذاته تعالى أو صفاته أو أفعاله ، فتسبيح الذات هو تقديسها عن ذوات الممكنات ، فذاته خلوة من ذوات المخلوقين ، كما أن ذواتهم خلوة من ذاته : « لا هو في خلقه ولا خلقه فيه » ، هو خلوة من خلقه وخلقته خلوة منه ^(١) ، فلنذكر ذاته القدسية ونسبجها ونباركها كما هو أهله ومستحقه .

ثم الإسم منه لفظي ، ومنه وصفي ، ومنه عيني ، فإذا نذكره باسم لفظي ليدل عليه ، فلنسبح اسمه عن أسماء المخلوقين ، الدالة على النقص والحدوث : « والله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه » (١٨٠ : ٧) « سبحان الله عما يصفون . إلا عباد الله المخلصين » (١٥٩ : ٣٧) : فإنهم لا يصفونه ويسمونه إلا بما وصف به نفسه وسماها .

وأسماء الوصفية هي صفاته تعالى ، ذاتية وسواها ، فلنسبحه في صفاته عن صفات المخلوقين ، منها تشابهت التعابير ، فلا نعي من : أنه تعالى عليم قدير حي ، ما نعيه من مفاهيم ومعاني في خلقه ، بل : أنه لا يجهل ولا يعجز ولا يموت ، فليس لنا إلا السلب ، نعي به إيجاب سواه ، رغم أننا لا نحيط به علماً .

وأسماء العينية هي خلقه كما خلق وهدي ، لا بما غيروا بأنفسهم : فمن أسمى هذه الأسماء هم أطيب الطيبين من المعصومين المكرمين ، محمد وآله الطاهرين ، فإنهم من هذه الأسماء الحسنى ، كما وعلمهم الله آدم دون ملائكته :

(١) عن الامام الرضا (ع) التوحيد للصديق .

« وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » (٢ : ٣٢) .

عرضهم - لا عرضها - فالأسماء هنا « هؤلاء وهم » ولهم أسماء جهلها الملائكة ،
فما أقدمها أسماء : دلالة على القدسية الإلهية ! وما أكرمها ذوات !

ثم الكائنات كلها أسماء الله ، الدالة عليه ، بما هي مخلوقات ، لا والمختلفات
الزائدة الناقصة من انحرافات وانحرافات .

« اسم ربك الأعلى » : فهل في الكون أرباب عدة هو أعلام ؟ نقول :
أما أرباب مفوضون مستقلون ؟ فلا ! وإنما الكل مربوبون لرب العالمين ، فالقوى
الروحانية - الملائكية والبشرية - تربى ، ولكنها بإذن الله ، برسالة الوحي أم
سواه ، والقوى المادية تربى ، إلا أنها بإذن الله ، فكل القوى المربية ترجع إلى
الله تكوينية وتشريعية ، لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا
نشورا ، وسبحانه تعالى من ربّ أعلى ، أن يكون معه أرباب متشاكون ،
مستقلون أو مسموح لهم ، وإنما مربوبون يربون بإذنه تعالى .

ولأن التربيّات كلها راجعة إلى الرب الأعلى ، فليست اسمه لا سواء ، فلا يقرن
اسمه بسواه ، وكما أمر الرسول الأقدس أن يسمي الله تعالى هكذا في سجود الصلاة
قائلين : سبحان ربي الأعلى^(١) وكما أمرنا أن نقولها إذ نسمع الآية أو نقروها^(٢) .

(١) نور الثقلين ٥ : ٥٥٤ ، العياشي عن عتبة بن عامر الجهني قال : لما نزلت « فسبح باسم
ربك العظيم » قال رسول الله (ص) : اجعلوها في ركوعكم ، ولما نزلت « سبح اسم ربك الأعلى »
قال (ص) : اجعلوها في سجودكم ، وأخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه
عن الجهني مثله (الدر المنثور ٦ : ٣٣٨) .

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس أن رسول الله (ص)
كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى ، قال : سبحان ربي الأعلى (الدر المنثور ٦ : ٣٣٨) .
وفي المجمع قال الباقر (ع) إذا قرأت « سبح اسم ربك الأعلى » فقل : سبحان ربي الأعلى ،
وإن كنت في الصلاة فقل قيا بينك وبين نفسك « أقول : يعني بها غير حالة السجود .

وعلى الأعلى هنا تعني - فيما تعنيه - أعلى درجات الربوبية في تربية الرسول
الأقدس ﷺ لمكان « ربك » لا « رب العالمين » وكما الإنسان - ككل -
احتل بين الخلق أحسن الخلق : « فتبارك الله أحسن الخالقين » فلا خالق سواه ،
وإنما جمع الخالقين - عليه - يعني خالقياته تعالى ، فكذلك « ربك الأعلى » :
أعلى الربوبيات .

ونستوحي من هنا : لماذا كان الرسول ﷺ يجب هذه السورة (١) ؟
فحق له أن يحبها وهي تتضمن تسبيح ربه الأعلى ، وهي تختص به ﷺ بمكانة
مرموقة من التربية الإلهية هي الأعلى بين ملائكة العالمين من الملائكة والجنة والناس
أجمعين !

فليسبح - إذن - اسمه تعالى أيضاً كان ، وهو ﷺ أيضاً اسمه ، وأعظم
أسمائه العينية ، فليزده تربيته الرسالية وقبلها ، عما لا يليق بالرسالة العليا ،
وليعرف أنه أوتي ما لم يؤت أحد من العالمين ، وليعلم مع ذلك أنه لا يملك شيئاً :
« ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا نصيراً . إلا رحمة
من ربك إن فضله كان عليك كبيراً » (١٧ : ٨٧) .

« الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى » :

سبح اسمه كرب العالمين ، ومن ربوبيته الخلق والتسوية والتقدير والهداية :
« ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (٢٠ : ٥٠) هداية عامة : من
تكوينية لا عن شعور للمهتدي ، أم غريزية ، أم فطرية ، أم فكرية عقلانية
اختيارية ، ومن تشريعية ، ثم وتكوينية بعد تطبيق الشريعة : « ولو ضربت في
مذاهب ففكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر

(١) نور الثقلين ٥ : ٥٢٣ عن علي (ع) قال : كان رسول الله (ص) يجب هذه السورة .

النخلة، لتدقيق تفصيل كل شيء وغامض اختلاف كل حيٍّ، وما الجليل واللطيف
والثقل والحفيف والقوي والضعيف في خلقه إلا سواء (عن علي بن الحسين) .

« الذي أخرج المرعى ، فجعله غشاءً أخرى » :

المرعى كل نباتات الأرض ، التي يأكلها إنسانها وحيوانها ، رطباً ويابساً ،
ما دام خضراً نضراً ، ثم يجعله الله غشاءً : يطفح على المياه ، أو تفرقها الرياح ،
أو متفرقة في بطون الأرض ، « أحوى » : شديد السواد ، ومنه الفحوم الحجرية ،
التي تصنعها يد القدرة الإلهية ، لمكان « جعله » وإن كان يشمل الفحوم الأخرى
أيضاً ، فإن صنع الإنسان من صنع الله ، لأنه بعقله وبصنعه من صنع الله .

وكما المرعى يفيد ، كذلك غشاؤه الأحوى يفيد ، يفيد فعلاً حرارة مطبوعة
للدفء والطبخ ، ويفيد أحياناً غذاءً لذيداً : دهناً وصبغاً للأكليين ، عملية شجرة
الزيتون ، كما اخترعوه في القرن الأخير^(١) .

« سنقرئك فلا تنسى . إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر

مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

وما يخفى » :

أقرأه : جعله قارئاً بعد أن لم يكن ، وبما أن الرسول كان قارئاً القرآن

(١) في مجلة مصرية مؤرخة ٢٣ أغسطس ١٩٢٥ م : « نشرت (التاجليش وونقشا) خبراً
مؤداه : أن حكومة برلين وبروسيا قد منحتا شركة (ايفانج) إعانة قدرها مليونان وخمسمائة
مارك ذهباً ، لتشيء بها مصنعاً لاستخراج الزيت من الفحم على طريقة (برجيوس) وسيفناً هذا
المصنع في (فنسلاروس) في (سيليزيا) السفلى ، ويجهز بآلات تستطيع أن تصفب مائتي ألف
طن من تراب الفحم سنوياً .

ومخترع هذه الطريقة هو الأستاذ (برجيوس) من (هيدلبرج) اخترعها في سنة ١٩٠٣ م .
وخلاصتها أنه يستصفي تراب الفحم مع الهيدروجين في جو يصل الضغط فيه إلى مائة وخمسين
أو مائة درجة .

منذ نزوله وحتى نزول آية الإقراء ، فليكن الإقراء - هذا - غير الذي كان ، والنص هنا : « فلا تنسى » يميزه بعدم النسيان ، المتفرع على هذا الإقراء الخاص ، فلقد كان حتى الآن يقرأ ، وكان يكرر الآيات لكي لا ينسى^(١) ، محاولة بشرية لحفظها ، ولكنها ليست بالتي 'تطمئن الإنسان' فقد ينسى - رغم كافة المحاولات - وقد ينسى أنه ناس .

والعصمة - ولا سيما في الرسالة الأخيرة الخالدة - إنها لزام الرسالة : في تلقي الوحي وإلقائه وتطبيقه ، وإلقاء الوحي كما أوحى ، بحاجة ماسة إلى الحفظ الدائب ، ودون تكلف زائد ، وليكن كل محاولاته في تبليغ الوحي وتطبيقه .

فهذه بشارة له ﷺ برفع عناء الحفظ ، تريحه وتطمئنه على القرآن ، بحفظه في قلبه وعلى لسانه ، وكما وعد بالحفاظ عليه في أمته وإلى يوم الدين عن تحريف المبطلين ، وادغال الدجالين ، وقد عرفناه مسبقاً ، وكما وعده يجمعه وقرآنه كتاباً مفصلاً ، بعد نثره في نزوله نجوماً حسب الحاجات : حفظاً مركزاً لا تتخلله أية ريبة وشائبة .

ولقد كان القرآن ينزل على قلب الرسول ﷺ من قبل « نزل به الروح الأمين على قلبك » ، ثم أخذ يمزج قلبه المنير ، ويدخل شغافه لحدّ أصبح قلبه قرآناً لم يبق مجال لنسيانه .

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٣٩ ، أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : « كان النبي (ص) إذا أتاه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من الوحي حتى يزمل من ثقل الوحي حتى يتكلم النبي (ص) بأوله مخافة أن يفشى عليه فينسى ، فقال له جبريل : لم تفعل ذلك ؟ قال : مخافة أن أنسى ، فأنزل الله « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله » وفيه عنه أيضاً : كان النبي (ص) يستذكر القرآن مخافة أن ينساه ، فقيل له كفيّنالك ذلك ونزات « سنقرئك فلا تنسى » .

فالنازل على السمع قريب إلى النسيان ، ثم بعيد عنه إذا نزل إلى القلب ، ثم مستحيل إذا ضمن الله تعالى عدم النسيان ، وهكذا استمر وحي القرآن على قلب الرسول ﷺ دون أن ينسى ولا حرفاً منه أو نقطة !.

« إلا ما شاء الله » : سنقرئك من القرآن ما يحمل كل شيء ، إلا ما شاء الله اختصاصه بذاته المقدسة من علوم الغيب^(١) ، فقد استقصى الله في القرآن ما كان وما يكون وما هو كائن ، وقصه للنبي ﷺ ولم يستثن إلا ما شاء الله اختصاصه بنفسه المقدسة ، فآية الإنشاء - إذاً - من آيات أن محمداً لم ينس ما أقرأه ربّه !.

« فلا تنسى إلا ما شاء الله » : واحتمال ثان أن يكون الاستثناء بالمشيئة عن « لا تنسى » : لا تستطيع دوافع النسيان وعوامله أن تنسيك شيئاً من القرآن على وجه الإطلاق ، فإن الله غالب على أمره ، ولئن كان هناك عامل - ولن يكون - فلتكن مشيئة الله ، ولا يعني هذا الاستثناء أن الله ينسيه شيئاً مما أقرأه ، فإنه أسوء العسرى بعد إذ وعده باليسرى : « فلا تنسى » .. وإذا كان هنا موقع للنسيان ، فما هو موقع التعليل ؟ :-

« إنه يعلم الجهر وما يخفى » ؟ فهل هو إلا تأكيد لعدم النسيان ، فما النسيان إلا من ضعف الإنسان ، وقد جبر بالإرادة الإلهية : « فلا تنسى » أو من الجهل بعوامل النسيان ظاهره وخافيه ، فـ : « إنه يعلم الجهر وما يخفى » أو بدافع الضغط على النبي في نسيان القرآن ، فلماذا - إذن - بشّره : « فلا تنسى » ؟ ولماذا وعده دون فصل :

« ونيسرك لليسرى » :

ولماذا ينسيه ما يأمره بتذكيره ؟ :

(١) هذا إذا كان المستثنى منه هو الأقراء ، ولأنه أصل الكلام ، وحينئذ لا مجال لشطحات البشرين ، مزمرين ومطبلين أنه (ص) نسي شيئاً من القرآن .

« فذكر إن نفعت الذكرى » :

ليس الجواب إلا أن الاستثناء هنا من الإقراء ، وإذا كان من « فلا تنسى » فلما يأتي :

١ - إن الاستثناء بالمشيئة هنا قد يكون كما في شعيب عليه السلام : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا إن يشاء الله ربنا .. » (٧ : ٨٩) ، فهل بالإمكان - واقعياً أم عقلياً - أن يشاء الله عود رسوله والمؤمنين في ملة الشرك ، فليمكن - إذن - أن يشاء نسيان محمد قرآنه العظيم !

٢ - وقد يكون الاستثناء هنا لكي يعلن ربنا أنه ليس مسيراً في استبقاء وحي القرآن في قلب الرسول ، وألاً ينسى ، وكما في القرآن كله : « ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا نصيراً إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً » (١٧ : ٨٦) وكما ترك الوحي عليه ردماً من الأيام لحد ظن عليه السلام أنه تعالى ودعه أو قلاه ، حتى نفاه تعالى : « ما ودعك ربك وما قلى » . كل ذلك لكي يعلم النبي ونعلم معه ، أنه لا يستقل في وحي القرآن . ومهما يكن من شيء فلا دلالة هنا على ما يهواه المبشرون من أن محمد نسي من القرآن وهذا يتنافى وعصمته في البلاغ^(١) .

(١) من هؤلاء الأستاذ الحداد اللبناني ، إذ يقول فيما يقول : الظاهرة الأولى نسيان النبي بعض ما يوحى إليه « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفي ونيسرك لنيسري » فالاستثناء « إلا ما شاء الله » يفيد بأن الله قد يشاء أن ينسى النبي بعض ما يوحى إليه ، فهل يصح أن يوحى الله شيئاً ثم يأمر بنسيانه ، هل كان النسيان مقصوداً ؟ آية التبديل (نحل ١٠١) وآية المحو (رعد ٤١) توحيان بأن النسيان قد يكون مقصوداً من الله ومن النبي ، فكيف تنسجم العصمة في البلاغ والتبليغ مع مبدأ النسيان وواقعه « (من كتابه الكتاب والقرآن) وقد أجبنا عنه في كتابنا « المقارفات » (ص ١٩٤ - ٢٠٥) وسوف نبعت عن آيتي التبديل والمحو في محالها .

« ونيسرك لليسرى • فذكر إن نفعت الذكرى » :

فهناك يسرى في تلقي الوحي : ألا يشتبه عليه وحي الرحمان بوحى الشيطان ، ويسرى في تبليغه : ألا ينساه ، ويسرى في تطبيقه : أن يلائم حياة الإنسان إلى يوم القيام ، مهما كانت هنا وهناك عسرى في الدعوة في جهات أخرى : « فإن مع العسر يسراً » ويسره يغلب عسره ، عسر مؤقت ويسر دائم ! .

واليسرى هي الحياة اليسرى : أيسر الحياة ، في أعرس الظروف والمجالات ، وقد يسره ربه : « نيسرك » لا أنه « يسر له » مما يدل أن الله جعل الرسول يسراً في ذاته ، يسراً في إمكانياته ، مهما كانت الظروف صعبة ملتوية .

« فذكر إن نفعت الذكرى » : فبما أنك لا تنسى وحي الرسالة ، وأن الله يسرك لليسرى ، فذكر إن نفعت الذكرى : نفعت بالفعل : « لمن أراد أن يتذكر أو أراد نشوراً » ولتعش الذكرى حياتك كما عاش ذكر الله قلبك ، وأخذ كتاب الله شفافه ، فذكر حيناً تجد فرصة للذكر ، ومنفذاً إلى القلوب • ووسيلة للبلاغ ، وحاول كافة المحاولات في خلق مجالات للذكر عليهم يتذكرون ، ولا تقل : العالم كالبيت يؤتى ولا يأتى ! فهذا نفع فعلي للذكرى لمن أراد أن يتذكر ، أو أنها تحثه لإرادة الذكر ، وأما من لا يتذكر بها ، فنفع الذكرى له ليس إلا أنها حجة عليه : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » فذكرهم لحد الحجة ، فإن الذكرى عذر أو نذر ، ثم تصبح لغواً إذ لا نذر ولا عذر ، إذا فذكرهم ثم ذرهم : « وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع .. أولئك الذين أفسلوا بما كسبوا .. » (٦ : ٧٠) والابسال التسليم للهلاك بسوء العمل ، وما لم تكن الذكرى لم يكن العمل سوءاً .. ثم اترك الذكرى حين لا ينفع لا هدى ولا حجة ، لمن ثبتت عليه : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » (٥٣ : ٢٩) .

« سَيِّدٌ كَرَّ مِنْ يَخْشَى • وَيتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى • الَّذِي يَصْلَى النَّارَ
الْكُبْرَى • ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى » :

فنفع الذكرى لمن يخشى هو أن يخشى، وللأشقى أن يتجنبها عن حجة فيصل
النار الكبرى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » (١٧ : ١٥) .

« ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا » : فلا يحسّ عذابها ويرتاح منها « وَلَا يَحْيَى » : عائشاً
كالأحياء ، لا ممساً طراوتها ، متنحياً عن ضراوتها ، فلا الموت يدفع عنه عذابها ،
ولا الحياة تجلب له متطلباتها ، فهو بين الموت والحياة : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ
جَهَنَّمَ لَا يَقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ •
وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ كَمْ نَعْمُرُكُمْ
مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَ كَمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » (٣٧ : ٣٥)
تأتيهم بواعث الموت ، ولا يأتيتهم قضاؤه ، فبالحياة هناك إنما يذوقون آلام
الموت ، وبالموت يحرمون آمال الحياة .

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى » : تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

إن التزكي هنا هو التطهر عن كافة التعلقات بما سوى الله ، بالنفس والنفيس ،
وبالأهلين ، التعلقات المادية والمعنوية ، إلاّ ألاّ يؤصلها ، وإنما يتذرعها إلى الله
دون أن يحسب لها حساباً إلا هذا الحساب ، فلو أمكنه تحصيل مرضاة الله
بغيرها لرفضها ، ولم ينظر إليها أبداً ، فهو - إذاً - يعيشها ليعيش مع الله
حياة طيبة .

قد أفلح المتزكي هكذا ، فالتزكي هو الوسيلة الوحيدة لإفلاح السبيل ، ونجاح
الدليل ، فـ « مَنْ خَافَ اللَّهَ أَخَافَ اللَّهُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ » ، ومن لم يخف الله أخافه الله
من كل شيء ، عن الإمام الرضا عليه السلام .

« وذكر اسم ربه فصلی » :

فبما أن الصلاة معراج المؤمن ولقاء الله ، فهي للتحلية والتجلية ، فلا بد لها قبلها من تزكية وتخلية ، ثم لا بد للصلاة من افتتاحية تعلن أن صاحبها تركى : وعلتها تكبيرة الإحرام « الله أكبر » : أكبر من أن يوصف ، فلا كبير معه حتى يكون هو الأكبر ، وإنما أكبر من أن يوصف ، ثم رفع اليدين عندها إلى شحمتي الأذنين ، إنه يعلن حقيقة التكبيرة : أنها جعل ما سوى الله وراءك ظهيراً ، ثم أن توجه وجهك للذي فطر السماوات والأرض .

ومن ذكر الرب - وأفضله - بالبسملة مفتتح الحمد ، فالصلاة بلا تكبيرة وبسملة ، دخول في الدار ، دون استئذان واستئناس من صاحب الدار !

هذا - والمروي عن الرسول الأقدس يوافق الآية شمولاً لأصناف الزكاة والصلاة ، وعلى حد قوله ﷺ : « من شهد أن لا إله إلا الله وخلع الأنداد وشهد أني رسول الله ، وذكر اسم ربه فصلی : هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بمواقيتها^(١) » - فإذا يفسرها ﷺ - أيضاً - بزكاة الفطرة وصلاتها أو الصلاة على الميت ، يعني به تفسير المصدق^(٢) .

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٣٦ ، أخرج البزار وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبي (ص) في قوله : قد أفلح من تركى ، قال : ..

(٢) المصدر عن النبي (ص) أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلي صلاة العيد ويتلو هذه الآية .

وفي نور الثقلين ٥ : ٥٥٦ من لا يحضره الفقيه : سئل الصادق (ع) عن هذه الآية فقال : من أخرج زكاة الفطر ، قيل له : وذكر اسم ربه فصلی ، قال : خرج إلى الجبانة فصلی ، أقول يحتمل الصلاة على الميت وكذلك صلاة الفطر .

« بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى . إن هذا لفي

الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى » :

بل تؤثرون الحياة الدنيا على الحياة العليا ، وهي تمنع العباد من سخط الله ، وعلى حد قول الرسول ﷺ : « لا إله إلا الله تمنع العباد من سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم ، فإذا آثروا صفقة دنياهم ثم قالوا : لا إله إلا الله ردت عليها وقال : كذبتكم » (١) .

ثم إن الصحف الأولى ، ومنها صحف إبراهيم وموسى ، إنها تصدق ما في هذه السورة من أن ربوبية الرب بالنسبة لرسولنا الأقدس محمد ﷺ هي أعلى الربوبيات بين حملة الرسالات ، مسبحة مقدسة في كتابات الوحي من قبل كما فصلناه في كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ، كما وأن عدم نسيان القرآن وتيسيره ﷺ لأمر الرسالة ، هما في الصحف الأولى ، وما يروى أن

مركز تحقيق كتابات علوم إسلامي

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٤٠ ، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال : قال .. ، وفيه أخرج عن ابن عمر أن النبي (ص) قال : لا يلقى الله أحد بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلا دخل الجنة ما لم يخلط معها غيرها . ردها ثلاثاً . قال قائل من قاصية الناس : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! وما يخلط معها غيرها ؟ قال : حب الدنيا وأثرها لها ، وجمعاً لها ، ورضاً بها ، وعمل الجبارين .

وفيه أخرج أحمد عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله (ص) قال : من أحب دنياه أضر بآخرفته ، ومن أحب آخرفته أضر بدنياه . فآثروا ما يبقى على ما يفنى .

وفيه عن عائشة عنه (ص) قال : الدنيا دار من لا دار له . ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له ، وفيه عن الحسن قال : قال رسول الله (ص) : حب الدنيا رأس كل خطيئة .

وفي نور الثقلين ٥ : ٥٥٧ عن علي بن الحسين (ع) « الدنيا دنيايمان دنيا بلاغ ودنيا ملعونة وأمل لا يدرك ورجاء لا ينال » .

الآيات الأربع الأخيرة هي في الصحف الأولى ، هو من باب التطبيق^(١) ،
فالمشار إليه هو كل ما في السورة ، وكما عن نفر من أصحاب النبي
والتابعين^(٢) .

ثم القرآن بصورة عامة ، فيه نسخة ما في الصحف الأولى « أو لم تأتهم بيئنة
ما في الصحف الأولى » ، وعلى حد قول علي بن أبي طالب : « فجاءهم بنسخة ما في
الصحف الأولى وتصديق الذي بين يديه وتفصيل الحلال من ريب الحرام »^(٣) .
ولا يعني أن القرآن ترجمة لهذه الصحف ، ولا سيما الموجودة منها الآن ،
لأنه يكذب شيئاً كثيراً من محرفاتها وخرافات الدخيلة ، ويصدق بعضاً تكيلاً له
أو نسخاً وكرمز للخلود^(٤) .



(١) كما في الدر المنثور ، أخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبي ذر قال :
قلت يا رسول الله (ص) هل أنزل عليك شيء مما في صحف إبراهيم وموسى ؟ قال : يا أبا ذر !
نعم « قد أفلح .. وأبقى - إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى .

(٢) كابن عباس وسعيد بن المسيب والسدي وأبي العالية وقتادة وعكرمة كما في الدر المنثور
٣٤١ : ٦ .

(٣) فور الثقلين ٥ : ٥٥٨ ح ٢٢٨ مسمدة بن صدقة عن أبي عبد الله (ع) عنه (ع) .

(٤) تجد تفصيل البحث عن نسبة القرآن إلى الصحف في كتابنا (المقارنات) من ص ١٤٧
جواباً عن شطحات الحداد ، وتجدده أيضاً في طيات الآيات المناسبة .

سورة الغاشية - مكة - وآياتها ست وعشرون ﴿٦٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ^١
وَجُودُ يَوْمِئِذٍ خَاشِعَةٌ^٢ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ^٣ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً^٤
تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ^٥ لَيْسَ لَهَا مِنْكُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ^٦
لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ^٧ وَجُودُ يَوْمِئِذٍ نَاعِمَةٌ^٨
لِسَعِيدِهَا رَاضِيَةٌ^٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ^{١٠} لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً^{١١}
فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ^{١٢} فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ^{١٣} وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ^{١٤}
وَنَمَارِقُ مَصْفُوعَةٌ^{١٥} وَزَرَّابِيُّ مَبْثُوثَةٌ^{١٦} أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ
كَيْفَ خُلِقَتْ^{١٧} وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ^{١٨} وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ
نُصِبَتْ^{١٩} وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ^{٢٠} فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ
مُذَكِّرٌ^{٢١} لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ^{٢٢} إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ^{٢٣}

فَعَذَّبَهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ^{٢٤} إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ^{٢٥} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ^{٢٦} .

* * *

« هل أتاك حديث الغاشية » :

الغاشية - جمعه غواش - من أوصاف الساعة ، مبالغة في الغشي : الستر الشامل ، والساعة تغشى الناس حشراً : « وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً » (١٨ : ٤٧) كما تغشاهم إماتة في قيامتها : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم » (٤٤ : ١١) وتغشى الكفار منهم عذاب النار : « لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش » (٧ : ٤١) ، وفي غاشية الحشر :

« وجوه يومئذ خاشعة » :

تقسم ثنائي للذوات الشريرة والخيرة ، فالوجوه هنا هي الذوات ، حيث الضائير والصفات والأفعال الراجعة إليها ، لا تناسب إلا الذوات^(١) ، عبّر عنها بالوجوه لاتجاهها نحو العرض والحساب ، واستقبال الساعة لهم بوجوهها كلها .

ثم هذه الوجوه تشمل وجه الظاهر والباطن ، ومن الباطن : وجه العقل والصدر والقلب والسر والخفي والأخفى ، وجوه سبعة تغشاها الساعة ، فهي - كلها - خاشعة : « وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي » (٤٢ : ٤٥) .

(١) فالخشوع وصلي النار والسقي من عين آنية وصلي النار الحامية ، وطعامهم ، ثم الراضية ، وعدم صباع اللاعبة .. كل ذلك لا يناسب إلا الذوات .

والخشوع هو الضراعة سواء في الظاهر أو الباطن ، ما لم يقرن بما يدل على الأول ، وإن كان هو الأكثر استعمالاً ، إذ أفغاشية الساعة تغشى الوجوه كلها فتصبح خاسعة كلها .

« عاملة ناصبة » :

عاملة عملت في دنياها هواها ، وهنا تحصد نصيبها وتعبها ، وعاملة تعمل يوم الفاشية ، متعبة نفسها لخلاصها ، ولات حين مناص ، ومضى دور الخلاص ، فقد مضى دور العمل والأمل ، فلا أمل ولا عمل ، وهي بعملها يوم الدنيا ، هنا وقود للنار تصلاها :

« تصلي ناراً حامية » :

توقد ناراً قدّمها من قبل ، وهي ذات حمى : « ولادة وإيلاداً » : ولدت من الجواهر المحمية ، من جواهر ذواتها الشريرة ، وتولد حمى : حرقه حاسمة ، لا تبقي ولا تذر . لو أاحة للبشر ، وكما حمت يوم الدنيا في جعيم ذواتها ، وأحرقت ضميرها وفطرتها ، جوتها ومجتمعا !

« تسقى من عين آنية » :

عين بلغت إناها لشدة غليانها ، حامية آنية : « يطوفون بينها وبين حمى آن » (٥٥ : ٤٤) « وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم » (٤٧ : ١٥) .

« ليس لهم طعام إلا من ضريع . لا يسمن ولا يغني من

جوع » :

لا يطعمون إلا الضريع ، فما هو الضريع ؟ نقول : إنه من الضراعة ، فطعام أهل النار يضرهم ويذلهم ويبكيهم ، بدل أن يفرحهم ويفنيهم ، ومن المضاربة :

المشابهة ، فإن طعامهم يشبه الطعام وليس به ، ولذلك لا يسمن ولا يغني من جوع ، وما الأصلان في خواص الطعام ، فليس الضريع طعاماً من سنخ واحد ، وكما أن وصفه هنا يشهد ، وكما اللغة تشهد ، فإنها لا تعرف طعاماً خاصاً اسمه ضريع ، وكذلك سائر القرآن يشهد ، إذ يذكر لهم أطعمة عدة كلها ضريع بمعنىيه ، كالزقوم : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم . كالمهل يغلي في البطون . كغلي الحمى » (٤٤ : ٤٦) وغسلين : « ولا طعام إلا من غسلين » (٦٩ : ٣٦) « وطعاماً ذا غصة » (٧٣ : ١٣) غصة وغم في أرواحهم ، وغصة في الحلقوم ، فطعامهم كله ذا غصة ضريع ، لا يسمن ولا يغني من جوع ، كما أن كله غساق : « إلا حمياً وغساقاً » (٧٨ : ٢٥) يفسق ويظلم على آكله حياته ، ويحبذ إليه مماته : « ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً » .

« وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية . في جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية » :

لم يعطف الوجوه الناعمة على الخاشعة للبون البعيد بينهما ، وعدم الإنعطاف بينها وبينها ، فهذه ناعمة ناضرة ضاحكة مستبشرة مبيضة ، وتلك خاشعة مسودة بأسرة عليها غبرة ترهقها فترة^(١) ، فأين وجوه من وجوه ! وكيف يعطف بينهما وإن في التعبير ؟

هذه ناعمة : ظاهرة البهجة والسرور ، من النعومة : « تعرف في وجوههم نضرة النعيم » وناعمة : متنعمة يبدو عليها النعيم ، ويفيض منها الرضى :

« لسعيها راضية » : راضية عما سعت ، مرضية لربها ، فهي عاملة في دنياها ، راضية في آخرها ، دون نصّب وتعب ، خلاف العاملة الناصبة .

(١) كما في الآيات ٣ : ١٦ و ٧٥ : ٢٤ و ٨٠ : ٤٠ .

« في جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية » : كلمة ذات لغو ، فالنار فيها كل كلمة لاغية ، يتلاغى أهلها فيها ، والجنة خلوة عن أية لاغية ، يتلاقى أهلها مع بعض ومع خزينتها بكل حنان واحترام ، كلماتهم حكمة ، وحركاتهم حكمة ، ولأنهم دخلوها بالمعرفة والحكمة ، فليست هي إذاً مكان اللغو واللغو والغفلة عن الله ، ولا التحرر عن قيود العقل والإيمان والمعرفة ، رغم أنها ليست بدار التكليف ، فالواجبات التي هي لزام العبودية والمعرفة ، والمحرمات التي تنافيها ، إنها تبقى على حالها في الجنة ، ولكنها تطبق هناك دون تكلف وبلاء ، وإنما الإبتلائية منها والامتحانية ، هذه هي التي تترك فيها ، إذ لا بلاء هناك ولا تكليف ، ففيها ما تشتهي النفس وتلذ الأعين ، ولكن أهلها لا يشتهون الظلم والضم ، ولا يلتذون بالمحرمات الذاتية ، لأنهم ظهوروا على الحقائق كلها وظهرت لهم ، وأنها ليست دار التراحم واللاطمئنان : إن المتقين في مقام أمين » (٤٤ : ٥١) « ويخرج أضغانكم » (٤٧ : ٣٦) فلا أضغان تدفع إلى المناقرات ، ولا تراحم ينافي الأمن ، « ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ إخواناً على سرر متقابلين » (١٥ : ٤٧) .

فهذه هي الجنة العالية ، وليست دانية فيها الرذالات وجماع العادات والتصرفات السيئة ، أن أهلها تركوا المحرمات لفترة قصيرة يوم الدنيا ، ولكي يتحرروا فيها لغير النهاية ! وتفصيل هذا البحث إلى محالها المختلفة في طيات الآيات .

هذه هي اللذة الروحانية في جنة الرضوان ، ثم تناولها الجسدانية في جنة النعيم :

« فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة . ونهارق مصفوفة . وزرايى مبثوثة » :

عين جارية : جنسها ، وليست صنفاً خاصاً ، أو عيناً واحدة ، وإنما ينابيع

متدفقة من تسنيم وسلسبيل ، والماء الجاري يحاوب الحس* بالحيوية ، والروح بالانتفاض والانقباض ، والسرور المرفوعة لها جماها وجلالها ، والأكواب جمع كوب : قدح لا عروة له ، رمزاً إلى سعتها ، ولأن العروة تجمع القذارات تحتها ، وليست جمع الكوبة : الطبل الذي يلعب به ، فليس في الجنة لغو ولا تأثيم ، والنفارق هي المساند . مصفوفة بعضها إلى بعض . والزراي هي البسط الفاخرة ، مبنوثة منتشرة على أرض الجنة ، للزينة والراحة سواء .

فهذه هي البعض من أثاث بيت الجنة ، فيها اللذة كلُّها ، والراحة تمامها ، والمتعة بكاملها ، دون تعب وعناء ، أو شغب وشقاء .

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت » :

حض النظر إلى ما حضر لعرب البادية ، وليس إلا الإبل التي يعيشها ، والأرض التي يطؤها ، والجبال التي يراها ، والسماء التي فوقه ، قطعاً للأعذار ، وتقريباً للأنظار ، فلا أحد إلا ويعيش براهين على وجود الله تعالى ، لا يستطيع التحلل عنها ، حتى عرب البادية الذين يعيشون أنفسهم بأبائهم ، وهي كل ما يملكونه حياتهم ، ومن الغريب أنها أكمل الحيوان وأنفعه وأجمعه لصالح المعيشة والراحة :

فهي ركوبهم بأحماهم ، ومنها شرايهم وإدامهم ، ومن أوبارها وجلودها ثيابهم وفرشهم : كمواد أولية للحياة ، ثم إن لها خصائص تخصها بين الحيوان : فهي على عظم منافعتها قليلة التكاليف ، صابرة على الجوع والعطش والكدح ، تأكل ما لا يأكله سائر الحيوان ، وهي على قوتها وضخامتها ذلول يقودها الصغير فتتقاد له ، وتنهض بحملها وهي باركة ، بخلاف سائر الحولة ، وبإمكانها الصبر على الجوع والعطش لمدة أسبوع ، وأن تمشي يومياً خمسين فرسخاً ، تمشي في

الرمضاء، وفي الثلوج المغطية للطريق ولا تضل الطريق ، حق وفي الليلة الظلماء،
ولا تنسى الطريق الذي مشته لمرة واحدة ، وعنقه كسلّم يد ركاياها وهي قائمة،
ففيها جماع ما في مختلف الحيوان ، وزيادات تخصصها ، فلا عجب أن تعد في عداد
الأرض والجبال والسموات، من آيات الله البينات ، التي تدل على وجوده وقدرته
وحكمته ، وأن وراء الكون إرادة وتصميماً ، دون صدفة ولا فوضى .

فليست الإبل آية لأصحاب الإبل فحسب ، وكما القرآن لا يختصم بها ،
بل هي آية لهم ولمن سواهم أن ينظروا إليه كيف خلقت ؟ هذه الكيفية العجيبة
الفريدة بين سائر الحيوان ، ما يحق لها أن تفرد بمؤلف ضخم ، علّنا نعرف البعض
من عظمة هذه الخلقة العجيبة .

« وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت .
وإلى الأرض كيف سطحت » :

وأولى الناس بالنظر إلى السماء هم سكان الصحراء ، كيف رفعت بلا عمد ؟
وكيف انفصل دخانها عن مادتها الأولية المضطربة ؟ وكيف اقتسمت إلى السبع ؟
وكيف نثرت فيها النجوم بلا عدد ولا عمد ، وكيف وكيف ، مما يتطلب
سماء واسعة من البحث والتنقيب ، ليعرفنا على أوسع مما نعرف من حكمة
الخبير البصير .

« وإلى الجبال » مختلف الجبال « كيف نصبت » ؟ مما سقطت عليها من على
السماء ، وما تدفقت عليها نتيجة البركانات ، وما تجمدت عليها إثر الأمواج الناتجة
عن دوران الأرض واصطكاكها بالفضاء المجاور البارد ، وكما سئل علي عليه السلام
« مم خلقت الجبال ؟ قال : من الأمواج » ، وعليها تعم الأمواج الجوية السماوية ،

والجوفية ، وكذلك السطحية الأرضية ، فالأمواج - إذا - تشمل كل صنوف الجبال :

فمن الجبال ما هي في دور الطفولة كجبال (الأنديس) بأوروبا ، ولا تزال ترتفع وتنمو كأنها حيوان ، وكجبال (الألب) ، ومنها ما بلغ أشده كجبال (البرنيس) بأوروبا ، ومنها ما شاخت وهرمت كجبل (المقطم) بمصر ، وجبال (الفوجيش) ومنها ما أخذت سبيلها إلى الفناء ، كجبال (وايلس) بأوروبا ، ومنها ومنها .. وكل هذه لا تخلو عن أنها خلقت من الأمواج ، أمواج البراكين والفيضانات ، وأمواج الدوران الأرضي ، وأمواج الأمطار السماوية ، من المواد الحجرية ومن الأحجار ، ومن الأمواج البحرية ، وكما يقول المعلم الحديث : إن الجبال تخلق أولاً في البحر ، وكما يرى في بعض الجبال قواقع ومخار وأنواع الصدف وعظام السمك ، مما يدل أنها خلقت في البحار ، ثم يبست أو انتقلت مياهها فبرزت .

« وإلى الأرض كيف سطحت » : جعلت سطحاً يمشى عليها ويسكن فيها ولم تكن مسطحة قبله ، إذ كانت محترقة ملتوية شمساً لا تذلل لراكب ، ولا تحن لعائش ، « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها .. » .

ومن الناس من يخيّل إليه أن سطح الأرض ينافي وكرويتها ، وإن هو إلا نظرة سطحية قاصرة ، حيث السطح هنا مقابل الشمس غير الذلول ، والمنقبض أكتافه غير الباسط ، فهل يا ترى إنه السطح مقابل الحجم ؟ - مهما كان الحجم كروياً أم سواه - فكيف بالإمكان أن يجعل الحجم - هكذا - سطحاً ؟ كلا ، إنه السطح عن الإنكماش والانقباض ، انقباضاً حرارياً ومن حيث الميعان ، وانقباضاً يعني عدم التسوية والصلوح للسكن ، فقد سطحها بعد انقباضها ، وذلك بعد شماسها : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » .

« فذكر إنما أنت مذكر • لست عليهم بمسيطر • إلا من تولى
وكفر • فيعذبه الله العذاب الأكبر » :

فذكر بالآيات الآفاقية والآنفسية ، وبالآيات القرآنية التي تضمنها وزيادة ،
فذكر ، فليست حياتك الرسالية إلا تذكيراً ، وبالتبشير والإنذار ، ليست لك
سيطرة تشريعية تسن الأحكام ، ولا تكوينية تهدي من تحب ، أو تجبرهم على
الهدى ، ف « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار » (٥٠ : ٤٥) وإنما
الجبار المسيطر هو : « الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار »
(٥٩ : ٢٣) « وما أنت عليهم بوكيل » (٦ : ١٠٧) ، فلا أنت المسيطر
جبار ، ولا وكيل عن المسيطر الجبار ، إنما أنت رسول ، وليس لك إكراه
الناس على الإيمان ، فليس الإيمان بالذي يكره عليه ، ولا أنت قادر عليه :
« أفأنت تكره الناس أن يكونوا مؤمنين » (١٠ : ٩٩) فأولاً وأخيراً ،
« ليس عليك هدام » (٢ : ٢٧٢) وإنما عليك ذكراهم : « فإنما عليك البلاغ
وعلىنا الحساب » (١٣ : ٤٠) : لا تملك من أمر قلوبهم شيئاً حتى تقهرها على
الإيمان ، فإنما القلوب بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء .

فذكر وداوم في ذكراك « إلا من تولى وكفر » فإنه لا تنفعه الذكرى ، فذكر
إن نفعت الذكرى « ولست عليهم بمسيطر • إلا من تولى وكفر » وليست إلا
سيطرة الجهاد والدفاع : (العذاب الأصغر) لا العذاب الأكبر : « فيعذبه الله
العذاب الأكبر » : بعدما يعذبهم بك ، وبالقائم المهدي من ذريتك ، وبمن معك
وبينكما من المناضلين ، يعذبهم بكم العذاب الأصغر ، ثم يعذبهم في البرزخ
العذاب الأوسط .

« إن إلينا إيابهم • ثم إن علينا حسابهم » :

فليس إياب الخلق إلا إليه ، ولا حسابهم إلا عليه ، وأنت المذكر ، لست

إلا إياه ، وعلى حد قول الرسول ﷺ «وغيره يؤوّل أو يضرب عرض الحائط»^(١) .



(١) الدر الثور ٦ : ٣٤٣ ، أخرج الأعلام عن جابر قال : قال رسول الله (ص) : «أمروا أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله ، ثم قرأ : « فذكر إذا أتت مذكر . لست عليهم بصيغر » .
وعن علي (ع) جواباً عن كيفية الحساب : كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم ؟ قال : كما يرزقهم على كثرتهم ، قيل : فكيف يحاسبهم ولا يروونه ؟ قال : كما يرزقهم ولا يروونه ، (نهج البلاغة) .

(٢) في زيارة الجامعة عن الامام الجواد (ع) « وأبواب الخلق إليكم وحسابهم عليكم » وفي معناها روايات عدة كالرواية عن الامام موسى الكاظم (ع) أنه قال : يا سماعة إني أباي هذا الخلق ، وعلينا حسابهم ، فما كان لهم من ذنب بينهم وبين الله عز وجل حتمنا على الله عز وجل في تركه لنا ، فأجابنا إلى ذلك ، وما كان بينهم وبين الناس استوهيناه منهم فأجاسا إلى ذلك وعرضهم الله عز وجل .

وعن الامام الصادق (ع) : إذا كان يوم القيامة وكلنا الله بحساب شيعتنا فما كان لله رأينا الله أن يهبه فهو لهم ، وما كان لنا فهو لهم ثم قرأ الآية : « إن إنا إنا إليهم » ثم إن علينا حسابهم » (نور الثقلين ٥ : ٥٦٨ - ٥٦٩) .

أقول : آخر الطائفة في تأويل أمثال هذه الأدب أنها تعني إثبات الشفاعة لهم (ع) ، فهناك إيمان وحسابان : أصل وفرع ، فالأصل الله ، والفرع لهم بإذنه ، كما فصلناه في أبواب الشفاعة ، وأما القول « حتمنا على الله » فتأويله ردد ، تأمل .

سورة الفجر - مكية - وآياتها ثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٠ وَالْفَجْرِ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢
وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي
حِجْرِ ٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧
الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ
وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ٩ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ١٠ فَأَكْثَرُوا
فِيهَا الْفُسَادَ ١١ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٢ إِنَّ رَبَّكَ
لَبِالْمِرْصَادِ ١٣ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ
وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ١٤ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ
رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ١٥ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ١٦
وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ١٧ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ
أَكْلًا لَمًّا ١٨ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ١٩ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ

دَكَا دَكَا ٢١ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ٢٢ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ
 بِجَنَّتَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ٢٣ يَقُولُ
 يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ٢٥
 وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدًا ٢٦ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧ ارْجِعِي
 إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ٢٨ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ٢٩ وَأَدْخُلِي
 جَنَّتِي ٣٠ .



« والفجر • وليالٍ عشرين • والشفع والوتر • والليل

إذا يسر » :

الفجر هو الشق الواسع ، سواء في الخير أو الشر ، ومنه الفجور فإنه شق
 واسع لستر العفاف ، ومن شقه الخير شق ظلام الليل واسمًا يتبين كخيطة
 أبيض من الخيط الأسود ، ثم يتوسع إلى انمحاء ظلمة الليل تمامًا ، فالفجر
 — إذاً — ساعة تنفس الحياة في يسر وعافية : « والصبح إذا تنفس » (٨١ : ١٧)
 ففرح وابتسامة ، كأن تفتحه ابتهاجًا بدلال !

فما هو الفجر هنا ؟ إنه هو كل فجر من كل ليلة ، وفجر شمس الرسالة



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

المغرب (وشفعها الصلوات الشفع (الرباعيات) وصلاة الشفع (ركعتا الليل)^(١) .

والوتر بين الأيام ثالث أيام التشريق ، والشفع الأولان : « فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى »^(٢) (٢ : ٢٠٣) .

والوتر بين الأوصياء الأوفياء هو علي عليه السلام ، والشفع الحسنان - عليها السلام -^(٣) .

« والليل إذا يسر » : إذا يسرى في الظلمة ابتعاداً عن النور ، ثم يسرى إلى النور بعداً عن الظلمة ، ونهاية المطاف هو النور ، فإن للحق دولة وللباطل جولة .

فالمراد بسرى الليل دوران فلكه ، وسيران نجومه حتى يبلغ غايته ، ويسبق في قاصيته ، ويستغلف النهار موضعه ، وعلى الليل هنا هو من الليالي العشر ، كليلة العاشور ، وليلة القدر ، وليلة النحر^(٤) ، فإنها تسرى ، وتنتج آخر المطاف نهار الضياء اللامع .

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٤٦ عن عمران بن حصين أن النبي (ص) سئل عن الشفع والوتر فقال : هي الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٣٤٦ أخرجه ابن جرير عن جابر أن رسول الله (ص) قال : .
أقول : وقد وردت روايات أخرى في تأويل الشفع والوتر كلها من باب التطبيق ، تشملها الآية الكريمة .

(٣) رواء القمي في تفسيره .

(٤) البرهان ٤ : ٥٧ عن الباقر (ع) أنه ليلة الجمع وهو النحر ، إذ يجتمع فيه الفيضون من عرفات في المزدلفة ، ثم إلى منى للنحر .

« هل في ذلك قسم لذي حجر » :

« ذي حجر » : ذي عقل^(١) يحجره عما ينافي العقل ، وهو يحجر ما يعقله العقل ، هل في ذلك - الأقسام الشاملة للكائنات كلها - قَسَمٌ للعقلاء ؟ أجل ! وتام القسم !.

فلقد أقسم الله هنا بالاختلافات : بالفجر ، فمنه صادق ومنه كاذب^(٢) ، وبالليالي العشر : الظاهرة في الظلام ، الباطنة في النور ، فهي على ظلمها خير من الفجر الكاذب ، وبالشفع والوتر : حقه وباطله ، وبالليل إذا يسر : يسري لكي يزداد ظلماً ، ثم يستقبل الفجر فوضح النهار : هل في ذلك قسم لذي حجر ؟.

قسماً بهذه وتلك .. إن ربك لبالمرصاد ، فكأن ذا حجر تحجر ما ينفعك لحشرك ، وتهجر ما يضر^(٣)ك .

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد » :

فمن هم عاد ؟ وما هي إرم ذات العماد ؟ علوم ربي

إن عاداً - هنا - هم عادُ الأولى ، قوم هود عليه السلام : « وأنه أهلك عاداً الأولى » (٥٣ : ٥٠) ، ولا نعرف عن الثانية شيئاً ، ثم أصلهم هو عاد بن عوص ابن إرم بن سام بن نوح ، وقد أنذرهم أخوهم هود بالأحقاف : بلاد الرمال :

(١) نور الثقلين ٥ : ٥٧١ عن الباقر (ع) .

(٢) الكاذب هو المستطيل طولاً كذنب السرطان ، والصادق هو المستطير عرضاً في أفق السماء ، فهو مبدأ النور ومبدأ أحكام شرعية .

(٣) ألم تر - إلى - عذاب : جملة معترضة يستعرض ماضي العصيان من عاد وفرعون وثمود ، أكبر حقاها الطغيان .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

« قصب عليهم ربك سوط عذاب » : وهذه من مكشوفات الإستعارة ، يعني بها العذاب المؤلم ، والنكال المُرْمِضُ المُرْمِضُ المُرْمِضُ ، حيث السوط سبب للعقوبات الواقعة ، فإذا صُبَّ عليهم كان أمض وأوقع .

أو أن السوط هنا مصدر يعني أوقع عذاب يخالط الجسوم بالدماء واللحوم ، فيسوطها سوطاً إذا حرَّك ما فيها وخلطه .

فحين يُذكر السوط نذكر لذع العذاب ، وبالصب فيضه وغمره ، اجتماع الألم اللاذع ، والغمرة الطاغية ، على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثرُوا فيها الفساد ، فهذا سوط العذاب ، فكيف بنفس العذاب الذي يرقبهم يوم يقوم الأشهاد :

« إن ربك لبالمرصاد » : « إن جهنم كانت مرصاداً . للطاغين مآباً » وربك يرصدهم عليها ، وقد ينالهم يوم الدنيا سوط منها ، يرقبهم يرصدهم ولا يخفى عليه منهم شيء في الأرض ولا في السماء ، فـ « لا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخّره ليومٍ تشخص فيه الأبصار » ولئن أمهل الله الظالم فلن يفوت أخذه وهو له بالمرصاد ، على محسباز طريقه ، ويوضع الشيحان من ساع ريقه « (علي عليه السلام) .

« فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمنى . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهاننى » :

تنديد بما يخيّل إلى جهال الناس أن السعة في الحياة إنعام وإكرام ، وضيقها مهانة وابتلاء ، فلو بسط الله له في الرزق ظنه إكراماً باستحقاق ، مها كان بعيداً عن طاعته ، رغم أنه بلاء - ومن أشد البلاء - وليس جزاء : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير

بصير » (٤٢ : ٢٧) ولو قدر عليه رزقه لظنه بلاءً وإبتلاءً ومهانة ، مها كان في طاعته ، وهو أخف البلاء ، والحياة الدنيا كلها بلاء ، ما يلائم طبع الإنسان وما ينافره ، وهذا باب من التضييل يضل فيه الكثير ممن لا يعرفون الله ، ولأن الدنيا دار عمل ولا حساب ، والآخرة دار حساب ولا عمل ، فكم من مطيع لله يضيّق عليه لكي لا يظن ، وليبلّ بلاء أخف وأدنى ، فنراه يترك الطاعة إلى المعصية إذ يحسبه مُهاناً في طاعة الله ! وكم من عاصٍ موسّع عليه بُلي به كبلاء شديد ، يظنه مكرباً في معصية الله ، فيزداد عصياناً وطغياناً ، رغم أنه إمهال وإملال : « ولا يحسن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين » (٣ : ١٧٨) « وأملي لهم إن كيدي متين » (٧ : ١٨٣) .

لذلك ترى المؤمنين - على الأكثر - يُبلون ببلاء أخف : ضيق المعيشة ، والكفار بما هو أصعب : سعة الرزق ، ونرى من يسقط في بلاء السعة ، أكثر بكثير من الساقطين ببلاء الضيق : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » (٢١ : ٣٥) وإن بلاء الشر خير من بلاء الخير - لما تحسبه خيراً - : من السعة ، وما تظنه شراً : من الضيق !

هنا نلمس لطافة التعبير في ابتلاء الإكرام بالنعمة ، وابتلاء غير الإكرام بالضيق ، أنه ليس في قياس الواقع ، إنما كما يظنه الإنسان ، ولذلك يفند كلا التصورين أخيراً :

* * *



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

إنها آية متشابهة ترد إلى محكماتها ك: « ليس كمثله شيء » (٤٢ : ١١)
« ألا إنه بكل شيء محيط ولا يحيطون به علماً » (٢٠ : ١١٠) : ما تصرح
أن لا انتقال له مكاناً ولا زماناً ولا حيطة ولا علماً ولا قدرة ، فإنها من صفات
المخلوقين .

ثم هي تفسر بنفسها لمن هو أعمق في النظر ، وعلى حد قول الإمام الرضا
عليه السلام : « المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله » وأما عالمه فلا يشتبه :

فإن الفعل - أي فعل - من أقرب القرائن للمعنى من فاعله ، كما الفاعل
- أي فاعل - قرينة على المعنى من فعله ، فإذا نسب المجيء إلى من يطير أو يمشي ،
فهو المعنى منه ، وإذا نسب إلى ما لا يطير أو يمشي قطعاً للمسافات ، فالمعنى كما
يناسبه ، ك « جاءت فكرة صديقي إليّ وذهبت فكري إليّ » : فهذا انتقال
غير مكاني ، وفيما إذا نسب إلى الجرد عن هذا وذاك ، لتجرد ذاته ، وعدم انتقال
- أو تكامل - صفاته ، إذا يجرّد مجيئه عما يناسب المخلوقين إلى ما يناسب ساحة
الربوبية ، كمجيئه أمره بالحساب والجزاء ، فلقد كان هذا الأمر شأناً موعوداً
يوم الدنيا ، ثم يتحقق يوم الجزاء ، وهذا هو مجيء الرب ، لا بذاته ، ولا بعلمه
وقدرته ، إنما برؤيته ، فهو رب يوم الجزاء ، كما كان رباً يوم الدنيا ، إلا أن
رؤيته يوم الجزاء هي الجزاء ، وفي يوم الدنيا هي التدبير والتكليف ، فانتقال
شأن الربوبية من وعد الجزاء إلى واقع الجزاء ، يعبر عنه بمجيئه الرب ..

وكما الآيات توحى : « فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون »
(٤٠ : ٧٨) « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك »
(١٦ : ٣٣) ، فإتيان الرب الإله بأمره هو المعنى هنا وهناك ، وإتيانه بذاته
ليس إلا اقتراح المشركين وانتظارهم : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة
أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً

إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون»
(٧ : ١٥٨) :

وهكذا يكون دائماً دور الصفات والأفعال المنسوبة إلى الله تعالى، أن لزامها تجريدتها عما للمخلوقين من أفعال وصفات ، تسبيحاً لذاته وأفعاله وصفاته عما للمخلوقين : « فسبحان الله عما يصفون » . إلا عباد الله المخلصين .

« وجاء ربك » بأمره « والملئك » حاملين أمره لتحقيقه « صفوا صفوا » : جنود مصطفون مصطفون « عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول ويفعلون ما يؤمرون » .

« وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى » :

هل إن مجيء جهنم هو بروزها ؟ : « وبرزت الجحيم للغاوين » (٢٦ : ٩١)
« .. لمن يرى » (٧٩ : ٣٦) ولأنهم كانوا في غفلة منها وغطاء : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .. أو أنه مجيء عذابها :
« وإذا الجحيم سعرت » (٨١ : ١٠) بعد أن لم تكن مسعرة ؟ أو أنه مجيئها من مكان إلى مكان ؟ كل محتمل ، والكل أجمل ، رعاية الجمع بين شاهد القرآن والسنة^{١١} .

(١) فمن القرآن الآيتان ، ومن السنة ما عن أبي سعد الخدرى قال : لما نزلت هذه الآية تغير وجه رسول الله (ص) وعرف حتى اشتد على أصحابه ما رأوا من حاله ، وانطلق بعضهم إلى علي بن أبي طالب فقالوا : يا علي ! لقد حدث أمر قد رأيناه في نبي الله، فجاء علي (ع) فاحتضنه من خلفه وقبل بين عاتقيه ، ثم قال : يا نبي الله بأبي أنت وأمي ما الذي حدث اليوم ؟ قال : جاء جبرائيل فأقرأني : « وجيء يومئذ بجهنم » قال : فقلت : يجيء بها ؟ قال : يجيء بها سبعون ألف يقودونها بسبعين ألف زمام فتشرد شرده لو تركت لأحرقت أهل الجمع ، ثم أتمرض لجهنم فتقول : مالي ولك يا محمد ! فقد حرم الله عليك علي ، فلا يبقى أحد إلا قال : نفسي نفسي ، وإن محمداً يقول : أمي أمي (الدر المنثور ٦ : ٦ : ٣) أخرجه ابن مردويه عن الخدرى عنه (ص) .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

فهذا الخطاب - إذا - مستمر طـول الحياة وعند الموت وفي القيامة ، لكلٍّ أهله ، وكلٌّ في وقته .. يخاطب المؤمن على طول الخط : في الدنيا لكي يستزيد في رجوعه إلى الله ، وعند الموت والقيامة ليجزى بما قدّم ، ويخاطب الكافر يوم الدنيا ما بقي له أجل للإصلاح ، ثم ينقطع عنه هذا الخطاب إلى خطاب آخر : ، خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه .. » .



﴿سورة البلد - مكة - وآياتها عشرون﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . لَا أُقِيمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ^١
وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ^٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ^٣ لَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ^٤ أُنْحَسِبُ أَنْ لَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ^٥ يَقُولُ
أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ^٦ أُنْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ^٧ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ
عَيْنَيْنِ ^٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ^٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ^{١٠} فَلَا اقْتَحَمَ
الْعَقَبَةَ ^{١١} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ^{١٢} فَكُّ رَقَبَةٍ ^{١٣} أَوْ إِطْعَامٌ فِي
يَوْمٍ مَسْغَبَةٍ ^{١٤} يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ^{١٥} أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ^{١٦}
ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ ^{١٧}
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ^{١٨} وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ
الْمَشْأَمَةِ ^{١٩} عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ^{٢٠} . »

* * *

« لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد »^(١) :

هذا البلد هو مكة المكرمة ، البلد الحرام الآمن ، حسب الشرع والتكوين الإلهي ، أكثر من سواه ، ورغم مكانته الروحية لا يقسم الله به هنا ، وعلمه فتقصد حرمة بنا استحل أهلوه حرمة الرسول الأقدس ﷺ .

« وأنت حل » : حلال - بهذا البلد^(٢) ، وإنما حرمة لأنه البلد الحرام الآمن ، مطاف الموحدين ، ومنحرم الرسالة القدسية المحمدية ، فإذا أصبح مطاف المشركين ، ومزار الأوثان ، والرسول حلال فيه : ماله ودمه ، أرضه وعرضه ، إذاً لا أقسم به ولا أحترمه ، في حين أقسم به لأنه بلد أمين : « وهذا البلد الأمين » (٩٥ : ٣) أقسم ولا أقسم من جهتين ، دون تنافر بينهما ولا تناحر .

أو : لا أقسم به ، تعظيماً له فوق العادة ، لا لأنه البيت الحرام ، إنما لأنك حل^٣ : حال - بهذا البلد^(٣) . فقد كان المشركون يحترمون البيت لحدّ اللاقسم - احتراماً - أو القسم كذلك ، ثم يهتكون حرمتك ، وأنت الأصل في حرمة ، فأنا لا أقسم احتراماً لهذا البلد لأنك حل^٣ : حال - بهذا البلد ، ولا أقسم هتكاً له لأنك حل^٣ : حلال فيه مهتوك . فأنت أنت الحرمة كل الحرمة

(١) لا أقسم هنا كما في أشباهه ، لنفي القسم ، وعدم إعادة (لا) في والد وما ولد - وهو قسم - فيه دلالة زائدة على نفي القسم .

(٢) عن الصادق (ع) في تفسير الآية : « وأنت حلال منتك الحرمة ، مستباح العرض لا تحترم ، فلا يبقى للبلد حرمة حيث هتكت .

أقول : وفي معناه روايات متضافرة تفسر الحل بالحلال ، ولا أقسم ، بنفي القسم .

(٣) يبعد معنى الحال للحل - لو عني بخصوصه - ، فإن الحال هو الدأزل في مكان ، والرسول ما نزل مكة ، وإنما كانت ولده وموطنه ، وإن الحال يعبر عنه بما هو أخضر ، كـ (وأنت في هذا البلد) .

لهذا البيت ، وكثير هؤلاء الجهال الذين يحترمون الزمان ولا يحترمون صاحب الزمان ، ويكرمون المكان ولا يكرمون من به كرامة المكان ! .

صحيح أن مكة لها حرمتها فوق البلاد كلها ، لكنها ليست إلا لأن يعبد فيها ربها ويكرم رسوله ، وتحل مقامه فيها رسالته ، وأما إذا كانت مهتوكا فيها حرمة الله ورسوله ، فهل يا ترى تبقى حرمة ، لأحجار وضعت فيها فوق بعض ، وأوثان علقت عليها ، ومكاه وتصدي وأمثالها من فضائح ! .

أو : وأنت حل : حر - بهذا البلد ، تفعل فيه ما تشاء بالمشركين ، الذين استحلوا حرمة وحرمتك ، وقد تكون الثلاثة مرادة ^(١) وما أجمعها وألطفها كما هو دأب القرآن ، ويعني من حله ^{بذلك} حرته بما يفعل بالمشركين بعد فتح مكة ، فلا أقسم به : لا أحترمه ، وأنت خارج عن عقدك الماضية ، حر فيما تريد بأهلك ^(٢) .



« ووالد وما ولد » :

لا أقسم بهذا البلد ، وإنما أقسم بمن به حرمة البلد : « والد وما ولد » : آدم ومن ولداه من النبيين ^(٣) ، إبراهيم وولده المعصومين ، محمد وولده الطيبين من صلبه : فاطمة والأئمة الأحد عشر ، من الحسن ^{عليه السلام} إلى القاسم ^{عليه السلام} ،

(١) وعلى الثالث : فالواو استثنائية ، بخلاف الأولين إذ كانت فيها حالية ، وهنا روايات مستفيضة تؤيد الثالث .

(٢) كما عن سعيد بن جبريل قال : لما فتح النبي (ص) الكعبة أخذ أبو برزة الأسلمي سعيد بن عبد الله بن خطل فضرب عنقه وهو متعلق بأستار الكعبة ، فأنزل الله : « لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد » وهو أحد الأربعة الذين لم يؤمنهم النبي (ص) . وروى مثله في معنى الحل عن مجاهد وأبي صالح وقتادة وعطية والحسن والضحاك وعطاء وابن زيد وابن عباس .

(٣) رواه في مجمع البيان عن الصادق (ع) .

أو من هو وليد عقله الرسالي : علي عليه السلام ، وكما قال : ولشدي رسول الله صلى الله عليه وآله .

وبمناسبة الحال ، وأن الرسول صلى الله عليه وآله هو مجمع معاني الوالد الروحي ، ووُلده مجامع فضائل الولادة الروحانية ، قد يكونان هما المعنيان من : « والد وما ولد » ويحري في غيرهما من المعصومين جرياً على ضوئها ، فقسماً بحمد وعترته الطاهرين المكابدين الكادحين :

« لقد خلقنا الإنسان في كبد » :

« كبد » : مشقة ، فالإنسان مخلوق في كبد وكدح وكدٍّ^(١) وهو لزامه حتى الموت ، فإذا رأيت كبداً في هذا البلد ، ما لم يره أحدٌ في تاريخ الرسالات ، فلك الراحة إذ كان في سبيل الطاعة . دون المكابدين الكادحين الذين يعيشون حياتهم كبداً على كبد ، وكدّاً على كدٍّ : « قل هل أنبئكم بالآخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (١٨ : ١٠٤) .

هؤلاء هم ! وأما أنت قمها بلغ بك الكبد ، ومها تكبدت اتعاباً : « فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً » ، ولا يبدل كبدك يسراً ما لم تقتحم العقبة والعقبات عبر الرسالات ، « على حدّ قول الإمام الحسن عليه السلام : لا أعلم خليفة يكابد من الأمر ما يكابد من الأمر ما يكابد من الإنسان ، يكابد مضائق الدنيا والآخرة^(٢) ، إن انفصال النطفة من الصلب والترائب يخلف

(١) الكبد معروفة ، والكبد والكباد توجعها ، والكبد أصابتها .

(٢) تفسير البرهان ٤ : ٦٣ نقلاً عن الزمخشري في ربيع الأبرار ، وفي الدر المنثور ٦ : ٣٥٣ ، أخرجه ابن المبارك في الزهد ، وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه (ع) إلى قوله : « الإنسان » .

كَبَدًا للزوجين رغم السَّعة حاله ، ثم الخلية الأولى لا تستقر في الرحم إلا بمكابدتها لخلق ظروف ملائمة لحياتها وغذائها ، ولا تزال تمارس كبدها في منازلها حتى تنتهي إلى المخرج فتذوق من المخاض ما تذوقه أمها ، وقد تصل لحد الإختناق في مخرجها من مكابد الرحم إلى مكابد الدنيا ، ثم الكبد لزام الولد بينه وبين الموت ، وبعده الراحة لمن كابد في سبيل الله ، والعامة لمن كابد في سبيل اللهو .

والكَبَد هو العِظَم - أيضاً - فكبد كل شيء عِظَمَ وسطه وغلظته ، فالإنسان - إذاً - مخلوق وسط الخلق وكبدته عظيمًا غليظًا ، فهو مجبول على شعور العظمة والكبرياء^(١) ، كما هو مخلوق في كبد المشقة ، كَبَدَ على كَبَدَ ، فكُلما كانت العظمة أكثر فالـكَبَد على قياسها أكثر .

هذا - ومع انه مخلوق من ضعف : « الله الذي خلقكم من ضعف ، (٣٠ : ٥٤) : من مني يُمنى حالة الضعف ، وعلى ضعف : « وخلق الإنسان ضعيفاً » (٤ : ٢٨) ، فهو حكيم الخلق وعظيمة بين الخلق ، وهو ضعيف تجاه التقادير الإلهية ، منها كان عظيم الخلق !

وقد ينسى الإنسان أو يتناسى كَبَدَ المشقة والضعف ، ويعيش كَبَدَ العظمة والتَّرف ، فيضل عن واقعه ، فيحسب أن لن يقدر عليه أحدٌ ، وأنه يتغلب المقادير بما له اللُّبَد :

(١) ومن هذا الكبد انتصاب قامته بخلاف سائر الحيوان ، كما عن حماد بن عثمان قال : قلت لأبي عبد الله (ع) : إنا نرى الدواب في بطون أمهاتها أيدعها الرقعتين مثل البكي فمن أي شيء ذلك ؟ فقال : ذلك موضع منخريه في بطن أمه ، وابن آدم منتصب في بطن أمه ، وذلك قول الله عز وجل : « لقد خلقنا الإنسان في كبد » وما سوى ابن آدم فرأته في دبره ويداه بين يديه (نور الثقلين ٥ : ٥٨٠) .

« أيجسب أن لن يقدر عليه أحد . يقول أهلك مالاً لبداً ،
أيجسب أن لم يره أحد » :

واللبد هو المال الكثير الذي قد تراكب بعضه على بعض ، من لبدا الأسد ،
وكما تتلبد طرائق الشعر وسبائخ القطن ، أو بمعنى اللزام الدائب ، كأنه من
كثرت لا يزول .

فقد يتمنع من الإيمان ، ولأنه أهلك ماله اللبد في الصد عن الإيمان ، وعلى
حد ما يروى عن علي عليه السلام بشأن عمرو بن عبد ود (١) ، أو مؤمن بمن على الله
أنه أنفق مالاً غزيراً في سبيله ، والإنفاق الحق بلا حساب هو من العقبات التي
على المؤمن اقتحامها ولكي يعقب راحة طويلة .

أيجسب هذا المتفاخر المتكاثر : « إن لم يره أحد » إذ أعطى ما أعطى
ومنع ما منع ، وصد ما صد ، بلى إن ربه كان به خيراً ، بصيراً به
وقادراً عليه .

« ألم نجعل له عينين . ولساناً وشفتين . وهديناه النجدين » :

عينان ، علتهما البصر والبصيرة ، فبعين البصر يبصر الآفاق فيحول نتائجها
إلى منظار البصيرة ، أو هما عينان ظاهران ، وآخران سواهما : عين العقل
والفطرة ، وهذا قياس الشفتين ، وبهذه الأجهزة الأنيفة : « هديناه النجدين » :

(١) نور الثقلين عن الباقر (ع) في : « أهلك مالاً لبداً » قال : هو عمرو بن عبدود حين
عرض عليه علي بن أبي طالب (ع) الإسلام يوم الخندق ، وقال : فأين ما أنفقت فيكم مالاً لبداً ،
وكان أنفق مالاً في الصد عن سبيل الله ، فقتله علي (ع) : « أيجسب أن لم يره أحد - قسأل :
في فساد كان في نفسه .. » .

نجدي التقوى والطغوى ، الخير والشر ^(١) : « ونفس ومسا سواها . فألهمها فجورها وتقواها » والنجد هو المرتفع العالي ، فألهم الفجور والتقوى ليس بالأمر الخفي ، وإنما كالنار على المنار ، والشمس في رابعة النهار ، فكأنه تعالى بفرط البيان لها قد رفعها ونصبها للناظرين ، لمن له عينان يبصر بهما ويتبصر .

فهذه هي الهداية التامة : الإهتمام إلى الخير لتطلبه ، وإلى الشر لتخالفه ، وهذا السلب والإيجاب للوصول إلى نجد الصواب ، بحاجة ملحة إلى إقتحام العقبة :

« فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة » :

العقبة هي المرمى الصعب الملتوي من الجبال ، القمم التي عليها النجدان ، فلا بد للإنسان المخلوق في كبد ، أن يكابد في اقتحام العقبة : رمياً بنفسه فيها مها كانت شديدة مخيفة ، فإن أمامها أخوف وأشد ، وهي بعد اقتحامها حياة سليمة قاضية على كل كبد وإلى الأبد ، والقمة العليا من هذه العقبة ، هي فك رقبة : أن تفك رقبتك من حبال الشيطان ، ثم تربطها بحبل الرحمان ، معتصماً به حياتك : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

فاقتحم بنفسك ونفسك هذه العقبة القمّة ، لكي تسهل لك سائر العقبات ، وتهون عليك تبعات دنيا الحياة . . . تفك رقبتك عن أسر الهوى التي ألهمك الله إياها في نجد البشر ، ثم تواصل في سبيلك إلى الهدى التي ألهمتها في نجد

(١) نور الثقلين ٥ : ٥٨١ والدر المنثور ٦ : ٣٥٣ عن رسول الله (ص) أنه قال : ألهم الناس ما نجدان ، نجد الخير ونجد الشر ، فما جعل نجد الشر أحد إليكم من نجد الخير ، والدر المنثور عن علي (ع) مثله ، والكافي عن الصادق (ع) مثله .

الخير ، ومن الخير أن تحاول في فك رقاب الآخرين أيضاً ، فتعيش الفك لنفسك ومن سواك ، وتخلق جواً حراً عن أسر الشيطان .

أجل : وإن فك رقبة عما سوى الله وعن سواه ، هو العقبة ، أو أنه اقتحامها ، فك بالاقترحام ، أو فك هو الإقترحام .

فك رقبة ، لا عتقها ، فعتقها عمل فردي لا يطيقه إلا الأقلون ، والفك أعم من الفردي والجماعي ، فالذي يقتحم العقبة بغية هذا الفك ، إذ رآه كافياً لنفسه وسواه فهو ، وإلا كان عليه لزام أن يضم إليه الآخرين ، وإلى طاقاته طاقات الآخرين ، لتحقيق الفك أخيراً ، وفك الرقاب هكذا ، ومن أسرها عتق الرقيق ، ينتج عن فكها عن النار في دار القرار^(١) .. عقبة لو تخطاها لوصل ، ولو تخلفها فشل ، فالإنسان أمام العقبة ، بين مقتحم واصل ، ونائم فاشل ، وأين واصل من فاشل ؟ وأين مجاهد مكابد من متساهل قاعد ، ألا فخففوا عن عقبة الآخرة باقتحام عقبة الدنيا ، وعلى حشد تعبیر الرسول ﷺ : « إن أمامكم عقبة كؤوداً لا يحوزها المثقلون ، فأنا أريد أن أتخفف لتلك العقبة »^(٢) وليست العقبات هنا إلا في طويق السالكين ، وعليها يكون بهر الأنفاس ، وشدة الضغوط والمِراس ، ثم العقبات في العقبى هي للواقفين عن الحراك ، والسالكين سبل الهلاك ، الذين لم يقتحموا العقبة هناك .

(١) نور الثقلين عن ابن بن تغلب عن أبي عبد الله (ع) قال: قلت له جعلت فداك قوله: « فلا أقتحم العقبة » قال : من أكرمه الله بولايتنا فقد جاز العقبة ، ونحن تلك العقبة التي من اقتحمها نجأ ، قال : فسكت (ع) فقال لي : قهلاً أفيدك حرفاً خيراً لك من الدنيا وما فيها ؟ قلت : بلى جعلت فداك ، قال : قوله « فك رقبة » ثم قال : الناس كلهم عبيد النار غيرك وأصحابك ، فإن الله فك رقابهم من النار بولايتنا أهل البيت .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٣٥٥ عن أبي الدرداء سمعت رسول الله (ص) يقول : ..

« أو إطعام في يوم ذي مسغبة • يتيماً ذا مقربة • أو مسكيناً
ذا مقربة » :

« أو إطعام » : قد تكون « أو » هنا للجمع ، في المعنى الجامع للرقبة ،
المسبق ، وهي - في نفس الوقت - للتخيير المتدرج : أن غير القادر على فك
رقبة يطعم ، فيحسب له حساب الفك^(١) .

والمسغبة هي شدة الحاجة والرغبة إلى الطعام ، فإن السغب هو الجوع مع
التعب ، فإطعام اليتيم ذي المقربة : القرابة ، والمكين : الذي أسكنه العدم ،
ذا مقربة : أسكنه على التراب ، هذا الإطعام هو من العقبة الواجب اقتحامها
للوصول إلى نجد الخير .

« ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا
بالمرحمة » :

صبرا عن الشر على نجده ، وصبراً على الخير في اقتحام عقبته ، تواصياً به
كعمل جماعي - لا فردي - به وبالمرحمة : مرحمة الخير على نجده ، وهاتان
الطاقتان مع الإيمان ، هي التي تتطلب اقتحام العقبة ، ومحاولة دائبة في تقدم ،
ولكي يصل السالك إلى قمة الخير ..

(١) نور الثقلين عن الإمام الرضا (ع) في الآية : علم الله عز وجل أنه ليس كل إنسان يقدر
على عتق رقبة فجعل لهم السبيل إلى الجنة .

أقول : الحديث السابق دليلنا على الأول ، وهذا يدل على الثاني ، والجمع أجمل فيما يتحمل ،
أو أن « أو » هنا للجمع جمعاً بينها - فأمل .

« أولئك أصحاب الميمنة » :

الذين عاشوا من الحياة يمينها .

« والذين كفروا بآياتنا أولئك هم أصحاب المشأمة عليهم نار

موصدة » :

مؤصدة تقصدهم وتأصدهم .



مركز تحقيق كليات علوم إسلامي

سورة الشمس - مكية - وآياتها خمس عشر ﴿١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٠ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ١
وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاها ٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَاها ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاها ٤
وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَّاها ٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّاها ٦ وَنَفْسٍ وَمَا
سَوَّاها ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها ٩
وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاها ١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ١١ إِذِ انْبَعَثَ
أَشْقَاهَا ١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ
فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاها ١٤
وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ١٥ .

* * *

أقسام ثمانية ، ابتداءً بمشاهد الكون ، الآفاقية : سماوية وأرضية ،
وانتهاءً بنفس الإنسان والذي سواها ، تتقدم على حقيقة ناصعة هي المقصود

بالأقسام : « قد أفلح من زكاهما . وقد خاب من دساها » إجماعاً . بأن الإنسان نسخة كاملة عن كتاب التكوين ، بإمكانه أن يعتبر في نفسه بما يشاهده في الآفاق ، « سزيم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » .

قسماً بالشمس : عامة ، وحين تضحى : ترتفع عن أفقها ، وهي أروق ما تكون في هذه الفترة وأحلى ، والقمر إذا تلاها : في طلوعه بعد غروبها ، تلواً في الإشراق منذ هلاله إلى تبدّره وقيل انمحائه ، أم في اكتساب النور ، حالاً دائبة لا تختص بحال دون حال ، فهو يتلو الشمس بنور طفيف شفيف صاف .

وقسماً بالنهار إذا جلتى الشمس كما الشمس تجليه ، حين تصل إلى وسطه فلا تخفى على الناظرين . . وبالليل إذا يغشى الشمس بنهارها ، والسماء والقدرة الخلاقة البانية ، التي بنتها ، والأرض وما حركها وأزالها عن مقرها ، ونفس إنسانية وسواها من أمثالها ، وما سواها ، فألمعها : - أبلعها وأدغم فيها وعرفها - فجورها وتقواها .

وهل ياترى إن هذه الكونيات لا تعني - في الأقسام بها - إلا ظواهرها ؟ أجل إنها تعنيها وما يناسب النفس المسوأة وإلهام فجورها وتقواها ، وعلى حدّ تأويل الإمام الصادق عليه السلام إذ سئل عن « والشمس وضحاها » قال : الشمس رسول الله ﷺ به أوضح الناس عز وجل للناس دينهم « والقمر إذا تلاها » : أمير المؤمنين عليه السلام تلا رسول الله ﷺ ونفثه رسول الله ﷺ بالمعلم نفثاً « والليل إذا يغشاها » ذلك أئمة الجور الذين استبدوا بالأمر دون آل الرسول ﷺ وجلسوا مجلساً كان آل الرسول أولى به منهم ففشوا دين الله بالظلم والجور فحكى الله فعلهم فقال : والليل إذا يغشاها » والنهار إذا

جلاها : الإمام من ذرية فاطمة عليها السلام يسأل عن دين رسول الله فيجليه لمن سأله فعكس الله عز وجل قوله فقال : « النهار إذا جلاها » (١) .

أقول : ومن هنا يظهر الوجه في اختلاف الماضي « إذا جلاها » عن المضارع « إذا يغشاها » : فإن ضحى الشمس المحمدي غُشِّي في مستقبل عتيد ، ويستمر : بالليالي الظلماء من دويلات الجور ، وإلى أن يسفر صبح الدولة المحمدية من جديد في زمن القائم المهدي عليه السلام فإن نهار دولته سوف يحلّ شمس الرسالة المحمدية بعد غروبها ، ويجعلها أكثر مما كان وأوسع مما كان « أين يحى معالم الدين وأهل » . أين قاصم شوكة المعتدين . أين هادم أبنية الشرك والنفاق ! » .

قسماً بهذه الآيات الكونية ، والمحاولات الإيمانية والإلايمانية ، وبالسما معدن الرحمة ، والأرض قابلها : كسما الوحي وأراضي القلوب الواعية ، وقسماً بالنفس والذي سواها ، كنموذج شامل كامل عن كائنات الوجود كلها ، الجامع فيها ظلم الليل المغشي ، ونور النهار المجلني - قسماً بهذه وتلك وهؤلاء :

« قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » :

والمعنى من النفس الملهم فجورها وتقواها - هذا بين معانيها - هو الروح ككل ، دون الجسم : « خلقكم من نفس واحدة » (٤ : ١) ولا الأمانة بالسوء : « إن النفس لأمرارة بالسوء » (١٢ : ٥٣) ولا اللوامة : « ولا أقسم بالنفس اللوامة » (٧٥ : ٢) ولا المطمئنة : « يا أيها النفس المطمئنة » (٨٩ : ٢٧) وهي كلها من شؤون الروح ، كالقلب والصدر والعقل واللب وأما « هي »

(١) نور الثقلين : ٨٥ . عن روضة الكافي جماعة عن سهل عن محمد عن أبيه عن أبي محمد عنه (ع) ، ورواه القمي عن سليمان الديلمي عن أبي بصير عنه (ع) مثله .

أيضاً من شؤونها ، فقد ألهمت النفس 'الروح' فجورها : « النفس الأمارة »
وتقواها (اللوامة والمطمئنة - العقل) .

فهنا النفس بين تزكية وتدسيس ، ففلاح أو خيبة ، ورغم أن فجورها أقرب
إليها من تقواها ، وكما نوحى إليه آيتها : « فجورها وتقواها » : قرباً جسدياً
حيوانياً ، ولكننا العقل - وهو الحيوية الإنسانية - إنه أقرب إليها كإنسان ،
وإن معركة العقل والنفس هي من المعقات التي لزام الإنسان أن يجتازها فائزاً
عاقلاً ، لا فاشلاً جاهلاً .

وواقع الفلاح والإصلاح ليس إلا بتزكيتها ، مستجيراً بالله ، وعلى قول
رسول الله ﷺ : « اللهم آت نفسي تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وزكها
أنت خير من زكاها » (١) .

والمزكي الأول للنفس هو المحاول لأن يتزكى ، ثم الله يؤيده في تزكيتها :
« من زكاها » : زكى نفسه ، فزكاها ربه ، وكذلك التدسيس على سواء ، وهو
من الله الحتم وسلب التوفيق ، وكما عن الرسول ﷺ (٢) .

والتزكية هي الإغناء ، والتدسيس هو الإدغال وإدخال شيء في شيء بضرب
الإحتيال ، فتزويد النفس بتقواها هو تزكيتها ، وإدغالها هو تدسيسها ، وكلاهما
من الإنسان ، ثم من الله كما يناسب عدله وفضله .

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٥٦ عن ابن عباس وزيد بن أرقم وأبو هريرة قالوا : كان
رسول الله (ص) إذا تلا هذه الآية « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » يقول : ..
(٢) الدر المنثور ٦ : ٣٥٧ عن ابن عباس سمعت رسول الله (ص) يقول : قد أفلح من زكاها :
أفلحت نفس زكاها الله ، وخابت نفس خيبها الله من كل خير .
أقول : فالضمير في « زكاها ودساها » راجع إلى النفس وإلى الله ، من زكاها هو - من
زكاها الله .

وليؤخذ مثلاً لتدسيس النفس قصة ثمود ، في تكذيبها وطمعواها والدمدمة الإلهية التي دمرتهم .

« كذبت ثمود بطغواها . إذا انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها » :

طغوى في قولهم « فكذبوه » وعلمياً « فعقروها » واخية التي لحقتهم من هذه الطغوى هي الدمدمة الربانية : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثين . كأن لم يغنوا فيها .. » (١١ : ٦٨) « إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فكانوا كهشيم المحتضرين » (٥٤ : ٣١) وهذه هي الدمدمة ، فجرس اللفظ يوحي بجرس المعنى الواقع .

إن عاقر الناقة كان واحسبداً هو المنبعث فيهم : « إذا انبعث أشقاها » وصاحبهم الذي نادوه لهذه الجريمة : « فنادوا أصحابهم فتعاطى فعقروا » (٥٤ : ٢٩) : أخذ عنهم سيفهم ونحر ، فرغم أنه وحده كان العاقر الناحر ، ينسب العقور إليهم أجمع .

« فعقروها » « فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم » (٧٧ : ٧) « فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام » (١١ : ٦٥) « فعقروها فأصبحوا نادمين » (٢٦ : ١٥٧) .

فلماذا ينسب العقور إليهم وهم منه براء ؟ لأنهم نادوه ، وأعطوه سيفهم ، وبعثوه للجريمة ، فأشر بهم الله فيها وعذبهم بها ، وصاحبهم أشد عذاباً وأنكى .

وهو أشقى الأولين : أحيمر ثمود ، رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة «^(١)» ، كما أن ابن ملجم أشقى الآخرين على حد قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم^(٢) .

□□□□



مركز تحقيق كتابي علوم إسلامي

(١) كما في الدر المنثور ٦ : ٣٥٧ عن النبي (ص) .

(٢) نور الثقلين ٥ : ٨٧ قال رسول الله (ص) لعلي (ع) : من أشقى الأولين ؟ قال : صافر الناقة ، قال : صدقت ، فمن أشقى الآخرين ؟ قال : قلت : لا أعلم يا رسول الله ! قال : الذي يضر بك على هذه ، وأشار إلى يافوخه .

﴿ سورة الليل — مكية — وآياتها واحد وعشرون ﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ^١
وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَافَى ^٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ^٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ
لَشَتَّى ^٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ^٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ^٦ فَسَنِيَرُهُ
لِلْعُسْرَى ^٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ^٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ^٩
فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ^{١٠} وَمِمَّا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ^{١١}
إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ^{١٢} وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ^{١٣} فَأَنْذَرْنَكُمْ
نَارًا تَلْظَى ^{١٤} لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ^{١٥} الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ^{١٦}
وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى ^{١٧} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ^{١٨} وَمَا لِأَحَدٍ
عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ^{١٩} إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ^{٢٠}
وَلَسَوْفَ يَرْضَى ^{٢١} . »

* * *

أقسام بشق الخلق، وخالقه، الناحي منحي واحداً هو الصلاح والإصلاح، لتدل الخلق على وجوب تخلقهم بأخلاق الله، واتجاههم - في مساعيهم الشتات - جهة الصلاح والإصلاح، ولكننا النفوس - على شتاتها - ليست لتلتقي في سعيها على ملتقى واحد، وإنما هي صفان يتجهان، إما إلى الخير أو إلى الشر، ففي شتات السعي، وشتات المناهج والغايات والاتجاهات، ليس إلا النجدين، خيراً وشرّاً، نفعاً وضرراً.

وعلى الإنسان النابه البصير أن يدرس في شتات سعيه، من كائنات الوجود، ويوحد هدفه واتجاهه إلى الوجهة الموحدة لها، هي السعي إلى مرضاة الله.

فلندرس من الليل - إذا يغشى النهار والأفق، ويخفي ما فيه - ندرس درسه الصالح من إخفاء العيوب، وغشي النهار لصالح الراحة، لا من غاسقه إذا وقب، واستغل ظلامه للشرور.

ولندرس من النهار إذا تجلّى: أسفر عن ظلم الليل - ندرس درسه الصالح من المحاولة في تجلي الفطرة بصفاتها، فتجلي صاحبها في شتات المجالات الحيوية جلواتها الإنسانية، كالتحقيق كالمؤثر علوم إسلامي

ولندرس من ربنا الخالق الذكر والأنثى، الهادف وحدة الحياة الأنسية من هذين المختلفين المتناحرين حسب البنى والطاقات الجسدانية والعقلية.

لندرس دروس الإعطاء والإتقاء والتصديق بالعقيدة الحسنى والحياة الحسنى، ولكي تيسر اليسرى، ولا نكون ممن بخل واستغنى وكذب بالحسنى فنيشّر للعسرى.

«فأما من أعطى»: نفسه ونفيسه «واتقى»: في هذا العطاء ما يجب إنسانياً أن يتقى «وصدق»: بالعقيدة والحياة «الحسنى»: أحسن مراحل الحياة، وهي الأخرى. «فسنيسر»: ذاته وكيانه بأعماله وأحواله «اليسرى»: الحياة الطيبة اليسرى: «من عمل صالحاً من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنجزيه»

حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (١٦ : ٩٧) ثم ولا تختص اليسرى بالحياة الأخرى ، فهي تشمل الآخرة والأولى ، ومهما كانت في لأولى مشوبة ، فهي في الأخرى خالصة : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (٣٢ : ٧) .

« وأما من بخل » : العطاء ، « واستغنى » : عن الإقتاء ، وأخذ حريته في حيونة الحياة « وكذب » بالحياة والعقيدة « الحسنى » فسيفسره : ذاته بماله « للعسرى » : حياة قصيرة عسرة ضحك هنا ، ثم حياة دائبة عسيرة ضحك هناك : « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً .. » (٢٠ : ١٢٤) . « وما يغني عنه ماله » في تحسين الحياة هنا وهناك « إذا تردى » : سقط من عل في شيطنة الحياة هنا ، وعند العرض والحساب هناك ، فليس المال بمنجيته من تبعات الأحوال والأعمال ، اللهم إلا الإعطاء والإقتاء والتصدق بالحسنى .

« إن علينا للهدى » :

فرض فرضه الله على نفسه : « كتب على نفسه الرحمة » الرحمة والهدى بوجهها النجدين « وهديناه النجدين » : هدى في العقول والفطر ، وهدى بكائنات العالم ، وهدى بالنبين والكتب ، وهي كلها هدى الدلالة ، ثم هدى التوفيق لمن آمن واهتدى : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » (١٨ : ١٣) .

« وإن لنا للآخرة والأولى » :

فلا يحسن الذين كفروا أن لهم الأولى يفعلون فيها ما يشاؤون ، قد من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً » (١٧ : ١٨) .. وإنما تختلف عن الأخرى أنها حياة التكليف والابتلاء ، والأخرى حياة الجزاء .

« فأنذرتكم ناراً تَلَظَّى • لا يصلاها » : لا يوقدها « إلا الأشقى الذي كذب وتولى » فله صليها وإيقادها ، وللشقي ووردها والإققاد بها ، فإنها ليسا على سواء ، فالمتبوع هو الجحيم بذاته ، والتابع يحرق يحرق يحجيمه .

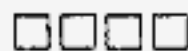
« وسيجنبها الأتقى • الذي يؤتي ماله يتزكى » :

لا يقرب إليها عذاباً لأنه الأتقى : « الذي يؤتي ماله » : ماله ، وما - له « يتزكى » فحياته كلها إيتاء وعطاء في سبيل الله ، فحق له أن يجنبها ، ولكننا التقي غير الأتقى ، الذي اقترف ما ينافي التقوى أحياناً ، إنه قد يمسه العذاب تخليصاً له عن الدرن ، عذاب الدنيا ، ثم البرزخ ، ثم القيامة ، ثم مصيره إلى الجنة ، فعذاب غير الأتقى درجات ، بقدر ما خالف التقى .

إذاً ، فالآيات هنا تقسم ثنائي إلى من محض الإيمان محضاً : « الأتقى » ومن محض الكفر محضاً : « الأشقى » وبينهما درجات بين الجنة والنار ، ومصيرهم الجنة أخيراً ، وعلى حد قول الرسول ﷺ : « كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شرد البعير على أهله » .

هذا الأتقى يؤتي ماله دون ابتغاء جزاء من آتاه ، أو شكور ، فليس لأحد عنده من يد أو نعمة يجزى بها : « وما لأحد عنده من نعمة تجزى » فليس عطاؤه وإيتاؤه ابتغاء شيء من مال الدنيا ومناها : « إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى » .

ثم الله هو الذي يرضيه بما يجزيه : « ولسوف يرضى » : يرضى بواقع الرضا يوم الجزاء ، بعدما كان راضياً عن ربه أمل الواقع يوم الدنيا .



﴿ سورة الضحى - مكية - وآياتها احدى عشر ﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالضُّحَى ¹
 سَجَى ² مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ³ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ
 الْأُولَى ⁴ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ⁵ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا
 فَآوَى ⁶ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ⁷ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ⁸
 فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ⁹ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ¹⁰ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ
 رَبِّكَ فَحَدِّثْ ¹¹ »

* * *

تقول الروايات أن الوحي انحبس عن النبي ﷺ ردىاً من الأيام ، فقال
 المشركون : إن محمداً ودعه ربه وقلاه ، وقالت خديجة أم المؤمنين : لعل ربك
 قد تركك ! يقوله المشركون هزماً ، والمؤمنون ترحماً ، ولقد أغتم النبي ﷺ
 غماً شديداً وكان حقاً له إذ يراه بعيداً عن زاده الوحيد وروحه الأليفة الأنيسة
 في وعاء السفر ولأواء التكذيب والتأنيب ، وعن ربه في هذه الهاجرة المحرقة ،

والأذى المنصب على الدعوة ، فقد انقطع عنه ينبوع الماء : الحياة الرسالية القدسية ، منزعاً بين العدو والحبيب ، فماذا يصنع إذا ؟

كان في حالته تلك المزرية المضرة ، إذ بدر الوحي الحبيب بعد انقطاعه ، مسلياً خاطره الشريف أن الوحي لم ينقطع بدافع الودع أو القلى ، وإنما للحكمة ، كما في الليل إذا سجد ، فقسماً بوجهي الزمان : ضحى النهار : وسطه ورايعته ، وسجد الليل : غسقه ومنعدره ، « ما ودعك ربك وما قلى » فكما الضحى رحمة ، كذلك الليل إذا سجد ، كل من جهة ، مهما خفيت حكمة الظلمة على الهائمين للضحى .

صحيح أن ضحى الوحي هي الحكمة كلها ، وهي الحياة الرسالية كلها ، وهي الزاد والمبدأ والمعاد ، ولكنها بحاجة في استمراريتها - ولكي يثبت الشاكون على حقها - بحاجة إلى زاد الليل إذا سجد ، فسجد الوحي وانقطاعه لفترة ، زاد لضحى الوحي واتصاله ، فناكر الوحي ينتبه أنه ليس منك ولا من شيطان ، وإلا فلماذا ينقطع ، أرحمة منه ومنك في التضييل ؟ والمؤمن بالوحي ينتبه أنك - لا تزال - بحاجة إلى ربك ، دون استغناء عنه ولا لحظة ، فلو شاء لقطع عنك رحمته : « ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً . إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً » فاعتباراً أنه كتب على نفسه الرحمة ، ولا سيما لك خاصة ، فليس يقطع عنك وحيه ، لا قطع وداع بانقضاء دوره ، فلا ينتهى إلا بانقضاء عمرك ، ولا قطع القلى - وبالأحرى - بانقطاع صلوحك للوحي وأنت حي ، ففيه إزراء بالموحي والموحي إليه : بالموحي كيف لم يعرف نبيته إذا ابتعثه وانتجبه ، فلم يعرف أنه لا يصلح لحمل الرسالة الأخيرة حتى النفس الأخير ، وبالموحي إليه ، كيف ينقطع عنه قبل انقطاع حياته ، رغم أن وحيه حياته ، فبه يحيى وعليه يموت ، أو كيف يعزل عن منصب الرسالة ؟ الجرم أو خطيئة اقترفها ، فجاء الجواب الحاسم للصديق

والعدو : « ما ودّٰك ربك وما قلى » وإنما ترك الوحي بغير وداع ولا قلى ، وإنه لحكمة عالية : هي الحجة على الناكرين النافرين ، وانتباه وتثبيت للنبي والمؤمنين ، فـ « ما ينطق عن الهوى » . إن هو إلا وحي يوحى : ليس الوحي عن هوى نفسه ولا هوى عقله ولا هوى سواه ، إلا ربه ، وإلا فلماذا ينقطع ؟ وتضليل الهوى - أياً كان - ليس لينقطع !

قد انقطع عنه الوحي ردها من الأيام^(١) ، ولأن اليهود سألوه عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف فقال عليه السلام : سأخبركم غداً ، ولم يقل إن شاء الله فاحتبس عنه الوحي ، وليدل اليهود أنه لا يقول من عنده ، وليدله أنه ليس بيده شيء ، حتى وعد الجواب ، فكيف يوحى الجواب ، وإنما هو رسول ، وإذا يعد فبإذن الله ومشينة الله : « ولا تقولن لشيء إني فاعلٌ ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت » (١٨ : ٢٤) .

« وللآخرة خير لك من الأولى » :

إناس ثانٍ لقلب الرسول عليه السلام المقروح : إن الحياة الآخرة خير لك من الأولى ، لك ولمن نخا نخوك ودخل حزبك ، وأين آخرتك من أولاك ؟ :

فأنت في الأولى في بلاء وابتلاء وعيشة منغصة مشوبة بألوان المتاعب والمصائب ، وإن كنت في راحة ضميرك أنك أدبت الرسالة ، وأنت في الآخرة في راحة خالصة .

ثم إن لك عطاءً من ربك قدر رضاك هناء وهناك : فهنا سوف يوحى لك خاتمة الوحي الذي لم يوح إلى أحد ، والذي سوف لن يوحَ إلى أحد ، وهناك :

(١) اختلفت الروايات أنه يومان أو ٣ - ٤ - ١٢ - ١٥ - ٢٥ - ٤٠ يوماً .

في البرزخ والمعاد سوف يعطيك ربك ما يرضيك ، وينسيك أتعابك في سبيل مرضاته ، فيتوَّجك تاج الكرامة بين المكرمين وفوقهم ، تاج الشهادة والشفاعة :

« ولسوف يعطيك ربك فترضى » :

فهل إن الرسول ما كان راضياً عن ربه حتى يرضيه بعبائه رضى العبيد ؟
نقول : إنه كانت حياته الرضا عن الله ، ولكنه لما احتبس عنه الوحي ظنته عن تقصير منه أو قصور ، فسخط على نفسه ، ثم بعباء الوحي بعد إنقطاعه رضى ، وشم بهذه الكرامة الوحيدة له من ربه زاد من ربه رضى ، فإن الله يعطي من يعطيه كما يرضى هو ، لا المعطى له ، وهنا الرسول يختص بهذه المكرمة الربانية ، أن أصبح عطاء الله له كما يرضاه ﷺ تخصيصاً له عن جميع الصالحين ! ، وهنا تمتاز آخرته عن سواه ميزة أخرى : « فترضى » كما أوحى إليه : « خير لك » خيرية خاصة لك دون من سواك ! وقد روي عن الرسول ﷺ أنها الشفاعة (١) ، ولا ريب أنها من رضاه ومن أعلاه وأولاه ، شفقة على أمته الذين تؤهل لهم ، لا المسمون بها وليسوا منها .

« ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً

فأغنى » .

فالذي آواك بعد يتيماً ، وهداك بعد ضاللاً ، وأغناك بعد عيلاً ، هو

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٦١ عن حريش بن شريح عن الباقر (ع) ان ارجى آية في كتاب الله « ولسوف يعطيك ربك فترضى » وهي « الشفاعة » وفيه ايضاً عن جابر بن عبد الله قال : دخل رسول الله (ص) على فاطمة وهي تطعمن بالرحى وعليها كساء من حمة الإبل فلما نظر إليها قال : يا فاطمة ! تعجلي فتجري مرارة الدنيا لنعم الآخرة غسداً ، فأنزل الله « ولسوف يعطيك ربك فترضى » .

الذي يحدد لك عهد الوحي بعد انقطاعه - وأخرى - ويعطيك فتراضى ، فما هو يتمه وضلاله وعيولته ؟ .

لقد كان النبي يتيماً بكل معانيه : منقطعاً عن أبويه ، إذ توفي والده قبل ولادته ، وتوفيت أمه بعد ستة أشهر ، فأواه الله إلى جده عبد المطلب وإلى عمه أبي طالب فكفلاه خير كفالة ، وكان يتيماً : منقطعاً عن النبوة والرسالة فأواه إليها ، ثم يتيماً عن الوحي إذ انقطع عنه فأواه ، ويتيماً : منفرداً بين الناس فأوى الناس إليه ، فلقد أزال عنه يتمه أياً كان .

« ووجدك ضالاً فهدى » : ليس هو الضلال عن الدين : « ما ضل صاحبكم وما غوى » إذ إنه ولد ديناً مؤيداً من عند الله بها اختلفت درجاته قبل النبوة وبعدها ، أجل - ليس ضلالاً عن اصل الهدى ، وعلى حد قول أمير المؤمنين في الخطبة القاصعة : « ولقد قرن الله به صلى الله عليه وسلم من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره » . وللضلال هناك معان عدة ، أضلها ضلاله عن الدين ، فلا يصدق عليه حيث القرآن والعقل لا يصدقانه عليه ، واليك منها معان :

١ - ووجدك ضالاً عن وحي الإسلام ونبوته ، فهذاك إليه ، ضلالاً عن الهداية الفعلية بوحي القرآن ، لا عن كل هداية وأبسطها : « ما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون » (٢٩ : ٤٨) « ما كنت تعلم أنت ولا قومك » (١١ : ٤٩) وعلّمك ما لم تكن تعلم » (٤ : ١١٣) « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا » (٤٢ : ٥٢) .

أجل : إنك كنت ضالاً عن هذا الهدى ، لا عن كل هدى ، فلقد كنت أهدي الناس قبل وحي القرآن ، بما كان يسلك بك روح الأمين محاسن أخلاق العالم ليلك ونهارك .

٢ - وجدك ضالة الناس ، وكما الحكمة ضالة المؤمن ، فما كانوا يعرفونك ، فهداهم اليك بما أرسلك برسالة الإسلام .

٣ - وجدك ضالاً : فريداً في الناس ، كما الشجرة في الفلاة تسمى ضالة ، ولقد كانت أرض الجزيرة قاحلة لا ماء فيها ولا كلاً ، بلا شجرة إنسانية تحمل ثمار العلم والإيمان ، وأنت الشجرة الطيبة الضالة في هذه المغارة ، فهدى الناس اليك^(١) .

٤ - وجدك ضالاً عن المعرفة حينما ولدت فهداك الله بالغزير منها ، ثم بعد ما فطمت أيدك بأعظم ملائكته ، إلى أن ابتعثك رسولاً إلى العالمين ، وهنا وجوه أخرى^(٢) .

هذا - رغم جماعة من المبشرين والمستشرقين الضالين الذين يحاولون ليثبتوا الضلال عن الدين - قبل الرسالة - على الرسول الصادق الأمين .

(١) كما في البرهان ٤ : ٧٣ عن الامام الرضا (ع) في مجلس المأمون ، وفي نور الثقلين ٥ : ٩٦ عن الامامين الصادق والرضا (ع) كما يأتي .

(٢) ولقد ضل عن الطريق مرات عدة فهداه الله إلى نجده كما يقول : ضللت عن جسدي عبد المطلب وأنا صبي ضائع كاد الجوع يقتلني فهداني الله ، وكان يقول جدي : يا رب رد ولدي محمداً أرده ربي واصطنع عندي يداً ، فما زال يردد هذا البيت حتى أتاه ابو جهل على ناقة وبين يديه محمد (ص) وهو يقول : ما ادري ماذا نرى من ابنك ! فقال عبد المطلب ولم ؟ قال : اني ألحقت الناقة وأركبته من خلفي فأبى الناقة ان تقوم ، فلما أركبته أمامي قامت الناقة كأن الناقة تقول : يا احمق هو الامام فكيف يكون خلف المقتدي ، قال ابن عباس : رده الله الى جده بيد عدوه كما فعل بموسى عليه السلام .

وخرج مع غلام خديجة ميسرة ، فأخذ الغلام بزمام بعيره حتى ضل عن الطريق ، فهداه الله يجبرائيل ان جاء بصورة آدمي فهداه إلى القافة .

وابو طالب خرج به إلى الشام فحل عن الطريق فهداه الله إلى القافة .

شريعة محمد ﷺ قبل الاسلام :

وهنا الجدير بالبحث أن يُعطف إلى شريعة الرسول قبل وحي القرآن : هل كان متحللاً عن أية شريعة ، يعبد ربه بلا شريعة ومنهاج ؟ أم دون أية عبادة كذلك ؟ أم كان متعبداً بشريعة تخصه ؟ أم مهدياً إلى شريعة الإنجيل المحكّمة قبل شريعة القرآن ؟ أم شريعة موسى أم إبراهيم أم نوح ؟ أم ماذا ؟ .

الوجه الذي نفعله وبالإمكان أن نقبله ، هو انه كان متعبداً بشريعة صالحة لزمه ، غير محرفة - أياً كان - لأن الله اصطفاه أخيراً لخاتمة الرسالات « وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » (٣٨ : ٤٧) « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » (٣ : ٣٣) فليكن - إذاً - خير الناس أجمع قبل رسالته ، فهل يا ترى كيف يصطفى هكذا وهو متحلل عن الشرائع كلها ، أو متعبد بشريعة منسوخة زمنه ؟ فلتكن شرعته هي شريعة التوراة الصحيحة حسب الإنجيل الصحيح الحاكم زمنه ، وهذا لا يتيسر إلا بتأييد الله بإيجاء ملك الوحي ، إذ لم يكن يكتب أو يتلو كتاباً قبل وحي القرآن ، ولم يدرس عند أحد من علماء الكتاب كما القرآن يصرح ، ولم يكونوا صالحين لذلك ، وليس نقصاً للرسول أن يتبع قبل رسالته شريعة غيره من المرسلين ، إذ الشرائع كلها لله ، وليس الرسل إلا وسائط البلاغ ، إضافة إلى إمكانية وحي الإنجيل إليه فذاً كما أوحى إلى المسيح ، نبيان أوحى إليهما سواء .

ووجه آخر عله أسلم ، أنه ﷺ كان يسترشد بملك الوحي الذي قرن الله به من لدن كان فطياً يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ، ما يحمل وظائفه الخاصة به ، ولا تنافيه الآية : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان » (٤٢ : ٥٢) إذ يعني به الإيمان الموحى إليه برسالة القرآن ، والكتاب كل كتاب ، فما كان يدري ما القرآن والإيمان القرآني قبل نزوله ، على أنه كان مؤمناً قبله بالواجب عليه حينه بإيجاءات ملك الوحي ، فما كان يدري ما الإيمان

— مطلق الإيمان — لولا الإيحاء ، حيث الشرعة الموحاة إليه ما كانت تنال إلا بالوحي ، دون المحاولات البشرية ، ولا سيما في الفترة الفوضى التي مضت على كتابات الوحي ، فما كان محمد^ص كبشر ، ليدري ما الكتاب ولا الإيمان ، إلى أن أوحى إليه بالإيمان ، وثم أوحى إليه الكتاب القرآن : « ولكن جعلناه نوراً نهدي من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » (٤٢ : ٥٢) .

إذا فالرسول محمد^ص كان نبياً ، قبل رسالته بوحي القرآن ، نبياً لنفسه ، إن بوحي الإنجيل ، أم وحي آخر يخصه دون سواه ، وكما يروى عنه^ص : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » فنبوته قبل ولادته هي الميثاق الذي أخذ له على النبيين أجمع : « لتؤمنن به ولتنصرنه » وهي منذ ولادته إلى بعثته ، نبوته الواقعية الشخصية ، ومن بعثته رسالته العالمية وإلى يوم الدين ، وهنا أخبار تعمه وأخرى تخصه بتأييد إلهي منذ ولادته^ص (١) مما يوحى إلى نبوته الخاصة قبل رسالته .

ووجدك عائلاً فأغنى : عائلاً من حيث المال والحال (٢) ، ومن ذويه الأقربين ومن الناس أجمعين ، فأغناه الله وكفاه عبء هذه العيولة .

« فأما اليتيم فلا تقهر » : مركز تحقيق الكمبيوتر علوم إسلامي

آوّه كما آويتك ، ولا تقهره كما لم تقهر .

(١) منها أخبار مستفيضة أنهم مؤيدون من بداية أمرهم ، وصعبيعة الاحول القائلة : نحو ما كان رأي رسول الله (ص) من أسباب النبوة قبل الوحي حتى أتاه جبرائيل من عند الله بالرسالة ، والمستفيضة القائلة : ان الله لم يعط نبياً فضيلة ولا كرامة ولا هجرة إلا وقد أعطاه فينا .

(٢) نور الثقلين ٥ : ٥٩٥ عن تفسير العياشي عن الامام الرضا (ع) في قوله : ألم يجدك يتيماً فأوّى ، قال : فرداً لا مثيل لك في المخلوقين فأوّى الناس إليك ، ووجدك ضالاً : أي ضالاً لا يعرفون فضلك فهداهم إليك ، ووجدك عائلاً : تعول اقواماً بالعلم فأغناهم الله بك ، وروى القمي عن الامام الصادق (ع) مثله .

« وأما السائل فلا تنهر » :

كما سألتني فما نهرتك ، وقد أعطيتك ما لم أعط أحداً من العالمين .

« وأما بنعمة ربك فحدث » :

تحديثاً باللسان ، وبالجوارح والجنان ، وبالأعمال ، فعيش حديثاً بنعمة ربك ،
كما عاشتك نعمته .

نعمة ربك ، لا (نعمة) إذ يعنى منها نعمة الرسالة القدسية ، فسواها بالنسبة
له لا يحسب له حساب^(١) ، ثم كضابطة عامة على كل منعمٍ عليه أن يظهرها
ويتظاهر بها موحياً أنها من الله ، تمجيداً له لا لنفسه ، وكما عن الصادقين (ع)^(٢) ،
فالخيرات كل الخيرات ، عقلية وعلمية ومرفية وإيمانية ، أو - ومادية ، يجب
إظهارها كما يحب الله ، إظهاراً لمكرمه تعالى ، لا تكاثراً وتفاخراً وازراءاً
للفاقرين لها ، فإن بذلها كما يمكن ، من إظهارها ، وصرفها فيما يجب كذلك ،
وهكذا يؤول ما يؤثر عن تعريفات المعصومين (ع) بأنفسهم ، فإنها من تحديث
نعمة الله ، ولينتفع بها عباد الله .

مرکز تحقیق کامپیوتر علوم اسلامی



(١) الصدر في محاسن البرقي عن الامام الحسن (ع) في الآية قال : امرء ان يحسب بما انعم
الله عليه من دينه .

(٢) كما في نور الثقلين ٥ : ٦٠١ عن الصادق (ع) قال إذا انعم الله على عبده بنعمة فظهرت
عليه سمي حبيب الله ، محدث بنعمة الله وإذا أنعم الله على عبده بنعمة فلم تظهر عليه سمي بغيض
الله مكذب بنعمة الله .

سورة الانشراح - مكة - وآياتها ثمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ^١
وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ^٢ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ^٣ وَرَفَعْنَا لَكَ
ذِكْرَكَ^٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا^٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا^٦
فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ^٧ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ^٨ .

* * *

استفهامات تقريرية تقرر للرسول ﷺ نعماً عدة ، إيجابية وسلبية ، وعند الفراغ عن مهمة الرسالة يطلب الله منه أن يستمر بها فيمن ينصبه مقامه ، ثم يرغب إلى ربه مؤدياً ما عليه .

« أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ » :

فقد شرح الله صدره - لأول ما شرح - ببلزمة أعظم ملك من ملائكته ،

ثم بوحى القرآن ، ثم بكافحة المعارضين ^(١) ، فإن الشرح هو الإنفتاح ومقابله الضيق ، والصدر هو صدر الروح ، وهو الوسيط بين العقل والقلب ، يأخذ من العقل وينقل إلى القلب ، وهو في الصدر : « القلوب التي في الصدور » فانشراح العقل وتفتحه يفضي إلى انشراح الصدر والقلب ، وكذلك ضيقه وعماءه إلى ضيقها وعماءها : « فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور » (٤٦: ٢٢) وقد يعبر عن ضيق الصدر أيضاً بالإنشراح : تفتحاً للكفر : « ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله » (١٦ : ١٠٦) .

فصدر الرسول الأقدس - وهو صدر الصدور - كان أشرح الصدور بين حملة الرسالات الإلهية ، تلقت الوحي أكثر ما يمكن ، ولاقى وعانى في سبيل البلاغ أشد ما يمكن ، وهو منشرح الصدر : يستقبل الصعوبات في وعاء السفر بكل رحابة صدر دون أن يقف لحد .

« ووضعنا عنك وزرك . الذي أنقض ظهرك » :

وهذه نعمة أخرى في سلبيتها ، وكونها نعمة تتلو انشراح صدره ، يوحى إلى المعنى من وزره ، أنه : ما كان يعانیه ﷺ من الأمور المستعصية ، والمواقف الخطرة في أداء الرسالة ، وتبليغ النذارة ، وما كان يلاقيه من مضار قومه ، ويتلقاه من مرامي أيدي معشرة ، وكل ذلك حرج في صدره وثقل على ظهره ، فقرره الله تعالى أن أزال عنه تلك المخاوف كلها ، وحط عن ظهره تلك الأعباء بأسرها ، فنجاه من أعدائه ، وفضله على أكفائه وقدم ذكره على كل ذكر ،

(١) كما تشير إليه الآيات : « كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » (٢ : ٧) « قلعلك نارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت منذر والله على كل شيء وكيل » (١١ : ١٢) « ولقد علم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين » (٩٨ : ١٥) .

وقدره على كل قدر ، حتى أمن بعد الخيفة ، واطمأن بعد القلقة ، « فإن مع العسر يسراً » .

أجل : وإن ظهر الرسالة المحمدية كانت - لو خليت وطبعها - منقضة :
مقعقة العظام من حملها ، مرضوضة من ثقلها ، حتى وضع الله ذلك الوزر ، بوزير
من نفسه القدسية : من صدره المنشرح ، وبصيرته النافذة ، وصموده القويم ،
وعقله المستقيم . . . وبوزير هو كنفسه : علي أمير المؤمنين عليه السلام الذي عرفه
عشرات المرات : أنه وزيره وأخوه ونفسه ومثله ^(١) .

هذا هو الوزر الموضوع عنه ، لا ما يظنه الجاهلون أو المعاندون ، أنه الذنب
العظيم ، زعماً أنه المعني منه لغوياً وليس به ، إنما الوزر ما يشغل ويتعب ، ظهر
الروح أو الجسم ، فإن كان بحساب الآخرة كان عصياناً ، وإن بحساب الدنيا
كان طاعة ، فإن مرضاة الله تبتغي بالآتعب والحرمانات يوم الدنيا ، وزراً في
الدنيا وراحة في الآخرة ، عكس مخطط الله .

ثم الإمتنان هنا يشهد ، وتأخير الوزر عن شرح الصدر يشهد ، ثم الله شهيد
مع هؤلاء الشهداء وقبلها : أن وزره عليه السلام إنما هو وزر الرسالة القدسية ،
بحملها وحملها وأعبائها وبلاغها ! .

فلو كان ذنباً لم يمتن به عليه ، ولو كان غفراً لذنبه لقال : وغفرنا عنك
وزرك ، ولكن مقدماً على انشراح صدره ، فإنه لا ينشرح إلا بعد انحناء
الذنوب ، تحلية بعد تخلية .

ثم في وزر الرسالة ، ليس وضعه عزله عنها ، فهذا إهانة وليس مكرومة ،

(١) راجع كتابنا (علي والحاكون) باب الوزارة وامثالها .

وكذلك عزله عن بعضها ، إذا فهو تخفيف حمل الرسالة بوزير من نفسه ووزير
كنفسه (١) .

وقد رفع الله ذكره بهذا الوزير لحدٍ اعتبره شاهداً منه : « أفمن كان على
بينه من ربه ويتلوه شاهد منه » (١٧ : ١١) ورفع ذكره مع الله من على المآلن
أوقات الصلاة (٢) ورفع قبل مولده ومبعثه في كتابات النبيين من قبل ، فأصبح
رفيع الذكر حياته وقبلها وبعدها ، وبإله من ذكر لزاماً لذكر الله ! وكما عن
الرسول عن الله : « إذا ذكرتُ ذكرتَ معي » (٣) .

« فإن مع العسر يسراً • إن مع العسر يسراً » :

وعلى حد قول الرسول ﷺ لن يغلب عسرٌ يسرين (٤) ، وهنا تعريف
العسرين يوحى أنها واحد ، حيث الثاني يشير إلى الأول ، كما أن تنكير يسرين
دليل أنها اثنان ، إذ لا إشارة حيث لا عهد مسبقاً :

فمع عسر الرسالة في وزرها يسران هما : انشراح صدره ووضع وزره ،
وإذا اعتبروا واحداً فتأنيهاً يسر الحشر ، وأولاه وضع الوزر وشرح الصدر ،
يجمعها ارتياح ضمير الرسول أن يبلغ ما عليه ، وهكذا يكون دائماً عسر المؤمن
مكافحاً بيسرين في الدنيا وفي الدارين ، وما عند الله خيرٌ وأبقى .

والمعية هنا « مع العسر » : توحى بواقع اليسرين حال عسرهما ، أما يسر

(١) نور الثقلين ٥ : ٦٠٣ عن بصائر الدرجات عن الصادق (ع) في الآية قال : ولاية
أمير المؤمنين (ع) .

(٢) الاحتجاج عن الإمام الحسين (ع) في حديث : فلا تم الشهادة إلا أن يقال : أشهد أن
لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ينادى على المنار ، فلا يرفع صوت بذكر الله عز وجل
إلا رفع بذكر محمد (ص) معه .

(٣) الدر المنثور ٦ : ٣٦٤ - أبو سعيد الخدري عنه (ص) عن جبرائيل أن ربك يقول :

(٤) روي عنه مستفيضة كما في الدر المنثور والطبري والبرهان ونور الثقلين على سواء .

الدنيا فارتياح ضمير المعسر في الله ، ويتبعه واقع يسره فيها ، وأما يسر الآخرة فهو أيضاً واقع معها كان خفياً ، ولكنه يظهر يوم الجزاء .

وإذا أردت مكافأة بهذه المكرمات ، فإنها ليست إلا أن تستمر بها لما بعدك ، كما كنت تعيشها حياتك أيها الرسول !

« فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب » :

فما الفراغ هنا ؟ وماذا ينصب بعد الفراغ ؟

ليس الفراغ هنا عن الصلاة ، لكي يكون نصبه نصباً في الدعاء ، ورغم أن الدعاء ليس فيها تعب ونصب ! فالغناء المفرغة توحى إلى أصل سابق ، وليس إلا شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر ، التي تجمعها الرسالة المحمدية بعسرها ويسرها ، فليس الفراغ إذاً إلا عن بلاغ الرسالة ، وما هو إلا عند حضور الموت ، فليس النصب إلا نصباً لاستمرارية الرسالة ، ولكي يرغب إلى ربه مؤدياً مبلغاً ما عليه : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الفاسقين » (٥ : ٦٧) .

هنا في محاولة استمرار الرسالة عند الفراغ عنها نصب ونصب كلاماً يناسبان « فانصب » وخلاف ما يُزعم ، ليس في الدعاء نصب ولا نصب ، ولا سيما للرسول الذي زاده الدعاء ، فلم يؤمر هو ^{صلى الله عليه وسلم} هنا بالدعاء ، فإنه كان يعيش حياته الدعاء ، دون اختصاص بالفراغ عن الرسالة ، ولقد كان في نصب علي عند وصية الخلافة نصب بالغ إذ تبع الكلمة اللاذعة المشهورة ممن احتالوا الخلافة لأنفسهم فقالوا : « دعوه فإن الرجل ليهجر » ما تدمي العيون وتحرق الأكباد !

ثم « فانصب » لغوياً - على الصحيح أو الأصح - أمرٌ بالنصب لا بالنصب ، وإلا كان « فانصب » ، وفي المنجد : نصب - نصباً الشيء : رفعه وأقامه ، والأمير فلاناً : ولّاه منصباً .

والمروى عن أئمة أهل البيت مستفيضاً صريح في النصب وإن كان النصب أيضاً يشمل ، ومن النصب أيضاً هو جعل النصيب أو تولية المنصب وهما يناسبان نصب الخلافة الإسلامية فإنها نصيب للرسول ، يستمر به بعد مماته كما كان قبله ، وكما عن الصادقين (ع) تفسيراً للآية : فإذا فرغت من نبوتك فانصب علياً وإلى ربك فارغب في ذلك^(١) وهو الوجه الوحيد الموافق لمقام الآيات واللغة .

تذييل :

روى أصحابنا أن سورتي الضحى والانشراح سورة واحدة تقرأ معاً في الركعة ، أقول : وهذه الوحدة تخص الصلاة حكياً وإلا فمهما سورتان في غير الصلاة للفصل بالبسملة بينهما .



(١) تفسير القمي بالاسناد الى ابي عبد الله الصادق (ع) وروى في الكافي عنه (ع) مثله ، ومثله عن ابن شهر آشوب عن الباقر (ع) ، وعن ابي حاتم الرازي ان جعفر بن محمد (ع) قرأ « فإذا فرغت فانصب » قال : إذا فرغت من اكمال الشريعة فانصب علياً لهم إماماً . أقول : وما روي شاذاً انه النصب في الدعاء لا يلائم المقام واللغة كما سبق ، وأما ما روي انه نصب الخلافة بعد سجة الوداع يلائم الفراغ من الرسالة ، وإنما عن الحج ولم يسبق له ذكر .

سورة التين - مكة - وآياتها ثمان

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ^١
وَطُورِ سِينِينَ^٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ^٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي
أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ^٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ^٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ^٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ
بِالدِّينِ^٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ^٨ » .

* * *

بما لا بد منه هو تناسق الإطار في أقسام القرآن مع الحقيقة التي تعرض فيها،
وهنا نجد تناسقاً دقيقاً أنيقاً بينها ، فلكي يثبت أن الإنسان مخلوق بجزأيه :
الجسم والروح ، في أحسن تقويم ، يقسم بالتين والزيتون كأمل الفواكه ، لعرض
الكال الجسماني للإنسان ، و بطور سينين وهذا البلد الأمين ، كأفضل البلاد الموحى
فيها على أعظم رجالات الوحي ، لعرض الكال والاستعداد الروحي للإنسان ،
ولكي يثبت سفال الإنسان لو تخلف ، عن المقام العال ، يشير إلى سفال

الفاكهتين بعد انهماضهما ، وسفال البلدين لو تخلفا عما أوحى فيها ، فليس العبد
العال للإنسان ، لزاماً له لأنه خُلِقَ في أحسن تقويم ، وإنما هو بحاجة إلى مقدمة
زاد الإيمان والعمل الصالح ، ولكي يُفلح ويمضي سليماً في هذه العقبات والعقبات
التي تترصد به دوائر الضلال والسفال .

« والتين والزيتون » :

هما الفاكهتان المعروفتان مع ما يحملان من رمز الكمال فيها ، وفي البلاد التي
تذبتهما ، فالتين شجرة عطوفة أليفة تقي قبل الوعد ، بخلاف الخِلاف التي تعد
وتخلف ، إذ تورق ولا تثمر ، وكذلك ذوات الأثمار التي تعد ثم توفي ، فالتين
شجرة تظهر المعنى قبل الدعوى ، وهي تهتم بغيرها في ثمرها ، قبل أن تهتم بنفسها
في ورقها ، ثم ثم تورق ، تحقيقاً لقول الله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان
يهم خصاصة » .. وثمرها طعام لطيف خفيف الهضم ، يلين الطبع ويخرج
مترشحاً ، ويقلل البلغم ، وهو للمعدة كالبلسم ، ويظهر الكليتين ، ويزيل رمل
المثانة ، ويسمن البدن ، ويفتح مسام الحنك والطحال ، وعلى حد تعبير
الرسول ﷺ « إذ أهدي إليّ طبق من تين : « كلوا ، فلو قلت إن فاكهة نزلت
من الجنة لقلت : هذه ، لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير ،
وتنفع من النقرس ، وعن حفيده الرضا عليه السلام : « التين يزيل نكهة الفم ويطول
الشعر وهو أمان من الفالج » .

والزيتون فاكهة من وجه وإدام من آخر ودواء من ثالث وضوء من رابع ،
ومن عجيب أمرها أنها لا تحتاج إلى تربية في أغلب البلاد ، ومن عظيم أمرها
ذكرها في القرآن مرات عدة : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن
وصبغ للأكليين » (٢٣ : ٢٠) .

فكما أن هاتين الفاكهتين من أقوم الفواكه وأتمها ، كذلك بدن الإنسان فإنه
خلق في أحسن تقويم .

« طور سينين » :

(طور) المذكور في القرآن تسع مرات ، تارة كمعجزة إرهابية إذ رُفعت :
(٢ : ٦٣) ، وأخرى كنز الوحي على موسى عليه السلام : (١٩ : ٥٢) ،
وثالثة كموعد لبني إسرائيل ، ورابعة قسماً بها وكتاب مسطور : (٥٢ : ١)
وعلى قوراة موسى عليه السلام مما يدل على بالغ الأهمية لهذا المكان المنيف ، فهو هنا
يحمل إشارة إلى منزل من أهم منازل الوحي وأكرمها .. والأصل العبراني في
سينين هو سيني ، عرب بإضافة النون هنا ، وبالألف الممدود تارة أخرى :
« طور سيناء » .

« وهذا البلد الأمين » :

إن كون السورة مكية ، تجعل « هذا » إشارة إلى مكة المكرمة ،
وكذلك وصفها بالأمين ، فلا أمين تكوينا وتشريعا كمكة المكرمة ، وكما في
دعاء إبراهيم : « رب اجعل هذا البلد آمناً » ، وبما أنها منزل الوحي الأخير على
الرسول البشير النذير ، فهي - إذا - أم القري ، طول التاريخ وعرضه ،
فرسولها إمام الرسل ، ورسالتها خاتمة الرسالات ، وهي أول بيت وضع للناس ،
وإن كان آخرها وحياً « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى
للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً » ، والله على الناس حج
البيت من استطاع إليه سبيلاً ، (٣ : ٩٧) .

فكما أن هذين البلدين أهم منازل الوحي ومصادر الرسالات ، كذلك روح
الإنسان فقد خلقت في أحسن تقويم روحاني ، فالإنسان يجزئه مخلوق في
أحسن تقويم .

ومن لطيف الأمر أن التين والزيتون - بما هما الفاكهتان - يحملان إشارة
لطيفة إلى بلادهما التي هي أصول بلاد الوحي ، وكما عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن

الزيتون بيت المقدس » ، وهو منزل الوحي على كبار رجال الوحي ، وأن التين إشارة إلى المدينة المنورة^(١) مما يدل على كمال التناسق بين جزءي الإنسان ، كما بين الفاكهتين وبلادها المقدسة ، فعلى الإنسان إتباع قواه الجسدانية للروحانية ، ولكي يتكامل خلقه في أحسن تقويم : ينمو جسمه على ضوء روحه ، وروحه على كاهل جسمه :

« لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين » :

وليس معنى أحسن تقويم أنه فاق الخلق كله ، وإنما : ليس في الخلق أقوم منه ، ومنه من هو مثله في القوام : « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » (١٧) : (٢٠) فمن هذا القليل الذي يشبه الإنسان في القوام ؟ أنا لا أدري ! وعله من إنسان السماء الذي تشير إليه بعض الآيات^(٢) ، أم هو وسواه ممن لا نعرف !

إن الأصل في خلق الإنسان - إلهياً - هو أحسن تقويم ، لو داوم في المشي على قوامه كما هداه الله تعالى في التكوين والتشريع : تكوينه الفطري والعقلي ، وتشريعه الإلهي الواصب غير الخليط ، وفيما إذا سلك سبيل التخلف فجزأؤه أن يُردَّ إلى أسفل سافلين ، لحدّ لا أسفل منه في الخلق ، رغم أنه ما كان أقوم منه في الخلق ! إذا فهو هو النازل من العلوّ العال إلى أسفل السفال ، وليس إلا بفعاله هو ، والله يتركه - إذاً - ثم يعبر عن تركه له أنه رده إلى أسفل سافلين .

ان جانب الخير في الإنسان أقوى من جانب الشر إذ خلق في أحسن تقويم ،

(١) نور الثقلين ٥ : ٦٠٦ الامام موسى بن جعفر عنه (ع) ان الله اختار من البلدان اربعة .

(٢) « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بينهما من دابة وهو على جميعهم إذا يشاء

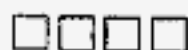
قدير » (٢٩: ١٢) وآيات وروايات أخرى أمثها سوف نوافيها عند مناسباتها الأوفى .

فهو مهيبٌ لأن يبلغ من الرفعة مدى يفوق أكرم الملائكة جبرائيل ، إذ وقف وسط الطريق ، وارتفع محمد (ص) الإنسان إلى المقام الأسنى .

بينما هذا الإنسان يرد إلى أسفل سافلين ، حين يفتكس ويرتكس إلى الدرك الذي لا يتنزل إليه مخلوق قط : « أسفل سافلين » .

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » :

الذين واصلوا في سبيل الاستكمال على ضوء التقويم الأحسن ، مشياً على الفطرة التي فطر الناس عليها ، وعلى دلالات الرسالات الإلهية : إيماناً بالله وبها ، وعملًا صالحاً فيها ، فلهم أجر غير ممنون : غير مقطوع ولا منقوص ولا مكدر ولا محسوب ، أجر في دنيا الحياة بما يصلحها الإيمان وعمل الصالحات ، وأجر في آخرها ، وما عند الله خير وأبقى . « فما يكذبك بعد بالدين . أليس الله بأحكم الحاكمين » : فما هذا الذي يدفعك إلى تكذيب الدين : طاعة الله يوم الدنيا وجزاء عليها يوم الجزاء ، أبعد توفراً البراهين الدافعة إلى الدين ؟! أبعد إدراك القيم الإنسانية ، « أليس الله بأحكم الحاكمين » : حكماً عادلاً وأفضل ما يمكن ، ومن عدله الجزاء الوفاق للظالمين ، ومن فضله رحمة بلا حساب للذين عدلوا! .



﴿سورة العلق - مكية - وآياتها تسع عشر﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي
خَلَقَ ^١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ^٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ^٣
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ^٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ • كَلَّا إِنَّ
الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاطِئٌ ^٥ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ^٦ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى ^٧
أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ^٨ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ^٩ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى
الْهُدَى ^{١٠} أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ^{١١} أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ^{١٢}
أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ^{١٣} كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ^{١٤}
نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ^{١٥} فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ^{١٦} سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ^{١٧}
كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ^{١٨} • »

* * *

ناصية الآيات الخمس الأول تشهد ، ومعها الروايات ، والمفسرون أجمع يشهدون : أنها أول ما نزلت من القرآن على الرسول الأقدس ﷺ ، وهي تحمل معنى البسملة بوجوب قراءتها قبل القرآن ، فلا تنافيها الروايات القائلة أن الحمد هي الأولى ، إذ أمر فيها بقراءة البسملة قبل الحمد كما قبل السور كلها ، والحمد بما تحمل مجمل القرآن توحى أنها الأولى ، وأما المدثر فليس إلا بعد تدثر الرسول إثر نزول أول الوحي المباغت ، فليست هي - إذاً - إلا أول المفصل .

يقرأ باسم ربك الذي خلق :

وقد يوحى « إقرء » أنه ﷺ لم يكن قارئاً قبله ، فتأمره الآية أن يقرء القرآن مبتدئاً بالبسملة ، فـ « باسم ربك » يشير إلى « بسم الله » و« الذي خلق » : الرحمان ، فإنه الرحمة العامة المدلول عليها بالخلق ، فلا أعم منه ، و« خلق الإنسان من علق .. علّم بالقلم » : هو الرحيم ، فإنه الرحمة الرحيمية الخاصة : خلق الإنسان وتعليمه ما لم يعلم ، فما كان الرسول يتلو من قبله من كتاب ، فأخذ يتلوه هنا « إقرء » وما كان يعلم « وعلمك ما لم تكن تعلم » فأخذ يتعلمه هنا : « علّم الإنسان ما لم يعلم » .

وتنقل الروايات عن النبي ﷺ قوله - إذا أمره ملك الوحي بالقراءة - : « ما أنا بقارئ » ، يقولها ثلاثاً فيضمه إلى صدره إيناساً بالوحي ، فقال أخيراً : ما أقرء ؟ قال : إقرء باسم ربك .. ولم يبين هنا ماذا يقرء ، إلا أصل قراءة الوحي باسم الله ^(١) ما يدل أيضاً على أنه بداية الوحي ، فقرء بإقراء الله : بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين .. وإلى سائر القرآن ، واعتباراً أن البسملة من القرآن فليست عند الله قبلها « وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » (١٦ : ٩٨) مها كان الأمر بها سابقاً أم لاحقاً .

إن الإنسان يحزنيه : النفسي والجسدي ، ليس كيانه - وكسائر الكائنات -

(١) لما قال (ص) : « ما ان بقارئ » دل على انه ما كان ليقرء لا بالوحي ولا بغير الوحي ، فكيف يقرأ وماذا يقرأ ؟ فلما ضمه ملك الوحي الى صدره ثلاثاً ، اجابه اقرأ بالوحي : « أقرأ باسم ربك .. » : أقرأ باسم الله الذي ربك

إلا تعلقاً بالله ، لا يستقل عنه ولا آناً . وليس انفصاله عن هذه العُلقة إلا انفصاله عن الوجود ، فهو في خلقه وعلمه وكل معطياته علق بالله ، وهو يعيش علماً منذ خلق وفي كل مراحل الحياة ، وخلق أيضاً من علق :

« خلق الإنسان من علق » :

علق لا عُلقة ، فإنها الحالة الثانية للجنين ، الناشئة عن العلق : جنس الدودات الصغيرة العالقة وجمعها ، وهو مني يمني ، فهذا المنى علق بمجموعه ، إذ يعلق بما يلحقه من ثوب أو بدن أو جدار الرحم ، وعلق جميعه ، إذ هو بحر لجي من ملايين النطف : الدودات العلقية ، العالقة بعضها ببعض ، والعالقة كلها بجدار الرحم ، وليست الجرثومة الأولى هي العلق : الحالة الثانية للجنين ، ولا العلق : مجموعة الدودات ، وإنما واحدة من العلق ، إن كانت واحدة ، وأكثر إن كانت أكثر ، لذلك « خلق الإنسان من علق » : بعض من البحر المنوي السابحة فيه ملايين العلاقات : الدودات المنوية ، لا كله ، وهذا البعض هو النطفة من مني يمني : « ألم يك نطفة من مني يمني ، ثم كان علقه فخلق فسوى » (٧٥ : ٣٨) .

فهنا علق ، وهنا واحدة من العلق هي النطفة ، وهنا علقه خلقت من هذه النطفة ، فالعلق : النقطة الدموية العالقة ، هي الحالة الثانية الجنينية ، والثالثة المنوية ، ومن المضحك المبكي تفسير العلق بالعلق ، خلاف اللغة ، وخلاف ترتيب الخلقة ، وخلاف كافة الآيات المستعرضة لخلق الجنين ، المبتدأة بالمنى والنطفة والمثنية بالعلق^(١) ! ولم يكن هكذا تفسير إلا لقصور العلم مسبقاً عن أن المنى يحمل ملايين الدودات ، يخلق من كل واحدة جنين واحد ، لا من المنى كله .

ولقد بدر الوحي من الرسول الأمي لأول ما بدر ، بهذه المعجزة العلمية ،

(١) كآيات (٧٥ : ٣٧) (٨٠ : ١٦) (١٨ : ٣٧) (٢٣ : ٥) (٣٥ : ١٠١) (٤٠ : ٦٧) (٣٥ : ١١) .

ليوحي إليك .. بحول الله وقوة الله اقرأ : أصل القراءة الوحي فإنه باسم ربك الموحى إليك ، وكل قراءة هي بالوحي فعليك ان تبده فيها بالسملة قد كل امر ذي بال لم يبد فيه باسم الله فهو أبتر ، واي بال فوق بال الوحي ؟

التي اكتشف أخيراً شيء منها قليل ، ويحبه الكثير الكثير ، مما على الإنسان أن ينظر فيه : « فليتنظر الإنسان مم خلق » ؟ .

فلقد كان أصل الوحي عليه معجزة ، تحمل معجزة علمية خالدة ، والرسول كيانه الرسالي معجزة ، فكيان الرسالة المحمدية مجذور مكعب من المعجزات ! .

إن النطفة الأمشاج هي المجموعة من نطفة الذكر والأنثى ، تتزاوجان فتصبحان واحدة ، فكيف الزواج ؟ وكيف النطفتان قبل الزواج وبعده ؟ لقد أمرنا نحن أن ننظر كيف خلقنا ، فنظرنا ووجدنا طرفاً من الخلق العجيبة الطريفة ، ما يزدادنا معرفة بالذي خلق . خلق الإنسان من علق^(١) .

(١) لقد كشف العلم طرفاً من هذه المعجزة الأولى للقرآن ، والخلق العجيب الطريف الضريف المنزل القرآن ، ولوحظ بالمعبرون المسلحة أن كيف النطفتان ؟ وكيف تتزاوجان ؟ ..

الجينات : بيضات دافقة من ترائب الأنثى ، كل منها كبيضة الدجاجة ، إلا أن قطرها يتراوح بين جزء أو جزئين من عشرة أجزاء من المليمترات (١٠/٨ أو ١٠/٢) ووزنها جزء من مليون جزء من الغرام ، وفيها مح (Cytoplame) وفي المح الحويصلة الجرثومية (Nuelede) التي يبلغ قطرها جزء من ثلاثة آلاف جزء من القيراط ، فيها تكمن النطفة الجرثومية (Noyau) التي يبلغ قطرها (٣٠٠ - ١) من القيراط .

هذه البيضة تتكون في ظلمة البيض ضمن حويصلة تسبح في سائلها الألبوميني ، فإذا نمت هذه الحويصلة ، وازداد السائل الذي في باطنها ، يتمدد غشاءها ويرق ثم يتفجر وتخرج البيضة منها ومن البيض كله ، فإلى أين تذهب هذه البيضة الصغيرة العزيزة العذراء رحلتها في هذا الظلام ؟ . إنها على موعد مع العشير الذي تحلم به دون معرفة مسبقة بينها ، يتسارعان إلى بعض ويتلاقيان في الطريق ، ثم يسيران متعاقبين متزاوجين إلى بيت الزوجية ، المهيأ لهما ، فهل لنا أن نعرف هذا العشير أيضاً كما عرفنا العشيرة ، وقبل أن نعرف زواجهما ؟ .

إنها الكروموزومات ، قطر كل منها لا يزيد عن ستين جزء من ألف مليمتر (١٠٠٠/٦٠) فهو أصغر من خطيبه بكثير ، وله عقبات في هذا الزواج : إنها أصغر من عشيقتها بكثير ، إنها بين ملايين الخطاب الآخرين : الدودات المثوية الكروموزومية ، والملتقى أيضاً بوقى مظلم مظلم - ضيق ضيق - رفيع رفيع ، قطره كشعرة يخطيه وراء الرحيم ، ويمتد فيه إلى البيض ، إذا فكيف بالامكان الزواج مع هذه العقبات ؟ .

« إقرء وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » :

إن نعمة العلم بعد الخلق تحتل المنزلة الأولى بين النعم ، وكما أنه تعالى أحسن الخالقين في خلق الإنسان ، كذلك هو الأكرم في تعليمه ، وكما أن الإنسان علق بربه في كيان الخلق ، كذلك في إنسانيته القائمة على العلم ، فكافة علوم الإنسان

ليس هناك إلا الخلق العجيب لكل واحدة منها ، حيث خلق الله لها رأساً مكوراً له عنق لولي وذنب طويل يضرب به الماء ويتباطئ ، وجعل هذا الذيل معقوداً بأنشطة لينفك عنه إذا دخل إلى البيضة ! .

فكر واحد من هؤلاء الذكور الكروموزومية كان أسرع وأقوى في هذا السباق ، سبق منافسيه إلى جدار البيضة العذراء ، فيضرب برأسه الجدار بقوة دخول الدار ، من باب الجاذبية (Coneduttuaction) فإذا دخل اعلفت العذراء بالها ، وقطعت جذعها واحصنت فرجها ، وصدت الملائين الآخرين من الخطاب الآخرين ليموتوا حزناً ، أو يحبوا خداماً لزميلهم السابق ، ولكي يخلق جنيناً كاملاً ! .

فكذا تتكون النطفة الأمشاج في يدابة مشجها ، ثم هناك أمشاج أخرى تبحث عنها في آفة الأمشاج ، وإليك منها اشارة :

ان الرحم - البيت الزوجي - مضياف كريم ، يستعد كل شهر لاستقبال العروسين وإجواءهما وإطعامهما ، فتفتح خلايا غشاه المخاطي ، وتوسع الشعيرات الدموية ، وتضبط الغدد ، فإذا تم الزواج استقبل الزوجين على الروح والسعة ، وان تعرقل الزواج بسبب من الأسباب تميز غيظاً وتغزق أسفاً وبكى على البيضة الميتة دماً غزيراً . ان الزواج بعد لا يكاد يتم حتى يبدأ العمل المشترك في بناء الانسان الجديد . فيمشج الشريكان ، كل ما عنده بما عنده الآخر من عناصر التخطيط : (الكروموزومات) ، وما فيها من الخلق الخلق : (الجينات) التي خضتها وخفقتها يد القدرة الإلهية بأقلام الإرث المتعذر عبر الأجيال ، من الجدود والآباء إلى الأبناء والأبناء :

وأقل الأمشاج ثلاثة : مشج النطفتين قبل الزواج ، ومشجها بالزواج في البوق ، ومشج الشريكين كل ما عنده ، فالنطفة على وحدتها أمشاج ، كما الماء الدافق من الصلب والقرئ واحد ، وسوف تأتي بتفاصيل لخلق الإنسان في طيات الآيات المناسبة .

من الله ، من العلوم الغريزية : الفطرية والعقلية ، ومن الإكتسابية الناشئة عنها ،
النامية بها ، ومن علوم الوحي ، فائقة الفطرة والعقل ، المتحللة عن الإكتساب
المعتاد ، وهي أعلامها ، الخاصة برجال الوحي ، ولكي يعلموا الناس ما لم
يكونوا يعلمون : « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم
ما لم تكونوا تعلمون » (٢ : ١٥١) .

وقيّد العلم بالقلم ، لأنه لا يقيد إلا به ، وكما عن الرسول الأقدس ﷺ :
« قيّدوا العلم بالكتابة » وإنما هذا القيد في غير الوحي ، فإنه يقيد في صفحات
قلوب أصحابه دون حاجة إلى قيد القلم : « سنقرءك فلا تنسى » فالله الذي
علم الإنسان ما لم يعلم ، وما لم يكن يعلم ، هو الذي يأمر بك بقراءة الوحي ،
ويعلمك ما لم تكن تعلم : « وعلمك ما لم تكن تعلم » .

وتأريخ الحضارات يشهد أن كافة التقدمات العلمية الحضارية مستوحاة من
وحي السماء برجاله الذين بيّضوا وجه التاريخ بتعاليمهم النيرة^(١) .

وهل العلم دون قيد العمل يكفي الإنسان كرمًا ؟ فكيف لم يقيد به هنا ،
الجواب : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » و « إن العلم مقرون بالعمل فمن علم
عمل^(٢) » ، وإن العلم من الله والعمل من الإنسان ، وإن كان هو أيضاً
بتوفيق الله .

والقلم - أي قلم - قلم الحبر ، أو الحديد الكاتب على الحجر ومثله ، أو قلم
الأمواج المستخدمة لمسجلات الصوت والصور ، إنه مما يقيد العلم كأحسن وأء من
ما يكون ، إلا قلم الوحي على قلوب النبيين ، فإنه في غنى عن الوسائل العادية
والمحاولات البشرية ، فكما الوحي معجزه ، كذلك قلمه الذي يقيده ، والأقلام
كلها تخطئ . إلا قلم الوحي ! .

(١) راجع كتابنا (تاريخ الفكر والحضارة) .

(٢) عن علي عليه السلام وكما في روايات كثيرة ، تعني العلم الحقيقي .

« كلا إن الإنسان ليطغى . إن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى » :

كلا : إنه لا ينتبه هذا الإنسان أنه علّق خلق من علق ، وإن ربه علّمه ، فهو متعلق الذات والكمالات بربه ، ولكنه ينسى فيطغى أن رأى نفسه مستغنياً عن ربه وليس به ! .

إن رؤية الاستغناء هي الدافعة للطغوى : أن يحسب الإنسان نفسه مستغنياً عن ربه فيطغى عليه ويعصيه ، ومستغنياً عن الخلق فيظلمهم ، فلا الغنى ولا الاستغناء ، ليس واقعاً يعيشه أي إنسان ، وإنما الخطأ في الرؤية ، أن يراه كذلك وليس به : « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » خطأ عامداً يندد به بأشده ، كيف لا ينتبه أنه فقير إلى الله كما كان بداية أمره ! وأن رجوعه إلى ربه ، لا يستطيع الفرار عن رجوعه ، مهما كان مبتداه ! .

هذه الرؤية الخاطئة قد تجعل الإنسان طاغياً على الله وعباده في حملة واحدة ، كالذي ينهى عبداً إذا صلى :

« أرايت الذي ينهى عبداً إذا صلى . أرايت إن كان على الهدى . أو أمر بالتقوى » :

أبو جهل الطاغية يرى الرسول ﷺ يصلي عند البيت ويقول لحزبه : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم ، قال : فبالذي يحلف به لئن رأيتُه يفعل ذلك لأطأن على رقبته ، فقل له : ها هو ذلك يصلي ، فانطلق ليظاً على رقبته فما فجسهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويرقي بيديه ، فقالوا : ما لك يا أبا الحكم ! قال : إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة ، وقال لي

الله ﷻ : والذي نفسي بيده لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً ،
فأنزل الله سبحانه « أرأيت الذي ينهى ... » .

إنه ليس المحرم هو النهي عن الصلاة الصحيحة فحسب ، بل الباطلة أيضاً .
وكما أن علياً عليه السلام ما نهى عنها سناداً إلى هذه الآية (١) .

« أرأيت إن كذب وتولى . ألم يعلم بأن الله يرى » :

« أرأيت » الأولى ، وهذه الثالثة ، خطابان للنبي (ص) تسديداً له صموداً على تقواه
وهداه ، والوسطى للذي كذب وتولى تنديداً به كيف ينهى عن الهدى والتقوى :
ألم يعلم بأن الله يرى ! « كلا » فلو رأى ودري لم يفعل فعلته الرديئة السافلة .

« كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فليدع
ناديه . سندع الزبانية » .

السفع هو الأخذ بسفحة الفرس ، أي سواد ناصيته ، كناية عن تحديده على
ما يرام ، ولقد سفع الله ناصية هذا الكذاب الأشر ، ووسم خرطوم يوم أحد إذ
قتل ، وهنا إذ منعه عن وطى رقة الرسول (ص) حين يصلى ، معجزة حاضرة
حاذرة ، وآية ترهب حزبه الخاطئين ، أن الله تعالى ليس بمهمل للمؤمنين ، وسوف
يسفعه ويسم على خرطومه : « ينسسه على الخرطوم » يوم البرزخ والقيامة « فليدع

(١) نور الثقلين ٥ : ٦١٠ : خرج علي (ع) في يوم عيد فرأى أئمة يصلون فقال : أيها
الناس قد شهدنا في الله (ص) في مثل هذا اليوم ، فلم يكن أحد يصلي قبل العيد ، فقال رجل :
يا أمير المؤمنين ! ألا تنهى أن يصلوا قبل خروج الامام ! فقال : لا أريد أن أنهى عبداً إذا صلى ،
ولكننا نحدثهم بما شهدنا من النبي (ص) أو كما قال .

ناديه « هناك » كما هدد بها الرسول هنا^(١) ، « سندع الزبانية » : الملائكة الغلاظ الشداد التسعة عشر : « أخذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » .

« كلا لا تطعه واسجد واقترب » :

فه « اقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجداً »^(٢) هنا يسجد الرسول ﷺ قائلاً في سجوده : « أعوذ بالله ، برضاك من سخطك ، وبما فاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، حتى لا أحصي ثناء عليك . أنت كما اثنيت على نفسك »^(٣) .

فهذه من آيات السجدة الواجبة ، والباقيصة هي : آية النجم « فاسجدوا لله واعبدوا » (٥٣ : ٦٢) وفصلت « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » (٤١ : ٣٧) والسجدة : « إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً » (٣٢ : ١٥) .

تسمى المجموعة العزائم الأربع ، فتجب السجدة عند تلاوتها : قراءةً وسماعاً واستماعاً ، لا إطلاق الآيات ، وتعارض الروايات في السماع إيجاباً ونفيّاً يعالج بردها إلى القرآن فالأخذ بالأول لموافقة الآيات ، ولأن الناهية وغير الموجبة توافق سائر

(١) تقول الروايات أن أبا جهل هدد النبي قائلاً : « لقد علمت ما بها أكثر نادياً مني » فنزلت الآية .

(٢) نور الثقلين ٥ : ٦١١ عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله (ص) قال : ..

(٣) نور الثقلين ٥ : ٦١٢ من غوالي اللثا في روي في الحديث أنه لما نزل قوله تعالى : واسجد واقترب . سجد النبي (ص) فقال في سجوده : ..

المذاهب وتختلف الإيات بخلاف الآمرة كالآيات ، سواء ^(١) . وإذا كنت في صلاة فريضة فسمعت آية السجدة أو استمعت ، أو مأت لها إيماء ولا تسجد لأنها تنقض الصلاة ، ولأنك سوف تسجد في الصلاة ، وهي واجبة سابقة على وجوب السجدة وسببها ، والحق لما تقدم كما هو لمن تقدم .

وبقية الآيات الآمرة بالسجود تحمل على الإستحباب ، ولأنها تضم قرائن تصرفها عن الوجوب ^(٢) .



(١) الكافي والتهذيب عن أبي بصير قال قال : إذا قرئ شيء من العزائم الأربع فسمعتها فاسجد (الوسائل ب ٤٢ من قراءة القرآن) رقيه عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر (ع) قال سألت عن الرجل يكون في صلاة في جماعة فيقرأ إنسان السجدة كيف يصنع ؟ قال : يؤمي برأسه . قال : وسألت عن الرجل يكون في صلاته فيقرأ آخر السجدة ، قال : يسجد إذا سمع من العزائم الأربع ثم يقوم فيتم صلاته إلا أن يكون في فريضة فيؤمي برأسه إيماء .

(٢) كآية النمل : « ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض » (٢٧ : ٢٥) فلأنها تنديد بتارك السجدة لله إطلاقاً ، وآية الحج : « يا أيها الذين آمنوا اركعوا وأسجدوا وأعبدوا ربكم » (٢٢ : ٧٧) فإضافة الركوع والعبادة تجعلها آمرة بالعبادات المفروضة المعروفة بغير الآية وأشباهاها . فلا تشمل سجدة التلاوة ، وآية الرعد والنمل : « والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً » (١٣ : ١٥) (١٦ : ٤٩) وآية الحج : « ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض » (٢٢ : ١٨) هذه الآيات إنما تحكمي سجود الكائنات لربها ، دون أمر حاضر زائد على ما يراد من العبادة والصلاة . دون الآيات الأربع الماضية ، فإنها آمرة بالسجدة .

﴿ سورة القدر - مكية - وآياتها خمس ﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ^١
وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ^٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ^٣
تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ^٤
سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ^٥ » .

مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

.. آيات خمس تبرز أهمية وحي القرآن ، والقلب الذي أنزل عليه ، والليلة التي أنزل فيها ، واستمرارية واقع القدر بإلهامات مستمرة على قلوب الطاهرين من آل الرسول ﷺ المكرمين ، تضم الحقائق من كل أمر .
لذلك تقول الروايات إنها نسبة أهل بيت العصمة الحمدية ، إلى يوم القيامة ، كما عن الرسول الأقدس ﷺ قوله عن الله تعالى أنه قال : « إقرأ » « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ » فلأنها نسبتك ونسبة أهل بيتك إلى يوم القيامة «^(١) .

(١) نور الثقلين ج ٥ ص ٦١٦ ح ٢١ ومثله الأحاديث في نفس المصدر كالتالي :
ح ٩٥ - ٩٧ و ٩٩ و ١٠١ - ١٠٣ و ١٠٨ و ١١٠ .

نسبة روحية قدسية كما وأن سورة الإخلاص نسبة رب العالمين .

في هذه السورة ندرس : ما هو النازل في ليلة القدر ؟ وما هي ليلة القدر ؟
ومتى هي ؟ وما هي خيرتها من ألف شهر ؟ ومن هو الروح المنزل مع الملائكة
فيها ؟ وعلى من تنزل ؟ وبماذا تنزل ؟ وما هو السلام فيها حتى مطلع الفجر ؟ .

« إنا أنزلناه » :

هل هو نزول روح النبوة - القدسية - على الرسول الأقدس ﷺ ؟
أم وحي القرآن النازل عليه بتمامه طوال الدعوة ؟ أم بعض القرآن وعلمه هذه
السورة نفسها ؟ أم القرآن كله بصورة محكمة غير مفصلة ، متحللاً عن هذه
التعابير اللفظية والأمثال ، والتكررات والإخبارات عن المستقبل ؟

لا نحتمل أنه بعض القرآن المفصل ، ولا بعض المحكم ، لمكان « هـ » لا « بعضه » :
وعلى كونه بعضه لا نحتمل أنه نفس السورة ، لمكان « هـ » لا « ها » ولأنه إخبار
عما سبق : « أنزلناه » لا عن الحال : « نزلته » فـ « أنزلناه » يحيل أن يكون
النازل هو سورة القدر نفسها ، لذكورة الضمير ومضي الفعل .

إضافة إلى أن نزول البعض من القرآن - أياً كان - في ليلة القدر ، أنه
من توضيح الواضحات ، إذ إن أبعاض القرآن منتشرة نزولاً على أبعاض زمن
الرسالة ، ومن أحراها ليلة القدر ، وإن نزول البعض منه فيها لا تكسبها فضيلة
خاصة ، إذ الأبعاض كلها قرآن ، وكلها تكسب زمنها فضلاً دون اختصاص ببعض
دون بعض .

ولا نحتمل أيضاً أنه القرآن المفصل ، النازل طوال الرسالة نجومياً متفرقة ،
فكثير من آياته لا تتحمل نزولها دفعة واحدة ، بداية البعثة ، كالمخبرة عما تحقق
متأخراً عن ليلة القدر بصيغة الماضي : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها »
(٥٨ : ١) وأمثالها .

والآيات الناهية عن استعجاله بالقرآن قبل أن يُقضى إليه وحيه :
« ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً »
(٢٠ : ١١٤) « لا تحرك به لسانك لتعجل به » (٧٥ : ١٦) .

ولو كان القرآن المفصل نازلاً عليه جملة واحدة ليلة القدر ، لم يكن في قراءته قبل نزوله التدريجي استعجال ، وإنما حكاية عما أوحى إليه ، ونفس ما أوحى إليه ، إضافة إلى تصريحات أخرى : « وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلتاه ترقباً » (٢٥ : ٣٢) .

وأخيراً لا نحتمل أنه روح النبوة القدسية ، لأنها نزلت عليه منذ بداية الوحي فهل يا ترى إن النبي ﷺ لم تكن له روح النبوة ، بينه وبين ليلة القدر الأولى من سني رسالته ، زهاء خمسين يوماً أو يزيد (١) ؟

فنحن هنا بين واقعين : واقع نزول القرآن في ليلة مباركة : « حم . والكتاب المبين . إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم » (٤٤ : ٣٦) وهي ليلة القدر : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » وهي من رمضان : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » (٢ : ١٨٥) .

وواقع نزوله نجوماً متفرقة طول البعثة خلال ٢٣ سنة كما هو الواضح .

ولابد أن يختلف النزولان مع بعض ، فهل هو نزوله المفصل مرتين ؟ كلا !
للدليل المسبق ، سواء أكان نزولاً على قلب الرسول في هاتين المرتين ، أم في المرة الأولى إلى بيت المعمور في السماء الدنيا دفعة واحدة ، وفي الثانية على قلب الرسول ﷺ نجوماً متفرقة (٢) ، وهذه أسطورة لا يقبلها العقل والدين ولا آي

(١) من ٣٧ رجب إلى ليلة القدر المرة بين ما يأتي .

(٢) في السكافي عن أبي عبد الله الصادق (ع) قال : نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور ، ثم نزل في طول عشرين سنة (نور الثقلين ج ٥ ص ٦٢٤ ج ٥٣) . =

القرآن المبين ، إضافة إلى الدليل المسبق من لزوم الكذب ، إلا أن يعنى منه قلب الرسول (ص) ، فأي بيت هو أعمر من قلبه المنير ، وهو أيضاً في السماء الدنيا ، مع الخلق المكلفين ضرورة كونه في المرسل إليهم ، وإن كان كيانه فوق العالمين : بالأفق الأعلى .

ثم القرآن ليس طراً يصعد أو ينزل إلى بيت في السماء ! فليكن الرسول هو المعنى بالبيت المعمور ، إذ عمر بقلبه المنير بوحى اللطيف الخبير .

أقول : لا سبيل إلى شيء من ذلك ، وإنما هو نزوله جملة واحدة بصورة محكمة دون تفاصيل ، في ليلة القدر على قلبه المنير ، ثم نجوماً متفرقة طوال البعثة .

والقرآن يشير إلى هاتين المرتين في آيات ويصرح في أخرى : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (١١ : ١) ف « ثم » هنا ، تفصل بين القرآن المفصل والحكم غير المفصل ، أن المفصل يتطلب نزوله زمناً بعيداً ، وهو مجموعة زمن الدعوة ، ولكن الحكم لا يتطلب إلا وقتاً قصيراً يناسب أن يكون ليلة القدر .

ولقد كان الرسول خبيراً بالآيات قبل أن يقضى إليه وحياً : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً » ومن الحال الاستعجال فيما لم يسبق منه للرسول بال ، ولقد كان يحرك به لسانه ليعجل به ، لتحريكاً دون أن يعلم منه شيئاً ! : « لا تحرك به لسانك لتعجل به . أن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه . فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » (٧٥ : ١٦ : ١٩) . فقد نهي

= وهذه الرواية واحدة شاذة لا سبيل فيها إلا التأويل المسبق في المتن ، وسندها : حفص بن غياث ، عامي لم يوثق وكذلك الراوي عنه محمد بن سليمان .

ولو كانت صحيحة مستفيضة أيضاً لم تكن تثبت بيتاً جسمانياً من حجب ومدد نزل فيه القرآن ليلة القدر إذ المعنى لا ينزل على الجسم ، إلا جسماً فيه معنى - بحسبه - كقلب النبي الأقدس (ص) .

عن الاستعجال في لفظ القرآن لينضم وحي اللفظ إلى وحي المعنى فيصبح القرآن وحيًا مزدوجًا ، وليكون تفصيل وحي المعنى أيضًا بالوحي ، كما نرى في آيات تصرح : أن تفصيل الكتاب كحكمه ، من الله « ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (٤١ : ٢) .

ولقد سبق محكم القرآن أم الكتاب ، وفي هذه المرحلة المسبقة لم يكن كتاباً ولا قرآناً ، وإنما علم الله المحكم دون أن يعلمه أحد : « يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » (١٣ : ٣٩) : أصل الكتاب ، وعند ذلك لم يكن قرآناً يُقرء : ولا عربياً : واضحاً ، وإنما الله جعله قرآناً عربياً : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » (٤٣ : ٢ - ٣) عليٌّ من أن تناله الأفهام ، حكيم من أن تتطرق إليه الأوهام .

وبعد هذه الحكمة البعيدة المدى قبسل نزوله ، أنزله الله بصورة محكمة هي تفصيل أم الكتاب ، أنزله على رسوله ليلة القدر جملة واحدة ، ثم فصله له طوال البعثة نجوماً متفرقة ، ولم يكن الرسول ليعلم قبله لا مفصله ولا محكمه : « ما كنت تعلمها أنت ولا قومك » (١١ : ٤٩) « ما كنت تدري ما الكتاب .. » (٤٣ : ٥٢) « وأنزل الله عليك الكتاب وعلمك ما لم تكن تعلم » (١٣ : ٤) .

وهذه مراحل ثلاث للقرآن : ١ - القرآن المحكم لدى الله ، ٢ - القرآن المحكم لدى الرسول ، ٣ - القرآن المفصل لدى الرسول فلدى الناس : « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

« إنا أنزلناه » :

نستوحي من هذه التأكيدات الثلاث منزلة القرآن العالية ، فـ « إنا » يؤكد النزول ، إذ لو لم يكن يتنزل القرآن عما عند الله من العلو والحكمة العالية ،

لم يكن الرسول ليفهمه فضلاً عن سواه ، فليس النزول هنا من مكان عال ، وإنما من مكانة عالية هي مرحلة ام الكتاب .

و ضمير الجمع « نا » يؤكد لنا : أن هذا القرآن مجموعة الرحمات الإلهية الممكن نزولها على الإنسان ، فجمعية الصفات هنا - لا الذات - تدلنا على أن نزول القرآن تصاحبه كافة الإفاضات من كافة الصفات الإلهية في أمرين :

حمل القرآن لما يمكن حمله من العلوم والتوجيهات الإلهية أولاً وأخيراً ، ووضوح آياته ونصوعها لآخر درجات الإمكان ، فلا أوضح منه بياناً ، كما لا أعمق منه برهاناً وتبياناً .

وأخيراً - إضافة إلى الأدلة المسبقة - نستوحي من إنزال القرآن هنا نزوله الدفعي ، كما التنزيل هو التدريجي - تتبع موارد استعمالها .

ثم لماذا أشير هنا بالضمير « أنزلناه » دون تصريح بالقرآن ؟ اعتباراً بأن القرآن المحكم ضمير مستتر ، وأنه لا يحق أن يعنى بالضمير المجهول ، إلا الوحي الأخير ، فكما ان « هو » في الأشخاص لا يعنى إلا الهوية المطلقة الإلهية ، لأنه « هو » على الإطلاق ، كذلك « هو » في النازل من وحي السماء لا يحق إلا للهوية المطلقة الكتابية ، فكتاب الله إله الكتب لأنه أنزله بعلمه .

واستنتاج ثان وهو أن النازل لبسلة القدر لم يكن هذا القرآن المفصل حتى يصح القول : إنا أنزلنا هذا القرآن ، وإنما روحه الجمل ، ومحكمه المجهول عنا ، الغائب عن عقولنا ، ولذلك كله يستحق ضمير الغائب المطلق « هو » تأمل .

« في ليلة القدر » :

فما هو القدر ؟ وكم هي ليلة القدر ؟ وما هي ؟ وهل هي تتكرر طوال الزمن ؟ أم إنها ليلة مضت دون تكرار ؟ أم تكررت زمن الرسول ثم انقطعت ؟ .

بحوث قيمة ذات قدر حول ليلة القدر ، علنا ندرسها معمقة ، على أسهل
تعبير وكما هي دأبنا في هذا التفسير :

فهـ « القدر » : علته المنزلة والمقام ، إعتباراً بما حصل في ليلته وما يحصل ،
فليس الزمان ذا قدر ومنزلة ذاتياً ، اللهم إلا بما يحل فيه من عظام الأحداث
الجليلة ، ولهذا الحدث العظيم : حدث نزول القرآن الكريم ، حدث الوحي
والرسالة الأخيرة ، إن له منزلة لا أعظم منها ولا يساويها أي من أحداث
التاريخ ، . . إن منزلتها تفوق كل المنزلات طوال الزمن ، إذ لم يأت بما أته
كل الزمن .

إن هذه الليلة المباركة تفوق عظمتها الإدراك البشري ، وإدراك الرسول
أيضاً كبشر ، وإنما هو يدركها كرسول : « وما أدراك ما ليلة القدر ؟ ليلة
القدر خير من ألف شهر » : ألف شهر يقام فيها في سبيل الله ، وألف شهر يعارض
فيها شريعة الله ، خير من التاريخ بأسره ، من شره إذ تكافحه ، ومن خيره
إذ تفوقه .

و « القدر » علـه - أيضاً - التقدير : تقدير قيم الإنسان ، وتبدير حياة
الإنسان لأعق أبعاد التاريخ ، تقدير « ما أشمله » من تفريق كل أمر حكيم :
« .. فيها يفرق كل أمر حكيم . أمراً من عندنا إنا كنا منذرين » (٤٤ : ٣)
وهذا مما يستمر طوال الرسالات والرسالة الإسلامية حتى آخر زمن التكليف ،
وتقدير يخص زمن الرسول ، بنزول القرآن الحاوي لكل الأقدار وكل ما تتطلبه
الحياة كل الحياة .

ونجد تفاسير أخرى لمعنى القدر في المروي عن أهل بيت الرسالة الحمديّة ،
من : أنها ليلة قدرت فيها السماوات والأرض ، و قدرت ولاية أمير المؤمنين عليه السلام

فيها^(١١) إيجاء إلى نوعي التقدير تكويناً وتشريعاً ، باعتبار أن ولاية علي عليه السلام تضم كافة الولايات التشريعية لأنها تمثل الولاية القدسية المحمدية التي هي خاتمة الولايات وجامعة النبوات .

وأنها ليلة تقدير الأرزاق والآجال كما عن جعفر بن محمد عليه السلام^(١٢) وهي من فروع تقدير السماوات والأرض ، وقد يعم تقديرهما تقدير ما هو كائن إلى يوم القيامة كل ليلة قدر بسنتها بما فيه المقامات الروحية كما عن الرسول الأقدس (ص) ^(١٣) والإمام الرضا عليه السلام^(١٤) .

« ليلة القدر » :

إنها ليلة واحدة في السنة لمكان قام الوحدة « ليلة » لا « الليل » حتى يفيد الجنس الملائم لأكثر من ليلة ، ولا « ليال » حتى ينص على العدد .. إنما « ليلة » .

(١) كما في معاني الأخبار عن الفضل قال ذكر أبو عبد الله (ع) « إنا أنزلناه في ليلة القدر » قال : ما أبين فضله على المشهود قال قلت : رأي شيء فضله ؟ قال : نزلت ولاية أمير المؤمنين (ع) فيها ، قلت : في ليلة القدر التي نزل فيها في شهر رمضان ؟ قال نعم هي ليلة قدرت فيها السموات والأرض ، و قدرت ولاية أمير المؤمنين (ع) فيها (نور الثقلين ج ٥ ص ٦١٧ ح ٢٣) .

(٢) المصدر ص ٦١٨ ح ٢٩ .

(٣) المصدر عن معاني الأخبار عن أمير المؤمنين علي (ع) قال قال رسول الله (ص) يا علي أتدري ما معنى ليلة القدر ؟ فقلت : لا يا رسول الله (ص) ! فقال إن الله تبارك وتعالى قدر فيها ما هو كائن إلى يوم القيامة فكان فيما قدر عز وجل ولايتك وولاية الأئمة من ولدك إلى يوم القيامة (المصدر ص ٢٩٦ ح ٨٠ عن معاني الأخبار) .

(٤) نور الثقلين عن عيون الأخبار في مجلس الرضا (ع) مع سليمان الروزي - قال سليمان الرضا (ع) : ألا تخبرني عن « إنا أنزلناه في ليلة القدر » في أي شيء نزلت ؟ قال يا سليمان ليلة القدر يقدر الله عز وجل فيها ما يكون من السنة إلى السنة ، من حياة أو موت أو خير أو شر أو رزق . وفي ح ٨٤ عن الباقر (ع) مثله .

هذا - ولكننا ماذا نصنع بواقع اختلاف الآفاق ، وعله حوالي يوم أو يومين في الكرة الأرضية ، إضافة إلى اختلاف الليل والنهار في وقتيها أيضاً حسب اختلاف الآفاق ، فنهـار النصف من الكرة ليل في النصف الآخر ، وحسب طوال الليل أو النهار إلى قرابة ستة أشهر ، فما هو المناط في ليلة القدر من هذه الآفاق ؟

قد يقال : إن لكل أفق ليلة قدر يخصه ، فهي ليالٍ حسب مجموعة الآفاق رغم كونها ليلة حسب كل أفق ، ويشكل أن الآية لا تتحدث عن كل أفق قبال الآفاق ، وإنما عن كافة الآفاق ، حيث المعنيين بالآيات كافة سكنة الأرض .

ومن جهة أخرى، إن تنزل الملائكة والروح فيها ليس إلا مرة في ليلة واحدة فما هي بين ليالي الآفاق ؟ .

نقول : بما أن ليلة القدر واحدة ، وتنزل الملائكة والروح ليس إلا فيها على قلب الرسول محمد (ص) أو على قلب محمدي للإمام المعصوم ، من هنا وهناك نستوحي أن المناط في القدر هو الأفق الذي فيه الإمام ، ثم يقاس عليه سائر الآفاق ليلاً أو نهاراً، ولا تبقى إذاً إلا مشكلة اختصاص ليلة القدر ببعض الآفاق وحرمان الآخر منها ، والحل أن التردد فيها بين ليالٍ عدة كما يأتي ، هذا التردد يكسب كل أهالي المعمورة ، ليلة القدر .

لنفرض أن ليلة القدر هي التاسعة عشرة من رمضان ، وهي في أفق الإمام ليلة الإحدى والعشرين منه ، أو بالعكس ، فهي واحدة رغم اختلاف الأفق : تسعة عشرة وإحدى وعشرين .

وفيما إذا كانت لا تقارن ليلة القدر في أفق الإمام ليلة في أفق آخر ، كأن يكون نهاراً قران ليلة القدر ، فلأهالي أفق النهار أجزم إذا كانوا في طاعة الله ، رغم جهلهم بها، وبالإمكان أن الإمام يتنقل كل سنة إلى مختلف الآفاق ليكسب الكل فضيلة القدر .

وأخيراً لا دليل على استيعاب ليلة القدر كل "سكنة الأرض".

«وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر» :

إن لهذه الليلة المباشرة فضلاً سابقاً : هو نزول القرآن فيها ، ويكفيها قدراً أن تفوق ليالي التاريخ ، ولها فضل لاحق ، هو تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، وأخيراً : «سلام هي حتى مطلع الفجر» .

فيا لها من كرامة منقطعة النظير لم تسبق في التاريخ ولا تلحقه أيضاً .

هنا ندرس ألف شهر ، التي ليلة القدر خير منها : إن ليلة القدر هي ليلة واحدة من السنة ، لا من شهر ، فلماذا لا تقول : خير من أربع وثمانين سنة ؟

الجواب : لزوم التهاافت حينذاك ، لأن لكل سنة من هذه السنين ليلة قدر ، فكيف تفضل ليلة القدر على نفسها بمضاعفات ، ولما قال : خير من ألف شهر ، عرفنا أنها الشهور التي ليست فيها ليلة القدر ، فلا يعني من المفضل عليه ألف شهر على التوالي ، إنما مقداره على حساب الأيام وهي ثلاثون ألف يوم ، أو ستون ألفاً بانضمام النهار ، وهناك روايات متضاربة عن الرسول (ص) وأهل بيته الكرام تصرح بما نوحيه الآية .

وهل إن الألف هنا حد لا يزيد ولا ينقص ، أم إنه رمز للكثرة اللانهائية ، بما أن حدث هذه الليلة العظيمة يربو على كافة الأحداث العظيمة في الأزمان كلها ، من خيرها ومن شرها ؟

قد لا نستطيع أن نتأكد من أحدهما ، إذ إن رمز هذه الكثرة الكثيرة لا بد أن يكون أكثر من الألف بكثير ، فلتكن الألف حداً ثابتاً .

وإن ليلة القدر لا تقف خيريتها على ألف شهر ، فما هو الألف بين آلاف السنين من تاريخ الرسالات الإلهية ، وما هو بين آلاف السنين من الدعايات المضادة !

والحل أن الألف هنا ألف عام وخاص يكافح التاريخ بأكمله ، بخيره وشره ،
فهي الألف : الكثيرة الكثيرة من الزمن التي حدثت فيها خيرات التاريخ بأجمعها ،
فحدثت هذه الليلة المباركة يربو عليها بأسرها .

وهي أيضاً الألف التي حكم فيها بنو أمية ضد الإسلام بكل الطاقات
والإمكانات ، فما استطاعوا أن يزيدوا الأثر الهام الثابت في ليلة القدر : شريعة
القرآن ودعوته .

إن زمن الحكم الأموي هو أشر الأزمنة التي مرت على التاريخ الإسلامي ،
والتي تستقبل الإسلام إلى يوم القيامة ، وإذا كانت الطغمة الحاكمة الأموية
لا تستطيع القضاء على ليلة القدر ، على القرآن النازل فيه ، وعلى نبي القرآن
ودعوته ، فأحرى ألا تستطيع الطغمة الحاكمة الأخرى أن تمس من كرامتها ،
إلا جولات دعائية وادعائية ، فإن للحق دولة وللباطل جولة «فأما الزبد فيذهب
جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض» .

إن قوة الدعوة القرآنية أكثر بكثير من القوات المضادة ، طالما الكفر
يكرس كافة طاقاته وإمكاناته ، لكنه لا يملك شيئاً مما يملك الحق من براهين
ومن دوافع الخلود وسناد الخلود .

وروايتنا متضافرة بين الفريقين في خيريتها هذه الليلة بالمعنيين عن النبي
الأقدس (ص) وأئمة أهل بيته الكرام (ع) (١) .

(١) ففي المعني الأول : أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن عروة قال ذكر رسول الله (ص)
 يوماً أربعة من بني إسرائيل عبدوا الله ثمانين عاماً لم يعصوه طرفة عين فذكر أبو
 وحزقل بن العجوز ويوشع بن نون . فعجب رسول الله (ص) من ذلك فأدبه حبريل فقال يا محمد عجبك
 أمئك من عبادة هؤلاء الذنفر ثمانين سنة فقد أنزل الله خيراً من ذلك فقرم عليه سورة القدر
 قائلاً : هذا أفضل مما عجبك أنت وأمئك فسر بذلك رسول الله (ص) والناس معه . (المدر
 المشروح - ص ٣٨١) . ومن طريق أصحابنا مثله كما في نور الثقلين ج ١٦ و ١٥ : عنه (ص) =

« تَنْزُلُ الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » :

.. الملائكة - كل الملائكة - دون استثناء ، لمكان « ال » الإستغراق ، فإن الجمع المحلى باللام يفيد الإستغراق .

والروح هو عظيم الملائكة وزعيمهم وليس منهم بدليل المقابلة ، وتخصيصه بالذكر من بين العموم بحاجة إلى دليل ، وقد يتأيد ويؤيده نظرات أهل الوحي والعصمة المحمدية (ع) (١) .

== أقول : وهكذا كل أحداث التاريخ - الجليلة الخيرة - قليلة القدر خير منها ، والألف هنا إشارة إلى حده لبيان بعض الصاديق كما في الحديث ، وإشارة إلى زمن الخير كله دون حد .

وفي المعنى الثاني أخرج الخطيب في تاريخه عن ابن عباس قال رأى رسول الله (ص) بني أمية على منبره فساءه ذلك فأرسل الله إليه : إنما هو ملك بصيونه ونزلت : إنا أنزلناه .. وأخرجه أيضاً عن ابن المسيب مثله ، وأخرجه الترمذي وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن يوسف بن مازن الرواسي عن الإمام الحسن (ع) مثله بزيادات منها : من ألف شهر يملكها بنو أمية يا محمد ! قال القائم فعدّها فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً (المصدر) وفي المستفيض من طريق أصحابنا مع تفاصيل أخرى كما في ح ٤٣ و ٤٣ عن الإمام الصادق (ع) عنه (ص) و ح ٤٤ عن علي (ع) عنه (ص) و ح ٤٥ عنه (ص) و ح ٤٦ عن الإمام الحسن المجتبي (ع) عنه (ص) .

(١) أبو بصير قال قلت للإمام جعفر الصادق (ع) : جعلت فداك الروح ليس هو جبرائيل ؟ قال : الروح أعظم من جبرائيل ، إن جبرائيل من الملائكة . وإن الروح هو خلق أعظم من الملائكة ، أليس يقول الله تبارك وتعالى : تنزل الملائكة والروح ؟ (نور الثقلين ج ٥ ص ٦٣٨ ح ١٠٤) .

وعن الإمام الباقر (ع) مثله كما في ح ١١٠ - المصدر ، وعن الصادق (ع) مثله كما في تفسير البرهان ج ٤ ص ٤٨١ ح ١ ويلج إليه ح ١٠٨ ج ٥ نور الثقلين ص ٦٣٩ . وفيه : يستوجب الإمام زيادة الروح ليلة القدر ، ويلوح أن الروح هذه روح قدسية منفصلة عن الملائكة وسائر المعصومين ، وهي تفاض عليهم بإذن ربهم ليالي القدر .

وهذا هو الروح القائم مع الملائكة يوم القيامة أيضاً : « يوم يقوم الروح والملائكة لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » (٣٨ : ٧٨) « تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (٧٠ : ٤) .

واعتبار أن الروح هو ما به الحياة ، نستوحي أن الروح هذا من به حياة ملائكية الملائكة ، على أنهم أيضاً أرواح ، وفيهم من سمي روحاً - لا مطلقاً - وإنما : « روح القدس » (٢ : ٨٧ و ٢٥٣ و ٥ : ١١٠) و « روح منه » (٤ : ١٧١) و « الروح من أمره » (٤٠ : ١٥ و ١٦ : ٢) و « الروح الأمين » (٦ : ١٩٣) و « روحاً من أمرنا » (٤٢ : ٥٢) .

هذه هي الأرواح المذكورة في القرآن ، بين ما هو روح القدس النازل على النبيين ، وما هو الوحي النازل عليهم ، ومن هو ملك الوحي : جبرائيل أم أعوانه .

ولم يذكر الروح دون قيد في القرآن إلا ثلاثاً فيمن قوبل به الملائكة ، وهو روح الملائكة وزعيمهم ، وإلا مرة واحدة كذلك في الروح القدسية المحمدية : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » (١٧ : ٨٥) .

من هنا وهناك نستوحي الوفاق بين الروحين ، النازل والمنزل عليه ، فالروح النازل هو روح الملائكة ، والمنزل عليه هو روح النبيين ، الروح القدسية المحمدية ، روح محمد ﷺ في وحي القرآن ليله ، وفي نزول كل أمر طوال البعثة ، وأرواح محمدية بعد ارتحاله إلى جوار رحمة ربه ، أرواح المعصومين من عترته ، الحاملين روحه القدسية وعصمته الإلهية .

ونستوحي استمرارية ليلة القدر من قوله تعالى : « تنزل الملائكة والروح دون » تنزل « فالعمل مضارع يدل على استمرارية نزول الملائكة والروح ، إذاً فليلة القدر بهذا الاعتبار مستمرة طوال الزمن ومنذ البعثة ، وإن كانت

باعتبار نزول القرآن ليلة واحدة بداية البعثة، أو كانت ثلاثة وعشرين ليلة طوال البعثة بالاعتبارين، لكنها مستمرة بنزول الملائكة والروح، وعلى حد تعبير الرسول ﷺ : هي إلى يوم القيامة^(١).

فهل تنزل الملائكة والروح من كل أمر على بقاع الأرض، كلا، إنما على قلب واع، قلب محمد أو قلب محمدي لا سواه، قلب واع بما ينزل عليه من كل أمر، لا القلوب المقلوبة، أو غير المستعدة لهكذا نزول هام في كل سنة.

إنها القلوب الطاهرة من أهل بيت العصمة المحمدية، محمد أم سواه، بمن رعاها

(١) في مجمع البيان : جاءت الرواية عن أبي زر قال قلت يا رسول الله (ص) ؟ ليلة القدر هي شيء يكون على عهد الأنبياء ينزل فيها فإذا قبضوا رفعت ؟ قال (ص) : لا بل هي إلى يوم القيامة (نور الثقلين ج ٥ ص ٦٣٠) .

وأخرج أبو داود والطبراني عن ابن عمر قال سئل رسول الله (ص) وأنا أسمع عن ليلة القدر فقال : هي في كل رمضان، ومثله ما أخرجه محمد بن نصر عن سعيد بن المسيب أنه سئل عن ليلة القدر أي شيء كان فذهب أم هي في كل عام فقال : بل هي لامة محمد ما بقي منهم اثنان . (الدر المنثور ج ٦ ص ٣٧١) .

وما رواه أبو جعفر الجواد (ع) « أن أمير المؤمنين علي (ع) قال لابن عباس أن ليلة القدر في كل سنة وأنه ينزل في تلك الليلة أمر السنة، ولذلك الأمر ولادة بعد رسول الله (ص) فقال ابن عباس : من هم ؟ قال : أنا وأحد عشر من صلي » وعن أبي جعفر الباقر (ع) مثله (ح ٤٠) وعن الامام الصادق (ع) في استنكار رفعها : لو رفعت ليلة القدر لرفع القرآن (ح ٤١) . أقول : لأن الأمور النازلة ليلة القدر هي شروح لما أجمل في القرآن .

وفي أحاديث عدة أنها منذ بداية الخلق إلى يوم القيامة ، وتعني بداية خلقه المكلفين أو لعله أعم - تأمل .

وربهم بالوحي ، من علي أمير المؤمنين عليه السلام إلى المهدي القائم محمد بن الحسن العسكري عليهم أزكى التحية والسلام ^(١) .

وبهذه المنزلة السامية تصبح سورة القدر حاكية عن منزلة أهل بيت العصمة المحمدية ، وهي نسبتهم الروحانية ما أعلاها .

« .. يأذن ربهم من كل أمر » :

من كل أمر : بعضاً من كل الأوامر والأمر ، لا كلها ، فمن الأمور والأوامر ما هي مختصة بالله تعالى ، ومنها ما يتنزل على الناس أجمع ، ومنها ما لا يتنزل إلا على المعصومين الطاهرين ، قادة العباد وساسة البلاد وأركان الإيمان وأمناء الرحمان .

فالنازل على العباد ليس إلا من بعض أمر ، لا من كل أمر ، والله تعالى عنده وله كل أمر ، تكوينياً وتشريعياً ، علمياً وتنفيذياً .

ثم ينزل على أمنائه المصطفين المخلصين ، من كل أمر ، فما هو الأمر ؟ وما هو كل أمر ؟ .

هنا ندرس الأمر بكيانه ونزوله من « حم » : « حم » . والكتاب المبين . إنا

(١) الكافي عن الإمام الصادق (ع) قال : كان علي (ع) كثيراً ما يقول : اجتمع النبي والعهدي عند رسول الله (ص) وهو يقرأ « انا انزلناه » بتخضع وبكاء ، فيقولان : ما أشد دقتك لهذه السورة ؟ فيقول رسول الله (ص) لما رأته عيني ورعى قلبي ، ولما يرى قلب هذا من بعدي ، فيقولان : ما الذي رأيت ؟ قال فيكتب لهما في التراب : تنزل الملائكة والروح فيها يأذن ربهم من كل أمر - قال : ثم يقول : هل بقي شيء بعد قوله عز وجل « كل أمر » فيقولان : لا - فيقول : هل تعلمان من المنزل إليه بذلك ؟ فيقولان : أنت يا رسول الله (ص) فيقول : نعم ، هل تكون ليلة القدر من بعدي ؟ فيقولان : نعم - قال : فيقول : فهل ينزل ذلك الأمر فيها ؟ فيقولان نعم - قال : فيقول : إلى من ؟ فيقولان : لا ندري - فيأخذ براسي ويقول : إن لم تدريا فادريا ، هو هذا من بعدي - قال : فإن كانا ليمرفان تلك الليلة بعد رسول الله (ص) من شدة ما بداخلها من الرعب « (نور الثقلين ج ٥ ص ٦٣٣ ح ٩٠) .

أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم . أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم . رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين » (٤٤ : ١ - ٨) .

فليلة القدر هي ليلة الفرق والفصل لكل أمر حكيم ، حكيم عند الله العزيز الحكيم ، وكما كان القرآن في أم الكتاب لدى الله علياً حكيماً : « وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » ثم فصله ليلة القدر ، وأنزله على قلب الرسول البشير النذير ، أنزله من علوه الإلهي ، وفصله من حكته الإلهية ، ولكي يدركه الرسول ، ثم فصله تفصيلاً ثانياً طوال البعثة كما شرحناه مسبقاً .

هذا تفريق أول للرسول ، ثم تفريق ثان بالنسبة للأقدار والأقضية الإلهية طوال السنة ، يفرقها الله تعالى لرسوله : « رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » .

ويشاركه في التفريق الثاني الأئمة من أهل بيته المعصومين ، كل في زمنه ، لمكان الإستمرارية المستفادة لهذه الليلة المباركة من : « تَنْزَلُ » « فيها يُفْرَقُ » لا « تَنْزَلُ » أو « فُرِقَ » .

ثم « من كل أمر » لا يخص أمور وأوامر الكرة الأرضية ، وإنما الكونية تماماً : « رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين » فهذه الربوبية الشاملة توحى أن هذه الرحمة أيضاً شاملة : « رحمة من ربك » تشمل الكون أجمع ، فإن محمداً والخلفاء المعصومين المحمديين هم خلفاء الله في الكون أجمع ، والكرة الأرضية على صغرهما هي المركز الرئيسي للتشريعات والأحكام ومعرفة الأقضية والأقدار الإلهية ^(١) .

(١) عن الإمام الصادق (ع) قال: قال علي (ع) في صبيحة أول ليلة القدر التي كانت بعد=

وليس معنى القضاء والقدر والإنشاء ليلة القدر ، خروج الأمور عن خيرة الإنسان ، وإنما قدر وقضاء وإبرام على ضوء المساعي التي يقدمها الإنسان ، قرب خير يؤخر، أو يبدل إلى شر، لتأخر الإنسان عن معداته أو تركه لها إلى أضداده .

« سلام هي حتى مطلع الفجر » :

ومما توحىه سورة القدر أن الأمور المقدرة فيها ليست إلا الخيرة لا الشريرة ، وإنما حوادث الشر هي حصائل فشل الإنسان في التماس الخير ومزيد الخير ليلة القدر ، ثم توافيه في السعي نحو الخير ، أو تركه إياه : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

هنا نعرف مدى علوم المعصومين من أهل بيت الرسالة المحمدية ﷺ وأنها يعرفون من الغيب كما يعلمهم الله تعالى ، لا كل الغيب : « عالم الغيب فلا يظهر على

= رسول الله (ص) : «سألني فو الله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم بما يكون إلى ثلاثمائة وستين يوماً من الأمر فما دونها وما فوقها ، ثم لا أخبرتكم بشيء من ذلك لا بشكف ولا برأي ولا بادعاء في علم إلا من علم الله تبارك وتعالى وتعليمه ، والله لا يسألني أهل التوراة ولا أهل الإنجيل ولا أهل الزبور ولا أهل الفرقان إلا فرقت بين أهل كل كتاب بحكم ما في كتابهم »

وعنه (ع) أنه سئل : أرأيت ما تعلمونه في ليلة القدر هل تضي السنة وبقي منه شيء لم تتكلموا به ؟ قال : لا والذي نفسي بيده لو أنه فيما علمنا في تلك الليلة أن إنصتوا لإعدادكم فنصتنا فالتصت أشد من الكلام .

ومن حديث له عليه السلام قال فيه : ينزل فيها ما يكون من السنة إلى السنة من موت أو مولود ، قيل له : إلى من ؟ قال : إلى من عسى أن يكون ؟ أن الناس في تلك الليلة في صلاة ودعاء ومسألة وصاحب هذا الأمر في شغل نزول الملائكة إليه بأمور السنة من غروب الشمس إلى طلوعها ، من كل أمر سلام هي له إلى أن يطلع الفجر » (نور الثقلين ج ٥ ص ٦٤١ ح ١١١ - ١١٣) .

وهنا روايات مختلفة أن الرسول ﷺ نسيها فأمر أن يطلبوها في العشر
الأواخر ، وليضرب بها عرض الحائط لاختلافها عن واقع علم الرسول وعن
الأحاديث المستفيضة المصروفة أنه ﷺ والأئمة من عترته كانوا يعلمونها^(١) .

وقد نستوحشها متى هي ؟ من علائها على حد تعبير الرسول ﷺ^(٢) .

« سلام هي حتى مطلع الفجر » :

إنها لا تنفي السلام عن سائر الليالي ، لواقع السلام فيها بعضاً ، وإنما تخصّ
السلام التام بهذه الليلة المباركة ، كرامة تخصّها بين ليالي السنة - فما هي ؟

إنها - على حد تعبير زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام : « سلام دائم البركة
إلى طلوع الفجر على ما يشاء من عباده بما أحكم من قضائه »^(٣) ، وعلى حد تعبير

(١) أخرج ابن أبي شيبة عن الفلّتان بن عاصم قال: قال رسول الله (ص) إنني رأيت ليلة القدر
ثم نسيته فأطلبوها في العشر الأواخر وترأ .

وأوضح منها ما أخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود قال سئل رسول الله (ص) عن ليلة القدر
قال قد كنت علمتها ثم اختلست مني (الدر المنثور ج ٦) .

وهذا الأخير يتناقض والآيات التي تدل على عصمته وأنه ليس للشيطان عليه سبيل ، فمن هذا الذي
اختلس ليلة القدر عن النبي الأقدس ، أهو الله وحاشاه ، أم هو الشيطان ؟ إنه ليس له سلطان على
الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون فكيف بالرسول (ص) .

وكما عن أبي جعفر الباقر (ع) قال : يا أبا هذيل ! إننا لا نخفى علينا ليلة القدر ، إن الملائكة
يطوفون بنا فيها . (نور الثقلين ج ٥ ص ٦٠٩ ح ١٠٥) .

(٢) كما عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله (ص) عن ليلة القدر ، فقال : في رمضان في
العشر الأواخر فأنها في ليلة وتر : إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين أو سبع
وعشرين أو تسع وعشرين أو آخر ليلة من رمضان ، من قامها إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم
من ذنبه ، ومن إماراتها أنها ليلة بلجة صافية ساكنة ساجية لا حارة ولا باردة كأن فيها قمرأ
ساطعاً ولا يحل لنجم أن يرمى به تلك الليلة حتى الصباح ، ومن إماراتها أن الشمس تطلع صبيحتها
لا شعاع لها ، مستوية كأنها القمر ليلة البدر ، وحرم الله على الشيطان أن يخرج معها يومئذ
(الدر المنثور ج ٦ : ٣٧٢) .

(٣) نور الثقلين ج ٥ ص ٦٤١ ح ١١٤ عن الصحيفة السجادية في دعائه (ع) إذا دخل
شهر رمضان .

جده الرسول الأقدس ﷺ : « إن الشيطان لا يخرج في هذه الليلة حتى يضيء فجرها ولا يستطيع فيها أن ينال أحداً بجبل أو داء أو ضرب من ضروب الفساد ولا ينفذ فيه سحر سحر » (١) .

ويتأيد هكذا سلام شامل بما نستوحيه من آية السلام : سلامٌ هي ، لا : هي سلام ، فإن تقديم الخبر « سلام » يفيد حصر المبتدأ « هي : ليلة القدر » في السلام ، فهذه الليلة محصورة بالسلام دون سواها التي فيها سلام ولا سلام .

فليلة القدر سلامٌ إذ أنزل فيها القرآن الحامل للإسلام التام الكافل للسلام الأبد ، وسلامٌ إذ تنزل فيه الملائكة والروح من السماء إلى الأرض فتندحر الشياطين بوفود الملائكة ، وسلامٌ إذ تنزل ملائكة السلام بكل أمر ، بكل خير عاجل وآجل ، وسلامٌ لكل دعاء فيها إذ يسلم من الرد لولا أنه تأتي بالبوار والدمار ، وسلامٌ لكل من في الأرض عفويًا وإن لم يكونوا من أهل السلام والإسلام .. وإلى أن يطلع الفجر .

مركز تحقيق تكملة علوم إسلامي

□□□□

(١) المصدر ص ٦١٥ ح ١٥ .

﴿سورة البينة - مدنية - وآياتها ثمان﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ^١
رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ^٢ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ^٣ وَمَا
تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ^٤
وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ^٥ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ^٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ^٧ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ^٨ .

* * *

أهل الكتاب هم - على الأكثر - أتباع التوراة والإنجيل ، حسب اصطلاح القرآن ، وقد قُرئوا هنا وفي آيات عدة أخرى ، قرئوا بالمشر كين ، مما يبرهن لنا المعنى من المشر كين حسب القرآن : أنهم هم الوثنيون ، لا كل المتعرفين عن خالص التوحيد .

فأهل الكتاب منها كان انحرافهم في عقيدة التوحيد من تجسيم وحلول وتثنية وتثليث - إنهم على انحرافاتهم الجارفة - لا يردفون في صف المشر كين الوثنيين ، ولا تشملهم أحكامهم الخاصة ، مهما كانوا يضاهئونهم ببعض الشيء في عقائدهم وطقوسهم ما لم تصل إلى عبادة الأصنام من دون الله .

نرى آيات بينات كهذه تؤكد لنا هذه الحقيقة ، بقرنها أهل الكتاب بالمشر كين ، بل الإلهيين من غير الكتابيين أيضاً ، كالصابئين والمجوس : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢ : ٦٢) « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد » (٢٢ : ١٧) .

وإذا لا يعد الصابئون والمجوس - الذين لا يعرف لهم كتاب - لا يعدون من المشر كين ، فأحرى باليهود والنصارى ألا يعدوا منهم ، طالما كانت لهم عقائد مضاهية للمشر كين ، وأن القرآن يندد بهم لهذا الانحراف الطائش في إشراكهم : « يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون » .

فعلينا أن نفرق بين الإشراك في العبادة من الذين يعبدون أوثاناً وأصناماً وطواغيت من دون الله، وهم المشركون النجس : « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » (٢٨ : ٩) .

وبين الإشراك في الطاعة كاليهود والنصارى الذين « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم » (٢١ : ٩) .

وبين الإشراك في نية العبادة كالرثاء فيها : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » (١٢ : ١٠٦) : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » (١٨ : ١٠) .

وبين الإشراك في ذات الإله كمن يثلك الله ويعتقده في ثلاثة أقانيم أو يثنيه في أقنومين .. وبين الإشراك في الخالقية وسواها من شؤون الألوهية — الخاصة .

والقرآن لا يعني من المشركين النجس إلا الفريق الأول وهم الوثنيون الذين لا يعبدون الله ، وإنما يعبدون من يزعمونهم شفعاء أو مختصين عند الله .

ومن « إنما » في الآية : « إنما المشركون نجس » نستوحي أنهم الذين ليست عندهم إلا نجاسة العقيدة والعمل ، دون مبدأ إلهي يربطهم .

فالآية تحصر كيان المشركين — ككل — في النجس ، دون أن تحصر النجس فيهم ، مما يوحي بالمعنى منهم أنهم هم الوثنيون فحسب ، إذ إن غيرهم من المتحرفين في عقيدة الإله لا يحصر كيانهم ككل في النجس ، فلاهل الكتاب مبادئ صالحة ، مزيجاً بأخرى غير صالحة من تجسيم وتثنية وتثليث ، وكما عند البعض من فلاسفة الإسلام كالمعتنقين عقيدة وحدة الوجود ، فكما ليسوا هم من المشركين النجس ، فكذلك أهل الكتاب — على ضلالهم — سواء .

والنجس في المشركين يحسم نجاسة أرواحهم ، فيجعلها ماهيتهم وكيانهم ،

فهم بكليتهم وبحقيقتهم نجس ، يستقذره الحسن تبعاً للروح ، ويتطهر منه المتطهرون ، وإنه النجس المعنوي لا الحسي ، ولكنها سرت إلى الجسم أيضاً كسياسة إسلامية ، لكيلا يعاشرهم المسلمون ، نجاسة سياسية حيادية نشأت عن نجاسة المبدأ الذي يعتنقونه ، وهو تأليه غير الله .

إن القصة التي يهيمها القرآن هي قصة التجرد لله والخلوص لدينه ، وقصة المفارقة على أساس العقيدة مع كل أواصر القربى وكل لذائذ الحياة ، وهذه القصة ليست بالتي تتعاش منها الجاهلية الرافضة لمبدأ الإله الحق ، معها تسير الإلهيين الذين يؤمنون بالله - كيفما كانت تخلفاتهم عن خالص التوحيد - تسيرهم عليهم يؤمنون : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (٣ : ٦٤) .

وبعد كل ذلك فآية المائدة - وهي آخر ما نزلت من السور - إنها توحى لنا بطهارة أهل الكتاب : « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » (٥ : ٥) .

ولا يُعنى من طعام أهل الكتاب إلا الذي يصنعونه أو يطبخونه ويلبسونه بأيديهم كالعادة ، إلا المحرمات المنصوص عليها في القرآن كالميتة والدم ولحم الخنزير والحمر وأمثالها .

والطعام - حسب اللغة ^(١) والقرآن والحديث - لا يخص البر وأمثاله كما زعم ، إنه كل ما يُطعم وحق الماء كما القرآن يصرح : « .. قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً » (٢ : ٢٤٩) : لم يطعمه : الماء .

(١) لسان العرب « الطعام اسم جامع لكل ما يؤكل » وقال ابن الأثير : الطعام عام في كل ما يقتات من الحنطة والشعير وغير ذلك .

كما ويصرح بشمول الطعام لكل ما كول : « .. لن نصبر على طعام واحد » (٢ : ٦١) : ولو كان هو البركان واحداً ، فالقيد بالواحد إذا زائداً « ولا طعام إلا من غسيلين » (٦٩ : ٣٦) : فيشمل كل مشروب أيضاً فطعامهم وشرايبهم حل ، وكذا صيد البحر : « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم والسيارة » (٥ : ٩٦) .. فلو صاده كتابي وطبخه كان حلالاً كما هو حل من المسلم .

وإذ نرى روايات ، كأنها تخص الطعام بالبر والحبوب ، فهي لا تعني إلا إخراج اللحوم - كما يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام : عني بطعامهم ما هنا الحبوب والفاكهة ، غير الذبائح التي يذبحونها فإنهم لا يذكرون اسم الله خالصاً على ذبائحهم ، ثم قال عليه السلام : والله ما استحلوا ذبائحكم فكيف تستحلون ذبائحهم (١) .

ثم إن تطهير طعام أهل الكتاب وتحليله ، لو عني به البر وأمثاله من اليابس ، فهو تحليل للحلال وتطهير للطاهر ، وما من أحد يظن أن الطعام اليابس الطاهر ينجس بمجرد أنه للكتابي ، أو يلمسه بيده ، فليُعن الطعام الذي تمسه يده برطوبة أو هو مرطوب .

هذا وكما السنة القطعية متضافرة على طهارة أهل الكتاب ، الذاتية (٢) بمعنى أنه لو لم تكن عليه نجاسة عرضية بالفعل ، ولم تسبقه النجاسة ، غير المتأكدة من تطهيرها ، كان محكوماً بالطهارة ، فإذا علمنا أن كتابياً تنجس وتطهر ، ولم نعلم

(١) نور الثقلين ج ١ ص ٤٩٢ .

(٢) كصحيحة إبراهيم بن أبي محمود قال : قلت للرضا (ع) الجارية النصرانية تخدمك وأنت تعلم أنها نصرانية لا تتوضأ ولا تغتسل من جنابة ، قال (ع) : لا بأس ، تغسل يديها (وسائل الشيعة ج ٢ ص ١٠٢ ح ١١) .. فلقد كان الدافع لهذا السؤال أنها لا تتوضأ ولا تغتسل ، لا إنها نصرانية ، فجاء : إنها تغسل يديها ، والروايات المانعة عن مؤاكلتهم قوحي إلى لزوم تجنبهم ما أمكن لا أنهم نجسون كسائر النجس .

تاريخ المتقدم منها، والمتأخر، حكنا بطهارته لتعارض استصحابي الطهارة والنجاسة والرجوع إلى قاعدة الطهارة ، وكذلك إذا علمنا طهارته وشككنا في زواله ، ثم يختلف عن طهارة المسلم فيما إذا تأكدنا من نجاسته وشككنا أنه طهر أم لا ، فالكتابي إذا محكوم بالنجاسة قطعاً ، ولكننا المسلم يحكم بطهارته لو غاب زمناً تؤتى فيه فرض الصلاة ، أو أية عبادة مشروطة بالطهارة ، والتفصيل إلى المفصلات ، وكما شرحناه في كتابنا « الفقه على ضوء القرآن » .

« لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين حتى تأتيهم
البينة » :

فمنهم من كفر بالرسالة المحمدية فمدّ في عداد الكافرين ، ومنهم من آمن فهم المؤمنون ، ولم يكن ليزر الكفر والإيمان بينهم حتى تأتيهم البينة ، ولم يتمكنوا من التحلل عن كفرهم حتى أتتهم البينة فتمكنوا، ولكنهم تمنعوا - على مكنتهم - عن الإيمان .

إن إنفكاكهم عن ضلالهم - عملياً أو واقعياً - لم يكن يتحقق إلا على ضوء البينة : « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة » : مطهرة من وحي الشيطان ، ومن الدس والتحريف ، رغم كتبهم التي أصيبت بشق ألوان الاختلاف والاختلاق ، فلم يكن أهل الكتاب ليميزوا وحي الرحمان عن وحي الشيطان في كتبهم ، ولا المشركون بعقولهم المدخولة ، وأما إذا أتتهم البينة : « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة » ، فكان عليهم الإنفكاك عن كفرهم ، وفريق منهم إنفكوا فأصبحوا مسلمين ، وفريق تجمدوا على واقع ضلالهم عملياً ، رغم ظهور الحق لهم على ضوء الصحف المطهرة .

وبما أن الإنفكاك هو الانفصال عن إتصال شديد ، إتصالهم الشديد بضلالهم القديم ، فقد كان من الواجب أن تأتيهم بينة قوية ناصعة ، لكي يتحللوا عما

اتصلوا به ، بينة بإمكانها البين فيما بينهم ، وبإمكانهم التبين بها بعد ما لم يكونوا ليتبينوا :

« رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة » :

إن الرسول محمداً كان بينة من الله يحمل في دعوته آيات بينات : « نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء » وإنه ﷺ أقوى ما أتت الإنسان - عبر تاريخ الرسالات الإلهية - من البينات ، أقواها متناً وأبقاها زمناً بقرآنه المبين وتبيان الحكيم .

فلقد كان قرآن محمد ومحمد القرآن معجزتين خالدين عبر الزمن ، الضاربتين في أعماق التاريخ ، لا ترجعان إلى الوراء على تقدم العلم ، وإنما تزيدان نوراً وظهوراً وبهوراً كلما تظاهر العلم وازدهر .

فكما كان القرآن بينة ما في الصحف الأولى وزيادة خالدة : « أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى » (٢٠ : ١٣٣) كذلك رسول القرآن كان بينة الرسل ، وعلى بينة القرآن : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » (١١ : ١٧) .

فلم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين عن ضلالهم الذي عاشوه منذ زمن بعيد ، إلا بهذه الرسالة السامية الجديدة ، التي تحمل كافة معجزات الرسالات وتوجيهات الرسالات وزيادات خالديات تعيش مع الزمن وتشرق على قلوب وأفكار الإنسان ما أشرقت الشمس على هذه المعمورة .

لقد عاشت الخرافات أفسكارهم ، وشربت مياه قلوبهم ، وتصدرت في صدورهم ، أن زعموا الباطل حقاً والحق باطلاً ، فهم أهل الكتاب ، وهم

بمعدون عن وحي السماء ، بُعد ما بين الأرض والسماء ، منحطين خابطين إلى وحي الأرض قريبهم إلى الأرض .

« يتلو صحفاً مطهرة » : يتلو - دون أن يكتفي بالقراءة ، فالتلاوة هي المتابعة : « والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها » (٩١ : ٢ - ٣) فكما القمر قمر ما دام يتلو الشمس ، كذلك الرسول هو شمس هداية السماء ما دام يتلو القرآن ويتبعه قراءة وإقراء ، تفكيراً واعتناقاً ، تطبيقاً ونشراً ، وأن تكون حياته حياة التبعية لوحي القرآن أياً كان ، وأن يصبح هو قرآناً ناطقاً عاملاً موجهاً هادياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ما دام فيهم ، ثم يبقى قرآنه صورة عن هذه الحتمية ، سنداً بعده وإلى يوم الدين ، مناراً يقاس عليه الغث والسمين ، ومداراً كتابياً لكل كتاب ، وداعٍ إلى كتاب .

« صحفاً مطهرة » : جمع الصحيفة ، وهي المبسوط من الشيء دون خفاء وخباء .. « مطهرة » : هي خالصة الوحي ، دون شوب بوحى الأرض ، مطهرة عن التهاافت والإختلاف والإختلاق ، وعن كل ريبة .

والقرآن هو الصحف المطهرة ، إذ إنه يحمل الوحي الصادق النازل على النبيين من قبل ، وفيه زيادات هي خاتمة الوحي ، أجل إنه الكتب كلها وزيادة ، كما محمد هو الرسل كلهم وزيادة .

إنه بينة ما في الصحف الأولى : « أو لم تأتهم بيّنة ما في الصحف الأولى » (٢٠ : ١٣٣) بلى أتتهم في الوحي الأخير .

أو إن الصحف المطهرة هي صحائف القرآن ، حاملة كل منها كتباً : مكتوبات ، قيمة .

« قيمة » : إذ لا تنسخ ، خلاف البعض مما في الصحف الأولى ، قيمة تحمل كل القيم الحيوية للإنسان ، وقيمة لأنها الأصل في التشريع يقاس إليه ما سواه .

وهذه الصحف المطهرة - منها كانت - فهي لم تكن في قرطاس ، إنما في لوح قلبه المنير : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » (٢٣ : ١٩٤) .

فقبل أن توحى إليه لم تكن صحفاً قط : « ما كنت تعلمها أنت ولا قومك » (١١ : ٤٩) وقبل أن يتلوها عليهم ما كانت صحفاً للناس ، إنما له إذ أوحيت إليه ، ثم بتلاوته لهم أصبحت صحفاً لهم كما كانت له بكتبه .

ودليلاً كتابياً على أن الصحف ليست في قرطاس ، وإنما القرطاس ظرف ضئيل من ظروفه التي تحمله : « وإذا الصحف نشرت » (٨١ : ١٠) : الصحف الأعمال تنشر ، وليست هي إلا انعكاسات الأعمال والأقوال الموجية : « فمن شاء ذكره . في صحف مكرمة . بأيدي سفرة . كرام بررة » (٨٠ : ١٦) ومعلوم أن الوحي لم ينزل على رسل السماء (الملائكة) ورسل الأرض (النبيين) لم ينزل عليهم في قرطاس : « ولو أنزلنا عليهم كتاباً في قرطاس فامسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » (٦ : ٧) .

فهذه الصحف المطهرة - وهي بينة - قد تلاها محمد الرسول ﷺ وهو أيضاً بينة .

هذه ليست بالتي تسمح بالتفرق ، وإنما لزامها الوحدة المتأسكة حول الحق الناصع منها .

ولكن أهل الكتاب ، رغم أنهم لم يكونوا ليتفرقوا قبل هذه البينة ، فقد كانوا مجتمعين في الضلالة ، رغم ذلك ، أخذوا يتفرقون بعدما جاءتهم البينة .

« وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم

البينة » :

تفرقوا في البينة وعن البينة ، تفرقاً عامداً ، ففريق آمن وفريق كفر :
« وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » (٢٧ : ١٤) .

وهكذا تكون طبيعة الإنسان وسجيته الطائشة المتخلفة : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأُنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعدما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » (٢ : ٢١٣)^(١) .

ليس واقع الاختلاف وفكرته من الدين الحق ، وإنما من يدعون أنهم دينون ، ثم يخلقون مواد الخلاف تحت ستار الدين ، وقد عدا الله تعالى الوحدة في الدين من رحماته الهامة التي يهدفها على ضوء الوحي وخيرة الإنسان دون تسيير ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » (١١ : ١١٨) . خلقهم للرحمة ، ومن أبرزها الوحدة في الدين ، خلقهم لها ووجههم إليها بالوحي المتواصل ، ناهياً عن الاختلاف : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات » (٣ : ١٠٥) .

وإن أم ما اختلف فيه أهل الكتاب هو قصة الإله ، في كيانه وصفاته وأفعاله ، وفي عبادته ، فمن مجسم ومثلث ومثنى ، ومشبه له بخلقه أسخف تشبيه . . وإلى أن أصبح السيد المسيح عند الكثير من المسيحيين ، أصبح موضوع الإيمان ، وإله الآب فرعه ، يذكر في عداد الأقانيم ، ولكنه على الهامش

(١) راجع كتابنا (المقارنات) من ص ١١٥ .

في كيان الألوهية ، فترام يقولون : إلهنا وربنا المسيح ، ديثاننا ومنقذنا و ...
رغم أنهم كأهل الكتاب نهوا عن هذا وذاك :

« وما امرؤ إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا
الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » :

عبادة الله وحده دون أن يُعبد سواه أو يُعبد معه سواه ، عبادة خالصة
تنتج طاعة خالصة : « مخلصين له الدين » : الطاعة ، لا أن يعبدوا الله ثم يطيعوا
سواه ، كما اتخذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، أرباباً
في الطاعة ، لا في عقيدة الألوهية والعبادة ، فما قيمة عبادة لا طاعة فيها وكما
يتقولون : أعطوا ما لله الله وما لقيصر لقيصر ! فمن هو قيصر ومن فوقه يحجب
الله حتى يُعسب له حساب في جنبه .

فكما الإشراك في عبادة الله كفر ، كذلك الإشراك في طاعته ، ومن أم
ما يرام في عبادة الله ، هو طاعته فيما يأمر وينهى ، وليس الإله المعبود غير المطاع
إلا كعباد !

إنما هي عبادته وطاعته ، ومن أبرز عباداته إقام الصلاة ، ومن أبرز
طاعاته إيتاء الزكاة : « وذلك دين القيمة » : دين الكتب القيمة ، وحي السماء
الخالص عن دنس الأرض وخرافاتهما ، فلقد أجمعت كتب الوحي القيمة على
هذه الأركان الأربعة الدينية ، مهما اختلفت في البعض من صورها ، أو البعض
بما سواها :

١ - عبادة الله خالصة ، ٢ - طاعته خالصة .. حنيفاً : معرضاً عن سوى
الله في العبادة والطاعة ، ٣ - إقام الصلاة ، ٤ - إيتاء الزكاة .. « وذلك دين
القيمة » : ذلك طاعة الكتب القيمة .

لا أن يشرك بالله في عبادته وطاعته ، ويُصلّي لغير الله كما المسيحيون أحياناً يصلون للمسيح ، ويطيعون أحبارهم كأنهم أرباب ، وأشرّ منهم اليهود .

ولا أن تدفع الأموال في متاجرات القساوسة ، إذ يشترون الذنوب بالأموال لكي يغفروهاهم^(١) !

« وذلك دين القيمة » : لا ينسخ ولن ينسخ على مر الزمن وطوال رسالات السماء ، مهما اختلفت في أشكالها ، فالجذور واحدة^(٢) .

إن الكافر جحيم في الدنيا وجحيم في الآخرة ، كما المؤمن جنة في الدنيا وجنة في الآخرة ، وخلود كلٍّ من الفريقين إنما هو حسب خلوده في الكفر أو الإيمان ، عقائدياً وعملياً ، جزاءً وفاقاً :

« إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشرّكين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية » :

فهل يا ترى كيف يسوّى بين الكتّابي والمشرّك في خلود النار؟ نقول لا تسوية هنا ، رغم المشاركة في أصل الخلود ، إذ الخلود هو البقاء مدة طويلة ، فكلٌّ من الكتّابي والمشرّك يبقى في النار مدة طويلة حسب استحقاقه ، قليلاً أو كثيراً ، فإنه ليس الخلود كما يزعم : هو البقاء الأبدي الفلسفي اللانهائي ، ولو كان لم يكن لقيد الأبد في خلود المؤمنين من معنى ، وهنا الأبدية في خلود المؤمنين توحى لنا أن الخلود منه أبدي ومنه غيره ، ورغم أن المشرّكين يُخلّدون في النار أبدين ، لم يذكر لهم الأبد هنا رعاية لشركائهم في العذاب : أهل الكتاب ، إذ لا يخلّدون أبدياً ، وليس من العدل تخليدهم كالمشرّكين .

(١) راجع كتابنا (عقائدنا) قسم غفران الذنوب عندنا ، وصكوك الغفران المسيحي .

(٢) راجع كتابنا (المقارنات) ص ١١٥ .

ثم الخلود الأبدي أيضاً لا يعني إلا خلوداً أطول من غيره ، لا الخلود اللانهائي فلسفياً ، فإنه خلاف العقل والعدل والنقل ، قرآنياً وفي السنة ، ومما يوهن صلابة الخلود - في زعم اللانهاية - أن الخلود لغوياً ليس إلا المقام مدة طويلة ، ولا يعني الأبد لخلود النار إلا أبد الحياة ومدى الحياة ، وإن كان الأبد في الجنة لانهائياً ، إذ إن اللانهاية في الرحمة من فضل الله ، وهي في العذاب ظلم ، والنهاية في العذاب لزلم عدله (١) .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » :

هناك شر البرية وهنا خير البرية ، وهنالك المتوسطون بين الفريقين على درجاتهم ، فلا أن أشرارهم يخلّدون في النار ، ولا أن أخیارهم يدخلون الجنة بغير حساب ، ومن خير البرية - وعلى حد قول الرسول الأقدس ﷺ - هو نفسه وعينه وخليفته في أمته علي أمير المؤمنين عليه السلام (٢) .

(١) راجع كتابنا (عقائدنا) المخلدون في النار ص ٣٠٦ - ٣٢٢ والآية لابئين فيها أحقاباً من سورة النبأ في هذا الجزء .

(٢) الدر المنثور ج ٦ ص ٣٧٩ - أخرجه ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال كنا عند النبي (ص) فأقبل علي (ع) فقال النبي (ص) والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة ونزلت « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » فكان أصحاب النبي (ص) إذ أقبل علي (ع) قالوا : جاء خير البرية ، وأخرجه ابن عساكر عن ابن عباس وابن مردويه عن علي (ع) ، وأخرجه ابن عساكر عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً ، وفي كتاب شواهد التنزيل للحاكم أبي القاسم الحسكاني قال أخبرنا أبو عبد الله الحافظ بالإسناد المرفوع إلى يزيد بن شراحيل عن علي (ع) مثله .

أقول : وهذا من قبيل الجري والتطبيق في المختلف فيه بين المسلمين ، إذ من الضروري أن الرسول (ص) هو خير البرية قبل علي (ع) كما في اعتقادات الإمامية للصدوق قال النبي (ص) أنا أفضل من جبرائيل ومكائيل وإسرافيل ومن جميع المقربين وأنا خير البرية من ولد آدم (نور الثقلين ج ٥ ص ٦٤٥ ح ١٥) .

وتم بعد الرسول من دباهم بالوحي ، من خلفائه المصومين ، كما في أصول الكافي عن طاهر قال كنت عند أبي جعفر (ع) فأقبل جعفر (ع) فقال أبو جعفر (ع) هذا خير البرية ، أو « أخير » .

« جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار
خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه وذلك لمن
خشى ربه » :

جنات عدن - أي : استقرار ومقام دون خروج عنها : خلوداً أبدياً في
الجنة للذين آمنوا وعملوا الصالحات - كل الصالحات - وخلوداً لكفرة أهل
الكتاب والمشركين ، أبدياً للآخرين وغير أبدي للأولين ، وأبدية الخلود في النار
لا تعني إلا البقاء مدى الحياة ، فسوف تموت النار وتحمد ، ويموت معها من فيها ،
قبل أن يخرج منها من يستحق الخروج إلى الجنة .

« رضي الله عنهم » : لأنهم سلموا لأمره « ورضوا عنه » يوم الدنيا ويوم
الآخرة ، إذ يرون فضله الدائم فوق التصور والحسبان « ذلك لمن خشى ربه »
فالخشية هي خوف مع إعظام في القلوب ، كما الخشوع هو هو في القلب ، فالخشية
تعم الإنسان قلباً وقالياً ، تعم كيان الإنسان ككل ، والنتيجة هي الإيمان
عقائدياً وعملياً .

هذه هي سورة البينة دون زيادة ولا نقصان ، والزيادات الواردة في بعض
الروايات مختلفات تشهد بذواتها ، أو أنها تفسيرات لآياتها^(١) كما في مصحف الإمام

= فكل واحد من القادة المعصومين هو خير البرية في زمنه كما هو الواجب للمصطفين الأخيار ،
وكذلك أشباع القادة الخيرة هم خير الأشياء .

(١) كما في أصول الكافي بالإسناد إلى محمد بن أبي نصر قال رفع إلي أبو الحسين (ع) مصحفاً
وقال : لا تنظر فيه ، ففتحته وقرأت فيه « لم يكن الذين كفروا » فوجدت فيها اسم سبعين
رجلاً من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم فبعث إلي أن إبعث إلي بالمصحف (نور الثقلين ج ٥ ص
٦٤٢ ح ٤) .

امير المؤمنين عليه السلام أو أنها مقححات (١) .



(١) كما في الدر المنثور ج ٦ : ص ٣٧٨ عن أبي بن كعب أن رسول الله (ص) قال : إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن : لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ، فقرأ فيها : ولو أن ابن سأل رادياً من مال فأعطيه لسأل ثانياً ، ولو سأل ثانياً ، فأعطيه لسأل ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويترب الله على من تاب وإن ذات الدين عند الله الحنفية غير المشرك ولا اليهودية ولا النصرانية ومن يفعل ذلك فلن يكفر .

وفي نقل آخر عنه أنه (ص) قرأ بعد ما جاءتهم البينة « إن الدين عند الله . وفي ثالث عنه أنه (ص) قرأ السورة هكذا : ما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة : فيها كتب قيمة أي ذات اليهودية والنصرانية أن أقوم الدين الحنفية مسلمة غير مشركة ومن يعمل صالحاً فلن يكفره وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءتهم البينة إن الذين كفروا أوصدوا عن سبيل الله وفارقوا الكتاب لما جاءهم أولئك عند الله شر البرية ما كان الناس إلا أمة واحدة ثم أرسل الله النبيين مبشرين ومنذرين يأمرون الناس يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويعبدون الله وحده وأولئك عند الله هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أبداء رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه .

أقول : لو كانت هذه الزيادات تفسيرات للآيات فهي غالطة ، ولو كانت من ضمن الآيات فأغلط ، فهل إن الكتب القيمة هي ذات اليهودية والنصرانية ، وهل إن الدين الحنفية هو المسلمة غير المشركة ، وبعد ملاحظة بسيطة في هذه الجمل المقعمة وآيات البينة نجد أنها شطحات وخيالات يهودية نصرانية تهدف إلى تشويه سمعة القرآن ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار ! .

﴿ سورة الزلزال - مكة - وآياتها ثمان ﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ
زِلْزَالَهَا ^١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ^٢ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ^٣
يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا ^٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ^٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ
النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيرَوُاْ أَعْمَالَهُمْ ^٦ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ^٧
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ^٨ . »

مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

« إذا زلزلت الأرض زلزالها » :

الزلزال الخاص بها في آخر المطاف ، بعد زلازل موضعية تعيشها قبل موتها ،
وبعد الرجفات التي تعيشها طوال حياتها ، حفاظاً على كيانها الأرضي بسين
زملائها .

أرضنا هذه راجفة : بحكومة بحركات عدة أنهاها العلماء حتى الآن إلى
أربع عشرة حركة ، رجفة تعيشها ومن عليها ، عامرة معمرة ، ثم تأخذها

رجفة تُدمرها وتميت من عليها : « رجفة الإمامة » ثم رجفة الإحياء : « يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة » (٧٩ : ٧) .

إن رجفة الأرض - الدائبة - ظاهرة حسب القرآن ، حتى عدت الراجفة من أسمائها ، فهي راجفة دوماً ، وتتبعها رجعة رادفة يوم احتضارها .

وآية الزلزال تتحدث عن رجفة الإمامة والتدمير التي تتلوها رجفة الإحياء ، وأنها في زلزالها تتمدُّ مداً : « وإذا الأرض مُدَّت وألقت ما فيها وتخلت » (٨٤ : ٣ - ٤) وتشتقُّ عن حملها سراعاً : « يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشرٌ علينا يسير » (٥٠ : ٤٤) وتحمّل على أكتاف الزلزال مع جبالها إلى قبرها : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » (٦٩ : ١٣) .. وإلى حيث لو رأيتها ما عرفتها : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار » (١٤ : ٤٨) .

إن هذه الزلزلة والرجفة والدكة والإنشقاق ، سوف تُخرج الأرض أثقالها :

« وأخرجت الأرض أثقالها » :

أثقالها : أحمالها التي اختبت في جوفها ، من إنسانها وحيوانها ، ومن جواهرها وثوراتها .

« أثقالها » : أثقالها معنوية كإنسانها الذي فضل على كثير ممن خلق تفضيلاً ، ومادياً كالجواهر المرغوبة لإنسانها ، ولقد دفنت الأرض كلا الثقلين ليوم تقوم الأشهاد ، فإلى عرصات التساؤلات .. إنها دفنت الطالب والمطلوب و « ضعف الطالب والمطلوب » والثقل المطلوب سوف يشهد للطالب وعليه ، ويشهد الطالب بالمطلوب ، له أو عليه ، وكما عن الرسول الأقدس ﷺ قوله : « بقيت الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل

فيقول : في هذا قتلت ، ويحيى القاطع فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويحيى السارق فيقول : في هذا قطعت يدي ، ثم يدعونه فلا فلا يأخذون منه شيئاً ،^(١)

تخرج الأرض أثقالها : أماناتها ، وكما تحدث أخبارها الناتجة عن ثلثكم الأثقال : فيا للأرض من حافظة أماناتها إلى حين زلزالها ، تؤذيها سالمة سليمة ، دون تدجيل وتدجيل ، دون زيادة ولا نقصان ولا تضليل !

« وقال الإنسان ما لها » :

.. هذه الإنسانية التي رأت - طول تاريخها - الزلازل والبراكين ، وشهدت زعزعات ورجفات ، هذه الإنسانية - وهي تعيش أخريات الأنفاس من حياتها - هذه تقول : ما لها ؟ .. كأنها - أو أنها - صرخة جماهيرية تزامن صرخات الزلازل ، وإنه سؤال المشدود المبهوت من زلزالها هذا ، الذي لم يعده طوال حياته وحياة الأرض .

إنه سؤال الدهشة في يوم عصيب : « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » (٢٢ : ٢) .

« يومئذ تحدث أخبارها » :

.. هذه الإذاعة تذيع أخبارها كاملة ، وتؤدي أماناتها شاملة ، متى ؟ يوم دمارها بزلزالها ، وبعدها أخرجت أثقالها ، فإن أخبارها ليست إلا عن أثقالها .

(١) الدر المنثور ج ٦ ص ٣٨٠ .

فهل يا ترى إن الأرض سوف تصبح حيوانة أو إنسانة تحدث ؟ تحدث بما أحدثه إنسانها في حياة التكليف ؟ أم سوف تصبح جبالها كالسنة لها حِداد ، وهي بحول الله وقوته تحدث أخبارها .. وكما يتقو لها القوالون غير المفكرين !

كلا ! فهاذا يعنى بهكذا أخبار أجنبية عن كيان الأرض ، المضبوط بها عليها ، فهل إن فيها حجة على أصحاب الأخبار الذين عملوها وأحدثوها ؟

كلا ! فإنهم « تعرض عليهم أعمالهم فينكرونها فيقولون ما علمنا شيئاً منها فتشهد عليهم الملائكة فيقولون يا رب هؤلاء ملائكتك يشهدون لك ثم يحلفون بالله ما فعلوا من ذلك شيئاً »^(١) ثم يأتي الله بشهود العيان ، صور الأعمال وأصوات الأقوال المسجلة في الأرض وفي الأعضاء ، وعند ذلك ييكتون ، أجل وإن الأرض تحدث أخبارها بما شهدتها وسجلتها :

« بأن ربك أوحى لها » :

رَمَزَ لها في عمق كيانها أن تسجل ما يحدث عليها وما يقال ، من أعمال وأقوال ، ثم تذيب ما سجلته مع سائر الإشهاد يوم يقوم الإشهاد ، وإنه ليس وحي

(١) رواه القمي في تفسيره عن الصادق (ع) وتتمة الحديث كالتالي : « .. وهو قول الله : يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ، فعند ذلك يختم الله ألسنتهم وينطق جوارحهم فيشهد السمع بما سمع مما حرم الله ، ويشهد البصر بما نظر إلى ما حرم الله ، وتشهد اليدين بما أخذا ، وتشهد الرجلان بما سمعا فيما حرم الله ، ويشهد الفرج بما إرتكب مما حرم الله ، ثم انطق الله ألسنتهم فيقولون لجلودهم لم شهدتم علينا فيقولون أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون وما كنتم تستترون من الله أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون » .

أقول : وشهادة الأعضاء هي بروز الصور والأصوات التي تلقنتها ، فهي مسجلات إلهية كما الأرض مسجلة ، ثم يصدق النبيون والملائكة الذين يشهدون ، وفق الأرض والأعضاء ، شهود أربعة تحيط بالجرمين إحاطة كاملة .

النبوة ولا وحي الإلهام ، ولا وحي الغريزة ، وإنما وحي في تكوينها ، ورمز في كيانها الذي يحمله من سوى الله والراسخين في العلم .

فيا للأرض من مسجلة سرية حافظة لما يحصل عليها ، ثم لا تتحدث عنها إلا عند قيامتها ، تسجل وتحدث خلاف سائر المسجلات والأسطوانات . . . فإنها تسجل طوال حياتها دون أن تحدث جهازاً حالها ، ثم تحدث بما سجلت عند احتضارها وموتها ، مؤدية أماناتها بكاملها ! .

فهل إن بالإمكان أن تبقى صور الأعمال وأصوات الأقوال وحالات الأفكار ليوم تشخص فيه الأبصار ؟ .. أجل وكما صرحت به آيات بينات من الذكر الحكيم ، في هذه السورة وسواها ، وصدقها العلم .

كان الناس لا يصدقون ، قبل صناعة التلفزيون والراديو والمسجلة وأشباهاها ، من المسجلات للصور والأصوات ، كانوا لا يصدقون هامة إنعكاس الأعمال يوم القيامة ، فكان الكافر والشاك ينكر ويستهزئ ، وكان المؤمن يتحير ويؤول ، لكننا العلم خدّم هذه الملحمة الغيبية القرآنية بحجب أمثالها ، وعلى حد تعبير الصحابي الكبير ابن عباس رضي الله عنه : « إن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن ، فلقد فسر الزمن هامة انعكاس الأعمال المصرح بها في آيات عدة :

« يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة

خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » :

أجل : ليروا أعمالهم ، لا جزاء الأعمال فحسب ، بل الأعمال نفسها أيضاً ، عذاباً فوق العذاب .

إن المؤمن يوم الدنيا في غفلة واحدة عن عملية مسجلتنا الأرضية ، إلا من

هداه الله على ضوء التصريحات القرآنية ، والكافر في غفلتين ، غفلة الجهل
وغفلة الكفر « ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق
وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد »
(٥٠ : ٢٠ - ٢٢) .

كنت في غفلة عن الشهيد ، ومنه الشهيد الأرضي الذي شهد أعمالك
وسجلها ثم يحدثك أخبارها ، « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما
فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها
ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » (١٨ : ٤٨) ، « يوم تجد كل
نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً
بميداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد » (٣ : ٣٠) .

فالأعمال كلها يوم القيامة حاضرة محضرة ، يحضرها الله تعالى بما سجلها في
الأرض وفي أعضاء الإنسان ذاته ، وفي ذات الإنسان ، إن الله هو الذي يستنسخ
الأعمال كما تصدر ، دون زيادة ولا نقصان ، ونسخة الأعمال هي الكتاب الذي
سوف ينطق علينا بالحق : « وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم
تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم
تعملون » (٤٥ : ٢٨ - ٢٩) : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له
يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً »
(١٧ : ١٥ - ١٦) .

فكما الإنسان - نفسه وبأعضائه - هو من شهود الأعمال له أو عليه ، كذلك
الأرض يجرمها وجوها تسجل أعماله وأقواله هنا ، ثم تحدثها هناك : « بأن ربك
أوحى لها » .

فكما رباك وربك وأعدك للوحي تلقياً وتحديثاً ، كذلك أوحى للأرض
- إذ خلقها - أن تسجل الأعمال فتحدثها .

إننا سوف نسمع أقوالنا كما قلناها ، ونرى أعمالنا كما عملناها ، كأننا عملناها الساعة ، وعلى حد تعبير باقر العلوم عليه السلام : « خيرهُ وشرهُ معه حيث كان لا يستطيع فراقهُ حتى يعطى كتابهُ بما عمل »^(١) ، فخير الإنسان وشرهُ لزامهُ في ذاته : « معه » وفي المكان الذي عملهُ : « حيث كان » لا يستطيع فراقهُ .

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام : « يذكرُ العبد جميع ما عمل وما كتب عليه حتى كأنه فعلهُ تلك الساعة »^(٢) .

وبخصوص تحديث الأرض عن الرسول الأقدس صلى الله عليه وآله قوله : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسولهُ أعلم ، قال : أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا فهذه أخبارها^(٣) .

يعني من قولها : ما سجلتها ، ويا ويلنا من هذا التسجيل الشامل لزمن الأعمال ومكانها ، ولكي نشهد ما عملناه وقلناه شهود عيان فلا نجروا على الإنكار .

إن الأرض سوف تؤدي رسالتها بالوحي ، وحي التكوين ، وسوف تصبح شاشة قوية : « لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » .

(١) تفسير العياشي .

(٢) تفسير العياشي .

(٣) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٨٠ أخرجه أحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله (ص) هذه الآية : يومئذ تحدث أخبارها ، قال : أتدرون ما أخبارها ؟ ... وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس بن مالك أن رسول الله (ص) قال : إن الأرض لتعبر يوم القيامة بكل ما عمل على ظهرها وقرأ : يومئذ تحدث أخبارها . وأخرج الطبراني عن ربيعة الجرشية أن رسول الله (ص) قال : تحفظوا من الأرض فإنها أمك وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي تخبر به .

« يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليرَوّا أعمالهم » :

يصدرون - هم - بعد صدور أعمالهم ، وبعد أن حصل ما في الصدور ،
يصدرون فيفاجأون بشهود المشهد العظيم ، « ليرَوّا أعمالهم » نفس الأعمال كبداية
للعذاب تخجيلاً مما عملوا على رؤوس الأشهاد ، وإفحاماً بواقع الأعمال ، واسكى
لا يجدوا سبيلاً للإنكار ، ثم عذاب ثانٍ يستمر ، هو ظهور حقيقة هذه الأعمال ،
فجزاء الأعمال إنما هي الأعمال لا سواها : « إنما تجزون ما كنتم تعملون »
فالأعمال رؤيتها وذواتها ، هي عذاب فوق العذاب .

يصدر الناس أشتاتاً حسب شتات الأعمال ، ليرَوّوا أعمالهم ، كأن رؤيتها
أخطر من جزائها ، أمرٌ وأدمى مما يمرّ عليه ساعتها ، وإنهم - على أشتاتهم -
ذاهبون على غفوة وغفلة مما عملوا ، وعلمهم نسوها أو تناسوها ، ذاهبون إلى شاشة
عرض الأعمال ، والشاشة هي الأرض كلها .. ومن أعماله ما يهرب من ذكرها ،
فكيف بمواجهتها على رؤوس الأشهاد ، إنه يشيح بوجه عنها لبشاعتها يوم العرض ،
حين تتمثل له في أمرٍ نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير ، ولات حين مناص .
فهل إنهم سوف يرون عظامهم الأعمال دون صفائرها ، وهل إن رؤية الكبائر
تنوب وتكفي عن رؤية الصفائر ؟ كلا :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة
شراً يره » :

اللهم إلا الخير الحابط غير الثابت ، وإلا الشر الممحو الساقط على التفاصيل
التي نجدها في الذكر الحكيم :

فمن السيئات ما تمنحي بترك الكبائر وفعل الحسنات : « .. إن من يجتنبوا
كبائر ما قتهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً » (٤ : ٣١)
« وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك
ذكرى للذاكرين » (١١ : ١١٤) .

ومنها ما تتمحي بالتوبة والشفاعة على شرائطها المفصلة في محالها (١) .

ومنها ما تتمحي بمصائب الحياة ونوازله ، وكما عن الرسول الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم (٢) .

ثم ترى منها ما تبقى ، والويل لما تبقى ، فمثقال ذرة منها لا تخفى إلا ظاهرة في شاشة المحشر وساحته .

وقد نحتمل أن صور الأعمال كلها تبقى ، ما يعفى عنه أو يحبط ، وما لا يحبط أو يعفى عنه ، فخير الكافر يبقى - على حبطه - يبقى ليراه فيزداد تحشراً أنه لم ينفعه يوم الشقة ، وشر المؤمن يبقى - على عفوه - ليراه فيزداد سروراً بفضل الله وعفوه كما عن باقر العلوم عليه السلام (٣) ، ولكنها رؤية لا تفضحه .

سوف يرى هناك ما لا يكاد يراه هنا ، فالذرة المادية هنا لا ترى بأعظم الجواهر ، وإنما هي رؤيا علمية في ضمير العلماء ، لم يروها حسياً حتى الآن ، وسوف يراها كل

(١) راجع « عقداً ثناً » ص ٢٢٥ ، ويأتي البحث عنها في طيات الإيات المناسبة إن شاء الله .
(٢) في الدر المنثور ج ٦ ص ٨١ - أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري قال : لما أُنزلت هذه الآية « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره .. الخ » قلت : يا رسول الله (ص) ! إنني لراء عملي ؟ قال : نعم ، قلت : تلك الكبار الكبار ؟ قال : نعم ، قلت : الصغار الصغار ؟ قال : نعم ، قلت : وانكل أمي اقال : أبشر يا أبا سعيد فإن الحسنه بعشر أمثالها يعني إلى سبعائة ضعف ، والله يضاعف لمن يشاء ، والسنة بمثلها أو يعفو الله ، ولن ينجو أحد منكم بعمله ، قلت : ولا أنت يا نبي الله ! قال : ولا أنا ! إلا أن يتغمد في الله منه بالرحمة .

وفيه عنه (ص) .. أرأيت ما رأيت مما تكره ؟ فهو من مثاقيل الشر ، ويدخر لك مثاقيل الخير حتى توفاه يوم القيامة ، وتصديق ذلك في كتاب الله : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » .

(٣) تفسير علي بن إبراهيم عن أبي جعفر الباقر (ع) في قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » يقول : إن كان من أهل النار وقد كان عمل في الدنيا مثقال ذرة خيراً ، يره يوم القيامة حسرة ، أنه عمله لغير الله ، « ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » يقول : إن كان من أهل الجنة رأى ذلك الشر يوم القيامة ثم عفر له (نور الثقلين ج ٥ ص ٦٥١ ح ١٨) .

الناس دون مجاهر ، وإنما بجديد البصر » .. فبصرك اليوم حديد « يرون كلا بما يناسبه ويساخره : رؤية البصيرة والبصر والسمع .. يرى الخير ثقيلًا والشر خفيفًا ، وتعبير المثقال للشر لا يُثقل الشرُّ في الميزان إلا في التعبير .

وقد يكون المثقال هنا وهناك إشارة إلى مدى تأثير الخير والشر في دنيا الحياة ، فكما الخير يُرى بنفسه ، كذلك بآثاره التي خلفها خلفه ، كما الشر أيضاً يُرى هكذا ، ثم الجزاء على الخير والشر سوف يكون جزاءً وفاقاً لثقلها : قدر التأثير ومداه ، كما تدل عليه آيات وروايات عدة (١) .



(١) قد فصلنا البحث عن ذلك في الآيات المناسبة التي نخصه .

سورة العاديات - مكية - وآياتها إحدى عشر

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا^١
 فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا^٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا^٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا^٤
 فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا^٥ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ^٦ وَإِنَّهُ عَلَى
 ذَلِكَ لَشَهِيدٌ^٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ^٨ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ
 مَا فِي الْقُبُورِ^٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ^{١٠} إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ
 لَخَبِيرٌ^{١١} » .

* * *

« والعاديات ضبحا » :

جمع العادية من العدو^(١) : المشي السريع ، ومنها الأفراس المسرعة في

(١) في المفردات للراغب العدو التجاوز ومنافاة الإلتئام وهو تارة بالقلب فهو العداوة والمعاداة ، وأخرى بالمشي فهو العدو ، وثالثة في الإخلال بالمدالة فهو العدوان والعدو ، ورابعة بإجزاء المقر فهو العدواء أي مكان ذو عدا .

المشي ، « ضبعاً » وهو صوت أنفاس الفرس تشبيهاً له بالضُّباع وهو صوت الثعلب .

والعاديات : قسماً بالمسرعات في سبيل الله ، قسماً بالمناضلات في معركة الشرف والكرامة ، سواء أ كانت أفراساً أم إبلًا ، أم دبابات وطائرات مقاتلة ، أم أية مسرعات تضبح في عدوها .

إنه قسم بالطاقات الجبارة التي منحها الله الإنسان ، وهبها له ليدافع عن نفسه ونفيسه وأنفس نفيسه : شريعة الله وأرضها وعرضها .

تبدأ السورة بمشهد القوات العاديات الضابحات - أية قوات - خيلاً أم إبلًا - كما تناسب زمن نزولها - ودبابات وطائرات وأشباهاها ، لأن شريعة الجهاد لا تخص زمن الخيل والإبل .

العاديات الضابحات ، الموريات قدحاً بعدوها ، قدحاً برياً أم بحرياً أم جويًا ، قدحاً يقدح العدو ويكبته الخسار ، ويوري عليه بالنار التي يوربها عليه وعلى كيانه .

يأخذ القرآن هنا مثلاً : العاديات زمن نزوله ، ثم يصفها بما يصف ، دون أن تختص بالخيـل والإبل ، إذ إنه كتاب الزمن :

« فالموريات قدحاً » :

الإبراء إخراج النار بالعدو الضابح أم سواء ، نتيجة سرعة الحراك ، سرعة في الجو توري من إصطكاكها الجوي قدحاً ، وسرعة الدبابات المورية بصدامها عبر سيرها الأرضي ، وسرعة السفن كذلك في الماء .

« فالموريات » إن الإبراء هذا نتيجة سرعة العدو هجوماً على العدو « قدحاً » : صكاً بصدام السير لسرعته .

« فالمغيرات صبحا » :

تغير في الصباح الباكر لتفاجيء العدو الفادر ، نعم صبحاً لتصبح غالبية على حين غفلة وغفوة من العدو .

« فأثرن به نقعا » :

على أثر الإبراء والإغارة أثرن نقعاً : غباراً شديداً في الصباح ، نقعاً من غبار الأرض ، ونقعاً على عقول وأفكار المغبرين الأعداء ، ونقعاً على حياتهم العنيدة .

« فوسطن به جمعاً » :

وسطن جمع الأعداء ، وهكذا يجب أن تكون الحرب ، أن يهاجموا الأعداء في عقر دورهم ومآمنهم ليوقعوا المهابة فيهم ويخسروهم معنوياتهم في البداية ، ويخسروهم أنفسهم في النهاية ، فباقة المؤمنين بالتي تخسروهم ما داموا مؤمنين صامدين ، يرهبون عدو الله وعدوهم ، وهكذا امروا أن يكونوا على اهبة وُعدة إرهابية : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

هذه هي خطوات المعركة الناجحة على ما يألّفه أعداء القرآن .

قسماً بهذه الطاقات والخطوات المجيدة في معارك الشرف والكرامة :

« إن الإنسان لربه لكنود » :

تنديد بكنس الإنسان الفاشل في حرب الأعداء ، الراجع منهزماً عن خط النار بكل عار وبوار نتيجة خوفه وجبنه عن الكفار .

فقد نزلت السورة في حرب ذات السلاسل لما بعث النبي (ص) عليًا إلى ذات السلاسل فأوقع بهم ، وذلك بعد أن بعث عليهم مراراً عدة غيره من الصحابة - بمن فيهم عمر وأبو بكر - فرجعوا إلى رسول الله (ص) فاشلين ، ولما نزلت السورة خرج رسول الله (ص) إلى الناس فصلى بهم الغداة وقرأ فيها : « والعاديات » فلما فرغ من صلاته قال أصحابه : هذه سورة لم نعرفها ، فقال رسول الله (ص) نعم إن عليًا ظفر بأعداء الله وبشرني جبرائيل في هذه الليلة فقدم علي عليه السلام بعد أيام بالغنائم والأسرى .

إنه قسم بالمانضلين الصامدين الصادقين أن من سواهم من الخاملين الفاشلين لربهم كئودون : كفورون بنعمه التي منحها إياهم ، لا يستعملون القوة - التي حباهم ربهم - في سبيله .

قسم بنعمة الله لواقع الكفران ، وإن فيها تنديداً بالذين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ويفشلون في التذرع بها إلى مرضاة الله ، لفشلهم في الإيمان الصادق . هنا نرى بقية الآيات في « العاديات » تستعرض كفران الإنسان وهيمانه في حب نفسه ، حب الشهوات والحيوانات ، حب الذات كحيوان ، تاركاً حبه له كإنسان !

وليست هذه دعاية ضد الإنسان ، فإنه هنا شهيد على نفسه :

« إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك الشهيد » :

يشهد على كفرانه في ضميره ، لو بقي له ضمير ، ويشهد في أقواله وأفعاله ، شاء أم أبى ، وسوف يشهد يوم يقوم الأشهاد مع الأشهاد على نفسه ، شهادة صوتية وصورية ، بما سجلها ربه تعالى في أعضائه ، تشهد الألسنة بما سجل الله فيها من أقوالها ، والأسماع بما سجل فيها من مسموعاتها ، والأبصار بما سجل فيها من مرئياته ومبصراتها ، والجلود بما سجل فيها من أعمال بظاهر الجسد .

« وإنه لحب الخير لشديد » :

حب الخير ، لا الصالح ، إنما الذي يراه خيراً في حيونة الحياة ، ملائماً في تلك الحياة اللينة المشؤومة ، دون ما يصلح الإيمان ، وما هوا بدافع الإيمان .

هذه فطرة الإنسان وطبيعته ما لم يخالط قلبه الإيمان ، فيغير من تصوراته وقيمه واهتماماته ، ويحيل كنوده ، اعترافاً بفضل الله ، شكرافاً بالكفران .

إنه يظل مرتكساً في حماة الأرض سجيناً ، في سجن الذات ، ما لم يتحرر عن حب الذات ، إلى حب خالق الذوات والذات .

فيا للإنسان من غفلة غمرت عقله ، ومن غفوة ستوت لبته :

« أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور . وحصل ما في الصدور . إن ربهم بهم يومئذ لخبير » :

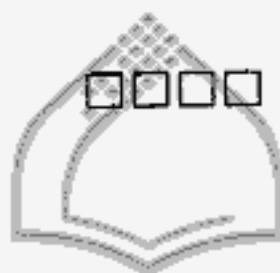
إذا بعثر ما في القبور من أجسادهم الجهنمية « ما » لا « من » لأنهم خرجوا عن كونهم إنساناً إلى حيوان ، فلا يحق لهم التعبير بما يخص ذوي العقول : « من » ..

فهناك بعثرة القبور : « وإذا القبور بعثرت » وبعثرة ما في القبور : بدن الإنسان الكنود ، ثم تحصيل وإحصاء وتحضير لما في صدورهم ، من الأسرار الشريرة التي ضنت بها ، ومن الأهداف الشهوانية التي أظهرتها وتجاهرت بها ، فالصدور هي مخابىء الأفكار ، وحُصالة التصاميم المتحللة عن ثفالاتها ، ثم هي مخابىء القلوب : « وإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

حصل ما في الصدور واقعياً وشهوداً عليها لتضطرهم إلى الإقرار : « أفلا

يعلم « وقتئذ : « إن ربهم بهم يومئذ لخبير » خبرة إيدانة وجزاء ، كما كان خبيراً
يوم الدنيا ، خبرة علم واطلاع .

يومئذ يصبح الإنسان خبيراً أن ربه به لخبير ، يعلمه خبيراً بعسده ما كان
يجهل أو يتجاهل بخبرة الربوبية ، إذا لم يكن ليحافظ على كرامة الربوبية ،
فلقد كان يعمل كأنه لا رب ، وكان حراً كأنه ليس عبداً ، ثم يوم القيامة
سوف تظهر له ربوبية الرب علماً وواقعياً وإدانة وجزاء وفاقاً .



مركز تحقيق كاتيبويز علوم إسلامي

﴿سورة القارعة - مكية - وآياتها عشر﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْقَارِعَةُ ^١ مَا الْقَارِعَةُ ^٢
وَمَا أَذْرَاكَ ^٣ مَا الْقَارِعَةُ ^٤ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ
الْمَبْثُوثِ ^٥ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِظِيقِ الْمَنْقُوشِ ^٦ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ
مَوَازِينُهُ ^٧ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ^٨ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ
فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ^٩ وَمَا أَذْرَاكَ ^{١٠} مَا هِيَ ^{١١} نَارُ حَامِيَةٍ ^{١٢} . »

مرکز تحقیق کامپیوتر علوم اسلامی

سورة تقرأها فتقرعك بقارعة القيامة ، ولكي تعد لها ما استطعت من
أثقال الموازين فتخفف قارعتها عنك ، وتصبح بها في عيشة راضية .

« القارعة » :

إنها قارعة في الأولى ، واخرى في الحياة الأخرى : « ولا يزال الذين كفروا
تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا
يخلف الميعاد » (١٣ : ٣١) .

قارعة يوم الدنيا تنلونها قارعة - ما أعظمها - في الآخرة : « حتى يأتي وعد الله » بالقارعة الأخيرة الهائلة .

إنها قوارع تتبع ما صنعوا ، في أولاهم يسيراً ، وفي آخرهم كثيراً : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة » (٦٩ : ٤) والقارعة مبالغة في القرع ، وهو ضرب شيء على شيء ، والآخرة هي يوم التضارب والتداق ، يتضارب الكون ويضطرب : بقرع الأنجم والكواكب بعضها ببعض لحد الإنتشار : « وإذا الكواكب انتثرت » : فينتصر في هذه المعركة الشاملة أمر الله ، إن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وكان أمر الله مفعولاً .

إنها تقرر إنسانها بما قدمت نفسه من قوارع الأفكار والأعمال ، رغم أنها ما كانت تقرر صاحبها يومها إلا يسيراً ، لكنها تقرر يوم الآخرة كثيراً ، جزاء وفاقاً .

والقارعة إسم من أسماء القيامة الكبرى تشير إلى سمته ، كأضرابها من أسمائه التي تشير : كل إلى سمته وحالته خاصة^(١) .

(١) منها اسماء مفردة ك : الواقعة - الصاخة ، ومنها مركبة إضافية : ك : اليوم الموعود - اليوم الآخر - يوم عظيم - يوم كبير - يوم الجمع - يوم ألم - يوم عصيب - يوم مشهود - يوم الحساب - يوم الدين - يوم يلقونه - يوم الحسرة - يوم الآزفة - يوم الفتح - يوم التناد - يوم الفصل - يوم محيط - يوم الخلود .. ومنها مركبة بيانية ك : يوم تبلى السرائر - يوم لا بيع فيه ولا خلة ، يوم ينفخ في الصور ، يوم تشخص فيه الأبصار ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، يوم يقوم الأشهاد ، يوم ترجف الراجفة ، يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ، يوم لا تكلم نفس إلا بإذنه ، يوم توفي كل نفس ما عملت ، يوم تدعو كل أفس بأمامهم ، يوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة .

ويوم القيامة يومان : يوم الإمامة ويوم الإحياء ، والآيات تبعث عن اليومين وتعبّر عنها جميعاً بيوم القيامة .

« ما القارعة ؟ » :

كسؤال يصور رهبة الموقف ، لحد كأنه خفي على الرسول الأقدس ﷺ :
« وما أدراك ما القارعة ؟ » .

إن القارعة توحى بقرع ولطم شديدين ، تقرعان الكون قلباً وقلباً ، القلوب المقلوبة التي تذرعتها الشياطين لقرع الحياة وقلبها إلى غير ما تعنيه ، والقوالب كلها مقروعة في هذه الدكة العظيمة الشاملة .. وإنما تسلم القلوب السليمة ، الثقيلة الموازين ، الشديدة الرباط بالله العظيم .

« وما أدراك ما القارعة » :

ليس لها مثل في دنيا الحياة حتى يدركها في عقباها ، وإنما هو الوحي ، وحي السماء : يدريك ما هي القارعة .

« يوم يكون الناس كالفراش المبثوث » :

إنها إجابة عن سؤالها بما يحصل فيها ، لا بما هيته ، فإنها فوق التحمل يوم الدنيا ولو في صورها .. يوم يكون الناس : من هيته وشدة وطأته وقارعته ، كالفراش المبثوث : الجراد المنتشر : « خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر » (٥٤ : ٧) . والجراد المنتشر هي الفراش المبثوث ، تنبت وتنتشر وتنفرش بعضها بعضاً ، وتركب بعضها بعضاً ، دون أن تتجه لجهة واحدة ، لهول القارعة ، ولأنهم كانوا يوم الدنيا في اتجاهات شتى ، فكل إنسان يعمل على شاكلته ، ويرجع إلى شاكلته ، شاء أم أبى .

إن الفراش المبثوث مثل لغاية الضعف والحق واللاهدف ، وهكذا يصير مصير الإنسان الذي عاش حياته كالفراش المبثوث ، إلا من ثقلت موازينه ،

فهذا هو مصير أقوى إنسان في الكون ، ثم ماذا يكون مصير سائر الكون ،
لنأخذ هنا مثلاً من الجبال :

« وتكون الجبال كالعن المنفوش » :

« يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعن » (٧٠ : ٨ - ٩) ..
فيا لها من وقعة قارعة ودكة مفرغة تهزم الجبال فتشزّم في هذه المعركة الدامية ،
فهذه سماء كالمهل : حمراء كالمطلوم المجروح ، وهذه جباله كالعن المنفوش :
الصفوف ذو ألوان ، نشر بندق ، فنداف القارعة هكذا يندف
وينفش الجبال .

فيا له من مشهد تطير له القلوب ، وترجف منه الأوصال ، وي كأن كل شيء
في الكون يطير حول الإنسان هباءً ، فماذا إذا حال الإنسان في الحتام :

« فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية » :

الموازين جمع ميزان وهو ما يوزن به وما يوزن أيضاً ، ولا يُعنى به هنا وزن
الجسد ، وإنما ما به الإنسان إنسان ، من موازين العقل والإيمان وأعمال الإيمان ،
وعلى حد تعبير الإمام الصادق (ع) « الموازين هي موازين الإنسانية » .

والميزان هو آلة الوزن والقياس ، ما يوزن به الشيء ويقاس ، فإن كان ذلك
الشيء جسماً فالميزان الجسماني على اختلاف حالات الأجسام فاختلف موازينها ،
فلا يوزن ما يسوى غراماً بما يوزن به أطنان ، ولا يوزن النور بما يوزن به سائر
الأجسام غير النورانية ، وكما لا توزن النواثر والقيسي أو الحرارة والبرودة
أو الأعمدة والخطوط أو الشعر والفلسفة ، لا توزن هذه وأمثالها بالقبّان وغيره
من موازين الأثقال المادية .

ثم الروحانيات والصفات والعقول والأرواح، إنها أخرى أن توزن بالمثل العليا من أمثالها ، وفي هذا الباب ليس الثقل إلا للصالحات دون الطالحات .

فالصالحات هي ثقل الميزان ، والسيئات هي خفتها ، إذ ليس للسيئات ثقل ، فإنما الوزن هو الحق والموازن هي القسط : « والوزن يومئذ الحق » (٧ : ٩) لا : الوزن حق ، مع أنه حق ، إنما : الوزن هو الحق ، فالحق هو الميزان والميزان هو الحق ، دون أن يكون وزن أو ميزان للباطل^(١) فلا يقام للكافر ميزان لحبط أعماله : « أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » (١٨ : ١٠٥) وكما عن الإمام زين العابدين عليه السلام سناداً إلى القرآن^(٢) .

فالقسط والحق هما الميزان ، وهما ثقل الميزان : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (٢١ : ٤٧) .

فإفراد القسط هنا لجمع الموازين يوحي لنا أن مجموعة الموازين تتحد في أنها القسط ، دون أن يكون للظلم ميزان ولا وزن حتى توزن به السيئات ، إنما هو ميزان واحد هو الحق والقسط والعدل ، وكما الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يصرح بسناد الآيات ويحذو حذو حفيده الإمام الصادق عليه السلام .

(١) نور الثقلين ج ٢ ص ٤٣ ح ١٣ عن مصباح الشريعة قال الصادق (ع) في كلام طويل : فإذا أردت أن تعلم أصادق أنت أم كاذب فأنظر في قصد معنك وغور دعواك وغيرها بقسطاس من الله عز وجل كأنك في القيامة - قال الله تعالى « والوزن يومئذ الحق » فإذا اعتدل معنك بدعواك ثبت لك الصدق .

(٢) كما في التوحيد عن علي (ع) وقد سأله رجل عما اشتباه عليه من الآيات وأما قوله تبارك وتعالى « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً » فهو ميزان العدل يؤخذ به الخلائق يوم القيامة ، يدين الله تبارك وتعالى الخلق بعضهم من بعض بالموازين .

وإذا كان القسط والحق والعدل هي الميزان : فأحرى أن يكون الرسول
الأقدس ﷺ وخلفاؤه المعصومون هم الموازين ، كما النبيون وأوصياؤهم موازين ،
وعلى حد تعبير الإمام الصادق عليه السلام : إن الموازين هم الأنبياء والأوصياء (١) .

فلا الموازين تكون مادية ، ولا ما يوزن فيه الموازين ، إنما هي القيم والمثل العليا
للإنسان - أياً كان .

وإنها - رغم اختلافها صورياً - تتحد في كونها حقاً وقسطاً ، تظهر في
مظاهر عدة حسب عديد الأعمال والأقوال ومراتب الإيمان والأحوال ،
فالحق الذي يوزن به الإيمان هو حق الإيمان ، وما توزن به الصلاة هو حق الصلاة
وأمثالها لأمثاله .

« فهو في عيشة راضية » : عيشة كأنها الرضا كلها ، دون أن يحملها شيء ،
سواها ، فهي هي الرضا بعينها : رضى العبد ورضوان من الله ، رضوان
مزدوج .

ثم ما هو مصير الخاطئين أعمالاً ، الخاطئين أحوالاً ، الأخسرين أعمالاً ، الذين
رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ؟ :

« وأما من خفت موازينه فأمه هاوية . وما أدراك ماهية .
نار حامية » :

هؤلاء هم الذين لا وزن لهم إطلاقاً ، بين ما لم يعملوا من الصالحات وما لم
يؤمنوا بها ، وبين ما حبطت من أعمالهم الصالحة أحياناً ، لكفرهم : « أولئك

(١) بحار الأنوار ج ٧ باب الميزان ص ٢٤٨ ح ٦ .

الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً» (١٨ : ١٠٥) .

أعمالهم حابطة قياساً إلى الآخرة ، ولو كانت مثاباً عليها يوم الدنيا وهم فيها لا يبغضون : « من كان يريد الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبغضون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » (١١ : ١٥ - ١٦) .

هنا وهناك تتحدث الآيات عن محض الإيمان محضاً، ومن محض الكفر محضاً، دون من « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم » (٩ : ١٠٢) .

« فأمه هاوية »^(١) كما كانت الهاوية أمه : ملجأ ومرجعه ، مصدره ومورده ، أعماله وأفكاره ، كانت كلها هاوية : ناراً حامية : تحرق ما قبله^(٢) ، فسوف

(١) الدر المنثور (ج ٦ ص ٣٨٥) أخرج الحاكم عن الحسن قال : قال رسول الله (ص) : إذا مات العبد تلقى روحه أرواح المؤمنين فيقولون له : ما فعل فلان ؟ فإذا قال : مات - قالوا : ذهب إلى أمه الهاوية . فبشيت الأم ، وبشيت الربيبة .

(٢) وفيه أخرج أبو يعلى قال كان رسول الله (ص) إذا فقد الرجل من اخوانه ثلاثة أيام سأل عنه فإن كان غائباً دعا له وإن كان شامداً زاره ، وإن كان مريضاً عساه ، ففقد رجلاً من الأنصار في اليوم الثالث فسأل عنه فقالوا : تركناه مثل الفروخ لا يدخل في رأسه شيء إلا خرج من دبره ، قال عودوا أخاكم ، فخرجنا مع رسول الله (ص) فعموده فلما دخلنا عليه قال رسول الله (ص) : كيف تجدك ؟ قال : لا يدخل في رأسي شيء إلا خرج من دبري قال : ومم ذاك ؟ قال : يا رسول الله (ص) ! مررت بك وأنت تصلي المغرب فصليت معك وأنت تقرأ هذه السورة « القارعة ما القارعة إلى آخرها : نار حامية » فقلت اللهم ما كان من ذنب أنت معذبي في الآخرة فمجل لي عقوبته في الدنيا فنزل بي ما ترى ، قال رسول الله (ص) : يش ما قلت ، ألا سألت الله أن يؤتيلك في الدنيا حسنة ويقيك النار ، فأمره النبي (ص) فدعا بذلك ودعا له النبي (ص) فقام كأنما نشط من عقال .

تكون يوم الآخر هاوية كما كانت ، صورة طبق الأصل ، فيا لها من أثقال
 إنسانية ! تكافح قارعة الآخرة فينتصر إنسانها في هذه المعركة الدامية .. لا نعني
 إنسان الجسد فإنه يموت ويبعث ، ثم يحيى فيجازي ، إنما إنسان الروح ، فهو
 الذي سوف ينتصر بموازينه ، فبعيسته راضية ، رغم من سواه من أهل المعركة ،
 معركة القارعة ، المعركة القارحة ، فإنها تقرع قوماً وتقرع من آخرين .



مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

﴿ سورة التكاثر - مكة - وآياتها ثمان ﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَهْلَاكُمُ التَّكَاثُرُ^١
حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ^٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ^٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ^٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ^٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ^٦
ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ^٧ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ^٨ . »

* * *

تأنيب شديد بالتكاثرين الذين اخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم ، أولئك
الذين حسبوا الحياة كلها شهوات ، هؤلاء الأخسرون أفكاراً وأعمالاً، المتكاثرون
في حياتهم حتى جرهم تكاثرهم إلى المقابر !

« أهلكم التكاثر » :

اللهو من اصول المحرمات في كافة الشرائع الإلهية المقدسة ، سواء أكان دافع
التكاثر بالأموال والأولاد والنساء ، أم بالقمار والموسيقى وأضرارها ، وكما يعد القرآن

أمثالها من اللهو تنديداً بها ومنعاً عنها (١) .

فمن الأشغال والأعمال ما تخص اللهو دون أن تأتي بمصالح للحياة ، كالقمار والرقص والموسيقى ، فإنها 'تخسر الحياة ولا تترجحها' ، تخسرها معنوياً ومادياً ، فهي محرمة إطلاقاً .

ومنهن ما تختلف حسب اختلاف الأهداف والنيات ، كالأموال والأولاد والتجارة ، والحياة الدنيا كلها : فهي هي الدنيا وأموالها وأولادها ، بين الجنة والنار ، كما يهدفها الهادفون ويقصدها القاصدون .

« ألهاكم التكاثر .. » فالحياة الدنيا بطبعها كلها لعب ولهو وتفاخر وتكاثر : « إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد » (٥٧ : ٢٠) .

إن الإنسان بطبعه يحب الإستكثار والإستثمار من الدنيا وبها « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة »

(١) « يا أيها الذين آمنوا لا تلهم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » (٢٣ : ٩) « رجال لا تلهمهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » (٢٤ : ٢٧) « ذرم يأكلوا ويتمتعوا ويلهمهم الأمل فسوف يعلمون » (٤٥ : ٣) « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » (٦ : ٢٢) « وذو الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا » (٦ : ٧٠) « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ربتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم » (٦ - ٧ : ٣١) « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خیر من اللهو ومن التجارة والله خیر الرازقين » (٦٢ : ١١) .

هذه وأمثالها تنهي عن اللهو : وهو كل ما يلهي عن الله : عن ذكره وعبادته ، وعن القيام بواجبات الحياة السليمة ، وعما يعني الإنسان كإنسان ، ويهيم في تجميل الحياة وتجميلها ، ويريد أن يخلصه عن دركات الحياة ، عن حيوية في الحياة وشيطنته .

ولكن عليه أن يحب التي تقربه إلى الله زلفي ، وتجعل حياته الدنيا حياتاً عالياً ،
ثم لا يفتخر بالكثرة الخيرة أيضاً إذ ليس له حول ولا قوة إلا بالله .

وأما إذا جهل أمر الكثرة هنا وهناك ، فاختصها بالكثرة السكاسة لكيان
الإنسان ، ثم تفاخر بها تفاخراً بدافع الكبرياء ، فهو إذاً مسامح عن
إنسانيته .

والتكاثر له درجات عدة ومنها ما لا تقف لحد : تكاثر يتعدى الحياة
والأحياء إلى الأموات ، فإذا تساوى المتكاثرون ، أو اختلفوا أيضاً ، أخذوا في
زيارة القبور : نحن أكثر رجالاً وأولاداً منكم بين أصحاب القبور ، وإن كنا
حالياً على سواء ، أو أنتم أكثر منا ، مفتخرين بمصارع الآباء وقبور الملوك ،
رغم أنهم من الملوك في حياتهم .

« حتى زرتهم المقابر » :

مقابر تزور مقابر أخرى^(١) تفاخراً بأجساد طغاة البشرية !

وعلى حد تفسير إمام المتقين أمير المؤمنين علي عليه السلام بعد تلاوته
آية التكاثر :

(١) وليس المعنى من زيارة المقابر هو الموت - رغم ما قيل - لأن المخاطبين
كانوا بعد أحياء ، فقد خاطبوا خطاب تنديد وتنبيه ، ولأن الموت ليس زيارة للمقابر ، إنما
هو دخول القبر لمن يدفن في القبر ، وليس كل ميت يدفن ، ولأنه لم يقل مقابرهم ، وما يؤيد هذا
المعنى أن السورة نزلت في جبين من قريش : بني عبد مناف بن قصي وبني سهم بن عمر ، تكاثروا
وعبدوا اثرافهم فكثروهم بنو عبد مناف ، ثم قالوا نعد موفاً حتى زاروا القبور فعدوهم وقالوا :
هذا قبر فلان وهذا قبر فلان فكثروهم بنو سهم لأنهم كانوا أكثر عدماً في الجاهلية - عن
مقاتل والكلبي .

« يا له مراماً ما أبعد ، وزوراً ما أغفل ، وخطراً ما أفظع ، لقد استغلوا منهم أي مدّكر ، وتناوشهم من مكان بعيد ، أفبمصارع آبائهم يفخرون ، أم بعيد الهلكى يتكاثرون ، يرتجعون منهم أجساداً خوت ، وحركات سكنت ، ولأن يكونون عبراً أحق من أن يكونوا مفتخراً ، ولأن يهبطوا بهم جناب ذلة أحجى من أن يقوموا بهم مقام عزة ، لقد نظروا اليهم بأبصار العثوة ، وضربوا منهم في غمرة جهالة ، ولو استنطفوا عنهم عرصات تلك الديار الخاوية ، والربوع الخالية ، لقال : ذهبوا في الأرض ضلّالاً ، وذهبت في أعقابهم جهالاً ، تطعمون في هامهم ، وتستثبتون في أجسادهم ، وترتمون فيما لفظوا ، وتسكنون فيما خربوا .

* * *

وإنما الأيام بينكم وبينهم بواك ونوائح عليكم ، أولئك سلف غايتكم وفراط مناهلكم الذين كانت لهم مقاوم العز وحلبات الفخر ملوكاً وسوقاً ، سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً ، سلطت الأرض عليهم فيه ، فأكلت من لحومهم وشربت من دماهم فأصبغوا في فحوات قبورهم جساداً لا ينمون وضماراً لا يوجدون ، لا يفزعهم ورود الأهوال ، ولا يحزنهم تنكسر الأحوال ، ولا يحفلون بالرواجف ولا يأذنون للقواصف غيباً ، لا ينتظرون وشوهداً لا يحضرون ، وإنما كانوا جميعاً فتشتوا وآلأفا فافترقوا ، وما عن طول عهدهم ولا بُعد محلّهم ، عيت أخبارهم وصمت ديارهم ، ولكنهم سقوا كأساً بدلتهم بالنطق خرساً وبالسمع صمماً وبالحرركات سكونا ، فكأنهم في ارتجال الصفة صرعى سبات ، جيران يتأنسون . هذا هو التكاثر الذي يندد به الله ويخشى منه رسول الله على حد قوله ﷺ : ما أخشى عليكم الفقر ، ولكن أخشى عليكم التكاثر ،^(١) .

(١) الدر المنثور ، أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن زيد بن اسلم عن أبيه قال قرأ رسول الله (ص) الهاكم متكاثراً ، وأخرجه ابن مردويه عن عياض بن غنم عنه (ص) مثله .

« كلا سوف تعلمون » :

« لو قد دخلتم قبوركم » ، إذ يرتفع الحجاب وغشاوة الجهل المعتمد بالإنحلال
عن ستار الدنيا وحياتها .

« ثم كلا سوف تعلمون » :

« لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم » ^(١) علما هو أرقى ، علما متتابعان
يفوق بعضهما البعض ، بعد الجهل المتأدي - العائد - يوم الدنيا : كلا سوف
تعلمون : عند سكرات الموت وهو بداية العلم ، وفي الكرة : يوم قيام القائم (ع) ،
بعد الموت ، ثم كلا سوف تعلمون ، في المحشر .

يا ويلاه ! فهل إلى تحصيل هذا العلم يوم الدنيا من سبيل ، لنموت قبل أن نموت
كما أمرنا : « موتوا قبل أن تموتوا » : وليرى الجحيم قبل أن ندخلها فنتحير عن
أسبابها ؟ فهل من سبيل ؟

أجل - لو أن حاول الملتهمون بالتكاثر أن يعلموا علم اليقين ، فتحللوا عن

(١) هنا في الآية : كلا سوف تعلمون الخ . . . ويحتمل أقوالها ما ذكرناه . ويؤيده العلوي (ع) :
سوف تعلمون في القبر ثم سوف تعلمون في المحشر (نور الثقلين ج ٥ ص ٧) ومثله النجاشي
(نفس المصدر) وفي الدر المنثور ج ٦ ص ٣٨٧ في روايتين عنه (ص) مثله .

واحتال بأن العلم الأول في الدنيا والثاني بعد الموت ، ويبيعه أن كل المخاطبين هنا ليسوا
من الذين سوف يعلمون وينتبهون ، اللهم إلا في سكرات الموت حين لا يفيد العلم ، ويقربة المروي عن
الصادق (ع) قال يعني مرة في الكرة ومرة في يوم القيامة (البرهان ج ١ ص ٥٠١ ح ٣) أقول
الكرة هنا هي الرجعة في دولة الامام المهدي (ع) وليست للكل ، وقد يقال بما أن المخاطبين هنا
هم الكفرة الذين محضوا الكفر محضاً ، فهم كلهم حسب الروايات يرجعون ، ثم أقول : لا مانع من
كون المرة الأولى للعلم شاملة للكرة واسكرات الموت وما بعد الموت ، وبذلك يجمع بين الروايات ،
إلا أن العلم بعد الكرة - إذا - تحصيل للحاصل قبل الكرة بعد الموت ، إذا فما العلم هنا إلا عند
الموت وبعده .

واحتال ثالث أن الأول عند الموت والثاني في سؤال القبر وبعده انهما على سواء ، فخط الموت
وخطته واحدة ، لا تفاضل في الانتباه عنده وبعده .

هذه الغشاوات الحائلة بينهم وبين درك الحقيقة : حقيقة الحياة ، وحقيقة الموت .

« كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم » :

« علم اليقين » : من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أي : يقين العلم ، العلم الذي يُطَمِّئُ الإنسان ويخرجه عن زلزال العقيدة وشكوكها ، وهو أولى مراتب اليقين ، ثم عين اليقين ، ثم حق اليقين .

وأصل اليقين هو سكون الفهم مع ثبات الحكم وهو خلاف الظن ، فلو أن المتكاثرين الملتهمين علموا الحقيقة - علم اليقين ، لكانوا يرون الجحيم في علمهم ، رؤية علمية دون ارتياب ، فكانوا إذ ذاك يرونهم في الجحيم ، ويرون آمالهم وأعمالهم وأموالهم وأصحاب القبور الذين تكاثروا وتفاخروا بهم ، كانوا يرونهم كلهم في الجحيم .

هذا لو كانت الرؤية صادقة بما علموا ولم يعملوا ، ولو علموا علم اليقين وعملوا ، لكانوا يرون أنفسهم في الجنة ، ويرون من تفاخروا بهم في الجحيم .
« لو تعلمون » : محال أن تعلموا : استحالة الاختيار ، دون تسيير وإجبار ، وإذ لم تعلموا يوم الدنيا فسوف تعلمون بعده .

« ثم لترونها عين اليقين » :

إذ دخلتموها ووجدتم أنفسكم في يقين الجحيم نفسه ، فقد كان لكم أن تروها علم اليقين لكي تتحرزوا عنها فلا ترونها عين اليقين :

« ثم لئسألنَّ يومئذٍ عن النعيم » :

النعيم الذي تجاهلتموه حتى وردتم موردكم في الجحيم ، فترك النعيم جحيم أينما كان ، ولا سيما النعيم الذي بهم الإنسان في شريعة الله .

إنه النعم الذي أخلدكم التحلل والتغافل عنه في التكاثر : من نعم العقل الذي عقلتوه وحبستموه في أمر الشهوات ، ونعم الحياة التي أخلدتموها في الحيوانات : « أذهبت طبيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » (٤٦ : ٢٠) .

ومن نعم النبيين ، فنعمة الرسالة هي أهم النعم التي يسأل عنها : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب » (١٠٩ : ٥) .

فهذه الثلاث هي أصول النعم الروحانية التي يسأل عنها .

« ثم لتسألن » سؤال تقريع وتبكيت « يومئذ » يوم إذرأيتم الجمع عين اليقين : « عن النعم » لماذا ضيعتموه ؟

هذه هي النعم التي يسأل عنها وكما رواها الأئمة من أهل بيت الرسول ﷺ عنه ﷺ ، دون النعم المادية ، وكما قال ﷺ : ثلاث لا يحاسب بهن العبد : « ظل خص يستظل به » ، « كسر يشد بها صلبه » ، و« ثوب يوارى به عورته » (١) .



(١) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٩١ ، وهذه الرواية هي الوحيدة في الدر المنثور ، ويمارضها عديد من الروايات فيه ، تعزي إليه (ص) أن النعم هو الكسر والظل والنمل ، دون أن تذكر أو تشير إلى النعم الأصلية للإنسان ، التي يروها أئمة أهل البيت عن الرسول الأقدس (ص) وكما ترى أن القرآن لا يئن على المؤمنين إلا بنعمة الرسالة وأمثالها .

﴿ سورة العصر — مكية — وآياتها ثلاث ﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ٣ » .



إن الله يحلف : « والعصر » فهل كما يحلف وعند فقدان الدليل ؟ والله خالق المدلول والدليل ؟ كلا فإنما يأتي بصيغة الحلف ليوجهنا إلى مهمة فيما يحلف به ، هي برهان ساطع للإثبات : عقلياً أو علمياً أو اعتبارياً ، أو أبساً من صنوف البراهين المناسبة لإثبات المطلوب ، بصورة مجردة عن صيغ البراهين المصطلعة ، لكي لا يهابها غير المتقنين ، فيأنسوا بها ، وكأنها من محاوراتهم السوقية .

فقد يحلف بالدليل : « يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين » حلفاً بحكمة القرآن لفظياً وعلمياً وتقنياً و . . لتدل هذه الحكمة على نبوة من أنزل عليه ، لكي يصلح للخطاب : « يس » : أيها السامع للوحي ، ثم على رسالته على صراط مستقيم ، فيا لها من برهان ما أتقنه !

وقد يحلف بموجبات المدلول أو دوافعه أو روافعه أو . . . طالما الدليل واضح بمجرد التنبيه ، أو أنه بحاجة إلى تأمل وتعمّل ، وبمجموعة الأقسام في القرآن أربعون قَسَمًا ، بين ما هو قَسَمٌ بالأجرام العلوية أو السفلية ، وما هو قَسَمٌ بالأدلة العقلية أو الحسية ، ولينظر الإنسان في واقع البراهين ، وليدرس العلل والمعاليل .

وهنا لإثبات خُسْر الإنسان يحلف بما يعم الدافع والرافع ، والسورة تبحث عن واقع الخسر للإنسان ودوافعه وروافعه ، فيعالج خسره بدعائم أربع .

« والعصر » :

« والعصر » علته الزمان ، أو نوائبه بعصرها ، وشياطين الجن والإنس فإنهم يعصرون الإنسان ، ليخسروه ماء الحياة ويدفعوه إلى الخسران ، والنفوس الأمارّة بالسوء فإنها تعصر وتحصّر العقل حتى تخسره ، وكل دوافع الخسران فإنها عصر وقسر على الإنسان لتفرقه في الخسر .

فدوافع الخسر هذه ، المحسومة منها والمعقولة ، تبرهن على واقع الخسر ، فإنها تخسر الإنسان في حياته ، ومعطياتها ، ولا بد للمبتلى أن يعرف ابتلاءه ، بأصله ونوعه ، ليفكر ويحاول في علاجه ، فكثير من الخاسرين في الحياة يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وهم الأخسرون أعمالا ، وعن الرسول الأقدس ﷺ قوله هنا : « والعصر ونوائب الدهر » ، وعن علي عليه السلام قوله : « والعصر ونوائب الدهر إن الإنسان لفي خسر وإنه لفيه إلى آخر الدهر »^(١) .

وعلته حلف برافع الخسران أيضاً ، كما هو حلف بدافعه ، دلالة على البلاء وعلاجه جملة واحدة :

(١) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٩٢ .

كعصر النبي الأقدس ﷺ عصر طلوع الإسلام من أفق الجزيرة إلى الآفاق، وقد يؤيده إقسام الله بعمر النبي نارة وببلده أخرى، فأحرى له أن يقسم بعصره المشمش المجيد.

وظهوراً تاماً وتحقيقاً عاماً للرسالة المقدسة الحمديّة: عصر القائم محمد بن الحسن المهدي عليه السلام^(١)، عصر الكفاح القوي بكامله، ضد عناصر الخسران وأواصره^(٢).

قسماً بدوافع الخسران وروافعه أن واقع الخسران لا ينكر، ويجب أن يتحذر.

« إن الإنسان لفي خسر » :

تأكيدات ثلاث تستغرق الإنسان في ميم متلاطم من الخسر^(٣)، تحت ضغوط نفسية وخارجية، لا تسمح وتفسح له المجال أن يثني على صراط مستقيم.

إن الإنسان - أياً كان - هو بطبعه، تحت ضغوط دوافع الخسران، إنه لفي خسر: غريق تضطرب به أمواج الحياة، وتضطرب به إلى أعماق بعيدة من خسران الحياة ومعطية الحياة، يخسر نفسه وحياته، يخسر عقله وماله وولده، يخسر كل وسائل التقدم في حياة الإنسان، متذرعاً بها إلى حياة الحيوان، وإلى أسفل سافلين.. وإذا كان الإنسان في واقع الخسر، فهل يعاقب إذاً على خسره، أو هل من مفر ومنجى؟ ومن هم الناجون؟ الجواب:

(١) نور الثقلين ج ٥ ص ٦٦٦ ح ٥ عن الامام الصادق (ع).

(٢) واعتباراً بلام الجنس في « العصر » وعدم ظهور عهد يخصه بعهد خاص من هذه العصور فقاعدة البلاغة تحتم تعميمه لكل عصر.

(٣) تأكيدات مستفادة من « إن » و « ل » في لفي و « في » الدالة على أنه غريق الخسر.

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق

وتواصوا بالصبر » :

« إلا الذين آمنوا) : فمن خسر الحياة ، الإضطراب في الحياة ، والإخلاد إلى الأرض ، وأعظم ما يؤمن الإنسان ويطمئن به ، هو أن يؤمن بالله ، يأمن إليه ويؤمن نفسه بردها عن غوغائيات الحياة ، بالإيمان بخالق الحياة .

إن الإيمان بالله هو إتصال الكائن العاقل ، الفاني الصغير الصغير ، المحدود المحدود ، ببدء الكون ، المطلق الأزلي للأحدود ، وإنه إنطلاقة قيمة من حدود الذات الصغيرة للشيء ، إلى رحابة الكون الكبير ، الكائن الأزلي القدير ، الذي خلق كل شيء وقدره تقديراً .

إنه يرفع الإنسان عن عبودية مثله وما هو دونه ، عن أرباب متفرقين ، إلى عبادة الواحد القهار ، فالأرباب المتشاكسون تخرج العباد عن الإطمئنان إلى تناقض في الحياة وتختلف واختلاف ، والإله الواحد يطمئن الإنسان « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

وإنه يقيم الإنسان ويقومه على منهج ذاتي يرضاه الله تعالى ، فلا يكون الخير عنده فلتة عارضة مندفعاً عما يهدفه لنفسه ، وإنما عن دافع واحد أصيل هو مرضاة الله تعالى .

وأخيراً - لا آخراً - الإيمان ينبوع غزير للأفكار والأعمال الصالحة ، فهي نتاج الإيمان الصحيح الفاضل ، والإيمان الفاضل عن العمل الصالح ليس إلا صورة الإيمان ، وكلما تم الإيمان واقعاً كثرت الصالحات الفائضة عنه ، وكلما قل قلت .

« وعملوا الصالحات » .. نرى العمل الصالح قرين الإيمان في الآيات التي تتعرض لأحدهما ، ويعني من الصالح ما يصلح ويصالح مع الإيمان ، « وعملوا

الصالحات ، لا « الخيرات » ، إذ الخير يختلف حسب الأنظار والأفكار ، ولكن صلاح العمل مع الإيمان أمر واقعي لا يختلف ، وصالح العمل هو الذي يعمل بدافع الإيمان ، فقد يكون العمل خيراً وليس صالحاً ، كمن ينفق لمن يرجو خيره وجزاءه ، فإنه خير ليس بدافع الإيمان ، فليس صالحاً ، ولكن الصالح كله خير .

« وعملوا الصالحات » : كل الصالحات ، لمكان الجنس أو الإستغراق المستفاد من « ال » لا بعضها دون بعض ، فإنهم خارجون عن الخسر قدر ما عملوا ، وداخلون فيه قدر ما تركوا : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم » (٩ : ١٠٢) .

« وعملوا » لا « أعملوا » : صالحات لهم دون أن يعملوا ، أو أعملوا صالحات غيرهم أن تنفعهم : وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ! .

أجل : « وعملوا الصالحات » الأعمال الصادرة بدافع الإيمان بالله وبأمر الله ، لا المتعلقة عن الدافع الإلهي ، أو المتخلفة عن أمر الله ، فإنها وإن كانت من الخيرات لم تكن من الصالحات .

ذلك ، وهل يكفي الإيمان والعمل الصالح الفردي ، كفاحاً ضد الخسران الجماعي ، والتخلف الجماعي ، الذي يقير الإنسان إلى الخسر ، شاء أم لم يشأ ، كلا وألف كلا .

إن الجماعة المسلمة ، بعد تحكيم العلاقات الفردية العقيدية والعملية ، إنها بحاجة إلى تطبيق واجبات جماعية ، يحافظ فيها على كرامة المجتمع ، ويدافع بها عن ظلامة الجور والتيار الفاسد ، الطيار بكل عار وبوار .

إنها بحاجة ضرورية حيوية إلى التواصي بالحق والتواصي بالصبر :

« وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » :

التواصي ، لا الوصية ، فليست الوصية بالحق والصبر خاصة بجماعة دون

آخرين ، إنها على كل المسلمين متقابلة ، كل يوصي أخاه بالحق والصبر ، ولكي يصبح المجتمع الإسلامي مجتمع التواصي بكل حق صالح ، وبكل صبر صالح ، كل حسب إمكانيته ، وعلى حد قول الرسول الأقدس ﷺ : « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

« وتواصوا » كل يوصي غيره كما يوصيه غيره ، بالحق والصبر ، وكل يقبل الوصية من غيره كما يرجو القبول من غيره ، ولكي يخلقوا جواً طاهراً نزيهاً عن كافة التخلفات والردالات .

والتواصي - أيأ كان - بصورة جماعية مرهبة ناصحة ناصعة ، تفرض الحق ، كلما كان تاركوا الحق والصبر أقوى وأطغى ، فليكن الموصون بها أكثر كفاحاً وأقوى .

والتواصي يشمل تعليم الشريعة وتعلّمها ، والأمر بتطبيقها : تعليم الجاهل وحمل العارف .

« بالحق » : أشمل تعبير يعم كل خير صالح دون استثناء ، ومن بالغ اهتمام القرآن بدراسة الحق وتطبيقه ، نجده يذكره « ٢٥٣ » مرة في مختلف المجالات والمناسبات ، والحق هو الثابت ، فهو : الله تعالى وتوحيده وعبادته ، وهو : أنبيأؤه ورسله ، وهو : كتبه ومواعيده ، وهو : أحكامه وشرائعه ، وهو : القيامة الكبرى ، وهو : كلما يتوجب الاعتقاد به ودرسه وتطبيقه ونشره ، أو ما هو مندوب له .

هذا - وكما القرآن يشهد : « ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق » ، وأفعاله حق : « .. ما خلق الله ذلك إلا بالحق » ، والقيامة : « ويستنبؤوك أسحق هو قل أي وربى إنه لحق » .

والتواصي بالحق يعم التواصي بدراسة الحق واعتناقه وتطبيقه وتأسيس حكم الحق والدولة الحقّة الإلهية لتضمين كلما يحق للحق .

إن التواصي بالحق ضرورة ، حيث النهوض بالحق عسير ، ومعارضوه كثير ،
والمعوقات عنه كثيرة ، هوى النفس ، منطق المصلحة ، تصورات البيئة ،
طغيان الطغاة .

وجور التواصي يُطمئن الموصين أن معهم غيرهم منها كثر الطغاة ، فهم
يتضاعفون قوة ويأملون النجاح في المعركة .

« وتواصوا بالصبر » .. إن الصبر هو زاد الطريق في دعوة الحق ، فإنه
طريق شاق طويل ، حافل بالعقبات والأشواك ، مفروش بالدماء والأشلاء ،
بالإيذاء والإبتلاء .

إن سلوك هذه السبيل يتطلب الصبر والتصابير ، الصبر على أمور كثيرة :
على شهوات النفس ورغائبها ، وأطماعها ومطامعها ، وضعفها ونقصها ، وعجزتها
وملاها من قريب .

والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم وتصرفهم ،
وانحراف طبائعهم وأثرتهم وغرورهم والتوائهم واستعجالهم للثمار .

والصبر على تنفج الباطل ، ووقاحة الطغيان ، وانتفاش الشر ، وغلبة
الشهوة ، وتصعير الغرور والخيلاء .

والصبر على قلة الناصر وضعف المعين ، وطول الطريق وغور الملعين ، وسواس
الشياطين في ساعات الكرب والضيق .

والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله ، وما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة :
من الألم والغيظ ، والحنق والضيق ، وضعف الثقة - أحياناً - في الخير ، وقلة
الرجاء - أحياناً - في الفطرة البشرية ، والملل والسأم واليأس والقنوط .

والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة ،
واستقبال الرخاء في تواضع وشكر .. والبقاء في السراء والضراء ، على صلة

أصيلة بالله ، واستسلام لقدر الله ، ورد الأمر كله إلى الله ، في طمأنينة وثقة وخشوع .

لهذه الضرورة نجد القرآن يذكر الصبر « ١١٨ » مرة ، بمختلف ضروبه .
وهناك سوف نرى خروجاً تاماً عن الخسر كله ، وانتصاراً عاماً على معارضي الحق كلهم : لو دعنا صرح الإجماع الإسلامي السامي ، على قواعده الأربع : الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .
فعلى قدر الدعم الموفر لهذه القواعد سوف يكون تحلل الإنسان عن الخسران ، وعلى قدر التحلل عن دعها ، سوف يكون الخسران « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

هذا - ومن بالغ أهمية هذه السورة نرى بالغ اهتمام أصحاب الرسول الأقدس ﷺ في تعاهدهم وتواصيهم بها ، أن : « كان الرجلان من أصحابه ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة « العصر » ثم يسلم أحدهما على الآخر » (١) .

مركز تحقيق كاميون علوم إسلامي

□□□□

(١) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٩٢ ، أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي مليكة الداري وكانت له صحبة قال : كان ..

﴿ سورة الهمة - مكية - وآياتها تسع ﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ^١
الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ^٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ^٣ كَلَّا^٤
لَيُنْزِلَنَّ فِي الْخُطْمَةِ^٥ وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ^٥ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ^٦
الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ^٧ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ^٨ فِي عُمَدٍ
مُّمَدَّدَةٍ^٩ . »

مركز تحقيق كتاب تواتر علوم اسلامی

« ويل » : إنها ويلات عقائدية وأخلاقية وأعمالية، ويلات فردية وجماعية،
تنتجها التغلفات المختلفة عن شريعة الله : شريعة الحياة ، إنها حسب
القرآن (٢٧) ويلًا ، نجد أكثرها للمكذبين بيوم الدين ، فإنه الذي يدفع
لأسباب الويل .

« ويلٌ » لفظة تقال في مواقف التقييح والتأوه والإضطراب والغضب، لفظة
الدم والسخط ، وهي كلمة كل مكروب يتولول فيدعو بالويل ، وأصله : وي
لفلان ، وكما أن « ويس » كلمة إستصغار ، و « ويح » ترحم . ومن قال : « ويلٌ ،

العقرب^(١) والأفعى - وشر من الأفعى ، إذ إن الأفعى تقتل الإنسان في الجسد ، ولكن أفعى الهمزة والهمزة تقتل الأرواح وتخلق جو الاطمئنان ، جواً قذراً مزرياً كأنه جو الجحيم ، فهو الويل يوم الدنيا وهو الويل يوم الدين .

إنها صورة لثيمة من ألأم صور الحياة ، والقرآن يكره هذه الصورة الهابطة بحكم ترفعه الأخلاقي ، وينهى عن الهمز والهمز في مواضع شتى ، إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع والتقبيح والتهديد ، علته يوحي بأنه كان يواجه حالة واقعية خطيرة من بعض المشركين وجاء رسول الله ﷺ ووجه المؤمنين ، فجاء الرد عليها في صورة الردع الشديد ، والتهديد الرعب .. إلا أنه يعمم المورد وسواه : « لكل » : ويل لكل - طول التاريخ وعرضه - كل حسب همزه ولمزه .

.. فويلهم في دنياهم ، وويلهم في عقابهم ، إذ يعلقون في النار ، الويل ، وعلى حد تعبير الرسول ﷺ^(٢) .

وقد ذكر الله الهمازين أنهم الآكلون لحوم إخوانهم : « ولا يقتب بعضهم بعضاً أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » (٤٩ : ١٢)^(٣) .

وذكر اللمازين بقوله : « لا يستخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن » (٤٩ : ١١) .

(١) نور الثقلين ج ٥ ص ٦٦٧ ح ٣ ، في كتاب الحصال عن أبي عبد الله عن أبيه عن جده عليهم السلام قال : المسوخ من بني آدم ثلاثة عشر - إلى أن قال - وأما العقرب فكان رجلاً هازاً لمازاً فمسخه الله عقرباً ، وفيه بالاسناد عن رسول الله (ص) : وأما العقرب فكان رجلاً لداغاً لا يسلم من لسانه .

(٢) الدر المنثور عن النبي (ص) في حديث المراج .. ثم مروت على نساء ورجال معلقين بشدهن فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الهمازون والهمازات ، ذلك بأن الله قال : ويل لكل همزة لمزة (ج ٦ ص ٣٩٢) .

(٣) وكما عن الرسول (ص) : رأيت ليلة الاسراء قوماً يقطع اللحم من جنوبهم ثم يلقمونه ويقولون : كلوا ما كنتم تأكلون من لحم أخيكم ، فقلت : يا جبرائيل من هؤلاء ، فقال : الهمازون من أمتك اللمازون (نور الثقلين ج ٥ ص ٦٦٧ ح ٥) عن عوالي الآلي .

وندد بالهازين العازين أشد تنديد ، لأنها يخربان الديار ولا يأتیان إلا بكل
عار ودمار .

« الذي جمع مالا وعدده » :

ذلك كيانه في روحه الخبيثة : أنه همزة لمزة ، وهذا كيانه في سواها :
هدفه تجميع المال وعدّه ، كأنه الذي يجمع شمله ويعدّه في عداد بني الإنسان ،
ويخلده فيما يهواه ! فهو يلزم المؤمنين ويهزمهم إذ لم يجمعوا مالا ، ويعيبهم وينقصهم
كأنما المال هو الإنسان ، أو أنه حياة الإنسان كل إنسان ، أو أنه يحياه خالداً إلى
الأرض ما دامت : « .. ولكنه اخلد إلى الأرض واتبع هواه وكان أمره
فرطاً » (٧ : ١٧٦) ف « يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً »
(٢٥ : ٦٩) : مهاناً هناك كما أمان المؤمنين هنا ، جزاءً وفاقاً .

« جمع مالا » (١) : منكر آدون تعريف : « مالا » لا « المال » فمن المال
ما هو معروف ومنه ما هو غير معروف ، فالذي يحصله ليصرف في حاجيات
الإنسان ، تحصيلاً وصرفاً مشروعين ، فهو « المال » معروف عند إنسان المعرفة
والحقيقة ، ولأنه ذريعة الآخرة .

وأما الذي يشذ عن شريعة الله تحصيلاً وصرفاً ، فهو « مال » منكر ومنكر
لا يعتنى به ولا يعبأ ، وليست مذمة المال ذاتية ، إنما هي إذا كان المال وبلاً
يخلف ويلات ، في دنيا الحياة وعقبها .

(١) نور الثقلين ج ٥ ص ٦٦٨ ج ٧ في كتاب الخصال عن محمد بن اسماعيل بن بزيع قال :
سمعت الرضا (ع) يقول : لا يجتمع المال إلا بخمس حصا : بخل شديد ، وأمسل طويل ،
وحرص غالب ، وقطيعة رحم ، وإيثار الدنيا على الآخرة .

وفيه عن كتاب التوحيد عن الصادق (ع) إنه قال : إن كان الحسنات حقاً فالجمع لماذا ؟
وإن كان الخلف من الله عز وجل حقاً فالبخل لماذا ؟ .

« وعدّده » : ثم وبال فوق وبال ، على من يحسب الوسيلة غاية والذريعة نهاية ، فالمال ليس إلا وسيلة من وسائل الحياة ، فإذا إدّخر وضغّم وعدّد ، أصبح وبالاً فوق الوبال ، إذا حصّل من غير الحلال ، ثم لم يصرف في سبيل الحلال ، ثم جند على عيـون الفقراء العزّل الذين إمتصت دماؤهم في سبيل تحصيل هذه الأموال ، أو انفق في غير حله .

« يحسب أن ماله أخلده » :

ماله أخلده ، أو ، ماله^(١) : يحسب أن كيانه اللانساني الشاذ الشارد عن صراط الحياة ، يحسب أن ذلك أخلده ، رغم أن لا خلود في دنيا الحياة ، ولا ينكره حتى الحيوان ، إلا أن السبيل التي اتخذها في الحياة ، إنها هي سبيل من يزعم الخلود ، فهو يتدّرع بماله وماله إلى هذا الخلود المزعوم ، ولو كان في الدنيا خلود ، لم تكن له حيلة تزيد عما يحتال ، فبحساب ما يعمل نعتبه : يحسب أن ماله أخلده ! ولكنه :

« كلا » : ليس كما يزعمه في أقوال وأفعال وأحوال ، في مسال وفي منال ، ليست هذه بالتي تخلده في دنيا الحياة ، وإنما تخلده في عقباها : « جهنم يصلونها وبئس القرار » :

« كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ » :

تهديد شديد يصوّر صورة مشهد من مشاهد القيامة ، صورة طبق الأصل ،

(١) « ماله » « ما » هنا إما جزء الكلمة المفردة « مال » أو موصول ، صلته « له » ، والثاني أعم وهو أتم ، إذ يشمل المال والحال وكل ما للانسان من طاقات الحياة ، ذكر منها المال المعدد لأنه أهم ما يهمه الانسان الحيوان .

فكما كان هذا الهمزة اللمزة ، الذي كان يدأب على الهزم بالناس ، وعلى اغتيالهم وتعذيبهم ، في أنفسهم وأعراضهم ، وكان يدأب في تحطيم الكيان الإنساني معنوياً ومادياً ، وكان ينبذ اناساً مؤمنين كأنهم ليسوا اناساً ... فسوف يكون من المنبوذين المحطمين المردولين المصفرين : في الحطمة : النار الكثيرة الشديدة الحطم ، لا تبقي ولا تذر .

وإنها ليست ناراً تحرق وتحطم الجسد فحسب ، أو تبتدىء بالجسد ، وإنما تطلع على الأفئدة :

« وما أدراك ما الحطمة . نار الله الموقدة . التي تطلع على الأفئدة » :

إنها ليست ناراً تعرف ، إنما نار خاصة متميزة متفيزة ، نار الله التي أوقدها بقدرته ، فقد تمتاز عن نار غير الله ، أوقدها الله إظهاراً وتجسيداً لما أوقده الهمزة اللمزة ، وإنها تطلع على الأفئدة التي اطلعت منها نيران الهمز واللمز ، تحرق بما احترقت به .

إنها نار تحرق روح الإنسان وجسمه ، قلب الإنسان وقالبه ، كما أحرق صاحبها قلوب الناس وقوالبهم ، وضيّع عليهم جو الطمأنينة : المعيشية الاقتصادية ، والمعنوية الآمنة .

هنا -- وقبل أن تقوم القيامة ، يجبر الله كسر المؤمنين المنبوذين ، بما يعد النابذين غير المؤمنين ، فيطمتهم في دنيا الحياة ، قبل الاطمئنان الأبدي في عقباها ، بما يبشرهم وينذر أعداءهم الألداء .

ثم يختم ذكرى هذا المشهد الرهيب بميزة أخرى للحطمة :

« إنها عليهم مؤصدة . في عمد ممددة » :

مؤصدة : مطبقة لا مخرج لهم منها ولا منجى ، سجن دائم كما كانوا سجونا
للمؤمنين يوم الدنيا .

« في عمد ممددة » : في اسطوانات طويلة جداً ، وعلىها أيضاً من جنس النار ،
أو من الأشعة غير المرئية التي تستهزئ بالمحطتين : « كلما أرادوا أن يخرجوا
منها أعيدوا فيها » .. وقد يشهد بذلك العلم :

أشعة رونتجن

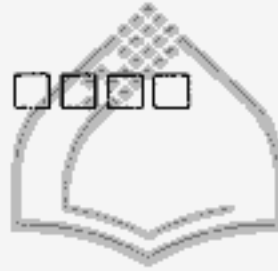
لقد ثارت مناقشة في الصحف الصادرة عام ١٩٢٥ حول هذه الأشعة ،
وذلك أن أحد الأطباء قال : إن أشعة « رونتجن » - التي هي ذات عمل جبار
في النوع الإنساني - ترى في إشراقها كالأعمدة ، فقال بعضهم : لعل الآية :
« في عمد ممددة » تشير إلى هذه الأشعة ، وخالفهم آخرون ، وأخيراً انتصر
الأولون .

إن أشعة رونتجن هي كالعمد ، يرى بها الأطباء ما خفي في الجسم ،
فيعرفون بواطنه ، وعلىها - هي أو مثلها - سوف تكون عمداً ممددة ، وإن
كانت الحطمة غير معروفة عندنا : « وما أدراك ما الحطمة » ولم يقل : « وما
أدراك ما العمد الممددة » .

علّ هذه الأشعة هي العمد الممددة ، تمتد في أعماق الأجسام إلى الأفتدة
فتزجها في سجن الحطمة ، فلا تسمح لها بالخروج .

ومها يكن من شيء فالعمد هي من النار ، سواء من نار الحطمة أم سواها ،
فسواها من إنباءات الغيب المكشوفة بالعلم ، والحطمة مجهولة حتى الآن ، وعل
العلم يكشف عن مثالها في الدنيا ، « فكل ما في الدنيا مثال لما في الآخرة » .

إذا فالهزمة المزة سوف يكون مجذور المكعب الناري ، هو نار : « وقودها
الناس .. » وفي نار : « نار الله الموقدة » وفي سجن الأعمدة النورية النارية ، وعلها
أشعة « رونتجن » أو مثلها .



مركز تحقيق كتابيوتيرعلوم إسلامي

سورة الفيل - مكية - وآياتها خمس ﴿١٠٥﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ
بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ^١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ^٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ
طَيْرًا أَبَابِيلَ ^٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ^٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ
مَأْكُولٍ ^٥ » .

مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی

إن قصة الفيل بلغت من الشهرة والتواتر التاريخي إلى حد الضرورة غير
المنكورة ، وحتى عند المشركين الجاهليين الذين لا يدينون بالدين الإلهي ، وقد
أرثوا بها وذكرها الجاهليون في أشعارهم ، وأرثها بها المسلمون ميلاد الرسول
الأقدس محمد ﷺ .

والروايات الحاكية للقصة منها كانت مختلفة التفاصيل ، ولكنها ناحية منحى
قصة واحدة في لبها وهي كيد أصحاب الفيل لهدم الكعبة المكرمة ، وأنهم فور
وصولهم إلى مشارف مكة المكرمة وقبل أن يقدموها ويقدموا على مآلئها ،
أستهدفوا بقنابل من سجيل من قاذفات طير أبابيل ، فجعلهم كعصف مأكول ، وإنها

حادثة عظيمة الشهرة - بالغة الأهمية - في حياة الجزيرة . وعلى حياة الكرة الأرضية ، عريقة الدلالة على مدى رعاية الله لأول بيت وضع للناس بيكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم .

هذه البقعة المباركة التي اصطفاها الله تعالى لتكون الملتقى للإشراق الأخير من وحي السماء ، والنقطة الحاسمة التي تبدأ منها زحفها المقدس لمطاردة اللادينية في العالمين ، وإقرار الهدى والنور على طول الزمن وعرضه .

« ألم ترَ » : ألم تعلم علم المعرفة ، لحدّ كآفه علم العيان ، استفهام إنكاري إقرارى ، ينكر أن يحفل هذه القصة أيّ من سكان الجزيرة وسواهم ، لأنها كانت كالنار على المنار ، وكالشمس في رابعة النهار ، فلم يكن أحد من الناس يحفلها ، فأولى بالرسول ﷺ ألا يحفلها ..

ويقرّ من وراء هذا الإنكار من يجب أن يتذكره ، من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .. يقرّ خارقة إلهية تدل دلالة باهرة ظاهرة « أن الله لا يهدي كيد الخائنين » (١٢ : ٥٢) « وأن الله موهن كيد الكافرين » (٨ : ١٨) « والله متم نوره ولو كره الكافرون » (٨ : ٦١)^(١) .

(١) نور الثقلين ج ٤ ص ٦٦٩ ح ٨ عن روضة الواعظين ، قال علي بن الحسين (ع) : كان أبو طالب يضرب عن رسول الله (ص) بسيفه - إلى أن قال - : فقال أبو طالب يا بن أخ ! إلى الناس كافة أرسلت أم إلى قومك خاصة ؟ قال : لا بل إلى الناس كافة ، الأبيض والأسود والعربي والعجمي ، والذي نفسي بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأبيض والأسود ومن على رؤوس الجبال ومن في لجج البحار ، ولأدعون ألسنة فارس والروم ، فحيرت قريش واستكبرت وقالت : أما نسمع إلى ابن أخيك وما يقول ، والله لو سمعت بهذا فارس والروم لاخطفقتنا من أرضنا ولقلعت الكعبة حجراً حجراً ، فأنزل الله تبارك وتعالى : « وقالوا إن قلبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمناً يحبس إليه ثغرات كل شيء » وأنزل في قولهم : لقلعت الكعبة حجراً حجراً : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » .

أفبالإمكان أن نؤوّل قاذفات الطير الأبابيل : أنها كانت من 'صدف' التاريخ،
أو من اصطناعات إنسان التاريخ ، وكما يتقوله الجاهلون : إن الكون أجمع نتيجة
الصدف ؟..

لا ننكر أن الله تعالى لم يكتب على نفسه مواصلة هذه الخارقات ، المنفصلة
عن إثبات النبوات ، إلا أن أمثال هذه من الشغشقات قد تظهر لكي لا تهدر
آيات الله البينات سدى ، ولتكون حجة الله هي البالغة وكلمة الله هي العليا ،
وكلمة الذين كفروا هي السفلى .

« ألم ترَ كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » :

« ربك » الذي اختصك بكرامة منقطعة النظير ، بما أنك « أوّل النبيين
ميثاقاً وآخرهم مبعثاً » كذلك يختص أول بيت وضع للناس ، برحمته ووقايته
الخاصة ، وإنك أشرف من البيت ومن بات فيه متعبداً لربك أو يبيت ، فإذا
يحفظ ربك هذا البيت عن أصحاب الفيل ، فبأن يحفظك عن كل كيد وتضليل
أولى وأحرى !.

« أصحاب الفيل » وما أصحاب الفيل ؟.. لا يذكر هنا أسماءهم ولا إسم
قائدهم في هذه المعركة الكافرة ، مهانة له ولهم : إنهم لم تكن لهم مكانة تتطلب
ذكرهم بأسمائهم ، إلا أنهم أصحاب الفيل ، معتمدين في عملتهم الوحشية اللاإنسانية
على قوة الفيل .

لقد كان للفيل على أصحابه شرف عظيم من ناحيتين :

١ - القوة الخارقة ، وقد كانت للحرب قديماً ويحمل على ظهره من ثلاثة
آلاف رطل إلى أربعة آلاف ، وعلى خرطوميه وحده ألف رطل ، ويجسر
ما لا يكاد يقله ستة أفراس ، ويسير في اليوم مائة ميل .

٢ - إنه حيوان سليم الطبع مؤلف مؤانس فليس من طبعه الأذى وإنما يستعمل قوته في الدفاع عن نفسه .

فهذا الفيل لم يستعمل قوته في خراب البيت رغم أصحابه ، لأنه برك دون مكة لا يدخلها ، رغم ما جهد أصحابه في حمله على اقتحامها فبدل أن يفلحوا أفلحوا .. فلماذا الكيد في هدم البيت ومن ؟

إن ملك الحبشة (أبرهة ابن الصباح الأشرم)^(١) المسيحي - جند النجاشي الذي كان على عهد الرسول ﷺ إذ آمن المسلمون المهاجرين إلى بلاده ، وآمن بالرسول الأقدس ﷺ - أبرهة هذا يبني كعبة باليمن لها قباب من ذهب وزخرفات مغرية - كمادة الكنسيين في كنائسهم - بناها حسداً على الكعبة المشرفة وعلى الطائفتين حولها ، ولكي يزورها أهالي بلاده كما تزار الكعبة ، ولكي يجلب أنظار زوار البيت الحرام أيضاً إلى بيته بدعايات ومغريات .. إلا أنه خاب سعيه إذ رأى أن العرب - يمينين وسوام - ليسوا بتاركي الكعبة المقدسة إلى الكعبة المزورة ، فإنهم كانوا يعتقدون أنهم أبناء إبراهيم وإسماعيل صاحبي هذا البيت العتيق ، وكان موضع اعتزازهم على طريقتهم بالفخر بالأنساب .

عندئذ عزم « أبرهة » على هدم الكعبة المشرفة ليصرف الناس عنها - واقعياً - إلى كعبته المختلفة ، وقاد جيشاً جراراً تصاحبه الفيلة ، وفي مقدمتها فيل عظيم ذو شهرة خاصة عندهم ، فتسامع العرب به وبما قصد ، وعزّ عليهم أن تهدم كعبتهم - بيت عزم - فوقف في طريقه من وقف ، يحاربوه ليصدفوه عن قصده ، فما انصدف ، إنه حاربهم بمن فيهم الأذواء والأشراف اليمينيون والنفيل الخثعمي في قبيلتين ، فهزمهم وأسرهم واستمر في طريقه ، حتى إذا مرّ بالطائف خرج إليه رجال من ثقيف قائلين له : إن البيت الذي تقصده ليس عندنا ، إنما

(١) مجمع البيان : أجمعت الرواة على أن الملك الذي قصد هدم الكعبة هو أبرهة بن الصباح الأشرم .

هو في مكة ، ذلك ، وليدفعوه عن بيتهم الذي بنسوه للآت ، وبعثوا معه من يدلّه على الكعبة المشرفة .

.. وإلى أن وصل إلى مشارف مكة المكرمة ، بركت الفيلة دون مكة لا تدخلها ، رغم حملهم لها على اقتحامها .. ثم كان ما كان من قذائف الطير الأبايل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول^(١) .

ثم نقف هنا وقفة الحائرين من موقف جد النبي الأقدس ﷺ عبد المطلب ، إذ يسرق إبله أصحاب الفيل فيقصد صاحب الحبشة يطلب إبله ، دون التماس منه أن ينصرف من هدم البيت ، ويحيب عن سؤاله : هذا رئيس قوم وزعيمهم ، جئت إلى بيته الذي يعبد له لأهدمه وهو يسألني إطلاق إبله ؟ أما لو سألتني الإمساك عن هدمه لفعلت !

يحييه : « أنا رب الإبل ولهذا البيت رب يمنعه »^(٢) « لست برب البيت الذي قصدت لهدمه وأنا رب سرحي الذي أخذه أصحابك ، فجئت أسألك فيما أنا ربه وللبيت رب هو أمتع له من الخلق كلهم وأولى به منهم »^(٣) .

فيا لهذه المنعة الطيبة من حياء على ثبات واستقرار وطمأنينة من حفاظ رب البيت على بيته العتيق .

وكما نراه « يجمع أهل مكة يدعو فأرسل الله طيراً أبايل »^(٤) .

(١) هذه نماذج مما أجمعت عليه روايات القصة ، وفضلاً لما اختلفت فيها .

(٢) نور الثقلين ج ٥ ص ٦٧٠ ح ٩ في أصول الكافي .

(٣) نور الثقلين ٥ : ٦٧٢ عن أمالي الطوسي عن الصادق (ع) عن أبيه عن جده (ع) في حديث طويل .

(٤) قرب الاسناد بإسناده إلى موسى بن جعفر (ع) .

فيا لجدّ الرسول الأقدس ﷺ من موقف مشرّف حيال هذا التصميم الكافر من أصحاب الفيل ، ويا لمولد الرسول الأملعي ﷺ من كرامة يحافظ به الله تعالى على كرامة البيت ، إذ ولد في عام الفيل (١) .

« ألم يجعل كيدهم في تضليل : »

يعبر عن عزمهم القاطع بالكيد ، إذ كان القصد من هدم الكعبة وبناء كعبة مزورة ، صرف الناس عن بيت الله إلى بيت اللهو ، وهذان الكيدان أصبحا في تضليل ، إذ لم يصلوا إلى بغيتهم في كيدهم : لا إيجاباً : في بناء كعبة حبشية ، إذ لم يستجب لهم العرب - ولا سلباً : في هدم الكعبة المكرمة ، إذ ضلت أجسادهم الجهنمية تحت التراب بعد إذ قذفت بقاذفات السماء ، بدل أن قتل مع أرواحهم ناجحة في كيدهم ، رابحة في ميدهم ، فأصبحوا من الأخسرين أعمالاً ، فضلت أجسادهم في هذه الحرب الكافرة ، كما ضلت أرواحهم .

« وأرسل عليهم طيراً أبابيل : »

هذا آخر المطاف وأضله في تضليلهم ، فقد سخر الله منهم وأهانهم في تضليلهم هذا مرتين : « إذ أرسل عليهم جنوداً صفاراً : » طيراً أبابيل ، مع أسلحة صفار ، صفار على صفار ، تسحق الكبار الكبار : إذ تدمر أصحاب الفيل ، وتجعل كيدهم في تضليل ، أجل أصحاب الفيل لا الفيل ، إذ لم يقدم الفيل على ما قدموا ، فقد نجا الفيل وضلّوا .

ومرة ثانية إهلاكهم عن آخرهم ، إذ ضل كيدهم معهم ، وأصبحت قصة

(١) كما أجمع عليه الرواة كما في الدر المنثور ٦ : ٣٩٦ : أخرج البيهقي عن محمد بن جبير ابن مطعم قال : ولد رسول الله (ص) عام الفيل ، وكانت عكاظ بعد الفيل بخمس عشرة سنة ، وبني البيت على رأس خمس وعشرين سنة من الفيل ، وتلبأ رسول الله (ص) على رأس أربعين من الفيل .

الفيل عبرة لأولي الألباب ، رغم ما نواه أصحابه : أن تكون ثورة على الحق وتشجيعاً للنافرين خلاف الحق .

« أرسل عليهم » .. إنها كانت رسل الله لأمر مقصود ، لا رسل الصدفة لأمر غير مقصود ، أرسلهم الله طيراً أبابيل : وعلى حشد تفسير أبي عبيدة : « جماعة في تفرقه » ولعلها جماعة من حيث الجمع ، وتفرقة من حيث الأجناس^(١) .

نكّرت الطير الأبابيل كما نكّرت أصحاب الفيل ، وأين تنكير من تنكير ، فلأصحاب الفيل منه التنكير إهانة ، وللطير الأبابيل تنكير التعظيم كرامة ، وليدل على أن لا اختصاص بهذه الطير جنوداً إلهية ، فالكائنات كلها جنود الله . تقتل واحدة من هذه الطير ثلاثة من أصحاب الفيل ، وبألهم ولكيديم من تضليل :

« ترميهم بحجارة من سجيل » :

هؤلاء الرماة القاذفة ، فما هو المقذوف به ؟ إنها حجارة من سجيل . و « سجيل » معرّب عن « سنك كل » الفارسية ، أي حجارة الطين ، فمن الأحجار ما هو حجر خالص ، ومن الطين ما هو طين خالص ، ومن الحجارة ما هي حجارة الطين ، وهي القنابل التي رمتها الطير الأبابيل .

نجد القرآن يذكر - فيما يذكر - من ألوان عذاب المجرمين دنيوياً : « حجارة من طين » : « قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين » (٥١ : ٣٤) « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد » (١١ : ٨٣) .

(١) هل للأبابل واحد ؟ قولان : أحدهما أنه « أبيل » قاله الراغب في غريب القرآن ، ثانيها أن لا واحد له كما قاله الأخفش والفراء ، وقيل إنه : إبالة ، أبول ، إبالة . عن أبي جعفر الرواسي والكسائي والفراء .

فهذه حجارة ماهيتها أنها حجر الطين ، حجر خلق من تحجر الطين ، وهي منضودة : بعضها على بعض - ومسوومة : معاملة .. للمجرمين .

فهنا وهناك قاذفات ، مقاذيف ، قد يكون المقذاف الكوكب الذي يرمى منه إلى شياطين الجن إذ يسترقون السمع ، أو شياطين الإنس إذ يسعون فساداً في الأرض . فالأولى تسمى شهياً ، والثانية أحجاراً سماوية ، ومن الأولى : « ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » (١٥ : ١٨) ، ومن الثانية : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » (٣٢ : ٨) (١) .

وهنا القاذفات الحيوانية تأخذ قواذفها من جو السماء ، من السجيل المنبث المتساقط من الكواكب ، ثم تقذف بأمر الله ، كما قذفت أصحاب الفيل ، وكيف قذفت ؟ .

كل طائر كان في منقاره حجر وفي رجليه حجران ، وإذا رمت بذلك مضت وطلعت أخرى ، فلا يقع حجر من حجارته تلك على بطن إلا خرقة ، ولا عظم إلا أوهاه وثقبه ، وثاب أبرهة راجعاً وقد أصابته بعض الحجارة ، فجعل كلما قدم أرضاً انقطع له فيها إرب ، حتى إذا انتهى إلى اليمن لم يبق شيء إلا باده ، فلما قدمها تصدع صدره وانشق بطنه فهلك ولم يصب من الأشعرين وخشم أحد ، قذائف لا تهدر ، ولا تخطيء العدو إلى المؤمن ، ولأنها كانت بأمر الله وبعين الله ، دون القذائف البشرية الهادرة أحياناً والمخطئة أخرى .

« فجعلهم كعصف ما كول » :

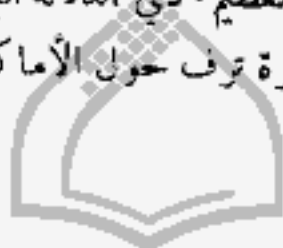
كأوراق الزرع الذي أكله الأكثال ، كالود يأكله ويفسده ، والحيوان يأكله ويمزقه .

(١) الأحجار الساقطة من الكواكب أو وصلت إلى الأرض تسمى أحجاراً ، ولو احترقت في السماء تسمى شهياً وفيازك نارية ، وسوف نفصل البحث عنها في محالها .

فهذه صراحة في الآيات لا مرية فيها، أن ذلك الدمار لأصحاب الغيل كان من قاذفات الطير الأبابيل بحجارة من سجيل ، فلا يصفى إلى تأويلات المتضايقين من خوارق العادات ، الذين يكرسون كافة طاقاتهم لتأويل أمثال هذه الآيات إلى غير تأويلها .

هكذا فليكن الحفاظ الرباني على بيته العتيق ، أنه يمنع أهل الكتاب الحبش أن يحطموا بيته الحرام ، حتى حين إذ يدنس الشرك ، والمشركون هم سدنته ، وليبقى هذا البيت عتيقاً من سلطان المتسلطين ، مصوناً من كيد الكائدين ، كما كان عتيقاً منذ خلق وعمر ، لم تسيطر عليها أيدي الأرض ، وليحافظ على حرمتها وانعتاقها حتى تثبت فيها العقيدة الجديدة حرة مطلقة .

وإننا نستبشر بهذا الحادث العظيم ، ذي الدلالة البعيدة العميقة ، نستبشر إزاء ما نعيشه من أطماع توسعية ماكرة ترف حول الأماكن المقدسة ، من الصليبية ، والصهيونية العالميتين .



مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

□□□□

﴿ سورة قريش — مكية — وآياتها أربع ﴾

{ ١٠٦ / ٤ }

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ^١
إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ^٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ^٣
الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ^٤ . »

* * *

علها ذات صلة بسورة الفيل بتعلق « لإيلاف » بها : ألم تر كيف فعل ربك...
لإيلاف قريش ، فجعلهم كعصف ما كول لإيلاف قريش ، ثم هذه الصلة لا تمنع
صلة المجرور « لإيلاف » بما في السورة نفسها : لإيلاف قريش فليعبدوا .

وأخيراً يصح القول يجمع الصلوات الثلاث لصحتها وتماميتها أجمع : فإيلاف
قريش كما هو من أهداف الحفاظ على البيت ، بيت عزهم وسيادتهم ، كذلك هو
سبب يدفعهم أن يعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع ، إذ جذب
واجتلب اليهم ثمرات كل شيء ، وآمنهم من خوف ، خوف أصحاب الفيل .
وخوفهم فيما بينهم .

ولا يعني إيلاف قريش اختصاص هذه العناية الإلهية بهم ، أو اختصاص شريعة
القرآن بهم ، وإنما يعني أنهم منطلق الدعوة وركيزتها الأولى وبدايتها ، وأول

المطاف في التبشير والإنذار المحمدي : « وانذر عشيرتك الأقربين » وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها .

فالواجب الإلهي والواجب الطبيعي في كل رسالة إلهية هو البداية بالأقربين ، ولأن إيمانهم يهيء الجو لإيمان الآخرين .

فلو ترك الرسول إنذار قومه في البدء ، ولو كذبوه وأنكروه ، لأصبح هذا التكذيب والتكرار برهاناً لغيرهم من الناكرين : أن لو كان حقاً ما كذبوه وهم أعرف الناس به !

إذاً ننقل من إيلاف قريش إلى إيلاف الناس أجمعين ، الذين يصدقون بهذا الدين ، فهنا دافع للإيلاف وهو عبادة رب هذا البيت ، أن يجتمع الناس أجمعون على عبادة الله الواحد القهار ، وبهذا يتحقق الائتلاف لانتظامهم في اتجاه واحد في الحياة .

وهنا سبب يهيء الائتلاف وهو الحفاظ على كرامة البيت العتيق ، فلو أن أصحاب الفيل لم يمنعوا دون مسهم من حرمة البيت ، لانهار حرم الموحدين في البداة ، وانهار رجاؤهم طول الحياة .

ليعبد رب هذا البيت لأنه الرب ، ولأنه أطعمهم من جوع قاتل ومن خوف قاتل ، رعى حد تعبير الرسول الأقدس ﷺ : « نعمتان مجهولتان ، الصحة والأمان » .

إن الخوف كان شاملاً لحياتهم في كافة مجالاتها ، السياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية والعقيدية والنفسية ، كانوا يعيشون الخوف ، وكانوا أمواتاً في حياتهم ، فأحياءهم الله بالقرآن ، وآمنهم من كل المخاوف لو طبقوا شريعة الله .



﴿ سورة الماعون - مدنية - وآياتها سبع ﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ
بِالدِّينِ ^١ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ^٢ وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ
الْمَسْكِينِ ^٣ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ^٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ^٥
الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ^٦ وَيَسْنَعُونَ ^٧ الْمَاعُونُ ^٧ » .

مركز تحقيق كتاب مير علوم اسلامی

« أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدينِ » :

التكذيب بالدين هو موضوع السورة ، وبما أن الدين لا يُحصر في الجانب
العقائدي والعلاقات الفردية ، فهذه السورة - كأنها - تختص الدين بالعلاقات
الجماعية والإهتمام بأمور اليتامى والمساكين ، إيجاءً بأنها من الدين رغم التغافل
الملموس في هذا الصدد ، إضافة إلى الإهتمام بالصلاة التي هي صلات فردية
رب العالمين .

« أَرَأَيْتَ » : سمعته ما يكذب بلسانه ؟ أبصرت ما يعمل بأركانه ؟ عرفت

ما يكذب يحنانه ؟ حيث الدين : الطاعة ، هو لفظ الإيمان ، وعقيدة الإيمان ، وأعمال الإيمان ، وكل* يتطلب رؤية تناسبه .

يوم الدين

« يكذب بالدين » : هو طاعة الله يوم الدنيا ، والجزاء عليها ، وهو بروز حقيقة الطاعة يوم الجزاء ، والتكذيب بالدين قد يعم مراحل الثلاث ، وقد يخص مرحلة دون أخرى ، وقد يختص بما يحق في كل مرحلة وإن كان يؤمن بها إجمالاً ، فمن يعمل عمل المنكر المكذب لطاعة الله ، فهو محسوب من المنكرين المكذبين ، إذ إن الغاية من ألفاظ الإيمان وعقائد الإيمان هي أعمال الإيمان ، وإن كانت لعقيدة الإيمان أصالة فلأنها نبتة الأعمال الصالحة .

والدين ' الطاعة ' هو الإسلام لله والتسليم له بكافة المظاهر والأسرار : « إن الدين عند الله الإسلام » (٣ : ١٩) « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض .. » (٣ : ٨٣) . والدين القيم هو طاعة الله وحسده : « أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١٢ : ٤٠) « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » (٤ : ١٢٥) .

في هذه السورة عرض للتكذيب العملي الناشئ عن التكذيب العقائدي ، أو كأنه هو ، حيث الأثر هو الأثر ، وهو اللامبالاة بشأن الخلق والخالق سواء .

« فذلك الذي يدع اليتيم » :

اليتيم لغوياً هو « المنقطع » عما يحق الإتصال به لنضارة الحياة : مادياً ومعنوياً : من رحمة وعناية أبوية ، وحنان الأم ، ومن هداية إلهية ، وكما يجب للإنسان إنسانياً رحمة الأبوين ، كذلك - وأحرى له - التوجيهات الربانية ، ومن الواجب الجماعي الإسلامي رعاية اليتامى من كافة الأصناف ، الرعاية الأبوية لجبران نقصها بفقد الآباء ، والرعاية الروحانية كذلك - أصالة - ولجبران نقصها

من الآباء الروحانيين الذين قصروا في أداء ما عليهم ، علاقات تضامنية بين المسلمين ولكي يجبروا ما ينقصهم في الحياة ، بعضهم البعض .

إن الواجب هو الرحمة على اليتامى دون أن يُبغى منهم جزاء ولا شكور :
« ومن كان غنياً فليستغفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » (٤ : ٦) ..
عناية مجانية ورعاية دون مقابل لمصلحة اليتامى ، إلا للفقير ، فليأكل كما يعمل لأقل قليل .

القرآن يُشرك اليتامى في الكثير من الإنتفاعات الجماعية والعائلية ، فيوسطهم في قسمة الميراث بين أولي القربى والمساكين غير الوارثين : « وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فازرقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً » (٤ : ٨) ويردف بهم الوالدين وذوي القربى في وجوب الإحسان إليهم :
« .. وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين » (٤ : ٣٦) .

فلو كان اليتيم مسكيناً فله حقان : في الإرث وفي الإحسان ، وإلا فحق اليتيم لا يزيله عدم المسكنة لردفهم بالمساكين .

إن القيام بالإحسان والقسط لليتامى هو من واجبات الإيمان ، مهما كان اليتيم فقيراً أو غنياً ، لينوب مناب الوالد الذي كان قائماً بالإحسان إليه مجاناً :
« .. والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط » (٤ : ١٢٧)
« ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير » (٢ : ٢٢٠) كذلك فليكرم اليتيم الذي يجد نفسه مهاناً بفقد الوالد أو الوالدين : « كلاب لا تكرمون اليتيم » (٨٩ : ١٦) وليردف بالوالدين وذوي القربى في كافة الرحمات العائلية :
« .. لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذوي القربى واليتامى والمساكين » (٢ : ٨٣) « وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين » (٢ : ٢١٥) .

وليحذر عن أموالهم ولا يُقرب إلا بالتي هي أحسن ، حفاظاً عليها ، واستزادة

فيها دون أيّ مقابل: «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده» (٦ : ١٥٢) «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً» (٤ : ١٠) .

فمن يدفع اليتيم عن حق الإحسان اليه والإكرام له، ومن يدفعه عن إشراكه ويدعّيه في الرحمة العائلية، ومن يدعّيه عن إصلاحه وإصلاح حاله وماله، ومن يدعّيه عن ماله فيأكله ظلماً، فهذا الذي يكذب بالدين: «أرأيت الذي يكذب بالدين . فذلك الذي يدعّ اليتيم» .

قال ابن جريح: نزلت في أبي سفيان، كان ينحصر جزورين في كل اسبوع فأناه يقيم فسأله لهما فقرعه بعصاه، وقال مقاتل: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وكان من صفته الجمع بين التكذيب بيوم القيامة والإتيان بالأعمال القبيحة، وحكى الماوردي أنها نزلت في أبي جهل، كان وصياً ليتيم فجاءه وهو عريان يسأله شيئاً من مال نفسه فدفعه ولم يعأ به فأيس الصبي .

وقيل وقيل . . . ولكننا الآية تأبى الاختصاص بمن نزلت في شأنه، إنها تعم كل سفياني بقرع اليتامى، وكل أبي جهل يجهل حقوقهم، فإنّ دعّ اليتيم ودفعه عن حقه هو من ظواهر التكذيب بالدين، مهما كان اليتيم يتيماً في الدنيا أو الدين.

إنه ليست اللامبالاة بشأن العبادة - فقط - هي التكذيب بالدين، فإنها تكذيب به، سواء بحق الخالق أو الخلق، فالدين يجمع بين الحقين، كما السورة تجمع بينهما، إبتداءً بحق الخلق وانتهاءً به، وبوسط حق الخالق هنا إشارة إلى أن الخلق عيال الله فأحب الخلق إلى الله أحبهم إلى عياله المحتفين به، كما احتفت اليتامى والمساكين وذوي الحاجة بعبادة الله .

«ولا يحض على طعام المسكين» :

ليس إطعام المسكين هو الغرض فقط، بل الحض على طعامه أيضاً، والمحاضرة

عليه ، وليس فرض المسلم أن يكون هو - فقط - الفائض الخير على المسلمين ، فإن هناك فرضاً ثانياً هو حض الناس أجمعين أن يكونوا فائضين ، نبعة فوارة شاملة دون أن تيبس مهما يبيت بنفس ذاتها ، ولكنها فياضة بما تحض سواها وتبث ، هكذا يجب أن يكون المسلم فياضاً بكل خير ، يكرس حياته في هذه السبيل دون أن يحمد فؤاره .

وعلى المسلمين أن يحض بعضهم البعض على طعام المسكين ، فعدم المحاضة وعدم الحض على طعام المسكين ينشأ من عدم الإيمان بالله العظيم : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين » (٦٩ : ٣٣ - ٣٤) « ولا تحاضون على طعام المسكين » (٨٩ : ١٨) .

هناك وهنالك كان ويل للناكرين حقوق اليتامى والمساكين : المكذبين بالدين . ثم هنا :

« فويل للمصلين » :

يصلون ولكنهم لا يؤمنون ، وكانهم مكذبون بفرضها والذي فسرّضها ، حيث اللامبالاة في أدائها ، وعدم الإتيان بشرطها الأصيل : « الإخلاص » .

إن التفريع هذا « فويل » يربط هكذا مصليين بالذي يكذب بالدين ويدعّ اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ، فاللامبالاة هي اللامبالاة ، سواء أكان بحق الخلق أو الخالق ، فالمنشأ واحد هو التكذيب بالدين ، وفقدان الركيزة الإيمانية كما يجب .

وإذا كان اللامبالي بحقوق الخلق من المكذبين ، فاللامبالي بالخالق هو من أشر المكذبين .

وإذا كان الويل للمصلين المقصرين في صلواتهم فما هو لتارك الصلاة ؟

« الذين هم عن صلاتهم ساهون » :

عن صلاتهم - لا - في صلاتهم ، إذ إن الإنسان ، كائناً من كان ، قد يسهر في صلاته ، في شرائطها وأجزائها ، إلا من عصمه الله ...

والتنديد هنا بالساهين عن صلاتهم : فقد يصلون إذا حضروا وقد لا يصلون إذا غابوا ، يحسبون صلواتهم كأهون ما يبيعون ، فهكذا سهو عن الصلاة مبدؤه اللامبالاة بشأن الصلاة ، سهو عامد ، ونسيان مقصود ، وتساهل متقصّد ، كل ذلك لأنه مكذب بطاعة الله ، لا يعتبر طاعته أصلاً في الحياة ، ولا أصلاً من أصول الحياة ، ولا فرعاً لازماً ، وإنما في هامش الحياة ، إذا ما أضرت الصلاة بسائر ما يعملون ، فلو أضرت بها لرفضوها وتركوها بتأناً .

وقد يشمل السهو عن الصلاة - إضافة إلى التساهل عنها - التساهل في شرائطها وأجزائها ووقتها ، كما يروى عن النبي ﷺ قوله في الآية : « هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها »^(١) وكذلك السهو عن الصلاة معنوياً ، كان يشتغل في الصلاة بغير الله ، أو لا يرجو من صلاته خيراً^(٢) .

وهذه هي صلاة المنافقين ، الذين يتظاهرون بالإيمان ولما يدخل الإيمان في قلوبهم :

(١) الدر المنثور ج ٦ ص ٤٠٠ .

(٢) لما نزلت هذه الآية : « الذين هم عن صلاتهم ساهون » قال رسول الله (ص) : الله أكبر هذه الآية خير لكم من أن يعطي كل رجل منكم جميع الدنيا ، هو الذي إن صلى لم يرج خير صلاته وإن تركها لم يخف ربه .

وعن أمير المؤمنين (ع) فيما علم أصحابه من الأربعمائة باب مما يصلح المسلم في دينه ودنياه : ليس عمل أحب إلى الله عز وجل من الصلاة فلا يشغلنكم عن أوقاتها شيء من أمور الدنيا ، فإن الله عز وجل ذم أقواماً فقال : « الذين هم عن صلاتهم ساهون » يعني أنهم غافلون استهانوا بأوقاتها (نور الثقلين ٥ : ٦٧٧ ح ٤) .. وعن الصادق (ع) مثله (المصدر نفسه ح ٣) .

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً » (١٤٢ : ٤) « ولا يأتون الصلاة وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون » (٩ : ٥٤) . إنهم يقومون إلى الصلاة ولكنهم لا يقيمونها ، يأتونها ولا يقيمونها ، يأتونها كسالى ، كسلاً مزدوجاً : كسالة أولى إذا تعبوا وكلتوا عن أشغالهم ، وثانية أنهم على كسلهم يأتون الصلوة وهي حبل ثقيل عليهم .. وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . فصلاتهم إذا كسل على كسل ، وفشل على فشل ، فهم الذين يسهون عن الصلاة : عن صورتها أحياناً ، وعن حقيقتها دائماً : يؤدون حركات الصلاة ولا تعيشها قلوبهم .

« الذين هم يراءون » :

أحياناً لا يصلون وأحياناً يصلون ، ولكنهم يراءون في صلاتهم ؛ ليست صلاتهم لله ، وإنما لأجل الناس الذين من حولهم ، وهذا شرك في عبادة الله ، إضافة إلى توهينه تعالى بالسهو عن الصلاة : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ » إنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » (١٨ : ١١٠) .

قلو أنه ترك صلاته هذه ، كان خيراً له عند ربه ، إذ يقدم خلقه عليه في صلاته الرياء السامي عنها ، ثم يشرك به خلقه في هذه الصلاة الموهونة المهينة

« ويمنعون الماعون » :

وهذا جماع القول في الذين يكذبون بالدين ، اللامبالاة بأقل قليل في حق الخالق والمخلوق : « منع الماعون » عن الخلق والخالق ، فالماعون لغوياً هو القليل جداً ، فإنه فاعول من الممن وهو الشيء القليل ، وكما يرويه أمير المؤمنين علي

عَنْ رَسُولِ الْأَقْدَسِ ﷺ (١) .

فهم المانعون أنفسهم وسواهم عن القليل القليل ، الذي لا قيمة له أحياناً ،
أو أنها رخيصة جداً لا يمنعها إنسان إنساناً ، فرغم أنه تافه ، يحتاجه
الإنسان دائماً .

هم المانعون الماعونَ يحنب الخلق والخلق ، فماعون الخالق هو الصلاة (٢) ،
أسهل شيء على العبد دون أن تكلف مالا أو سواه ، فهم الساهون عنها
والمرامون فيها ، والمانعون هذا الماعون .

وماعون الخلق هي الأشياء التي يحتاجها الإنسان ، ولا يستغني عنها أحد ،
وهي طيفة جداً ، كالماء والملح وأضرابها ، فالمانع لها من أبخل الناس
وأخبثهم وألمهم .

ومانع الماعون يحنب الخلق هو المناع كل واجبات الحياة عن غيره ، يمشي
مكباً على وجهه ، لا يهدف إلا صالحه الشخصي .

(١) الدر المنثور : أخرج ابن قانع عن علي بن أبي طالب (ع) : سمعت رسول الله (ص)
يقول : المسلم أخو المسلم إذا لقيه حياً بالسلام ويرد عليه ما هو خير منه ، لا يمنع الماعون ، قلت :
يا رسول الله ما الماعون ؟ قال : الحبر والحديد والماء وأشياء ذلك ، وفي رواية أخرى عنه (ص)
هو ما يتعاطاه الناس بينهم .

أقول : ويجمعه أنه الشيء القليل التافه الذي يحتاجه الإنسان دائماً ، ولا ينافيه المروي عن
علي (ع) أنه الزكاة المفروضة ، فإنه من باب الأولوية القطعية ، فالذي يمنع القليل هو الذي يمنع
الكثير .

(٢) ويؤيد شعور الماعون مثل الصلاة : « ماعون الطاعة » ما أخرجه ابن مردويه من طريق
العوفي عن ابن عباس في الآية قال : اختلف الناس في ذلك ، فمنهم من قال : يمنعون الزكاة ،
ومنهم من قال : يمنعون الطاعة ، ومنهم من قال : يمنعون المعارية (المصدر ص ٤٠١) .



سورة الكوثر - مكة - وآياتها ثلاث

١٠٧/٢

" بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إنا أعطيناك الكوثر^١
فصل ربك وأنحر^٢ إن شئت^٣ هو الأبت^٤ . "



سورة خاصة برسول الله ﷺ ، تعده بالخير الكوثر ، وتعد أعدائه بالشر والبت^٥ ، وتوجهه إلى كامل الشكر ، الأولى كثرة فياضه وازدهاره ، والثانية قلة منحصرة وانبتار .

من مكائد قريش لتوهين الرسالة المحمدية ، وليصرفوا جمهرة الناس عن حوله : أن تقولوا عليه قولهم : « إنه أبت^٦ » ، من أمثال العاص بن وائل ، وعقبة بن أبي معيط ، وأبي لهب ، وأبي جهل ، وأضراهم من الخاقدين عليه ، المتربصين عليه دوائر السوء ، قال أحدهم مبشراً : « دعوه فإنه سيموت بلا عقب وينتهي أمره » محاولة عريقة منذ أمد بعيد ، من قسم من قريش على قسم آخر ، من بني أمية المعادية ، على بني هاشم وهم مفخرة قريش ، ولقد انتهت الزعامة الروحية إلى شخص النبي الأقدس ﷺ فكان تعبيراً طبيعياً عن البيت الهاشمي .

وجد هؤلاء الأعداء الألداء من أمية قريش ، ظرفاً لإهانة النبي ﷺ إذ توفي ولده الذكور ، حين كان ينتظر بنو هاشم أن يرث المجد الهاشمي الحمدي ذكوراً من ولده ، فأول من ولد له ﷺ «زَيْنَب» ، ولكن هاشم تنتظر الذكر ، الثاني كذلك بنت «رقية» فقد كاد أن يخيب الأمل ، والثالث كذلك بنت «أم كلثوم» فقد قوي الكيد من أمية .

لكننا الرابع والخامس هما من الذكوران «قاسم - عبد الله» .. لكنها أفلا قبل الإشراق .. فهل تلد خديجة بعد ؟ وهل ذكرأ ؟ .. إنها ولدت ولكنها الرابعة من بناتها : «فاطمة» .. أجل ولد له ﷺ لآخر مرة ذكر «إبراهيم» لكنه أيضاً أفلا ، وأخيراً لم تبق إلا البنات ، ثم بنت واحدة هي الأخيرة ، فما هو الأمل ؟

كيد لئيم من حزب الشيطان وَجَدَ له مجالاً ، في القول : «إنه أبتر» (١) ، في البيئة العربية ، التي تتفاخر وتتكاثر بالأبناء ! ويحسد من يهش لها من أعداء الرسول ﷺ وشأنه ، عليها أوجعت قلبه الشريف ، وإن كان واثقاً بنصرة ربه ، وخيبة أعدائه .

مركز تحقيق كامبوتر علوم إسلامي

هنا ، وبهذه المناسبة المؤلمة ، ولأمور أخرى ، نزلت سورة الكوثر ، ماسحة على قلبه بالروح والندى ، مقررّة حقيقة الخير الباقي الممتد مدى الدهر ،

(١) قال ابن عباس : إن رسول الله (ص) دخل من باب الصفا وخرج من باب المروة فاستقبله العاص بن وائل السهمي ، فرجع العاص إلى قريش ، فقالت له : من استقبلك يا أبا عمرو آتفاً ؟ قال : ذلك الأبتر ، يريد به النبي (ص) ، حق أنزل الله هذه السورة .

عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة ففالت له قريش : أنت خير أهل المدينة وسيدهم ، ألا ترى إلى هذا الصابي المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحبيج وأهل السقاية وأهل السدانة ، قال : أنتم خير منه ، فنزلت : «إن شأنك هو الأبتر» (ج ٦ ص ٤٠٣) .

الذي اختار له ربه ، وحقيقة البتر والإنقطاع المقدّر لأعداء الرسالة المحمدية السامية .

قيل إن الكوثر نهر في الجنة أوتيهِ الرسول ﷺ ، لكنه لا يزيد عن أنه كوثر من الكوثر : « إنا أعطيناك الكوثر » لا « كوثر » .. كوثر هو امتداد للكوثر وعلى هامشه^(١) .

وقيل : إنه ولده من فاطمة الصديقة (ع) ، حيث انتشروا أكثر من كل الأنسال ، نقول : إنها أيضاً من الكوثر ومن أعظمه كما وردت في أسباب النزول وكما توحى الآية : « إن شائنك هو الأبر » .

إذ إن معظم الشئان كان اعتباراً أنه لم يبق له ذكر ، فورد الجواب الحاسم ، الحامل لنبا الغيب : « إن شائنك هو الأبر » وكما بقر ، إذ انقطع نسل عدوّه اللدود رغم ولده الذكور العشرة ، وكما الآية الأولى حملت بشارة الغيب : « إنا أعطيناك الكوثر » والقدر المتيقن ، المناسب لسبب النزول ، هو كوثر الصديقة الزهراء .

.. وبعد أن كانت المرأة مهانة ولم تكن في حساب الإنسان نراها الآن في الإسلام معززة مكرمة قد يفوق كيانها الرجال .

(١) روايات متواترة عن النبي (ص) ، نقول : إن الكوثر نهر في الجنة ، ومنها ما أخرجه ابن مردويه عن أنس قال : دخلت على رسول الله (ص) فقال : قد أعطيت الكوثر ، قلت : يا رسول الله ! ما الكوثر ؟ قال : نهر في الجنة عرضه وطوله ما بين المشرق والمغرب لا يشرب منه أحد فيظما ولا يتوضأ منه أحد فيتشمع أبداً ، لا يشرب منه من أخفى ذمّي ولا من قتل أهل بيتي (الدر المنثور ٦ : ٤٠٢) .

وفيه من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : الكوثر الخير الذي أعطاه الله إياه ، قال أبو بشر لسعيد بن جبير فإن أناساً يزعمون أنه نهر في الجنة ، قال : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه إياه (المصدر نفسه) .

وفيه عن عكرمة قال : الكوثر ما أعطاه الله من النبوة والخير والقرآن (ص ٤٠٣) .

شاء الله تعالى أن تحتل فاطمة الزهراء المكانة العليا من الكمال ، ولكي تسبق الرجال كما سبقت نساء العالمين من الأولين والآخرين ، طالما مريم (ع) فضلت على نساء عالمي زمانها ..

شاء الله تعالى أن تنسل منها فحسب ذرية الرسول محمد ﷺ ، ولأنها كانت من أهل بيت العصمة والطهارة المحمدية ، وتنفوق العالمين ، من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، فضلاً عن السيدة مريم (ع) .

(١) مقارنة بين فاطمة ومريم (ع) :

قال لي اسقف من الأساقفة : هذه مريم المسيحية فضلت في قرآنكم على نساء العالمين وعلى فاطمتكم ، وتختص بها سورة قرآنية دون أن يؤتى بذكر فاطمتكم ..

قلت : إنها ليست مريم المسيحية ، إنها السيدة مريم التي نعتبرها من خيرة نساء العالمين ، نحن نصدقها ونكرمها كما تكرمونها وزيادة .. ولا ننتكها كما في الإنجيل !

الأسقف : ما هي الآية الإنجيلية التي تمس من كرامتها ؟

المفسر : آية أولى تندد بالأم والأبن معاً : « ولما فرغت الحمار قالت أم يسوع له : ليس لهم خير ، قال لها يسوع : ما لي ولك يا امرأة » (يوحنا ٣ : ١ - ١١) .

فمسيح القصة يهتك أمه بهذه الجملة اللاذعة « يا امرأة ! » رغم أنه أجابها في مأمولها ، وصنع الحمار !

ثم هتك ثان أنها لم تؤمن : « إذ كان يكلم تلاميذه فجاء حينئذ اخوته وأمه ووقفوا خارجاً وأرسلوا إليه يدعونه وكان الجمع جالساً حوله فقالوا له : هوذا أمك واخوتك خارجاً يطلبونك ، فأجابهم قائلاً : من أمي واخوتي ؟ ثم نظر حوله إلى الجالسين وقال : ها أمي وإخوتي ، لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي وأخوتي وأمي » (مرقس ٣ : ٣١ - لوقا ٨ : ٩ - ٢١ - متى ١٢ : ٤٦ - ٥٠) .

فلو أنها - وحاشاها - عصت في دعوة المسيح لصنع الحمار ، فلماذا يهتكها هنا بكلمة فحش شوهاء : أنها غير مؤمنة !؟

« إنا أعطيناك الكوثر » :

فما هو الكوثر بعد ؟ .

الكوثر لغوياً هو المبالغ في الكثرة ، واعتباراً أنه يقابل الأبتى ، فهو الكثرة الكثيرة من كل خير ، من كل اتصال بمعدن الرحمة الإلهية ، فلم يُبقِ الله رحمة

= لكننا القرآن يختص سورة بتنزيها وتطهيرها عما تقولوا عليها أمثال هذه .. وما نسبت إلى الزنا .

إن القرآن لا يذكر امرأة باسمها ، وليس ذكر السيدة مريم إلا تبرئة لها ، وإلا تأكيداً لولادة المسيح العجيبة ، أنها كانت دون والد .

لكن فاطمة ما نسبت إلى منكر حتى يتبادر عنها بآيات قرآنية ، ومجرد الذكر في القرآن لا يدل على الأفضلية في الحال ، فهذا « زيد » يذكره القرآن لمهمة أحكامية ، ولا يذكر من ألوف النبيين إلا ستة وعشرين .

الاسقف : ولكنها حسب القرآن مفضلة على نساء العالمين ومنهن فاطمتكم « يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » .

المفسر : على العالمين : (عالمي زمانها) .. لا من الأولين والآخرين ، وكما يقال : إن الاسقف أفضل الأساقفة في العالمين ، أو أفضل علماء الانجيل ، فهل تعني أفضليته على علماء الانجيل مدى الدهور ؟!

ثم هي خير نساء العالمين - لا - ورجالهم ، وفاطمة الإسلام اختصت مع الرسول الأقدس محمد (ص) وزوجها وابنيها ، بعصمة وطهارة ، لا يشاركها أحد من العالمين ، من نوح وإبراهيم وموسى والمسيح (ع) .. بشهاد آية التطهير : « إنا يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » (٣٣ : ٣٣) فد « إنا » تحصر إذهاب الرجس ، وتحصر الطهارة ، تحصرها بأهل بيت الرسالة الحميدة وكما في متواتر الأحاديث الإسلامية دون خلاف .

فلو أن السيدة مريم مفضلة على نساء عالمي زمانها ، أو نساء العالمين من الأولين والآخرين ، فالسيدة فاطمة مفضلة على العالمين بنسائهم ورجالهم ، وحسبها أنها كوثر من الكوثر ، من أعظم المعطيات الإلهية الرسول الأقدس محمد (ص) .

يُمكن إعطاؤها ، إلا وقد أعطاها رسوله الأقدس محمد ﷺ .

وإنه : « الكوثر » لا « كوثر » ولا « الكوثر من رحمة خاصة » بل « الكوثر » : الكثرة المنقطعة النظير وغير محدود ، من كل خير بالإمكان أن يفيضه رب العالمين على أحد من العالمين .

إن الكوثر هذا ، يشير تماماً إلى عكس المعنى الذي أطلقه هؤلاء السفهاء ، وأشمل عكساً ، إنهم اعتبروه « أبتَر » : منقطع النسل ، وربه يعتبر له « الكوثر » اتصالاً غير محدود بمعدن الرحمة والعظمة الإلهية ، ومنه كوثر النسل : فاطمة الزهراء (ع) .

فإذا أراد أحد أن يتتبع هذا الكوثر فهو واجده حيثما تصوّر أو نظر :

١ - في رسالته التي هي خير الرسائل وخاتمتها ، التي جمعت الرسائل الإلهية كلها وزيادة ، كأنها الرسالة وحدها .

٢ - في قرآنه : ينبوع ثر لا يُفْتَأ ، الكتاب الذي جمع فيه معجزة الرسالة ومعجزة الوحي .

٣ - في علمه الغزير وعقله الوفير الذي فاق عقول العالمين .

٤ - في كافة محامده ، وهو المحامد كله ، وعلى حدّ تعبير سليمان بن داود في كتابه كما في الأصل العبراني : « .. حَكُّوْهُ تَمْتَقِيْمٌ وَكُؤُلُوْهُ تَحْمَدِيْمٌ » زه دودي وزه رعي بنْتُ يرُ شالام ، (نشيد الأنشيد ٥ : ١٦) :

أي : فمه حلوه وكلته محمد ، هذا محبوبي وهذا ناصري الذي يرعاني يا بنات أورشليم .

كله محمد : هو بتمامه : بذاته وبصفاته وأفعاله ، برسالته وكتابه .. محمد : في غاية المحمودية والكمال والبهاء والجلال ، لا في اسمه فحسب .

٥ - في نسله الميمون - أيضاً - هو محمد و كوثر ، كوثر في العدد ، وفي العدد الروحية والرسالية .

٦ - في زوجته الأولى : خديجة الكبرى أم المؤمنين ، فإنها كوثر في إيمانها ومالها وإنجابها الكوثر الزهراء ، فهي أحبت محمداً بعقل الأربعين لا بغفلة التسع ، ولا بنزوة العشرين ، أحبته في إرادة التعبير فانسأقت إليه انسياقة إيمانية فتضاءلت بسين يدي حبها الكبير مجاهد دنياها ، وذاب من تحت عينها بريق الذهب ، تاجرت بزواجها بالرسول ، وبثروتها الثرة ، قرناً أنيساً برسالة السماء ، وجاهدت في هذه السبيل بكل ما لديها من طاقات .

٧ - في صهره وابن عمه عليّ أمير المؤمنين : استمرار الرسول برسالته ، واستمرار سنته ، واستكمال دعوته .

فعلي عليه السلام كوثر من الكوثر ، وله من الكوثر المنفصل عن كيان النبي ﷺ نصيب عظيم ، وكأنه كله ، إذ كان كل الرسول ﷺ إلا في الوحي .

٨ - في خلفائه السابقين الأحد عشر ، فإنهم كوثر من الكوثرين ، من « علي وفاطمة » وبقائهم تحيي الدنيا وكأنها الجنة ! .

* * *

« إنا أعطيناك الكوثر » :

من هنا ندرس ألفاظ الآيات فننتطلع منها على معانيها المشار إليها .

« إنا أعطيناك » : جمعية الصفات لا جمعية الذات ، يعني بهذه الجمعية أن عطية الكوثر للنبي الأقدس ﷺ تجمع مجامع الخيرات الناتجة عن مجامع الصفات الإلهية - غير الذاتية - فصفاته الفعلية التي تصدر على أضوائها أفعاله تعالى ، هذه

الصفات كلها اشتركت في هذه العطية الربانية ، ففي الكوثر نصيب من جمعية الصفات الإلهية ، ولو صح التعبير لقلنا : إن هذه العطية إلهة العطيات ، إذ صدرت من إله الأرض والسموات بجمعية الصفات ، للنبي الأقدس وهو أفضل الكائنات عبر التاريخ .

« فصل لربك وانحر » :

إن هذه العطية الغزيرة الفائضة الكثرة ، رغم ما أرجف المرجون ، إنها تتطلب شكراً يناسبها ، فكما المشكور له عطية لا فوقها عطية ، وكأنها استأصلت العطيات فجتمعتها في نفسها ، كذلك الشكر ، فليكن شكراً مستأصلاً جامعاً للشكر ، وليس إلا الصلاة للرب « لربك » ناحراً فيها .

صلاة تجمع جوامع معاني الصلاة وحقائقها ، وتليق بساحة الربوبية : رب الكوثر الحمدي ﷺ ، الصلاة التي تنقطع بك عما سوى الله ، وعن نفسك ، ألا يبقى فيها بينك وبين الله أحد - ولا نفسك - صلاة الفناء المحض ، وإشارة باهرة لهذا الانقطاع التام إلى الله تعالى هو النحر : « رفع اليدين في تكبير الصلاة إلى النحر ، باطنها إلى القبلة وظاهرها إلى خلفها » (١) .

هكذا نحر يلائم والتكبير عنده ، فالتكبير يعني أن الله أكبر من أن يوصف ،

(١) رواه الفريقان عن النبي (ص) وعن علي (ع) ورواه أصحابنا عن الصادق (ع) ، ففي الدر المنثور عن علي بن أبي طالب (ع) قال : لما نزلت هذه السورة على النبي (ص) قال النبي لجبريل : ما هذه النعيرة التي أمرني بها ربي ؟ قال : إنها ليست بنعيرة ، ولكن بأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع ، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع ، وإن لكل شيء زينة وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة . قال النبي (ص) : رفع اليدين من الاستكانة التي قال الله : « فما استكانوا لربهم وما ينضرعون » (ص ٤٠٣) .

لا أنه أكبر من كل شيء ، فلا كبير يجنب الله حق يوصف بأنه أكبر منه ،
إنما أكبر من أن يوصف إلا كما وصف به نفسه « فسيحان الله عما يصفون . إلا
عباد الله المخلصين » .

إذ ذاك فليوجه العبد بكل وجوهه إليه ، كما ويوجه وجهه الظاهر إلى
بيته الحرام .

إذا فليعرض عما سواه إعراضاً تاماً لكي يتمكن من هكذا إقبال إليه ، ورفع
اليدين - كما وصفناه - إشارة إليه : أعرضت عما سواك داحراً لها خلفي ، وجهت
وجهي إليك دون حجاب إلا ذاتك المحبوبة عن خلقك ، فكما أنه تعالى لم يبق
نعمة إلا وأنعمها عليك ، فعليك ألا تبق ممن سواه إلا وتدحره وتقبل إلى الله ،
هكذا صلاة هي التي تحقق لهذه العطية الربانية .

« إن شانتك هو الأبر » :

إنه الأبر عن كل مآلِك من الكوثر ، وقد صدق وعد الله له وعليهم ، أن
عدوه الشانتي الشائن انقطع عن خيرات الدنيا والآخرة ، فقد انقطع ذكرهم
وانطوى إلا عن أمواج من السب والعدى ، بينما امتد ذكر الرسول ﷺ وعلا

وقد يشمل النحر هنا نحر الإبل ضحية ، إشارة إلى أنني أفدي بنفسي لله ،
بعد ما فنتيت عنها في الإنجاء إلى الله ، ولكننا الإنتحار محرّم في شريعة الله ،
إذا فنحر الإبل نقوم مقامه كذكرى .

مسيلة الكذاب يعارض فيما يعارض - هذه السورة قائلاً : « إنا أعطيناك
الجاهر . فصل لربك وجاهر إن مبغضك رجل كافر » كلمات هي أشبه بالهذيان :
بين مأخوذة من الكوثر « إنا أعطيناك - فصل لربك » وبين ما لا يحمل منقبة
« . . . الجاهر » إذ لا منقبة في وجود الجاهر . فجواهر الشيطان أكثر من

الكل ، ولو أريد منها جماهر الخير والتقوى ، لم يكن فيها منقبة للرسول ، إلا كالأ
منفصلاً عن ذاته ، وبين ما هو توضيح للواضحات : « إن مفضلك رجل
كافر ، ثم لا تحمل هذه الهديات من بشارات الغيب وإنذاراتها ما تحمله سورة
الكوثر ، فكوثر الرسول بشارة ، وبتر شائفه إنذار ، وكلاهما من ملاحم الغيب ،
والقرآن يتحدى - فيما يتحدى - بسورة واحدة منه ، وأقصرها الكوثر ، وطالما
حاول الحاقدون المعاندون للرسالة المحمدية وقرآنها أن يعارضوه فخابت
مساعيهم ، ولو كان لبنان .



﴿ سورة الكافرون - مكية - وآياتها ست ﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ^١
لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ^٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبُدُ ^٣ وَلَا أَنَا
عَابِدُ مَا عَبَدْتُمْ ^٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبُدُ ^٥ لَكُمْ دِينُكُمْ
وَلِيَ دِينِ ^٦ . »

مركز تحقيق كتاب توير علوم رباني

* * *

ندرس في هذه السورة كيف يجب أن نعامل الكفار الذين : « سواء عليهم
أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » ، فهل نبذل من عقيدة الإيمان أو أعمال
الإيمان لكي نسايرهم علّهم يؤمنون ، أم هذه خطوة مأكرة وشيطنة مدروسة
منهم ، يريدون أن نصبح كأمثالهم لقاء أن يؤمنوا بما نؤمن كما يدعون ، وإن
هم إلا كاذبين ؟ ..

إن الإيمان لا يقبل المخادعة والمسايرة ، وليست هذه المبادلة تجارة رابحة
ولو وفوا بعهدهم ، فكيف وهم كاذبون ! .

« قل يا أيها الكافرون » :

الكافرون الذين لا يؤمنون ، ولا يرجى منهم أن ينسلخوا في سلك المؤمنين ، بل هم يريدون من المؤمنين مسايرتهم ، عليهم يخرجونهم عن الإيمان كأمثالهم ، ولذلك يستحقون هكذا خطاب قارع ، يقرع أسماعهم وقلوبهم المقلوبة عليهم ينتهون .

.. يلقي الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب وأمية خلف ، يلقون رسول الله ﷺ قائلين : يا محمد ! هلم فلتعبد ما نعبد ، ونعبد ما تعبد ، ولنشرك نحن وأنت في أمرنا كله ، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه ، كنت قد أخذت منه حظاً ، وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه ، كنا قد أخذنا منه حظاً ، فأنزل الله هذه السورة .

وفي رواية أخرى : أن قريشاً قالت لرسول الله ﷺ : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، وتعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فأجابهم الله بمثل ما قالوا : فقال فيما قالوا : تعبد آلهتنا سنة : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، وفيما قالوا : نعبد إلهك سنة : ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وفيما قالوا : : تعبد آلهتنا سنة : ولا أنا عابد ما عبدتم ، وفيما قالوا : نعبد إلهك سنة : ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين .

نستوحي من الروايتين أنه كان هناك اقتراحان : الإشراك المتصل والمتفصل ، فالثاني أن يشرك النبي بالله منفصلاً : يعبد أوثانهم سنة ويعبد ربه سنة أخرى ، مقدماً لأربابهم على ربه ! يوحد كلا بالعبودية منفصلاً عن الآخر ، وورد هذا الاقتراح بالآيتين الأوليين « لا أعبد ما تعبدون » ، ولا لأن ، فكيف بسنة « ولا أنتم عابدون ما أعبد » ، لأن فكيف بسنة ، فما أنتم بتاركي آلهتكم وإن أنتم إلا كاذبون تمكروننا من ناحيتين :

١ - أن نبتديء بعبادة آلهتكم وأنتم على حالكم .

٢ - أن تخالفوا وعدم فتتركوا عبادة إلهي في السنة الثانية .

وفي الأول - وكأنه خيّل إليهم أنه أقرب إلى الحيلة - يصدون على أنفسهم باب المكر إذ يبتدون مع الرسول في الشرك المتصل ، ولكنه يصددهم عن ذلك أيضاً : أن ماهية عبادتي تتناقض تماماً مع عبادتكم ، فعبادتي توحيدية محضة لا تقبل الإشرak أبداً ، وعبادتكم شركية لا تقبل التوحيد إطلاقاً .

فـ « لا أنا عابد ما عبدتم » : ليست عبادتي كعبادتكم ^(١) : تلائم كل عبادة لكل معبود « ولا أنتم عابدون ما أعبد » ليست عبادتكم كعبادتي : ^(٢) تختص بالله الواحد القهار .

فهذه السورة تستأصل كل عبادة وكل معبود من دون الله ، شركاً متصلاً أو منفصلاً ، وتختص العبودية بالله دون أن تشرك به سواه .

إذاً فلا تكرار في الجواب ، وإن كان في صورة التكرار ، فجاءت السورة حاسمة قارعة عليهم ما يذكرون .

إنهم كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم ، وهم أهدي من أهل الكتاب الذين كانوا يعيشون معهم في الجزيرة ، فمن اليهود من كانوا يقولون : عزير ابن الله ، ومن النصارى من كانوا يقولون : المسيح ابن الله ، بينما هم كانوا يعبدون الملائكة والجن ، زعم قرابتهم من الله ، فكانوا يزعمونهم أهدي ، لأن نسبة الملائكة والجن إلى الله أقرب منها إلى عزير والمسيح .

(٢٠١) « ما » في الآيتين الأخيرتين مصدرية ، وفي الأوليين موصولة - تفيد أولاً رفض كل معبود من دون الله ، وثانياً ترفض كل عبادة شركية - فماهية الشرك تتناقض ومماهية التوحيد معبوداً وعبادة ، نستوحي هذا الفرق بين الآيتين من مضي الفعل في الثانية «ولا أنا عابدم ما عبدتم» : عبادتكم ، فلو كان المعني منها هو المعني من الأولى لم يكن وجه لاختلاف زمن الفعل .

فلما جاءهم الرسول الأقدس محمد ﷺ قائلاً : ملة أبيكم إبراهيم ، إن دينه دين إبراهيم : حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين .. قالوا : ونحن على دين إبراهيم فما هي الحاجة إلى دين محمد . . ثم راحوا يحاولون مع الرسول ﷺ ويحتالون عليه طريقة وسطى . . وعرضوا عليه ما عرضوه فاعترضتهم قوارع الآيات أن لا طريقة وسطى ، فإما التوحيد وإما الإشراك .

فعلتهم ما كروه فهذا العرض الكافر ، وعلتهم زعموا قرب المسافة ، فبإمكانهم التفاهم عليها : بقسمة البلد بلدين والإلتقاء في منتصف الطريق . . إلا أن مكرم أظهر ، فلو كانوا جاهلين غير عامدين لم يكن القرآن يحسم الخلاف بترك الدعوة بعدئذ : لا نحن اليكم ولا أنتم إلينا « لكم دينكم ولي دين » . إنهم ما كروه : أرادوا أن يخرجوه عن التوحيد وهم باقون على الشرك ، فيخسر وهم راجعون ، وهكذا محاولة الشياطين في خطواتهم تجاه المؤمنين ، إنهم يحنثون كافة طاقاتهم ، ويعملون كل دعاياتهم ليضلوا المؤمنين ، كما هم ضالون ، دون أن يهتدوا ولا قيد شعرة : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بجاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون . وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كنوا يفترون ، (٢٩ : ١٢ - ١٣) .

أجل ، وإن هناك : بين المؤمنين وهكذا كافرين ، إن بينهم انفصلاً لا يرجى معه أي اتصال ، فلا التقاء إذن بينها في طريق .. فهنا آخر المطاف في الدعوة ثم لا دعوة إذ لا رجاء .

لا بد للدعاة إلى الله أن يصرفوا طاقاتهم لإثبات الحجة ولكي يدلوا ويهدوا الضالين إلى الله ، وأما أن يتاجروا بإيمانهم أيضاً ، زعم أن الكافرين الماكرين عليهم يهتدون .. أما إذا وصلت الدعوة إلى خسارة الدعوة والداعي هكذا

فلا .. وإنما كلمة واحدة آخر المطاف : « لكم دينكم ولي دين » أنا هنا وأنتم هناك ، فلا معبر ولا جسر عليه يُعبر ، وما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذا الموقف الحاسم والبراءة التامة عما يتنافى الإسلام ، وإنه ليس هناك أنصاف حلول ، ولا التقاء في منتصف الطريق ، ولا إصلاح عيوب ، ولا ترقيع مناهج ، إنما هي الدعوة إلى الإسلام كما بدأت بالصادع الأول .

وبغير هذه الفاصلة الحاسمة سيبقى الغش واللبس والترقيع والخداع ، وليس الإسلام بالذي يقوم على هذه الأسس المدخولة !

أجل : الدعوة إلى الإسلام كما الإسلام يُرام ، وبالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا ، فبالمقاطعة أو التقويم بالقوة ، علمهم يتعرفون إلى الحق ، أو تدميرهم لكي تحسم مادة الفساد وجرائم الضلالة ، وأول المطاف هنا في آخر الدعوة هو القول : « لكم دينكم ولي دين » .

« قل يا أيها الكافرون .. إعلنا دون إسرار ، ولكي يدرس الأحرار درسهم في مواقفهم هذه مع المتعصبين ، كيف يلتقوا معهم ، فداه بحقيقتهم ووضعهم الذي أصبح لازماً لذواتهم : « لا أعبد ما تعبدون » : تريدون مني حدثاً في العبادة وأنا لا أعبد معبوداتكم من الآن ومدى الحياة ، كما لم أكن أعبدها منذ الولادة وحق الآن .

« ولا أنتم عابدون ما أعبد » : قطعت رجائي عنكم ، فلستم بمن يعبدون الله ، فقد أصبح الشرك كأنه لازم ذواتكم فلستم بتاركي آلهتكم من الآن ، كما لم تكونوا بتاركيه حق الآن .. وهذه من الملاحم القرآنية ، تحذر عن غيب مستقبل : أنهم ليسوا بمؤمنين حق الموت .. وكان بإمكان أحدهم أن يؤمن في ظاهر الحال ، ولكي يثبت كذب هذه الملحمة القرآنية ، ولكنهم لم يقدموا . وحق على ظاهر الإيمان : « ولا أنتم عابدون ما أعبد » .

هنا حسمت الآيتان اقتراح الشرك المنفصل « تعبد آلهتنا سنة ، نعبد إلهك سنة » .

ثم الأخيرتان حسمتا اقتراح الشرك المتصل أيضاً :

« ولا أنا عابد ما عبدتم » .. لست بالذي يعبد كعبادتكم ... « ولا أنتم عابدون ما أعبد » كذلك لستم ممن يعبد كعبادتي ، تتركون آلهتكم وتعبدون ربي موحدين .. وحق في حين تعبدون ربي سنة كما تزعمون ، أو حين تجمعون بين العبادتين وأخرى ، إذا « لكم دينكم ولي دين » ...

وهكذا يدرس المسلم القرآن ، كيف يجب عليه الصمود في الإيمان دون أن ينسحب عنه كثيراً أو قليلاً بغية إيمان الكافرين ، فعليه أن يقاوم الكافرين ، لا أن يساومهم ويتنازل عن إيمانه .

فإذا سمع من تعوذ على بيوت القمار والدعارة ، شاركنا ليلة هكذا وعلينا التكليف ، ثم نشاركك في عبادة الله .. فاعرف أنه داعية الضلال ، وإلا فلماذا يقدم لك الضلال ، فهل في ضلالك دافع أن يتندي هو ؟ كلا ! إن هذا إلا مكر يمكرونه.

فالجواب إذاً ، لا أشارككم في معصية ربي ، ولا تشاركوني في عبادته ، « لكم دينكم ولي دين » .. لكم شواظكم ولي عباداتي ، لكم الرقصات ولي الصلوات ، لكم الدعارات ولي العبادات ، وفي آخر المطاف لكم جميع النار ولي الجنة التي وعدنا المتقون الأبرار .

ومن الشياطين من يخفف الوطأة في الماكرة ، يشاركونك في الحيرة فتدور من الزمن كأنهم من المؤمنين ، ثم يتركونك إلى ضلالهم القديم كأنهم فلتشوا هنا ولم يجدوا خيراً فانتقلوا إلى ما كانوا ، ثم يحارلون أن تشاركهم فيما هم : « وقالت طائفة

من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله .. (٧٣:٣) ،
 .. هكذا يمكرون ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ، ، فليكن المؤمن عاقلاً فتنناً لبقاً كيتساً لا يُماكر ولا يُغادر أو يُضرر به ، إذا يريد الحفاظ على إيمانه ، وعليه أن يدرس طرق الضلال وألوان الشيطانات ، يجنب ما يدرس طرق الهدى ، وكما هداه الله ، وهديناه النجدين ، طريق الخير والشر واضحاً على المنار ، فليدرسها لكي يثبت على الهدى ويجتنب مزالق الردى .



مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

﴿ سورة النصر - مدنية - وآياتها ثلاث ﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ
وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ۝ » .

* * *

آيات ثلاث تحمل بشارة النصر والفتح ، وقد سبقتها بشارات عدة ، وهنا
مزيد فيه مدى الفتح : « ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا » وفيه ما
يتطلبه الفتح : « فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » .

بشارات تتضافر وتتواصل ، في حين أن الرسول ﷺ هاجر مكة المكرمة
إلى المدينة المنورة ، وملاحقات المشركين دائبة ، وأذاهم دائم ، ورجاء الرجوع
إلى مكة بعيد ، وحتى لإداء فريضة الحج . . وأن فتح مكة وتقاطر الوفود
للدخول في دين الله من أهم الأهداف للرسالة المحمدية ، ولأنها أم القرى ، المركز
الرئيسي للدهوة الإسلامية .

قال ابن كثير في التفسير : « المراد هنا فتح مكة قولاً واحداً ، فإن أحياء
العرب كانت تتلوم (تنتظر) بإسلامها فتح مكة ، يقولون : إن ظهر على قومه
فهو نبي » ، فلما فتح الله مكة دخلوا في دين الله أفواجا ، فلم تمض سقتان حتى

استوثقت جزيرة العرب إيماناً ، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر الإسلام
و لله الحمد والمنة .

هذه الرواية تتلاءم مع ظاهر النص في السورة « إذا جاء .. » فلم يقل « قد
جاء .. » لأنها بشارة بمستقبل الفتح والنصر لا واقعه ، فلقد كانت في هذه البشارات
المتلاحقة حجة للرسالة المحمدية ، إذ تحمل ملاحم الغيب ، وتقوية لقلوب المؤمنين
بهذه الرسالة السامية ، إذ تبشرهم بمستقبل العز والانتصار ، وفيها تبكي وتسكيت
للكافرين إذ يسمعون الوحي يقرع أسماعهم بقوارع الفتح ، وكما تضافرت به
الروايات عن الرسول الأقدس ﷺ (١) .

(١) أخرج الطبراني عن ابن عباس قال : لما أقبل رسول الله (ص) من غزوة حنين أنزل عليه
« إذا جاء نصر الله والفتح » الخ .. قال رسول الله (ص) : يا علي بن أبي طالب ويا فاطمة بنت
محمد ! جاء نصر الله والفتح .. سبحان ربي وبحمده واستنعم . إنه كان ثواباً ، ويا علي إنه يكون
بعمدي في المؤمنين الجهاد ، قال : علام يجاهد المؤمنون الذين يقولون آمنا ؟ قال : على الأحداث في
الدين إذا عملوا بالرأي ولا رأي في الدين ، إنا الدين من الرب أمره ونهيه ، قال علي : يا رسول الله
أرأيت إن عرض علينا أمر لم ينزل فيه قرآن ولم يقض فيه سنة منك ؟ قال : نجعلونه شورى بين
العابدين المؤمنين ولا نقضونه برأي خاصة ، فلا كنت مستغلاً أحداً لم يكن أحد أحق منك
لقربك في الإسلام وقربتك من رسول الله (ص) وصبرك ، وعندك سيدة نساء المؤمنين ، وقبل ذلك
ما كان من بلاء أبي طالب إياي ، ونزل القرآن وأنا حريص على أن أرفع له في ولده (الدر المنثور
٤٠٧ : ٦) .

أقول : لا تخفى دلالة هذا الحديث على أحقية الإمام علي (ع) بالإمرة على القولين : أنه (ص)
استخلف أو لم يستخلف ، إذ أبدى رأيه فيمن هو أول ، فهل يا ترى ان لو كان للسقيفة حسق
الاستشارة في الإمرة ، فمن هو أول بالاتباع ؟ الرسول (ص) أم أصحاب الشورى ، وبعد أن أبدى
الرسول رأيه !

وأخرج ابن أبي شيبه ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة قالت : كانت
رسول الله (ص) يحكى من قول : سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه ، فقد رأيتها :
إذا جاء نصر الله والفتح - فتح مكة - ورأيت الناس ، الخ ..

وفي تفسير علي بن إبراهيم القمي قال : نزلت بنى في حجة الوداع وإذا جاء نصر الله والفتح ،
فلما نزلت قال رسول الله (ص) : نعمت إلي نفسي ، فجاء إلى مسجد الحيف فجمع الناس ثم قال : =

هذه - ومن قبل كانت الآيات تتواصل في بشرى الفتح إعلاناً وإسراءاً ،
 بقظة ورؤيا ، وإلى حيث كأن الفتح واقع ولما يقع : « إنا فتحنا لك فتحاً
 مبيناً . . . » ماض يعني مستقبلاً قاطعاً وكأنه أمر مضى ، . . . تنزل في السنة
 السادسة من الهجرة ، قبل الفتح بسنتين ، وفي نفس السورة ذكرى رؤيا الرسول
 ﷺ وأن الله صدقها : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد
 الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا
 فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » (٤٨ : ٢٨) ، ولقد كانت هامة الفتح من
 غير المحتمل وحق في الرؤيا ، ولكن الله حققها وفاءً بعهود تترى . . . يرى رؤياه
 هذه في حين كان المشركون قد منعوه من منذ الهجرة من دخول مكة ، حق في
 الأشهر الحرم التي كانت العرب تعظمها في الجاهلية ، وتضع السلاح فيها ،
 وتتعمم القتال في أيامها ، والصدء عن المسجد الحرام ، حتى أصحاب الثارات كانوا
 يتجمعون في ظلال هذه الحرمة ، ويلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يرفع في
 وجهه سيفاً ، ولا يصده عن البيت الحرم ، ولكنهم خالفوا هذه السنة وصدوا
 الرسول ﷺ والمسلمين طوال سنوات .

« هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي مكموفاً أن يبلغ
 محله . . . » (٤٨ : ٢٥) .

بشارات الفتح قبل وقوعها تتلاحق وتتلاصق هنا وهناك ، تثبيتاً للمؤمنين ،
 ودفعاً لشكوك المرتابين الذين في قلوبهم مرض : « فترى الذين في قلوبهم مرض

= نصر الله امراً سمع مقالتي فوعاها وبلغها من لم يسمعها ، فرب حامل فقه ليس بفقيه ، ورب
 حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم : إخلاص العمل لله
 والنصيحة لأئمة المسلمين ، وال لزوم لجماعتهم ، فإن دعوتهم محيطة من ورائهم ، أيها الناس إني تأرك
 فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا ولن تزلوا ، كتاب الله وعتري أهل بيتي ، فإنه قد نبأني اللطيف
 الخبير أنها لن يفترقا حتى يردا علي الحوض كما صمعي هاتين - وجمع بين سبابتيه - ولا أقول كهاتين
 - وجمع بين سبابته والوسطى - فتفضل هذه عل هذه (نور الثقلين ٥ : ٦٩٠ ح ١٠) .

يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين » (٥ : ٥٢) .

ولقد كان المؤمنون يرجون هكذا فتح وانتصار ، يرددون رجاءه وبشراه ليل نهار : « وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » (١٣ : ٦١) .. ولقد خص الرسول ﷺ برده إلى معاده : مولده وموطنه ، لأنه فرض عليه القرآن : أم الكتاب الذي يجب أن ينشر من أم القرى : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » (٨٥ : ٢٨) .

بشارات تتخلل في طيات الهجرة ، إلى أن قرب الوعد ونزلت سورة النصر بعد سورة الفتح وآيات الفتح ، ثم تحقق الفتح ونزلت آياته وآيات بعدها تندد بمن كانوا يعدون أنفسهم الحسنى لو جاء الفتح ، وأن يخرجوا من الشكوك ومن طالع الأعمال ولم يفعلوا : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم . ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين » . إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فثنتكم شيئاً ولو كثرتم وأن الله مع المؤمنين » (٨ : ١٧ - ١٩) .

« إذا جاء نصر الله والفتح » :

لقد كانت للنبي الأقدس فتوح بعد الهجرة ، ليست معنية هنا إلا أعظمها وأهمها ، كآنه الفتح ليس إلا ، وإنه فتح مكة المكرمة ، إذ لم يكن دخول الناس في دين الله أفواجا إلا عنده لا سواه ، ولذلك سمي فتح الفتوح ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم حينه : لا هجرة بعد الفتح ولكن

جهاد ونية (١) .

وهذا وعد دائم للذين ينصرون دين الله أن الله هو ناصرهم في دينه من قريب أو من بعيد : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

نصرة في الطاقات الحربية والانتصارات المعنوية معاً ، وكما نراه في حرب بدر كيف غلبت جنود المسلمين وهم ٣١٣ شخصاً على قلة من العدة والعدة ، على ١٠,٠٠٠ شخصاً من المشركين على كثرتها لهم .

نصرٌ وفتح :

نصرٌ يعقبه الفتح ، ليس لأن الله يريد ما دوننا شرطاً ، ولا لأن النبي والمؤمنين يريدونه دوننا تأييد إلهي ، إنما هما بينهما : استعداد بشري ، فإعداد إلهي .

نصرٌ الله : لبروز حجته وظهور برهانه ، وفتح الله للقلوب المقلوبة ، فتسحبها الله بالرسول الأقدس إذ أضواء عليها بأضواء الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولولا هذا الفتح الأول لم يكن للثاني : - دخول الناس في دين الله أفواجا - من معنى .

ثم نصرٌ ثان وفتح ثان : أن انتصر المسلمون تحت الراية المحمدية على الوثنيين المحتلين بلد التوحيد ، اضطرم للإسلام أو الاستسلام ، إسلام عن حجة مسبقة واستسلام عن حجة دامغة بالغة ، دون أن يكون هناك إكراه في الدين :

(١) الدر المنثور ٦ : ٤٠٦ ، أخرجه الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي سعيد الخدري قال : ... والأحاديث مستفيضة أن سورة النصر كانت سورة النعي ، وكما أخرج الخطيب وابن عساكر عن علي (ع) قال : نعى الله لنبيه (ص) حين أنزل عليه : إذا جاء نصر الله والفتح ، سنة ثمان بعد مهاجرة رسول الله (ص) فلما طعن في سنة تسع من مهاجرة تنابح عليه القبائل تسعى فلم يدر متى الأجل ليلاً أو نهاراً ، فعمل على قدر ذلك ، فوسع السفن وشدد الفرائض ، وأظهر الرخص ، ونسج كثيراً من الأحاديث وغزا تبوك وفعل فعل مودع (ص ٤٠٧) .

« لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » وإنما الإكراه في الاستسلام : قبول الإسلام ظاهرياً لمن ليس يقبله ، رغم براهينه الساطعة : « وجعلنا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » .

.. فهذه تهمة ووقاحة من أعداء الإسلام : أنه دين السيف والقوة ، وليس دين الحجة ، لا شيء إلا أن رسول الإسلام دافع عن نفسه وأنفس المؤمنين بالقوة ، ابتداءً من الهجرة ، بعد أن ذاق وذاق المسلمون المهاجرون ألوان الأذى والبلاء طوال ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة .

إنه دافع كما يجب إنسانياً وفي الشرائع الإلهية ، وكما النبيون أجمع أمروا بالجهاد ، فعنهم من وجد أنصاراً كموسى وداود وسليمان وشعيب ويوشع (ع) وأضراهم ، إذ حاربوا حروباً دامية^(١) ، ومنهم من لم يجد أنصاراً رغم استعدادهم للحرب كالسيد المسيح (ع)^(٢) .

(١) كما في سفر الاعداد ٣١ : ٧ - ١٧ والثنية ٢ : ٢٤ - ٣٤ و ٢٠ : ١ ، ٢ ، ٥ ، ٨ ، ١٠ ، ١٤ و ٢١ : ٢٤ وسفر الخروج ١٧ : ٨ - ١٦ .. وأغلب الفصول من كتاب يوشع ، وأول تواريخ الأيام الفصل ٢٧ والتكوين ١٥ : ١٨ .

(٢) السيد المسيح والحرب : ففي إنجيل متى الفصل ١٠ ، الآية ٣٤ : « لا تظنوا أنني جئت لألقي سلاماً على الأرض . ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً » .

وفي لوقا (١٢ : ٤٩ - ٥٠) : « جئت لألقي ناراً على الأرض . فهاذا أريد لو اضطرمت . ولي صبغة أصطبغها وكيف أنحصر حتى تكمل . أنظننوا أنني جئت لأعطي سلاماً على الأرض ؟ كلا ! أقول لكم : بل انقساماً » .

وفي لوقا (٢٢ : ٣٦) : « فقال لهم : لكن الآن من له كيس قليلاً خذهُ ومزود كذلك ، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتري سيفاً » .

هنا وهناك يأمر المسيح بالحرب والدفاع ، ثم في الآية ٤٩ يأمر بالضرب : « فلما رأى الذين حوله ما يكون قالوا : يا رب ! أنضرب بالسيف ؟ وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى .. » .

وهكذا نرى السيد المسيح كيف استعد للحرب الدفاعية ، وقد فشل إذ فشل أنصاره ، فناموا بدل أن يقوموا بالسيف ! .

« ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا » :

فهل إنهم كل الناس؟ هذا خلاف الواقع الملموس، وإن كان يوافق عموم اللفظ! أم إنهم الذين عرفوا الدعوة فحق لهم أن يصدقوها؟ فكذلك الأمر، أم إنهم المؤمنون فحسب؟ وهذا لا يلائم عموم اللفظ « الناس » !

أقول : رباط الدخول في الإسلام بالفتح يوحى أنهم الذين عرفوا الإسلام ثم كملت معرفتهم بالفتح، بما أنه كان من ملاحم الغيب، وقد صدق به وعد الله، ثم الذين آمنوا منهم هم الناس، والذين لم يؤمنوا وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم فهم النسناس، فقد « سئل الحسن بن علي (ع) من الناس؟ فقال : نحن الناس، وأشياعنا أشباه الناس، وأعداؤنا النسناس، فقبله علي (ع) بين عينيه وقال : الله أعلم حيث يجعل رسالته » :

« في دين الله » هل إن سائر الأديان الإلهية ليست دين الله؟ فكيف يُعتبر دخول غير المسلم في الإسلام دخولا في دين الله، الموحى أنه خروج عن غير دين الله، أو دين غير الله؟ .

الجواب : أن الداخلين في الإسلام حينذاك كانوا بين مشرك لم يكن في دين الله، وبين كتابي لم يكن يلتزم بدين الله، إذ إن الإسلام لله والتسليم له يقتضي رفض السابق وإن كانت من شريعة الله، والاعتناق باللاحق بما أمر الله، ف« إن الدين عند الله الإسلام » ولا معنى للإسلام بعد نزول شريعة القرآن إلا اعتناقه ورفض ما سواه، مهما كانت من الشرائع السابقة .

وإضافة إلى كل ذلك فإن الشريعة الأخيرة الخالدة كانت هي الهدف الرئيسي من الرسات قبلها، فلم تكن السابقة عليها إلا كتهيئة لها، فحق لها أن تعتبر كأنها هي الدين لا سواه، وأن رسوله هو الرسول لا سواه^(١) .

(١) راجع كرامتنا « وحدة الدين واختلاف الشرائع » وكتابنا « المقارفات » .

« أفواجاً » : جماعات كثيرة تاتى متسابقين ، ففسد كانت القبيلة تدخل بأسرها ، بعدما كانوا يدخلون واحداً واحداً واثنين اثنين . وعن جابر بن عبد الله « أنه بكى ذات يوم ف قيل له : ما يبكيك ؟ فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول : دخل الناس في دين الله أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً » .

هكذا دخول في الإسلام دليل قاطع لا مرد له ، على مدى وضوح البراهين الإسلامية لحديث قلسابق أفواج الناس لتصديقه ، ثم ليس خروج من يخرج إلا للمغريات التي تغرهم ، والمضيلات التي تضلهم ، أو خروجاً عامداً للتضليل وكما كان دخوله للادغال والتدجيل .

« فسيح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » :

هنا يتعدد شأن الرسول الأقدس ﷺ ومن معه ، بإزاء تكميم الله لهم ، وإكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم : أن شأنه ومن معه هو الاتجاه إلى الله ، أن يسبحوا الله بحمده ويستغفروه في لحظة الانتصار .

التسبيح بالحمد على ما أولاهم من منته : أن جعلهم أمناء على دعوته ، حراساً لدينه ، وعلى ما أولى البشرية كلها من رحمة بنصره لدينه ، وفتحته على رسوله ، ودخول الناس أفواجاً في هذا الخير الفائض العميم ، بعد العمى والضلال والخسران القديم .

التسبيح بالحمد ، لا التسبيح والحمد ، كل على حدة ، ولا كل دون سواء ، لأن التسبيح يعني الناحية السلبية من صفات الله تعالى ، والحمد : الناحية الإيجابية : (الصفات السلبية والثبوتية) .

فلو حمدناه دون تسبيح وتنزيه عما هو منزّه عنه ، لكننا خاطئين في حمده من جهات عدة ، منها : أن الحمد يحمل الإثبات ، والثابتات من الذوات ومن الصفات حسب ادراكنا ليست إلا حسب مقدرتنا من الإدراك ، وهي محدودة من ناحية ،

وهي مشبهة له تعالى بخلقه من أخرى « فسبحان الله عما يصفون » . إلا عباد الله المخلصين » (٣٧ : ١٦٠) . فإنهم لا يصفونه إلا كما وصف به نفسه .

ولو سبّحناه دون تحميد الخليل إلينا أنه المنفي الذات والصفات لأنسنا الدائب بالذوات والصفات التي نعيشها ، فإذا نسلبها عن ذاته تعالى فكأننا سلبنا عنه كل كيان موجود .

فما أنه « خارج عن الحدين : حد الإبطال وحد التشبيه » علينا أن نسبحه بحمده :

١ - نسبحه وننزهه عنه تعالى ذوات الكائنات وصفاتهم ، بحمدنا له في ذاته وفي صفاته ، وهنا تصبح كافة الكائنات من صفاته السلبية .

٢ - ونسبحه عن تفسير أسمائه الحسنى وصفاته العلى بالمعاني التي نعرفها ونأنسها ونتصف نحن بها ، فلا نعني من أنه تعالى : « عليم قدير حي » ما نعنيه من مفاهيم ومعاني فينا ، بل تسبيحاً بحمده : أنه لا يحمل ولا يعجز ولا يموت ، عليم لا علمنا ، وقدير لا كقدرتنا ، وحي لا كحياتنا .

فنحن ومعنا كافة الخلائق ، حيناً نحمد ربنا ونصفه ، لا ندرك جهة ثبوتية له تعالى ، وإنما سلبات نأنسها ، ولكن السلب قد يكون بلغة السلب ويعني واقع السلب ، كما في الصفات السلبية : « لا مركب ولا جسم ولا مرئي ولا له زمان ولا له مكان ولا له حد ولا له أول ولا له آخر ولا .. » .

وقد يكون السلب بلغة الإثبات : « عليم قدير حي .. » ويعني واقع الإثبات (تسبيح بالحمد) دون أن ندرك منه إلا سلب ما يحق سلبه عنه : « اللاعلم واللاقدرة واللاحياء » في حين أننا نسلب عنه صفاتنا هذه أيضاً : ليس له علمنا ولا قدرتنا ولا حياتنا ، إذ إنها صفات لا تتناسب وذاته القدسية .

« فسبح بحمد ربك واستغفره » .. التسبيح بالحمد والاستغفار هما تقديسه والاعتراف برؤيته كما يحق ، ثم التماس الغفران منه .

و « استغفره » : فهل هو من العصيان والنبي ﷺ معصوم من العصيان ، مطهر من الأرجاس كلها كما طهره ربه ! « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » ... كلا لا عصيان في ساحة النبوة القدسية حتى يكون الاستغفار عنه ، ولا يختص الاستغفار بحالة العصيان لكي يضطر إلى التأويل ، فإنما الاستغفار من الغفر وهو الستر ، فهو التماس الغفر والستر ، إما عن عارٍ وعورةٍ العصيان ، والنبي معصوم عن العصيان ! وإما عما سواه من ملابسات لا يخلو عنها أي إنسان :

١ - من التقصير أو القصور في حمد الله وشكره ، فجهد الإنسان - مهما كان - ضعيف محدود ، وآلاء الله دائمة الفيض والهملان : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .. فمن هذا التقصير يكون الاستغفار ، وإن كان من القصور الذاتي ، دون عصيان الرسول الأقدس ﷺ كما يقول : « ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك » .

٢ - والاستغفار من الخلط بالناس الذي يلزمه الغبار على القلب ، وإن كان واجباً رسالياً من حيث التوجيه ، ولكنه يلزمه غفلة ما عن ساحة الربوبية ، ولذلك نراه ليلة المعراج حيناً عرج عن الكائنات واستغفل عنها ، أصبح من قرب ربه معنوياً « قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى » .

٣ - والاستغفار طلب الغفر والستر من بأس الأعداء : شياطين الجن والإنس ، وقد غفر الله لنبيه كذلك بما فتح له مدينة التوحيد مكة المكرمة ، كما وعده وجعله من أهداف الفتح : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليفخر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر .. » : ليستر لك الله من ذنبك عند المشركين ، إذ كانوا يتربصون بك الدوائر ليقتلوا عليك ، فستر الله وغفر عنه بأسهم بما فتح له أم القرى .

٤ - والاستغفار للملابسات نفسية كثيرة دقيقة لطيفة المدخل : من الزهو الذي قد يساور القلب ، أو يتدسس اليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح ، وفرحة

الظفر بعد طول العناء ، وهو مدخل يصعب توقّيه في القلب البشري ... وقد غفر الله له حين الفتح هذا الزهو وسره عليه .. فتراه إذ يدخل مكة فاتحاً منتصراً ، مكة التي آذته وأخرجته وحاربتة ووقفت في طريق الدعوة تلك الوقفة العنيدة .. تراه يدخلها منحنياً لله شاكراً على ظهر دابته ، ناسياً فرحة النصر وزهوته ، عفواً رحيماً لا ينتقم .. فالمغفرة هنا تضمن عدم الطغيان على المهزومين المغلوبين ، ليرقب المنتصر فيهم ربه ، فهو الذي سلطه عليهم ، تحقيقاً لأمر يريده ، على عجزه (ص) ، فالنصر نصره تعالى ، والفتح فتحه ، والدين دينه ، وإلى الله تصير الأمور .

« واستغفره إنه كان تواباً » : يتوب ويرجع على عباده بالرحمة والمغفرة ، لا بكل عباده المتوكلين عليه إلى أنفسهم ، وكما في دعاء الرسول ﷺ : « ربنا لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً » .

أجل ، وإن الإنسان - أياً كان - لا يستغني عن قوة ربه عليه وتأيد له .. فعبثاً يحاول الانطلاق، والتحرر وهو مشدود إلى ذاته ، مقيد برغباته ، مثقل بشهواته .. عبثاً يحاول ما لم يتحرر عن نفسه ويتجرد في لحظة النصر والغنى من حظ نفسه لينذكر الله وحده .

وهذا هو الأدب الذي اتسمت به النبوة دائماً ، يريد الله أن ترتفع البشرية إلى آفاقه ، أو تتطلع إلى هذه الآفاق دائماً .

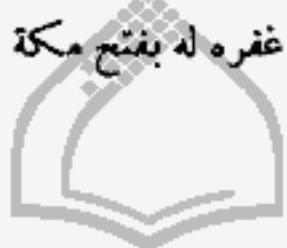
« انه كان تواباً » : راجعاً إلى عبده بالرحمة بعدما يرجع إليه العبد بالمعذرة ، فتوبة العبد مخوفة بتوبتين من الله: توبة أولى هي أن يوفقه الله للتوبة لكي يتوب « ثم تاب عليهم ليتوبوا » وتوبة ثانية من الله هي قبول توبة العبد : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوءَ بجهالة ثم يتوبون من قريب » (٤ : ١٧) .

هـ - والإستغفار بمعنى الدفع عن حملة العصيان ، لا رفعه بعد وقوعه ، كما المغفر في الحرب لأجل الدفع عما ربما يوجه إلى الجندي من الأخطار ، كذلك

الرسول الفاتح عله يحمه ما نقموا منه على الإنتقام ، وهو مسموح له اعتداءً
بالمثل ، إلا أن موقف الرسالة يجب أن يكون موقف الرحمة للعالمين ، فليستغفر
الرسول ربه حالة الفتح ، لكي يسدده عن حملة الإنتقام ويغفر له ما يحمه
على ذلك .

٦ - والإستغفار عله هنا للمؤمنين الفاتحين ، إذ النص « واستغفروه »
لا « استغفروه لذنبك » .

٧ - واستغفاره عن ذنبه وغفران الله له عن ذنبه كما في آية الفتح ، لا يعني
إلا الحفاظ عليه من بأس المشركين ، فإن الذنب لغوياً هو الذي يستقطع عقباه ،
فإن كانت عقبي الدنيا فالذنب من أفضل الطاعات ، وإن كانت عقبي الآخرة
فالذنب من أشر المعاصي ، ولقد غفر الله تعالى ذنب الرسول : عقبي الدنيا الهاجمة
عليه من قبل المشركين ، غفره له بفتح مكة ، إذ لم يجرم المشركون بعد ذلك
أن يؤذوه أو يقاتلوه .



مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

□□□□

﴿ سورة اللهب - مكة - وآياتها خمس ﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ^١
 مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ^٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ^٣
 وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ^٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ^٥ . »

* * *

هذه السورة تفنتد القومية والقرابة اللتين لا تحملان الإيمان ، فلا قيمة لهما في الإسلام ، وفيها إذا اعتبرنا ذريعة للصد عن سبيل الله ، فالقرآن يعاديهما ويعلم ريفها وانحرافها ، ففي الحديث : « إن ولي محمد ﷺ من وإلى الله ورسوله وإن بعدت لخطته » ، وإن عدو محمد ﷺ من عادى الله ورسوله وإن قربت لخطته ، ومن الشواهد القرآنية على ذلك ابن نوح وامراته وامرأة لوط ، فلا حرمة ولا كرامة لأي قريب إلى الرسول ما لم يحمل الإيمان ، فعهرته على قدر ما يحمل من الإيمان ويعمل من الصالحات .

وأبو لهب^(١) هذا عم النبي ﷺ ومن زعماء قريش ، لكنه وامراته معه ،

(١) ٠٩ : هن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (ص) : بعثت ولي أربع عمومة ، فأما العباس فيكنى بأبي الفضل ولولده الفضل إلى يوم القيامة ، وأما حمزة فيكنى بأبي يعلى فأعلى الله قدره في الدنيا والآخرة ، وأما عبد العزى فيكنى بأبي لهب فأدخله الله النار وأهلبها عليه ، وأما عبد مناف فيكنى بأبي طالب فله ولولده المطولة والرفعة إلى يوم القيامة .

كانا من ألد أعداء النبي والدعوة الإسلامية ، يحسدان كافة طاقاتها في سبيل تشويه سمعة النبي الأقدس ويعارضانه وجهاً بوجه ، ولقد اتخذ أبو لهب موقفه هذا من الرسول الأقدس ﷺ منذ اليوم الأول للدعوة ، لكيلا تنمو ، ولتخبو وراء الستار فتُدفن ! وكون أبي لهب عمًا للنبي ﷺ وأنه من زعماء قريش ، وأن بيته كان قريباً من بيته ، هذه كلها جعلت أذاه على النبي أشد .

يقول ربيعة بن عباد الديلمي : إني لمع أبي - رجل شاب - أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ، ووراءه رجل أحول وضيء الوجه ذو جمة ، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول : يا بني فلان إني رسول الله آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به ، وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه : يا بني فلان ! هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقمس ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه ، فقلت لأبي : من هذا ؟ قال : عمه أبو لهب (١) .

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى يا صباحاه ، فاجتمعت إليه قريش ، فقال : أرايتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ تباً لك ، فأنزل الله ثبّت يدا أبي لهب (٢) .

(١) رواه الإمام أحمد بهذا اللفظ .

(٢) الدر المنثور ٤ : ٨٠٨ ، وفيه عن ابن عباس قال : لما نزلت « وانذر عشيرتك الأقربين » خرج النبي (ص) حتى صعد الصفا فهتف : يا صباحاه ! فاجتمعوا إليه ، فقال : أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفع هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تباً لك إنما جمعتنا لهذا ، ثم قام ، فنزلت هذه السورة .

وزوجته أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان كانت تحمل الشوك فتضعه في طريق النبي ﷺ ، وكانت تمشي بالنميمة ضد النبي الأقدس ، وتوري نيران العداوة والبغضاء ضده ﷺ إلى أن نزلت هذه السورة للقضاء على هذه الدعايات الفاتكة ضد الدعوة الإسلامية ، وتشهير المضلين الذين كانوا يؤثرون على الناس ، فلما سمعت السورة جاءت إلى المسجد فلم تر النبي وهو جالس وأخذت تقول : مذمماً (تريد محمداً ﷺ) أبينا ودينه قلوبنا وأمره عصينا .

وكان من عظيم خطر أبي لهب ضد الدعوة الإسلامية أنه كلما جاء وفد إلى النبي يسألون عنه عمه أبا لهب - إعتباراً بكبره وقرابته وأهميته - كان يقول لهم : إنه ساحر ، فيرجعون ولا يلقونه ، فأناه وفد فقالوا : لا ننصرف حتى نراه ، فقال : إننا لم نزل نعالجه من الجنون فتبأ له وتعباً .

فهذا نموذج من نماذج كيد أبي لهب على الدعوة الإسلامية ، هو وزوجته ، في عونته في هذه الحملة الدائبة ، يثيران حرباً شعواء على النبي وعلى الدعوة الإسلامية ، لا هوادة فيها ولا هدنة .

تنزل هذه السورة مصرحة بهما وبكيدهما ، رادة على هذه الحرب المعلننة منها ، وتولى الله عن رسوله ﷺ أمر المعركة ، فلم يكذب يسمع اليها الوفود بعد تشهيرهما هكذا .

« تبت يدا أبي لهب وتب » :

آية قصيرة في مطلع السورة ، فيها تصدر الدعوة وتحقق وتنتهي المعركة ويسدل الستار .

أبو لهب إسمه عبد العزى ، كره الله أن يذكره باسمه كرهًا لمعنائه ، فأبدل به من كناه هذا ، لكي يدل على التهايه ضد الدعوة ليحرق صالح الإنسان ، فهو لهيب النار كالجحيم : لا تبقي ولا تذر ، لا شأن لها إلا بالإحراق ، بل إنه أبو لهب : أبو الإحراق .

والآية تشير أن ذاتيته النارية المحرقة لا تحرق إلا نفسه ، في الدنيا وفي الآخرة ، دون أن يقدر على إطفاء نور الله ، فאלله متم نوره ولو كره الكافرون .

تبت يداه : استمرت طاقاته تماماً في الخسران ، فما كيده إلا في تباب .

فاليدان هنا - وفي كثير مثله - يُعنى بهما كافة الطاقات ، فقد تصرفان للخير فيها مباركتان ، وقد تصرفان للشر فهما مبتورتان متبوتتان ، وبما أن التَّبَّ لغوياً هو الإستمرار في الخسران ، فالآية تشير إلى الإستمرارية الخاسرة للطاقات التَّهْيِيَّة ، أنها خاسرة ترجع بالخسار إلى أبي هب ، دون أن تكون نخسرة للدعوة الإسلامية ، إلا زمناً ما : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

فمن الخاسرين من يخسر دنياه دون عقباه ، كالمؤمنين المضطَّهدين ، ومنهم من يخسر عقباه دون دنياه ، كالكافرين المترفين المرححين الفرحين ، ومنهم من يخسر الدارين كأمثال أبي هب ، يُتعب نفسه في دنياه في حسد دائم وحسرة دائمة ، ثم ينتقل في عقباه إلى عاقبة أسوأ ، وإن تباب أبي هب جمع بين العقيدة والقول والعمل .

وقد تكون اليدان هنا كناية عن قوة الجذب والدفع ، الإيجاب والسلب ، والدين والدنيا ، والدنيا والآخرة ، اليد غير المرئية ، وهي الطاقات الروحية ، واليد المرئية وهي الأعمال الجسدانية ، والآية تتحمل الكل ، فقد تبت يداه عن كل نتاج صالح بالنسبة لهذه النواحي الحيوية إطلاقاً ، فلم يحصل إلا خساراً دائماً وبواراً دائماً .

« وتب » : تب هو : تبت ذاته ، كما تبت يداه ، فتباب الأعمال هكذا تنتج عن تباب الذات على قدره ، فذات الإنسان وأعماله يتعاكسان مع بعض في التأثير ، فمكاسب السوء تؤثر ريناً في القلب : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » ثم تزداد مكاسب السوء من جرّاء الإزدياد في رين القلب

إلى حيث لا يكاد يقبل صاحبه النصيحة: « إن الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » (٢ : ٧) .

فرّين القلب وختمه ليسا إلا من جراء مكاسب السوء الاختيارية للإنسان، فقد خلقه الله تعالى - إذ خلقه - مؤمناً ذا فطرة نيرة موحدة : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٣٠ : ٣٠) .

وفي تقدم تباب اليمين على تباب الذات إيحاءٌ لطيف إلى أن ذاتية الإنسان ليست شريرة خلقياً ، وإنما من جراء الأعمال غير الصالحة ، ولا سيما للعامدة ، « تبت يداه وتب هو » ، الله يترك هكذا إنسان في غيّه يتردى « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » (٦١ : ٥) .

وكما عرفناه ليست الآية دعاءً من الله على أبي لهب ، إنما هو إخبارٌ عن واقعه الشائن ، فيمن يلمس ربنا لتباب أبي لهب ؟ أرمن نفسه أم من إله سواه فوقه ؟ ! فهذا الرأي من بعض المفسرين مسّ من كرامة الربوبية دون أن يعرف المفسر ماذا يرجع بقوله ، وإنما تقليداً عن أضرباءه .

« ما أغنى عنه ماله وما كسب » :

لقد تبت يداه وهلكتا ، وتب هو وهلك ، فلم يغن عنه ماله وسعيه ، ولم يدفع عنه الهلاك والدمار : لا ماله : الذي ورثه أو كسبه ، ولا ما كسبه بما له وبما له من طاقات عقلانية وجسدانية ، ولا ما كسبه من أولاده ، فبدل أن تغنيه هذه المعطيات ، أخسرت وجعلته في تباب من أعماله ومن ذاته .

« سيصلى ناراً ذات لهب » :

فأهل النار - في تقسيم مختصر أوّل - على طائفتين : خالدين فيها غير خارج

عنها ، ودخل فيها خارج عنها بعد زمن قريب أو بعيد ، فالحال الذي يصلي النار ، أي : يوقدها ، وغيره يصطلي بها ويتوقد منها ، فالذات التي هي تباب كلها ، والأعمال التي هي في تباب كلها : إنها حصص جهنم وحطبه ، ليس للنار وقود إلا هذه الذوات الشريرة العاتية ، كما القرآن يصرح به كذا وقود في آيات عدة .

« سيصلي ناراً ذات لهب » كما كانت ذاته لهباً ، وأعماله وأفكاره لهباً : « لا تبقي ولا تذر لواحدة للبشر » حينما كان في الحياة الدنيا ، وإن كان لهيبه خافياً - حينذاك - عند الجاهلين .. كذلك يوم الجزاء ، فيظهر لهيبه في منظر النار التي تحرق نفسه وتحرق غيره ، يصلي النار ويصطلي به غيره ممن كان يتابعه في كفره وفساده ، فرعاً طبق الأصل جزاءً وفاقاً ، فما النار يوم الجزاء إلا صورة واقعية عن واقع الإنسان في حياة التكليف يوم الدنيا ، وإن كان في غفلة من هذه النار يومها^(١) .

« وامراته حمالة الخطب » :

وقبت يدا امراته وقتت نفسها كتابه سواء ، إذ ساعدته وسيرته في تهريج موقف النبي والعداء السافر ضد الدعوة الإسلامية .

يذكر هنا من صفاتها السيئة : « حمالة الخطب » حال أنها ما كان شغلها حمل الخطب كتاجرة وعاملة ، وليس العمل - أي عمل - مذموماً في الإسلام ، لكي يؤنب به العامل ، فما كان العمل حلاً لكسب به المعيشة فهو حلال ، وهو من العبادات .

(١) لقد سبق طرف من البحث حول اذمكاسات الأعمال في سورتي الزلزال والقارعة وتجد تفاصيل أخرى في غيرها .

وأما إذا اتخذ العمل ذريعة للإفساد فلا أفسد منه ، كما كانت أم جميل امرأة أبي لهب تحمل الشوك والخطب وتضعها في طريق الرسول ﷺ لكي تؤذيه ، وعلتها توقعه فتؤلمه ﷺ وتحطّ من كرامته .

وكما كانت تمشي بالنميمة عامة ، وضد الرسول ﷺ خاصة لتهريج موقفه ، والنميمة من شر الأخطاب ، إذ إن الخطب يحرق الإنسان وماله ، والنميمة تحرق عليه عيشه ودعوته وحياته ، وتحرق المجتمع الإنساني .

وكما كانت تلدغ بلسانها النبي الأقدس فتذمه وتعيّره بالفقر أو السحر والجنون ، تليذة لزوجها ، فرعاً طبق الأصل .

فكانت بذلك كله ، تحمل مختلف ألوان الخطايا والآثام ، فهي إذاً حمالة الخطب لا حاملته ، حمالة لكثرة مزاولتها لجهلها ، وأنها استغرقت حمل كافة ألوان الأخطاب لتحرق على الرسول دعوته ، فهي لهبة كما زوجها لهب « ظلمات بعضها فوق بعض » .

« في جيدها جبل من مسد » : بيز علوم ردي

المسد هو الليف : فهل هو هنا جبل من ليف النخل ، أم جبل من ذهب شبه بالليف ؟ أم جبل الشيطان يقودها حيث يشاء ؟

إن حمل الخطب بحاجة إلى ليف يشد به ، فلكل نوع من الأخطاب ليفه المناسب له .

فحملها للأشواك لتلقيها في طريق الرسول ﷺ ، كان بليف من النخل ، وحملها بالنميمة والتهمة ضد الرسول كان بجبل من الشيطان في عنقها ، وحملتها على الرسول وتعييرها إياه كانت بدافع ثروتها التي اعتزت بها ، ولكن الذهب ما

كانت لترفع من شأنها كما الليف من النخل ، فما أغنى عنها مالها وما كسبت ، كما لم يغن زوجها ، فحكم العقد الذهبي في جيدها كحبل من مسد سواء ، فإن الحيوان حيوان ما لم يحمل صفات الإنسان ، وإن لم يحمل على ظهره ثياب الإنسان الفاخرة ، والإنسان إنسان ما حمل صفات الإنسان وإن لم يحمل من ثياب الإنسان وزخرفات الحياة شيئاً .

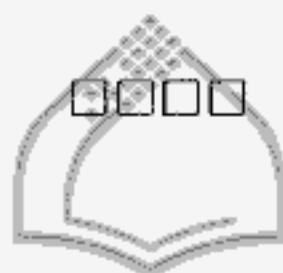
إذا فحق التعبير عما كانت تعلق في جيدها : أنه حبل من مسد ، بكل مصاديقه : حبل الأشواك ، وحبل الشيطان ، وحبل الذهب !

إنه : حين انتشرت هذه السورة - وما تحمله من تهديد ومذمة وتصوير زري لأم جميل خاصة ، تصوير يثير السخرية من امرأة معجبة بنفسها ، مدللة بحسبها ومالها ونسبها ، ثم ترسم لها هذه الصورة « حمالة الخطب » في جيدها حبل من مسد » - .

حينها استنفرت ونهضت بأكثر مما كانت ضد الرسول ﷺ فقد يروى عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت : لما نزلت هذه السورة أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر : (حجر قدر ملاء الكف) وهي تقول : مذمماً أبينا ودينه قلوبنا وأمره عصينا ، والنبي ﷺ جالس ومعه أبو بكر . فقال له (ص) أبو بكر : لو تنحيت لا تؤذيك بشيء ، فقال رسول الله (ص) : إنه سيحال بيني وبينها ، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر فقالت : يا أبا بكر ! هجانا صاحبك ، فقال أبو بكر : لا ورب هذه البنية ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به .. فلما ولت قال أبو بكر : ما رأيك ؟ قال (ص) : لا ! ما زال ملك يسترني حتى ولت ، وروي عنه (ص) أنه قال : صرف الله سبحانه وتعالى عني ، ثم لمنهم يذمون مذمماً وأنا محمد ^(١)

(١) نور الثقلين ج ٥ ص ٦٩٨ ح ٦ .

إنها قالت وتقولت فزالت عن الوجود بما حملت ، ولكن الصورة الزرية
المثيرة للسخرية التي شاعت في هذه الآيات عن هذين الزوجين ، قد سجلت في
الكتاب الخالد ، وسجلتها صفحات الوجود أيضاً ، تنطق بغضب الله وحربه لأبي
لهب وزوجته وحزبه ، جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله جزاءً وافقاً ، ألا
فاعتبروا يا أولي الأبصار .



مركز تحقيق كتابي علوم إسلامي

﴿ سورة الإخلاص - مكة - وآياتها أربع ﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ^١
اللَّهُ الصَّمَدُ^٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ^٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ^٤ » .

* * *

هذه السورة تحمل إجابة وافية عن كافة الأسئلة التي تدور حول توحيد الله وسواه ، من الحقائق المعرفية الإلهية ، على قلة آياتها .

يأتيه عليه السلام قادة الأحزاب الخمسة : الماديون ، المشركين ، الثنوية ، اليهود ، النصارى يسألونه أن ينسب ربه كما ينسبون^(١) فتنزل سورة الإخلاص مجيبة عن متطلباتهم ، قارعة أسماعهم بقوارع بوارع من آي التوحيد ، هي نماذج شاملة عن قرآن التوحيد ، وكما عن باقر العلوم عليه السلام : « إن الله عز وجل علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل هذه السورة »^(٢) ، ولأنها عميقة أنيقة على اختصارها تعتبر يوحدتها ثلثاً من القرآن^(٣) والإنجيل والتوراة ، توحيداً خالصاً جامعاً في الديانات الثلاث .

(١) الدر المنثور ٤٠٩:٦-٤١٢- أخرجه عن جماعة من أرباب السنن بصور متفرقة .

(٢) وفي أصول الكافي بالإسناد عن علي بن الحسين زين العابدين (ع) مثله: سئل عن التوحيد فقال: إن الله عز وجل علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل الله تعالى : « قل هو الله أحد » والآيات من سورة الحديد « هو الله الذي لا إله إلا هو » إلى قوله « علم بذات الصبور » = (٣) الدر المنثور ٤١١:٦ عن أبي بن كعب قال، قال النبي (ص) من قرأ قل هو الله أحد فكأنما

إنها تتضمن أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة التوحيد قرآنياً ، ولأعمق ما بالإمكان أن ينزل من وحي السماء بشأن التوحيد ، جارفة كافة التصورات الباطلة من وحي الأرض وإنسانها وشيطانها حول الكيان الإلهي .

إنها إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية ، كما أن سورة « الكافرون » سلب لأي تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وخرافة الشرك ، وهما توضحان كلمة التوحيد الشاملة لكل السلب والإيجاب : « لا إله إلا الله » التي تصف الله تعالى في مختلف الآيات التي تحويها كالتالية :

« لا إله إلا الله - الرحمان الرحيم » (٢ : ١٦٣) « الحي القيوم » (٢ : ٥٥) « العزيز الحكيم » (٣ : ٦) « خالق كل شيء » (٦ : ١٠٢) « له الأسماء الحسنى » (٢٠ : ٨) « رب العرش العظيم » (٢٧ : ٦) « وسع كل شيء علماً » (٢٠ : ٩٨) « فادعوه مخلصين له الدين » (٤٠ : ٦٥) « يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين » (٤٤ : ٨) « عالم الغيب والشهادة هو الرحمان الرحيم .. الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر » ، هو الله الخالق الباري المصور له الأسماء الحسنى يسبح له من في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، (٥٩ : ٢٥) - « ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون » (٤٠ : ٦٢) .

فكلمة التوحيد هذه ، القيمة ، المنقطعة النظير بين كلمات التوحيد ، تجمع بين السلب والإيجاب : سلب الألوهية عما سوى الله بما لها من صفات وأفعال ، وإيجابها لذات واحدة جامعة لكافة الصفات الكالية ، على وجه الحصر الحقيقي ، في ذات واحدة قيومة سرمدية .

فالله تعالى حسب الأوصاف المسبقة في كلمة التوحيد : واحد في كونه :

= فمن رام وراء ذلك فقد هلك ، والحديث الثاني - أنها ثلث القرآن - تحده في نفس المصدر ص ٧٠١ ح ١٩ بإسناده إلى ابن بصير عنه (ع) .

رحماناً - رحيماً - حيّاً - قيوماً - حكيماً - خالقاً - عليماً - محيياً -
مميئاً - ملكاً - سلاماً - مؤمناً - مهيمناً - عزيزاً - جباراً - متكبراً - له
العرش وله الأسماء الحسنى .

كما وأنها تسلب عنه تعالى ما يقتنافي وكيان الألوهية ذاتاً وصفات وأفعالا :
واليك تفسيراً مختصراً لسورة التوحيد :

« قل » .. أظهر كما 'تضمير' (١) في جواب الضالين التائبين عن معرفة الله ، في
جواب الناكرين لوجوده ، والمشركين بعبادته ، والمثلثين إياه والمتبئين عليه :
قل : مقالة عاقلة تقضي على الأفكار الضالة العالقة بالأذهان : إن إلهي يختلف عن
إلهكم وألهتكم تماماً .

إنها سورة تبرز المعاني التي تسمت بأسمائها ، وبألفاظها من أسماء سامية سميتها
بسماتها :

إنها سورة : التفريد ١ ، التجريد ٢ ، الإخلاص ٣ ، التوحيد ٤ ، الولاية ٥ ،
النجاة ٦ ، النسبة ٧ ، المعرفة ٨ ، الجمال ٩ ، المقشقة ١٠ ، المعوذة ١١ ،

(١) الأمر بالقول هنا يرمز لأمر عدة : منها ان الرسول لا يقول إلا عن الوحي وبالوحي
وإن كان عنده جواب حسب العقلية البشرية ، فإنه إذاعة وحي السماء حتى في قوله « قل » ،
ومنها أن القول إبراز ما في الجنان باللسان ولا بد أن تبرز عقيدة التوحيد بكافة وسائل الإبراز ،
ولسكي يعرف الموحد بعقيدة التوحيد بين جماهير المشركين ، ومنها وجوب الدعوة إلى التوحيد ،
دون اكتفاء بالعقيدة القلبية البارزة ، فاتها لا بد أن تبرز وجهة الضالين ، الناكرين توحيد الله ،
بروزاً بالحجة البالغة الدامغة كما تراها في هذه السورة ، وبشير إلى ذلك الحديث التالي :

التوحيد عن أبي عبد الله (ع) عن أبيه الباقر (ع) في قول الله تعالى : « قل هو الله أحد »
قال : قل - أي : أظهر ما أوحينا إليك ونبأك بتأليف الحروف التي قرأناها لك لتهدي به من
ألقى السمع وهو شهيد .

الصمد ١٢ ، الأساس ١٣ ، المانعة ١٤ ، المحضرة ١٥ ، المنفردة ١٦ ، البراءة ١٧ ،
المذكورة ١٨ ، النور ١٩ ، الأمان ٢٠ (١) .

« قل هو الله أحد » :

إنه تعالى : « هو » لا هذا ولا ذاك ولا ذلك ، ولا هـ ولا هم ..
ولا أي مشار إليه بالاشارة الحسية أو العقلية أو إشارة التنبيه والجمع فـ « هو » محبوب
لأبعد أغوار الحجب ، احتجاباً لا يرجى معه ظهوره في أي من العوالم ، ولأي
من العالمين ، فهو لا يدرك بأيّ من وسائل الإدراك : « لا تدركه الأبصار وهو
يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (١٠٣ : ٦) .

إنه الإحتجاب التام عن الحواس والعقول والأوهام : « لا يُحَسُّ ولا يُحَسُّ
ولا يُحَسُّ ولا يدرك بالحواس الخمس » .

فـ « هو » (هنا) اسمٌ يرمز به إلى حقيقة مرموزة ، كنهه في غاية الخفاء ،
وهويته تختلف عن سائر الهويات ، وعلى حد تعبير باقر العلوم عليه السلام : « هو »
اسم مكنى ومشار إلى غائب (٢) وكما في دعاء الإمام علي عليه السلام : « يا هو يا من
لا هو إلا هو .. » ، فإن « لا هوية مطلقة » غائبة باطلاق الغيب ، إلا ذاته

(١) .. هـ الولاية تعني هنا ولاية الله معرفياً وفي العبادة والطاعة ، ٦ والنجاة: من كافة ألوان
الشرك والانحراف في عقيدة الإله ، ٧ والنسبة : لأنها نسبة رب العالمين كما يمكن دركه للعالمين ،
٨ المعرفة : لأنها تحمل الغاية القصوى في معرفة الله ، ٩ والجمال: لأنها جهال الله تعالى بما تعرفه كما
يمكن ، ١٢ الصمد - لأنها لا جوف لها ولا نقص في تعريف التوحيد الالهي ، ١٣ والأساس -
لأنها أساس الدين ، ١٤ والمانعة لأنها تمنع عن الانحراف في معرفة الله وتوحيده ..

(٢) التوحيد للصدرق بإسناده إلى باقر العلوم (ع) :

.. و « هو » اسم مكنى ومشار إلى غائب ، فالهاء تنبيه عن معنى ثابت ، والواو إشارة إلى
الغائب عن الحواس ، كما أن قولك : هذا - إشارة إلى الشاهد عند الحواس - وذلك أن الكفار
نبهوا عن آلهتهم المحسوسة بحرف إشارة الشاهد المدرك ، فقالوا : هذه آلهتنا المحسوسة
المدركة بالأبصار ، فأشر أنت يا محمد إلى إلهك الذي تدعو إليه حتى نراه وندركه
ولا ناله فيه : فأنزل الله تبارك وتعالى : « قل هو الله أحد » فالهاء تثبيت للثابت ، =

المقدسة ، أجل وإنه شيء لا كالأشياء : « خارج عن الحدين ، حشد الإبطال
وحد التشبيه »^(١) ، غائب بالذات وظاهر بالآيات .

فمن المحجوبين ما هو محجوب لبعد مكانه رغم أنه محسوس ملموس ، ومنها
المحجوب لبعد زمانه : ماضياً أو مستقبلاً ، ومنها المحجوب لصغره كالذرة ، ومنها المحجوب لخلل
أو كلل في البصر ، ومنها المحجوب لعدم وسيلة إبصاره ، المناسبة له ، ومنها ومنها ..
وإن هي إلا حاضرة رغم احتجابها أو غيابها ، مشهودة في ذواتها ، غائبة
لحواجب يمكن زوالها .

ولكن الهوية الإلهية هوية مطلقة ، غيبة مطلقة لا يرجى ظهورها بالذات ،
اللهم إلا بالآيات ..

يا من هو اختفى لفرط نوره الظاهر الباطن في ظهوره
بنور وجهه استنار كل شيء وعند نور وجهه سوا فيس^(٢)

« هو » ضمير للتعريف بشأن الألوهية وليس ضمير الشأن بل هو ضمير يشير إلى أحد
تعالى ضمير : محجوب بحقيقة الغيب ، رغم ظهوره وبهوره كالشمس في رابعة
النهار ، ظهوراً بالآيات دون الذات .

« هو » من أسماء الغيب لله تعالى دلالة ومدلولاً ، إذ لا يشار به إلا إلى
الغائب ، مطلقاً أو نسبياً ، والله هو الغيب المطلق ، فلو كان الاسم الأعظم لفظياً

واللواو إشارة إلى المحجوب عن ذلك الأبصار وليس الحواس وأنه تعالى عن ذلك بل هو مدرك
الأبصار ومبدع الحواس (نور الثقلين ج ٥ ص ٧٠٨ ح ٥٥) ، والحديث الثاني نفس المصدر
ص ٧٠٠ ح ٧ هن كتاب التوحيد للصدوق وفيه أنه (ع) قرأ « قل هو الله أحد » ثم قال
مقاتله تلك .

(١) التوحيد عن عبد العظيم بن عبد الله الحسيني في عرض دينه على الإمام علي بن محمد
التقي (ع) .

(٢) من منظومة الحكيم الحاج ملاهادي السبزواري قدس الله سره .

أو أن لفظاً يدل عليه ، لكان « هو » أو أنه من أفضله ، ثم « الله » وكما في روايات عدة (١) .

« هو الله » الله تعريف ثان بالله : الاسم الأعظم الظاهر ، وهو من إله « إذ إله الخلق عن درك ماهيته والإحاطة بكيفيته ، وهو المعبود الحق لا معبود سواه .

ومن أله : تحير - عجز - سكن - فزع - أولع : إذ عجزت الخلائق عن اكتناه ذاته المقدسة ، وسكنوا إليه وفزعوا إلى ساحة قدسه ، كما عن أئمتنا المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين (٢) وإنه إسم يخصه دون سواه ، وله من هذا الإسم في مختلف اللغات : كـ « يهوه » العبراني و ..

فكما لا يشاركه تعالى في ذاته وصفاته وفي أفعاله أحد ، كذلك في إسمه : توحيد مزدوج : إسماً ومسمى : لا شريك له ، ولا إسمياً .

نجد هذا الإسم المبارك للذات المقدسة الإلهية « ٩٨٠ » مرة مكررة في آي الذكر الحكيم ، دون غيره من أسماء أو أسماء غيره ، اهتماماً بهذا الإسم الأعظم إلى مسماه .

ثم « الله » كتفسير لـ « هو » كما « أحد » تفسير لـ « الله » و « الصمد » يفسر « أحد » وباقى ألفاظ السورة تفسير للصمد .

« الله أحد » إن بين الأحد والواحد فروقاً شتى : فالأحد يفني بما لا يفني به

(١) التوحيد عن أمير المؤمنين (ع) رأيت الخضر (ع) في المنام قبل بدر بليّة فقلت له : علمني شيئاً انصرت به على الأعداء ، فقال : قل : يا هو يا من لا هو إلا هو ، فلما أصبحت قصصتها على رسول الله (ص) فقال لي : يا علي ! علمت الاسم الأعظم ، فكان على لساني يوم بدر .

(٢) التوحيد عن أمير المؤمنين (ع) : الله معناه المعبود الذي يأله قبه الخلق ويؤله إليه ، والله هو المستور عن درك الأبصار والمحجوب عن الأوهام والخطرات . وفيه عن الباقر (ع) معناه المعبود الذي أله الخلق عن درك ماهيته والاحاطة بكيفيته .

الواحد ، ولم يوصف الله تعالى بـ « أحد » إلا هنا ، وأما الواحد فكثير ، والواحد في توصيف الله يشمل كافة الوحدات الحقة في الذات المقدسة الإلهية ، وحدّات لا كثرة فيها ، وليست عن عدد ، ولا في عدد ، ولا بتأويل عدد ، ولا بعدد ، على حد تعبير الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام ، فما سوى الله لا توجد فيه وحدات إلا كهذه التي هي كثرات :

فالإنسان - مثلاً - واحد عن عدد : من الآباء والأمهات ، وعن عدد من العناصر وعن ..

وواحد في عدد : لأنه مركب من مليارات الأجزاء ، لا يتمكن أن يتحلل عنها فيتوحد في جزء لا أجزاء له ، إلا أن يتحلل عن الوجود .

وواحد بعدد وتأويل عدد ، تأويل المأخذ المسبق ، وتأويل الحال الحاضرة ، وتأويل المستقبل ، فإنه سوف يتعدد في أولاده وأحفاده الذين ينفصلون عن صلبه ، وكما كان متعدداً منبثاً في الأصلاب والأرحام وهو الآن في عدد .

ولكن الله تعالى ليست وحدته عن عدد ، لم يكن متعدداً ثم توحد ، إذ لم يولد ، ولا في عدد : لا أجزاء لذاته المقدسة ، ولا بتأويل عدد : إذ لم يلد ... إنه واحد أزلياً ، وواحد أبدياً ، وواحد ذاتياً ، وواحد صفاتياً ، وواحد أفعالياً وواحد .. وإنه أحدي كما نجده في جواب الإمام علي عليه السلام عن سؤال الأعرابي في حرب الجمل (١) فسكالتالي :

(١) التوحيد بالاسناد : ابن اعرابي قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين (ع) فقال : يا أمير المؤمنين ! أتقول : ان الله واحد ؟ قال : فحمل الناس عليه وقالوا : يا اعرابي ! أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب ؟ فقال أمير المؤمنين (ع) : دعوه ، فإن الذي يريد اعرابي هو الذي نريده من القوم - ثم قال : يا اعرابي ! ان القول في أن الله واحد على أربعة أقسام : فوجهان منها لا يجوزان على الله عز وجل ، ووجهان يثبتان فيه ، فأما اللذان لا يجوزان عليه فتقول القائل : واحد - يقصد به باب الأعداد ، فهذا ما لا يجوز ، لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد ، ألا ترى انه ككفر من قال : ثالث ثلاثة ؟ وقول القائل هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس ، فهذا ما لا يجوز عليه ، لانه تشبيه ، وجل ربنا عن ذلك وتعالى .. وأما =

١ (أحدي الذات ، إذ لا جزء له ولا أجزاء ، ولا حد ولا حدود ، فإنه مجرد عن الحدود والأجزاء ، فلا أحد إلا هو ، إذ لا مجرد حقيقياً إلا هو ، أحدية سرمدية : دون بداية ولا نهاية .

٢ (أحدي الشخص : فلا ثاني له ولا شريك .

٣ (أحدي الصفات في معنيين : أن لا مثيل له في صفاته : -

٤ (وأن صفاته عين ذاته ، إذ لا تزيد على ذاته ، لا جوهرأ على ذاته ، ولا معنى زائداً على ذاته ، ولا أية حقيقة سوى ذاته المقدسة ، فلا تعدد حقيقياً في صفاته ، ولا في ذاته وصفاته .

٥ (أحدي السرمدية : فلا أزلي سواء ، ولا أبدي سواء : هو الأول والآخر ..

٦ (أحدي في الخالقية : « هل من خالق غير الله » (٣٥ : ٣) « قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » (١٣ : ١٦) . فلا خالق سواء إلا بإذنه : « وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني » (١١٠ : ٥) : خلقاً بإذن الله دون استقلال .

٧ (أحدي في المعبودية : لا معبود سواء « فادعوا الله مخلصين له الدين » (١٤ : ٤٠) .

وأحدي في كلبأ له من ذات وأفعال وصفات ، إن صح الكل لما ليس له جزء ، ف : « هو خلوه من خلقه وخلقه خلوه منه » « لا هو في خلقه ولا خلقه

= الوجهان اللذان يثبتان فيه ، فقول القائل : هو واحد ليس له في الاشياء شبيهه ، كذلك ربنا ، وقول القائل : انه ربنا عز وجل أحدي المعنى ، يعني انه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم ، كذلك ربنا عز وجل .

فيه « » « بآين عن خلقه بيزونة ذات وصفة ، لا بينونة عزلة : « في علم وقدره »
(حديث شريف) .

إنه واحد لا بعدد ، وهو الأحد إذ لا ثاني له ، ولا يدخل في باب العدد ،
إذ لا يقال : أحدٌ اثنان .. إنما : واحد اثنان ، فهو واحد أحدي ، وليس
واحدأ عددياً ..

وإنه لا يتعدد في لفظ ولا معنى ، فهو « أحد » رغم أن الواحد يتعدد فيها :
١ - واحد اثنان ، ٢ - أنا واحد ، وقد تركبت من ملايين الأجزاء .

و « أحد » في وصف الله ، يضم كافة الصفات الثبوتية والسلبية ، كما ويكلمها
« الصمد » .

فالأحدية الذاتية والفاعلية والصفاتية والسرمدية والمعبودية ، كلها معنية من
« أحد » دون اختصاص بناحية دون أخرى .
كما وتنفى كافة الكثرات عن ذاته وصفاته وأفعاله ..

« الله الصمد » :

تفسير للهوية الإلهية : « هو » وإلهيته « الله » وأحديته « أحد » ، كما يفسر
الصمد بـ « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .. خير مفسر ومفسر^(١) .

و « الصمد » هو الذي ليس له جوف ، لا جسماني لأنه لا جسم له ، وكل جسم
مجوف ! ولا روحاني ، لأنه جامع الصفات والكمالات الذاتية اللامحدودة ،

(١) التوحيد عن باقر العلوم (ع) : أن أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي (ع)
يسألونه عن الصمد ، فكتب إليهم : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فلا تخوضوا في القرآن
ولا تجادلوا فيه ولا تتكلموا فيه بغير علم فقد سمعت جدي رسول الله (ص) يقول : من قال في
القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار ، وأن الله سبحانه قد فسر الصمد ، فقال : « الله أحد
الله الصمد » ثم فسره فقال : « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

لا ينقص صفة ، ولا تنقصه صفة لائقة لذاته المقدسة ، حتى يكون أجوف معنوياً ، وعلى حد تعبير الإمام الصادق (ع) : صمد لا مدخل فيه ، وكل مادة فيها مدخل ! وعن أمير المؤمنين علي (ع) : « الصمد بلا تبعيض بدد » فالصمد لا يبعض ولا مدخل فيه ، فليست المادة صمداً ، ولا الروح كذلك ، لأنها مدخل وداخلة ، وهي مبعضة .

إن المادة ، أية مادة - وإن كانت ذرة وأجزاءها - إنها جوفاء ، فكما التركيب كيان المادة ، كذلك كونها جوفاء ، وكما المادة دون تركيب هي لا مادة ، كذلك المادة دون جوف هي لا مادة .

فالمادة جوفاء بالمعنيين ، جوفاء ذاتياً : أن في ذاتها جوف وخلو ، وجوفاء معنوياً لفقدانها الكثير الكثير من الكمالات .

إذاً فالمادة ليست صمداً لا جوف له ، إنما الله هو الصمد الذي لا جوف له : سالبة بانتفاء الموضوع : ليس مادياً حتى يكون له جوف مادي ، وبذلك تسلب عنه الذات المادية بجميع مصاديقها ومراحلها ، ثم سالبة بوجود الموضوع : أن لو تصورنا كائناً مجرداً ، ناقصاً عن بعض الكمالات ، فانه ليس مجرداً أجوف ، بل هو مجرد صمد : هو الكمال اللامحدود من ذات وصفات الألوهية .

والصمد بهذا المعنى لزامه السيادة التامة وأن يكون مرجعاً وملجأ ، إليه ينتهي السؤدد ولا ينتهي سؤدده (١) .

(١) التوحيد عن باقر العلوم (ع) عن أبيه عن جده الحسين بن علي (ع) انه قال : الصمد الذي لا جوف له ، والصمد الذي لا ينال ، والصمد الذي لم يزل ولا يزال .

وفي الجمع عن عبد خير قال : سألت رجلاً علياً (ع) عن تفسير هذه السورة فقال : قل هو الله أحد ، بلا تأويل عدد ، الصمد بلا تبعيض بدد .

أقول : أن كل تبعيض بدد وإلى بدد ، لمكان الحاجة ، والله ليس مبعضاً فليس جسماً ، إنه الصمد الذي ليس له جوف .

« لم يلد ولم يولد » :

لا هو والد كما المسيحيون يزعمون : « يضاهاون قول الذين كفروا من قبل » :
الوثنيين الثالوثيين ، ولا هو ولد له والد ، كما هم يظنون : الإله الولد ، والإله
روح القدس .

« لم يلد » : ليس خلقه لما سواه في معنى الولادة ، سواء أكانت بانفصال
النطفة ، أم بتبدل الوالد ولداً ، أم .. كما يقال في خرافة الثالوث بما اختلقته
الكنائس ، مضاهاة الوثنيين^(١) !

لم يلد : وإنما خلق - أول ما خلق - لا من شيء وخلق منه سائر الخلق ،
فليس خلقه من ذاته ، وإنما من شيء خلقه أولاً ، كما خلق الأول لا من شيء ،
لا من لا شيء ، حتى يكون مبدأ الخلق عدماً ، ولا من شيء في البداية حتى يكون
ذلك الشيء أزلياً كمثل .

« ولم يولد » ليس الوجود الإلهي مولود الخيال لكي يصبح الإله خيالاً لا حقيقة
له ، ولا مولود إله آخر لكي يكون حادثاً فمخلوقاً ، « فسبحانه سبحانه من إله لم
يلد فيكون موروثاً هالكاً ، ولم يولد فيكون في العز مشاركاً » .

وعلى حد تفسير الإمام الحسين بن علي عليها السلام : « لم يلد : لم يخرج منه
شيء كثيف كالولد وسائر الأشياء الكثيفة التي تخرج من المخلوقين ، ولا شيء
لطيف كالنفس ، ولا يتشعب من البدوات ، كالسنة والنوم والخطرة والهيم والحزن

== وعن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله (ع) قال : إن اليهود سألوا رسول الله (ص) فقالوا :
انسب لنا ربك فلبث ثلاثاً لا يجيبهم ، ثم نزلت هذه السورة فقلت : ما الصمد ؟ فقال : الذي
ليس بمجوف (نور الثقلين ج ١ ص ٧١٣) وروى مثله الفاضلان الحلبي ووزارة عن أبي عبد الله
(ع) ، وروى هارون بن عبد الملك عنه (ع) .. وصمد لا مدخل فيه .

(١) انظر تحليلنا في آخر سورة الاخلاص بعنوان : « توحيد الثالوث » .

والبهجة والضحك والبكاء والخوف والرجاء والرغبة والسأمة والجوع والشبع ، تعالى أن يخرج منه شيء . وأن يتولد منه شيء كثيف أو لطيف ، ولم يولد : لم يتولد من شيء ، ولم يخرج من شيء ، كما تخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها ، كالشيء من الشيء ، والدابة من الدابة ، والنبات من الأرض ، والماء من الينابيع ، والأثمار من الأشجار ، ولا كما تخرج الأشياء اللطيفة من عناصرها ، كالبحر من المين ، والسمع من الأذن ، والشم من الأنف ، والذوق من الفم ، والكلام من اللسان ، والمعرفة والتمييز من القلب ، والنتار من الحجر ، لا ! بل هو الله الصمد الذي لا من شيء ولا في شيء ، ولا على شيء ، مبدع الأشياء ، ومنشيء الأشياء بقدرته ، يتلاشى ما خلق للفناء بمشيئته ، ويبقى ما خلق للبقاء بعلمه ، فذلكم الله الذي لم يلد ولم يولد ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، ولم يكن له كفواً أحد^(١) .

« ولم يكن له كفواً أحد » :

لم يكن : - في الأزل ومن الأزل ولن يكون في الأبد والى الأبد - : من يكافئه في ألوهيته ، أو يضاهيه ويناصره ويعاضده ، أو يعارضه ، رغم خرافة أزلية إله الابن في صيغة متناقضة : « مولود غير مخلوق » فإنه لا يعني إلا أنه : مولود غير مولود !

إنه ليس له كفواً ، سواء أكان والداً له ، أو ولداً منه ، أو من يتخذه ولداً ، أو كائناً مستقلاً يحنبه^(٢) ، أياً كان ، فهو الوحيد السرمدي في ألوهيته ، لا يشرك فيها أحداً من خلقه ، فهو الخالق والرازق والموفق والمؤيد والديان والهادي ، و .. لا سواه ، إلا رسلاً يدعون إليه ، وليس لهم من الأمر شيء .

(١) نور الثقلين ج ٥ ص ٧١٣ عن كتاب التوحيد للصدوق .

(٢) من جواب الامام الباقر (ع) لأهل فلسطين : ولم يكن له كفواً أحد فيعازه في سلطانه ، أي يشاركه في عز الألوهية .

فهذه الآية الأخيرة تعم دلالة على عدم ولادته ، وعدم اتخاذها ولداً ، إذ هما يشاركان في لزوم الكفو له تعالى ، والقرآن ينفيها هنا اجمالاً وفي سائر الآيات تفصيلاً .

فهذه السورة تنفي عن الله تعالى ما يحق نفيه عن ساحة قدسه ، وتثبت له ما يحق لألوهيته ، دون أن تنقص شيئاً منها على قلة الفاظها .. ثم نجد التفاصيل منبثّة في الذكر الحكيم قرابة ثلث القرآن أو رבעه .

ثم نجد ما يراهين قاطعة للتوحيد الحق ، كل آية تفسّر ما قبلها وتفسرها ما بعدها ، فـ « الله » يفسر « هو » : أن الذي هو غيب مطلق ، اسمه الله ، لا ما ما تختلفون من أسماء لمن تدعونهم آلهة ، و « الله » أحد - فإن الأحدية الحقيقية المطلقة لزوم من هو غائب عن ادراك الحواس . فـ « هو » : الله - و « وهو الله » أحد ، ثم « الأحد » « صمد » لا محالة ، فلو كان له جوف كان متعدداً ولم يكن أحداً ، ولو كان له جوف روحاني بمعنى النقص ، لم يكن أحداً في الكمالات ، ولو كان له جوف : بإضافة الصفات إلى الذات ، لم يكن أحداً في الصفات ، ثم لزوم « الصمد » أنه « لم يلد ولم يولد » . . . لأن الوالد - معها كان - إنه أجوف مزدوج الكيان ، وليس صمداً : لا جوف له ، وهو تعالى صمد لا جوف له : سواء الجوف المادي أم سواء ، فلا يخرج منه شيء كثيف ولا لطيف لأنه صمد لا جزء له ولا أجزاء ، لا حد ولا حدود .

« ولم يولد » إذ إن الحاجة إلى الولادة والحدوث ، هي خاصة بالسكان الفقير ، وهو المادي الأجوف ، فإذا كان صمداً فلا يحتاج أن يولد كما يستحيل أن يلد .

= وعن أبي عبد الله الصادق (ع) في حديث : لم يلد لأن الولد يشبه أباه ، ولم يولد فيشبه من كان قبله - ولم يكن له من خلقه كفواً أحداً - تعالى عن صنعة من سواء علواً كبيراً (نور الثقلين ج ٥) .

« ولم يكن له كفواً أحد » إذ إن الكفو إما هو ذات يخرج من ذاته ، فهو « لم يلد » فيكون في العز مشاركاً ، أو من يتخذه ولداً فأسوء حالاً وأضل سبيلاً ، فإذا كان الولد - الذي هو من جوهر ذات الوالد - منفياً عنه تعالى ، فبالأحرى من يتخذه ولداً ، ولماذا يتخذ ؟

أو أن الكفو كائن مستقل عن ذات الله وعن اتخاذه شريكاً ، فهو أيضاً يتناقض وتجرديته المطلقة اللاحدودة ، حيث اللاحدود لا يتعدد - ومحال أن يتعدد - فإن العدد إنما هو في المحدودات .

ويتناقض أحديته وصمديته ، فإن الصمد : غير المحتاج إطلاقاً ، ليس له شريك إطلاقاً من أي الثلاثة : ولداً ، أو من يتخذه ولداً ، أو إلهاً مستقلاً عن كيانه تعالى ، فلم يكن له كفواً أحد^(١) .

واليك إجمالاً بعد تفصيل في تفسير هذه السورة كلام الإمام أمير المؤمنين علي عليه أفضل التحية والسلام : « سأل رجل علياً عليه السلام عن تفسير هذه السورة فقال : هو الله أحد بلا تأويل عدد ، الصمد بلا تبعيض بدد ، لم يلد فيكون موروثاً هالِكاً ، ولم يولد فيكون في العز مشاركاً ، ولم يكن له من خلقه كفواً أحد »^(٢) .



(١) التفصيل المقل في كتابنا « حوار بين الإلهيين والماديين » .

(٢) نور الثقلين ٥ : ٧١٥ ح ٨٥ عن عبد خير عنه (ع) .

توحيد الثالوث !

وفي ختام البحث عن طرف من التوحيد القرآني ، لنطرح بهذا السؤال في
محكمة العقل والنقل الكتابي ونتبع وحي الكتاب على ضوء العقل ..

بما لا يشك فيه أي عاقل : أن الثالوث يختلف عن الواحد ، ضرورة اختلافها
عند من يميز الواحد عن الثلاثة .

ذلك ، بالرغم من أن كثيراً من الكنائس في العالم المسيحي تعلم : أن الله
« ثالوث » مع أن كلمة ثالوث لا وجود لها في الكتاب المقدس .

إن الدستور « الأثناوسي » يؤيد وجود (إله واحد) : « الآب والإبن
والروح القدس - أي ثلاثة أقانيم في إله واحد » : -

هذا الدستور - نحو القرن الثامن للميلاد - يقول : إن الآب والإبن والروح
القدس ، هؤلاء هم كلهم من نفس الجوهر ، « الثلاثة هم سرمديون وقادرون
على كل شيء !!

إلا أن هذه العقيدة لم تكن تعرف عند الأنبياء العبرانيين والرسل المسيحيين ،
وتعترف دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة (ط ١٩٦٧ ج ١٤ ص ٣٠٦) بأن
عقيدة الثالوث لا يجري تعليمها في العهد القديم ، كما وتعترف أنها يرجع تاريخها
إلى نحو ثلاثمائة وخمسين سنة بعد المسيح ، لذلك فإن المسيحيين الأولين الذين
تعظموا مباشرة من يسوع المسيح لم يؤمنوا أن الله ثالوث .

وفوق ذلك نرى المسيح لا يرضى أن يخاطب بكلمة الرب ، ويعتبر قائلها
شيطاناً ، إذ قال له بطرس : « حاشاك يا رب » ، فالتفت وقال لبطرس :
إذهب عني يا شيطان . أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس » (متى
١٦ : ٢٢ - ٢٣) .

فالسيد المسيح ~~هو~~ هنا يصرح : أن الإعتقاد في ربوبيته مَعْتَرَة شيطانية من بطرس .

كذلك ويندد بن يعتبره معادلاً لله ، حيث اليهود اعترضوا عليه إذ شفى مريضاً في السبت ، فأجابهم : آبي يعمل وأنا أعمل ، فمن أجل هذا قالوا : إنه كسر السبت وجعل نفسه معادلاً لله (يوحنا ف ١٧) .

يعني : خالقي يعمل وأنا أعمل ، وليس عملي عمل الخالق ، إنما هو بإذنه وأمره ، فليست إذأ معادلاً للخالق .

إِذَا ابَّ الْآبُ - بالمد - لغة يونانية تعني الخالق ، وليست عربية حتى تعني
الوالد ، إلا إذا أُريد بها شهر الآب أو مثله من الآب !

ومن عجيب الخلط أن الكنائس تفسر الآي دائماً بمعنى الوالد ! فيا ليتهم
حذفوا المدح حتى يصح لهم هكذا تفسير خادع !

إن السيد المسيح لا يرضى أن يقال له : حق : أنه صالح ، فكيف بالرب
الإله ؟ : « وإذا واحدٌ تقدم وقال له : أيها المعلم الصالح !.. فقال له : لماذا
تدعوني صالحاً ؟ ليس أحدٌ صالحاً إلا واحد وهو الله » (متى ١٩ : ١٦ - ١٩) .

فهل إن هذا العبد الخاضع المتواضع يجنب ربه يدعي الربوبية والالوهية ،
وتساويه في الجوهر مع الله ؟ كلا ! وإنه حسب الأناجيل ، يعترف بعبوديته
وأنة ابن الإنسان كما في ثمانين موضعاً^(١) .

كما ويصرّح : أن الحياة الأبدية معرفة الله بالوحدانية ، وأن المسيح رسوله (يوحنا ١٧ : ٣) و : « أن أول الأحكام أن نعرف أن إلهنا واحداً » (مرقس

(١) ومنها متى ٨ : ٢٠ و ٩ : ٦ و ١٦ : ١٣ و ٢٧ : ١٧ و ٩ : ١٢ و ٢٢ : ١٨ و ١١ : ١٩ و ٢٨ : ٢٠ و ١٨ : ٢٠ و ٢٤ : ٢٧ و ٢٦ : ٢٤ و ٤٥ : ٤٦ في الأناجيل الثلاثة الأخرى .

١٢ : ١٩) « وقال له الكاتب : لقد قلت حسناً : إن الله إله واحد وليس غيره من إله ، ولما رآه المسيح عاقلاً في جوابه وكلامه خاطبه قائلاً : لست بعيداً عن ملكوت الله » (مرقس ١٢ : ٣٢ و ٣٤) .

ونرى كذلك في الكتب المقدسة أنه : « ليس كمثل شيء » (مزمور ١٠٢ : ٢٦) ولا تجوز الصلاة لغير الله (متى ٤ : ١٠ مقابلة مع تثنية ٦ : ١٣ و ١٠ : ٢٠) ولربما راح المنجي يسوع إلى الصحراء منفرداً يدعو (متى ١٤ : ٢٣ و ٢٦ : ٢٩ و مرقس ١ : ٣٥ ولوقا ٥ : ١٦) وأرفع صلاة وأعلاها التي تربو على صلواته كلها ، ما صلاتها أخيراً مع الحواريين (يوحنا ١٧ : ١ - ٥ و ١٩ : ٢٠ و ٢٦ : ٢٠) وشكر ربه حيث استجاب دعوته (يوحنا ١١ : ٤١ - ٤٢) واستعان بربه حيناً سلم إلى الصليب (يوحنا ١٢ : ٢٧) وسأله : إلهي إلهي لم تركتني ، وذلك حيناً صليب . ا زعمهم .

أفهل كان يصلي لنفسه لأنه الرب نفسه ؟ أم لمعاده ؟ لأنه معادل الله ! أم كان يستعين بنفسه إذ سلم إلى الصليب ؟ !

.. هذه الآيات المقدسات تؤيد وتؤكد بالمئات المئات من آيات الله البينات في كتابات الوحي طوال القرون الرسالية دون خلاف ، فخلافاً إذاً مقحمة بأيدي الدس والتعريف كالتالي :

.. أنه : ابن الله (متى ٣ : ١٧) وأول مواليد (عبرانيين ١ : ٩) ابن الله المبارك (مرقس ١٤ : ٦١) وأنه هو الله (يوحنا ١ : ١) الأزلي (عبرانيين ٩ : ١٤) والرب ومثل الله (متى ٢٣ : ٣٤ ولوقا ١١ : ٤٩) .

ومثل الله هو رب الشريعة ، فبقدرته الشخصية يتم ناموس موسى ويعده (متى ٥ : ٢١) ومثله يعتمد عهداً مع البشر (متى ٢٦ : ٢٨) فالإيمان الذي يقتضيه مسيح الانجيل في البعض من آياته المقحمة ، إنما يقتضيه لنفسه لا لربه ،

فيريد أن يكون هو موضوع الإيمان وسببه (لوقا ٩ : ٢٦) ويرضى بأن تقدم له عبادة دينية فيقبل السجود لنفسه ، ذلك السجود الذي - بحسب العقلية اليهودية والمسيحية (استير ١٣ : ١٢ ، أعمال ١٠ : ٢٦ ، رؤيا يوحنا ١٩ : ١٠ - ٢٢ : ٩) - ذلك الذي يعود ويختص بالإله الحق وحده ، (انظر : متى ١٥ : ٢٥ و ٨ : ٢ و ٩ : ١٨ و ١٤ : ٣٣ و ٢٨ : ٩ و ١٧) .

هذه الآيات الأخيرة بعضها مقحمة كالمصرحة بما ينافي توحيد الإله ، والأخرى متشابهة أو غير دالة ^(١) .

والقرآن إذ يصدق الانجيل ، فإنما يصدق ما فيه من وحي السماء ، لا المقدمات مثل التثليث ، وكما يندد بالثالوث في آيات ، ويعتبره من الوثنية ، ويصرح أن المسيح من أعظم الموحدين المعارضين للخرافات الشركية قائلا :

« يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » (٥ : ٨١) « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن قولوا فقولوا أشهدوا بما أنا مسلمون » (٣ : ٥٧) « وقال المسيح : يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة » (٥ : ٧٢) « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينزهوا عما يقولون كيمسّن الذين كفروا منهم عذاب أليم » (٥ : ٧٢ - ٧٣) « وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله فأنى يؤفكون » (٩ : ٣١) .

فالنصرانية - حسب الآية الأولى والأخيرة - منذ القرن الثالث وحتى

(١) راجع « حوار » و « عقائدنا » باب التثليث .

الآن ، نقتلد قوماً مثلثين ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً ، وهم الثلث الثالوثيون من مجلس « نيقية » وعلى رأسهم « اثناسيوس » وهؤلاء أيضاً يضاهئون في خرافة الثالوث « قول الذين كفروا من قبل » وهم من يذكرونهم تاريخ الأديان الوثنية طوال قرونها ، كالثالوث التالية :

الثالوث الفرعوني : (أوزيرس - ايزس - حورس) .

والثالوث البرهمي : (برهما - فشنو - سيفا) ومثله البوذي والصيني والهندي والمصري واليوناني والروماني وثالوث الفرس : (اورمزد - مترات - اهرمان) والفلندي : (تريكلاف) والاسكندنافي (اورين - تورا - فري) والدردي : (تولاك - فان - مولا) والأوقيانوسي والمكسيكي والكندي^(١) .

أنا والآب واحد !

ومن الآيات الإنجيلية التي توهم إلى الشرك ، هي القائلة عن السيد المسيح : « أنا والآب واحد » (يوحنا ١٠ : ٣٠) .

لكنها لا تدل على الثالوث ، إنما على التثنية - لو دلت - (أنا والآب) ولكنها أيضاً لا تعني الوحدة في جوهر الذات والكيان الإلهي ، وإنما وحدة الهدف والإتجاه ، فلا شك أن يسوع لم يكن يناقض الآيات المقدسة التي سبقت في التوحيد ، وما عناء هنا إنما أوضحه هو نفسه فيما بعد ، عندما صلى لأجل أتباعه : « ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد » (يوحنا ١٧ : ٢١) فيسوع وآبوه = خالقه ، هما واحد ، بمعنى أن يسوع على وفاق تام مع خالقه ، وصلى ليكون كل أتباعه على وفاق مع الخالق ومع يسوع بعضهم مع بعض .

فهناك في الكتب المقدسة آيات مقححات كالصرحة بربوبية المسيح ، وآخر متشابهات كهذه ، وثالثة محكمات ، فالمفروض إرجاع متشابهاتها إلى محكماتها ، ورفض مقححاتها .

(١) راجع « حوار » و « عقائدنا » .

فمن المقدمات الآتية: «أستؤمن أني أنا في الآب والآب فيّ» ، لكن الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال » (يوحنا ١٤ : ١٠) أو يقال إنها يفسرها قول السيد المسيح عليه السلام : « كما أنك أيها الآب فيّ وأنا فيك » ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني » (يوحنا ١٧ : ٢١) .

وترى كذلك بجنبها محكمات في التوراة وفي الانجيل قائلة :

« قال الله لن تسكن روحي في الانسان إلى الأبد لأنه لحم » (تكوين ٦ : ٣) « وفيما هم يتكلمون بهذا أوقف يسوع نفسه في وسطهم » وقال لهم : سلام لكم . ففزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحاً . فقال لهم ما بالكم مضطربين ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم . انظروا يدي ورجليّ أني أنا هو . جستوني وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي . وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه . وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبون قال لهم أعندكم ههنا طعام . فتناولوه جزءاً من سمك مشوي وشيئاً من عسل فأخذواكل قدامهم » (لوقا ٢٤ : ٣٦ - ٤٣) . علوم إسلامية

فالآية التوراتية تحيل حلول الإله المجرد عن الجسم في الجسم - أيأ كان - لأنه جسم ، فإن المحدود لا يشمل اللا محدود ، والمجرد لا يحوي الجسم .

وكذلك الآيات الإنجيلية تحيل هكذا حلول ، إذا فالمعني من الآية : « الآب فيّ وأنا فيه » ليس هو التداخل الجوهرى ، وإنما يعني كمال العبودية والذلة : ألاّ يعتبر السيد المسيح نفسه في جنب ربه شيئاً مذكوراً ، فكأنه فيه « أنا فيه » وأنه لا ينطق ولا يعمل إلا حسب مخططات الوحي الإلهي ليس إلا : « الآب فيّ » لا سيما مع كون الآب يعني : الخالق ، ومن المستحيل إتحاد الخالق والمخلوق في الجوهر .

ويزيد توضيحاً للآية : « أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً ،
(يوحنا ٥ : ٣٠) .

فالسيد المسيح - ومعه النبيون أجمع - يسلب عن نفسه الربوبية والشرك
بالله ، والقدرة الإلهية والحول والقوة المستقلة ، وإنما يصرح : « أنه إنسان نبي »
(لوقا ٢٤ : ١٩) وليس أحد صالحاً إلا إله واحد وهو الله « (متى ١٩ : ١٧)
« وأما ذلك اليوم فلا يعلم أحدٌ به ولا الملائكة ولا الابن إلا الآب = الخالق »
(لوقا ٥ : ١٤ و ١٢ : ٤) « والله لم يره أحدٌ قط » (يوحنا ١ : ٨) « ولا يقدر
أحد أن يراه » (اتيموثاوس ٦ : ١٦) « ولا يقدر أحد أن يخدم سيدين »
(متى ٤ : ٢٦) .

وفي التوراة : « أن الله ليس له مكان » (أشعيا ٦٦ : ١ - ٢) « ولا يُعبد
إلا هو ، ومن عبد غيره يقتل » (خروج ٢٠ : ٣٤ وتثنية ١٣ و ١٨) .
إذاً فإلى كلمة سواء :

« يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا يتخذ
بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن قولوا فقد أشهدوا بأننا مسلمون » .

أصحابنا المسيحيين ! تعالوا اتبعوا المسيح والنبيين في توحيد الإله ورفض
خرافة الثالوث اللامعقولة ، والمضادة لنصوص الكتب المقدسة ، هذه الخرافة
الوثنية التي أصبحت كأنها من أصول الديانة المسيحية ... تعالوا إلى كلمة
سواء .

الثالوث في مختلف الأديان الوثنية :

« إن أقدم ما نعتز عليه في تاريخ الفراعنة ، الثالوث المكوّن من الآلهة
(اوزيريس - ايزيس - حورس) الأب والأم والولد ، ثم المكوّن من « آمون »

وزوجه «موت» وابنه «خونس» وهو تثليث بلدة «تب» وهم الأب والأم والولد ، ثم المكوّن من (فتاح - سنحت - ايموس) وهو لبلدة « منف » ثم المكوّن من (الوبيس - معات - توت) ثم المكوّن من (آنوا - بعل - آيا) وهو ثالث السكلدانيين ، ثم المكوّن من (سن - شمش - عشتار) الأب والابن والأم ، ثم المكوّن من (مينوسن - رادامانت - ايبال) أولاد « زوس » الإله الأعظم ، ثم المكوّن من (الأب والابن وروح القدس) وهو للمسيحيين^(١) « يضاؤون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون » .

ولقد « كان عند أكثر الأمم البائدة الوثنية تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثالوثي ، أي الإله ذو الأقانيم الثلاثة »^(٢) .

وحقاً إنه عزيز علينا اتباع الديانات الكتابية الإلهية هكذا أن يتبع بعضها الأمم البائدة الوثنية في الأصول الإلهية ..

فإلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، يرضاها العقل والدين !

بداية الثالوث المسيحي :

إن أقدم صيغة تعليمية رسمية لإيمان الكنيسة بشأن الثالوث (حسب ما في مختصر في علم اللاهوت العقائدي) هي قانون الرسل الذي اتخذته الكنيسة منذ القرن الثاني في شكل قانون العباد الروماني القديم كأساس لتعليم الموعوظين ، ولاعتراف الإيمان في حفلة العباد عند اللاتين .

ثم .. قانون نيقية القسطنطينية (٣٨١ م) وقد نشأ ضد مذهبي آريوس ومقدونيوس ، ثم المجمع الروماني برئاسة البابا القديس (داماسيوس) (٣٨٢)

(١) حياة السيد المسيح ل : فاروق الدملاجي ، ص ١٦٢ .

(٢) موريس في كتابه « خرافات المصريين الوثنيين » ص ٢٨٥ - ينقله عنه محمد طاهر التنير البيروني في كتابه « العقائد الوثنية » .

يدين بصورة اجمالية أضاليل القرون الأولى في الثالوث الأقدس ! ثم إلى القرن
٥ و ٦ قانون أثناسيوس ، ثم قانون مجمع طليطلة الحادي عشر (٧٦٥ م) ثم في
القرون الوسطى قانون المجمع اللاتراني الرابع (١٢١٥ م) ثم مجمع فلورنس
(١٤٤١ م) ثم في العصر الحديث تعليم لبيوس السادس (١٧٩٤ م) .

وإن أول من دسّ في فكرة الكنيسة فكرة الأبوة والبنوة الإلهيين ، هو
الخصي الكوسج المصري خادم الرهبان « اوريفين »^(١) إلى أن تشكل مجمع « نيقية »
(٣٢٥ م) إذ جاءت من الجماعات الروحية المسيحية من مختلف الأقطار من
يزيدون على ألف مبعوث لانتخاب الأناجيل التي يجب أن تعتبر قانونية ، ولقد
كان ٣١٨ شخصاً من هؤلاء من القائلين بالوهية المسيح .

وقد اجتهد آريوس رئيس الموحدين على أن المسيح مخلوق ، وأنه عبد الله ،
مستدلاً بما لديه من الآيات الانجيلية وبتفاسير الأعزة والآباء من ايقليسيا ، واعترف
بهذه الحقيقة الثلثان الباقيون من الألف ، أعضاء المجمع .

ومن ناحية أخرى قام رؤساء الثالوثيين (وعلى رأسهم اثناسيوس) للبرهنة
على أن المسيح إله تام ، وأنه متحد الجوهر مع الله ، وأخيراً ترجح رأي المثلثين ،
لا شيء إلا للسلطة الجبارة آنذاك من قسطنطين (قونستنتينوس) تحت ستار
إيجاد الأمن بين المتخالفين ، وأن قسطنطين هذا يرجح رأي صديقه البابا كاهن
رومية الأعظم ، وهو من الأقلية الثالوثية في النيقية ، ويأمر بأخراج أكثر من
سبعماية من الرؤساء الروحيين الباقيين الموحدين من المجمع ، ويقتل آريوس رئيس
الموحدين لكي يصفّي جو المجمع (٣١٨) الباقيين المثلثين .

ولقد صرح السيد المسيح بهذا الحادث العظيم تنديداً بالمثلثين ، وترجماً على
الموحدين بقوله : « سيُخرجونكم من المجمع » ، بل تأتي ساعة فيها يظن كل من

(١) هو راهب أعزب عارف باللغات عاش في القرن الثاني الميلادي .

يقتلكم أنه يقدم خدمة لله وسيفعلون بكم لأنهم لم يعرفوا الآب ولا عرفوني
(يوحنا ١٥ : ٢ - ٣ و ١٣ : ٩) .

أي لم يعرفوا الآب « الخالق » بالوحدانية ، ولا عرفوني بالعبودية .

وقسطنطين هذا كان وثنياً ملحداً ، فإن « بوسيبوس » بسقيوس قيصرية
(الذي تقدسه الكنيسة وتمنحه لقب سلطان المؤرخين) كان صديق الامبراطور ،
وهو يصرح : أن الامبراطور اعتمد وتنصر حين كان أسير الفراش قبيل وفاته ،
وبناء على هذا نتأكد : أن خرافة الثلاث هذه ليست إلا من سلطان وثني
ملحد ، وخصي كوسج مصري .



مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

﴿ سورة الفلق - مكية - وآياتها خمس ﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ^١
مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ^٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ^٣ وَمِنْ شَرِّ
النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ^٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ^٥ . »



ان هناك محاولات دائمة لإغلاق أبواب الخير والصلاح على من يبتغيها ، فلا بد
إذاً من قائل وهو الخالق الذي خلق وخلق ،

إن لـشياطين الجن والإنس إيجابيات وسلبيات كلها تنحصر منحه الشر ، غلقاً لأبواب
الخير ، وفتحاً لأبواب الشر ، فسورة الناس تأمرنا بالإستعاذة من النوع الثاني ،
وسورة الفلق منها ، ولكي تتم المكافحة على المؤمنين ينتصرون .

فربُّ الفلق هو الذي يخلق ما أغلقته الشياطين : من غاسق إذا وقب ، ومن
النفاثات في العقد ، ومن حاسد إذا حسد :

« ثالث الشر والفساد ، الذي هو في قمة الشر ، ولذلك تختص هي بالذكر
بعد عموم الشر . »

« قل أعوذ برب الفلق » :

« إن الله فلق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالتق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم » (٦ : ٩٥ - ٩٦) .

فالفلق هو شق الشيء واستخراج ما فيه ، ونحن نعوذ برب الفلق ليفلق لنا ما أغلقته الشياطين من أبواب الخير ، وعلينا أن نظل على الدروب : دروب الخير لنفتحها ، ودروب الشر لنغلقها ، مستعينين برب الناس والفلق ، الذي يفلق للناس كل غلق ، إلى ما فيه خير .

والشر - أياً كان - قد يحصل بضم شيء إلى شيء ، ففلقه فتقه ، أو بفصله عنه ، ففلقه رتقه ، فكلاهما فلق اعتباراً بتحرير الخير الذي كان في أسر الشر ، ففلق الحب والنوى يحررها عن جمود الحياة إلى حريتها ونضوبها ونضوجها ، وفالتق الإصباح يشق بطن الليل ليوضح وضح النهار .

والشر - أياً كان - غلق على الحياة وأسرها ، فالفلق يفتح الحياة المغلقة وينير الدرب على الأحرار ، الذين يحاولون الفرار عن حياة الحيونة المتأخرة أو المجددة ، إلى حياة التقدم .

وكما يفلق الله تعالى الليل لإخراج النهار ، ويفلق الحب والنوى لإخراج الأشجار ، كذلك هو الذي يفلق كل شر ويفتقه ليخرج منه الخير ، كما ويخرج الحي من الميت بفلق الميت ، ويخرج الميت من الحي بفلق الحي ، ويخرج الجنين من المني بفلقه ، وغير ذلك من فلق خير .

هذا الإله هو الذي يحق أن يستعاذ به من شر ما خلق :

« من شر ما خلق » :

.. « ما خلق » لا « خلقه » إذ ليس في خلقه - وهو فعل من أفعاله - ليس

فيه شر ، فالخير كله بيديه والشر ليس اليه ؛ « بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » .

وأما ما خلق : المخلوقون ، فهم الدين يفعلون الشر بسوء اختيارهم ، أو سوء الاختيار والتصرف فيهم من المتخلفين ، وشاهد مسبق عليه ، الأمر بالاستعاذة برب الفلق ، فهل يستعاذ به تعالى مما فعل ؟ كلا - وإنما مما يفعله ما خلق : الأشرار من خلقه .

فللخلائق شرور عدة في حالات اتصال بعضها ببعض وبعضهم ببعض ، والله يفلق هذه الشرور فصلاً بين عماله وأعمالهم .

وشرور الخلق نعم التفكير السوء والعقيدة والعمل السيئين ، وتعم الجانب التشريعي والتكويني من الشر ، وهو الفالاق هنا وهناك : أن يسن قوانين وأحكاماً لتحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، حيث الشرور ناتجة عن الانفصالات والتضادات ، أو من الاتصالات السيئة ، وهو الفالاق : أن يقدر ويدبر الخير رغم هجمات الشر وهجماته .

وداعية الشر يفحص عن مجالاته الملائمة وهي الظلمات ولا سيما الغاسقة ، يفحص عن ظلمات العقول والأجواء .. وليتمكن من تحقيق شره : ورب الفلق يفلق الظلمات إلى النور أباً كان :

« ومن شر غاسق إذا وقب » :

فالليل له غسق وهو مرتفعه في الظلام : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل » (١٧ : ٧٨) والطعام له غسق وهو الذي يظلم على الإنسان حياته وكأنه يعميه من شدة الغصة : « هذا فليذوقوه حميم وغساق » (٣٨ : ٥٧) .

والغاسق - وهو الذي يدخل في غسق - ليس فيه كثير خطورة مالم يقب ، والوقب هو النقرة في الجبل يسيل منها الماء ، فإذا وقب الغاسق ومكثن فهناك تمام الشر ووقعته .

فالليل مجال الغاسق : ليل الأفق الخارجي ، وفاق العقل والصدر والقلب ، فإذا
وقب ونقر في واحد من هذه الآفاق فقد انتصر .

والليل حين يتدفق فيغمر البسيطة ، إنه يخوف بذاته ، فضلاً عما يشيره من
توقع المجهول الخافي من كل شيء : من وحش مفترس يهجم ، ولص فاتك يقتحم ،
وعدو ما كرتمكن ، وحشرة ضارية ، ومن شهوة تستيقظ في الوحدة
والظلام ، وعقل قاصر ، وشهوة حاضرة ... كل ذلك ميدان لتجوال الغاسق ،
فلولا الإمداد الرباني والإعانة الإلهية لكان يقب .

فليغلق المستعبد برب الفلق على نفسه أولاً دخول الغاسق : بخروجه
عن الظلام أياً كان ، أو إخراج الظلام عن نفسه ، ثم إذا قصر هنا فليستعذ
برب الفلق من شر غاسق إذا وقب ... إذا دخل الظلام ونقر ، فرب الفلق هو
الذي يفلق بعد الوقب ، كما أنه الذي يفلق قبله ...

« ومن شر النفاثات في العقد » :

.. النفاثات : أظنها جمع نفاثة كعلامة ، مبالغة مضاعفة ، وهم الذين ينفثون
وينفخون بكل ما يملكون من وسائل النفث والنفخ لتنفث الباطل في غيه ، وفلج
الحق في مضيه : ينفثون في عقد الحياة ، التي يعقدها غاسق إذا وقب : فهنا
شيطان أول يحقق خطوة أول : أنه يعقد في نقرته ، يعقد أمراً فيه تعقيد الحياة
في أية مجال من مجالاتها ، ثم شيطان ثان - أو شطنة ثانية - ينفث فسيما عقده
الأول ليحكم العقد كيلا ينحل بسهولة .

فالنفاثات تعم قبيلي الرجال والنساء ، دون اختصاص بالنساء ، وتعم السحر
وسواه دون اختصاص بالسحر ، وتعم أية نفاثة تستحكم عقد الشر أو تحل عقد
وعزائم الخير .

ثم النفقات : الطاقات التي تنفث وتنفخ في العقد لتنفج الباطل وتوهين الحق - إنها على ضروب شتى، كما العقد تعم عقد الخير والشر ، فمن نفقات في عقد الخير التي عقدها وحكمها الخيرون - ينفخون فيها لتوهينها ومحققها او تبديلها إلى شر ، ومن نفقات في عقد الشر التي عقدها الشريريون - نفخاً فيها لتفجها وتحكيمها ، أية عقد من أية نفائة : من عقد تعقد بها حياة خيرة ، او تعقد عليها حياة شريرة .

فمن النفقات في العقد السياسية محاولات تبعيد الدين ورجالات الدين عن السياسة ولسكي تأخذ مجاريها الشريرة بفتح مجالاتها دونما رادع ولا مانع .

ومن ثقافية تجمد العقول والافكار على مقالات الأولين من حق لم يكمل او من باطل ..

ومن اقتصادية هي ترك الفحص والبحث عن الاحكام الاقتصادية الاسلامية ، وترك تطبيق الاقتصاد الإسلامي ، اللذان ينفشان في مشكلة الاقتصاد ، ويفسحان المجال للاقتصاد الشيوعي والرأسمالي .

ومن حربية كال تقدم السريع في اصطناع الأدوات النارية ، بحرية وبرية وجوية ومنها الطائرات النفائة التي نفثت في عقد الحرب ، التي يجب علينا مكافعتها بالمثل اعتداء بالمثل .

ومن عقد عقائدية كالقول بتحريف القرآن بزيادة او نقصية ، ومن ذلك هنا القول : ان المعوذتين ليستا من القرآن ! رغم وجودهما في القرآن المتواتر القاطع ، والسنة القاطعة : انها من القرآن ومن افضل القرآن (١) .

(١) الدر المنثور ٤١٦:٦ - اخرج احمد والبيهقي وابن مردويه من طرق صحيحة عن ابن عباس وابن مسعود انه كان يحك المعوذتين من المصحف ويقول : لا تحاطبوا القرآن بما ليس منه انها ليست من كتاب الله ، انما امر النبي (ص) ان يتعوذ بها وكان ابن مسعود لا يقرأ ... قال البيهقي : لم يتابع ابن مسعود احد من الصحابة وقد صح عن النبي (ص) انه قرأ بها في الصلاة وثبت في المصحف .

ومن سائر الإسرائيليات والكنسيات والوثنيات والمختلقات الزور التي دخلت
وتسربت في الروايات ، كما هنا فيما يروى : ان الرسول (ص) سحر ، سحره لمدد
ابن الاعصم اليهودي في بشر ذروان ، فـ « كان يرى انه يجمع وليس يجمع ، وكان
يريد الباب ولا يبصره حتى يلمسه بيده » (٩) .

فنحن نضرب بهذه وتلك عرض الحائط ، مهما كثرت رواياتها وقلت رعاتها ،
ورغم انها رويت من طريق الفريقين عن النبي (ص) والائمة من اهل بيته (ع) ،
فاننا نعتبرها من عقد عقائدية نفت فيها نفقات الروايات .

كيف لا ؟ « وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلاً مسحوراً . انظر كيف
ضربوا لك الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً » (٩:٢٥) « فقال له فرعون اني
لاظنك يا موسى مسحوراً » (١٧:١٠١) فقولة السحر على النبي (ص) قولة فرعونية
ظالمة فاتكة يعني توهين الرسالة المحمدية وتوهينها ، ولكي تتطرق فرية السحر
اليها كلها ، وساحة هذه الرسالة السامية وسواها براء منها .

فإن السحر اياً كان ، هو من سلطان الشيطان ، وان كان الله لا يصدده أحياناً

ومن روى انهما من القرآن عن النبي (ص) أبي بن كعب وعكرمة وي زيد بن عبدالله الشخير وابن
مسعود وعقبة بن عامر وابو حابس الجهني وابو سعيد الخدري وام سلمة ومعاذ بن جبل وجابر بن
عبدالله وثابت بن قيس وقتادة وانس بن مالك وابو هريرة وابن عمر ، اخرجه عنهم اصحاب السنن والمسانيد
بطرق متواترة ، وابن مسعود هذا الذي اخرج عنه قولة الزيادة ، سيخرج عنه هنا كما عن غيره
من الاصحاب انها من القرآن ومن افضل القرآن . وكما اجمع على ذلك أئمة اهل البيت عليهم السلام ، كما
اخرجه في نور الثقلين (٧١٦:٥) عن كتاب ثواب الاعمال عن الامام الباقر (ع) وعن اصول
الكافي عن ابي الحسن الرضا (ع) وفيه عن الصادق (ع) .

٩) كما اخرجه على نور الثقلين عن كتاب طب الائمة عن الصادق (ع) (٧١٨:٥) .

وفي الدر المنثور (٤١٧:٥) : اخرج عبد بن حميد في مسنده عن زيد بن اسلم قال : سحر النبي (ص)
واخرج ابن مردويه والجهني في الدلائل عن عائشة وابن مردويه عن طريق عكرمة عن ابن عباس
.. وابن مردويه عن انس بن مالك ، ولقد رووها بالفاظ مختلفة .

« وما هم بضارين به من احد الا باذن الله » ولكنه ليس من الرحمان ، فهل ان للشيطان سلطان على حس النبي (ص) وعقله و ارادته ، ولحد يخطأ الباب ولا يبصره ويرى انه يجامع ولا يجامع ؟ فكيف اذا ينير الدرب لمن يده الى الله ! كيف يسحر هكذا وهو اول العابدين « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين » (٤٢:٦٥) .

على انه (ص) معجزة رب العالمين ، بقرآنه المبين وبيانه المتين ، فلو حاولوا ان يسحروه لم يك يسحر او يتاثر ، أغلباً للسحر وهو سلطان الشيطان ، على المعجزة وهو سلطان الرحمان ! والنبي بكيانه معجزة ، كما هو بقرآنه معجزة ! . ثم الرسول (ص) هو يحملته : في ذاته وصفاته وافعاله واقواله ، انه عوذة من الشيطان وداعية حقت الى الرحمان ، فكيف لا يعيده رب الفلق من شر النفاثات في العقد ؟ اجل وقد اعاده بما انزل في كتابه انه لا يسحروا لن يسحر ، وان تهمة السحر الوقحة عليه قوله الفراعنة الظالمين النفاثين في العقد .

وإذا كان الامام من آل الرسول (ص) كما يقول الامام الصادق (ع) :
« لم يزل مرعياً بعين الله ، يحفظه ويكثوه بسننه ، مطروداً عنه سبحانه ابليس وجنوده ، مدفوعاً عنه وقوب الفواسق ، ونفوث كل فاسق » (١)
فالرسول (ص) وهو امام الائمة بذلك اخرى !

مركز تحقيق كتاب مير علوم اسلامی

« ومن شر حاسد إذا حسد » :

.. خطوة ثالثة بعد فشل ما سبقته ، أو لتحكيما : ألا إنها حسد الحاسدين ، لا في أنفسهم فحسب ، إنما إذا حسدوا .

(١) نور الثقلين ١ : ٢٢٢ عن اصول الكافي

والحسد انفعال نفساني وجاه نعم الله على بعض العباد زائداً على سواهم ، مع
تخفي زوالها ، ونحن نستعيد من شر الحاسد إذا حسد : أبرز انفعاله بشكل من
الأشكال في النيل من المحسود .

صحيح أن الحسد شر نفساني ، ولكنه لا يتعدى الحاسد إلى المحسود ما لم
يحسد ويوجه انفعاله النفسي إلى المحسود .

ولكي نأمن كيد الحاسدين ، علينا أن نخفي النعم المحسود عليها - ما أمكن -
عنهم ، أو نبرد ونحمد نيران الأحقاد بيمناه الأخلاق الطيبة والعشرة الحسنة
والموعظة الصالحة ، أو - أحسب - بل : أولاً وأخيراً : نعوذ برب الفلق :
.. ولكي يفلق حسد الحاسد ويدفع شره ، وبعدما كُتبت محاولاتي في
دفعه .

إن الحسد - أيأ كان - إنه حماقة وسوء ظن بالله ومعارضة للقدر ، كما عن
الرسول الأقدس : « كاد الحسد أن يعطب القدر » ، فإذا يفضّل الله عبداً من عباده
على غيره لاستحقاق معروف أم غير معروف ، أم لمسا يراه من مصلحة فردية
أو جماعية ، فالحسد إذ ذاك اعتراض على الله ، فليحاول الحاسد أن يبلغ بسعيه
مبلغ المحسود لكي يؤتيه الله من فضله كما آتى المحسود ، إن كان مما يحصل بالسعي
تماماً ، أو يحاول للوصول إلى ما أشبهه ، وأما أن يحمد على حاله ثم يحسد ويحاول
في إزالة النعمة عن المحسود بشق المحاولات والحيل ، فهذه معارضة فكرية وعملية
ضد الألوهية : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم
الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً » (٤ : ٥٥) :

نزلت في جماعة من اليهود الذين حسدوا الرسول الأقدس محمداً ﷺ على
اصطفائه بالرسالة الأخيرة ، ومن حقدّم على هذه الرسالة السامية أنهم كانوا
يفضلون المشركين على المسلمين : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون

بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً
أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً . أم لهم نصيب من الملك
فإذا لا يؤتون الناس نقيراً . أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله .. »
(٤ : ٥٤) .

كانوا يحسدون الرسول كأنهم يملكون فضل الله ، فليستأذنهم الله فيمن
يصطفيه رسولاً ! وهم لا يرضون رسالة إلا في إسرائيل ! .

ولقد كانت جماعة من أهل الكتاب تحاول أن ترد المسلمين كفاراً : « ود كثير
من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من
بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء
قدير » (٢ : ١٠٩) .

فعلى المحسود ذي النعمة أن يحافظ على ما أنعم الله عليه بفضل سعيه هو
وبفضل الله ، ولا سيما النعم الروحية ، ثم يحاول من وراء ذلك أن يخرج الحاسد
إلى ما هو عليه من النعمة ما أمكن ، بتوجيهه إلى السعي اللازم .

وعلى الحاسد أن يخرج من حافة الطغيان إلى ميدان السعي والإيمان بالله ، فما
وصل إليه بالسعي فهو ، وما لم يصل إليه فليثق بالله ولا يتهمه في تفضيل المحسود
عليه ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

وللمحسود علامات منها : « يفتاب إذا غاب ، ويتملق إذا شهد ، ويشمت
بالمصيبة » ومن مقالات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في التنديد بالحاسدين : « أما بعد
فإن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كل نفس بما قسم لها
من زيادة أو نقصان ، فإذا رأى أحدكم لأخيه غفيرة في أهل أو مال أو نفس ،
فلا تكون له فتنة ، فإن المرء المسلم البريء من الخيانة ما لم يغش دناءة فيخضع
لها إذا ذكرت ، وتغرى بها لئام الناس ، كان كالفالج الياسر ، الذي ينتظر

أول فورة من قداحة توجب له المقنم ، ويرفع بها عنه المقرم ، وكذلك المرة
المسلم البريء من الخيانة ، ينتظر من الله إحدى الحسنين : إما داعي الله ، فما عند
الله خير ، وإما رزق الله ، فإذا هو ذو أهل ومال ومعه دينه وحسبه ، إن
الذال والبنين حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد يجمعها الله
لأقوام ، فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه ، واخشوه خشية ليس بتعذير ،
واعملوا في غير رياء ولا سمعة ، فإنه من يعمل لغير الله يكله الله إلى من عمل له ،
نسأل الله منازل الشهداء ، ومعاشة السعداء ، ومرافقة الأنبياء .



مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی

﴿ سورة الناس - مكية - وآياتها ست ﴾

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ^١
مَلِكِ النَّاسِ^٢ إِلَهِ النَّاسِ^٣ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ^٤
الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ^٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ^٦ . »

* * *

ندرس في سورة الناس كيف يجب علينا أن نستعيز ؟ وبمن ؟ وبمن ؟ وما هي الاستعاذة ؟ ولماذا يجب ؟

أركان الاستعاذة أربعة : المستعيز - المستعاذ به - المستعاذ منه - المستعاذ من أجله .

وهي على الترتيب : ١ - المكلف - ٢ - الرب الملك الإله - ٣ - الوسواس الخناس من الجنة والناس - ٤ - مطلق الشر .

والاستعاذة هي طلب الإعانة - وليس طلبها لفظاً باللسان ، ولا عقداً بالجنان ، وليس المقال هنا إلا إشارة إلى الحال : كيف يجب أن تكون حالة الإنسان - النفسية والعملية - تجاه هذه الشرور ؟ إنها حالة الفرار : لفظياً وعقيدياً وعملياً بكل ما لديه من طاقات الايجابية و، ولكنها ليست بالتي تعينه ،

لو لم تدركه الرحمة والعصمة الإلهية ، فعبادة الرحمان وعصيان الشيطان كلاهما بحاجة ماسة إلى تأييد الله وإعانتته : « إياك نعبد وإياك نستعين » فكما لا عبادة دون استعانة كالعكس ، كذلك لا فرار عن الشيطان دون استعاذة ، كما لا استعاذة دون محاولة الفرار بكل ما لدينا من الطاقات .

هنا نعرف : لماذا يؤمر الرسول بالاستعاذة على عصمته؟ يؤمر بها لأن عصمته منوطة باستعاذته : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » (١٧ : ٧٤) بعد ما هي مربوطة بمحاولاته لمتنهي المكنة والاستطاعة

« قل أعوذ برب الناس » :

إنه أمرٌ أن يخبر العبد عن نفسه : أنه يستعيز ، وليست الاستعاذة من مقولة اللفظ ، إنما هو يحكي عنها حكاية صادقة أم كاذبة ، والقرآن لا يأمرنا بالقول الكذب ، إنما يأمر هنا بما تتطلبها هذه المقالة ، من استعاذة عقائدية وعملية : أن نفرّ من شيطانات العقائد والأعمال ، مستعيزين حالها وقبلها وبعدها ، بالرب الملك الإله المتعال .

الوسواس

هذه الاستعاذة تستحضر من صفات الله ما به يدفع الشر ، فعلى المستعيز أن يستظل في ظلال الربوبية : علمياً وتربوياً ، وفي ظلال ملكيته طاعة واستقامة ، وفي ظلال الألوهية تخضعاً وعبادة ، ولكي يعينه الله تعالى من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس .

وفي كل واحدة من هذه الثلاث كفاية لكي تتخذه تعالى وكيلاً ومعيناً : يدل على ذلك عدم العطف هنا « .. برب الناس ، ملك الناس . إله الناس » ^{فانه} ردف دون عطف ، وكما أفردت بذكر كل واحدة منها في آيات ثلاث : « ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنسى تصرفون » (٣٩ : ٦) « رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً » (٧٣ : ٩) « له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور » (٥٧ : ٥) هذا - ولكننا الجمع بين الثلاث هنا ، فيه كمال

العمود واللواذ بالله تعالى ، وكلما كان الإستغلال في ظل هذه الظلال أوسع وأعمق كانت الاستغاثة أوفق ، فهو بالإعادة أخرى وأحق « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

« رب الناس » :

بالحكم ومربيهم ، الذي يعرف ناسهم ونسناهم ، يعرف فضائل الأخلاق ورذائلها ، فله أن يخرجنا من الظلمات لأنه يعرفها ، إلى النور لأنه يعرفه ، يعرف الخير والشر وكما هدانا إليها .

وعلى المستعيز ، من اللاتربية إلى التربية ، أن يستعيز برب الناس : وليعرف الموازين التربوية ، علمية وتطبيقية ، وليعرف الشيطانات كلها ، ولـسـيـكـي يستطيع الفرار من الظلمات إلى النور ، في ظل ربوبية الرب المعيد .

إننا لا نستعيز بالأنبياء ، فهم المستعيزون أيضاً كأمثالنا إلا معيذون نهتدي بدلالاتهم الرسالية : وإنما نستعيز برب الناس : رب الرسل والمرسل إليهم ..

ثم قد تكون الاستعاذة ناقصة غير ناجحة ، إذا لم يكن المعيد ملكاً قديراً ، فربّ ربّ يحاول الإعادة ولكنه لا يملكها ، لأنه ليس ملكاً قديراً يدحر الشياطين بقوة ، فكمال الاستعاذة إذاً يتطلب أن تكون بملك الناس :

« ملك الناس » :

الذي يملك الجنة والناس ، ويملك الخير والشر ، ولكنه ليس منه شر ، إنما يدفع عنه إلى الخير ، فالمحاولات التربوية لا تكفي أعادة من الشرور واقعياً مهماً فقد تتطلب قوة للدفع ولتطبيق شريعة الله ودحر الشياطين ، فشريعة الله ليست شريعة علم وأحكام فحسب ، إنها شريعة القدرة والطاقة الجبارة أيضاً : إنها نظام وتطبيق ، فالنظام بحاجة إلى تطبيق ، والتطبيق فاشل ما لم تكن سلطة .

ثم إذا واجهتنا القوة المعاندة ، يأتي دور الإستعاذة بـ : « بملك الناس » ..
الملك الرب ، فلتجابه الطاقات المعاندة بالملكية العادلة .

« إله الناس » :

وفي آخر المطاف نعطف بأنفسنا وبهم إلى الإله : طوعاً وكرهاً ، فهو أول المطاف
« رب الناس » وهو آخر المطاف « إله الناس » وقد تجب في الوسط السيطرة
الملكية لمل النسناس إلى سيرة الناس ، ولكي يعقلوا أخيراً ويضطروا للخضوع
أمام : « ملك الناس » .

هنالك تمت الإستعاذة ، وتوفرت شروطها : استعاذةً ومستعاذاً به ،
وليكن الإنسان هو الموضوع ، ويُحمل عليه وفي هامشه سائر المكلفين من الجنة
وسوام ، ولا يختص الناس بإنسان الأرض ، إنه يعمه وسواه من إنسان الكون ،
في الكرات المعمورة ..

فاختصاص الناس هنا بالذكر ليس إلا لأنهم من أفضل المكلفين ، فلا يخرج الجن
عنهم ، إنما يخرج النسناس من الجنة والناس الذين يستعاذ منهم ، هؤلاء الذين
يفقدون التربية الإلهية كأن الله ليس ربهم ، وإنما هو الشيطان ، كما سئل الإمام
الحسن عليه السلام عن الناس ؟ فقال : « نحن الناس » ، وشيعتنا أشباه الناس ، وسائر
الناس نسناس ^(١) .

« من شر الوسواس الخناس . الذي يوسوس في صدور الناس .

من الجنة والناس » :

صفات ثلاث للمستعاذ منه ، على عدد الثلاث للمستعاذ به : ثلاث وجاه

(١) هنا الإمام يشطر بني آدم إلى شطري الناس والنسناس ، وفي الناس أصول وفروع ،
فالقادة الهداة المعصومون هم الأصول ، وأشياعهم هم الفروع ، ثم المتخلفون عن شريعة الله هم
النسناس ، من الجنة والناس .

ثلاث ، وكما أن جنود العقل والجهل تساوى بعضها البعض عدداً وعدداً، خمسة وسبعين بخمسة وسبعين، كذلك هنا، إلا في العدد فسهما، لأن الله تعالى لا يهزم في المعركة ، طالما عباده يهزمون لو لم يستعيزوا به كما يؤمروا به ، وإذا لم يخرجوا من طاعة الشيطان إلى طاعته .

هنا تطلق الصفة أولاً : « الوسواس الخناس » ثم حدود العمل ومجاليه : « الذي يوسوس في صدور الناس » ثم العامل المحاول في التضييل : « من الجنة والناس » .

فبالصفات تعرف الذوات ، فذات الشرير ، الحيادية ، لا يجب دحرها ، إنما لصفاتها المعادية المتعدية : الوسواس ..

« من شر الوسواس » : إن المضلل لا يأتيك كمصل فيخيب سعيه ، إنما يأتيك كمدلل ، فيوسوس في صدرك الذي فيه قلبك ، يوسوس إلى صدرك ويحتازد إلى قلبك ، فيملك زمامك في أمورك كلها لو أنك فتحت له باب صدرك فقلبك فالوسواس قد يتخفى في الجانب الخفي من كيان الإنسان ، كالنفس الأمارة بالسوء : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » (٥٠ : ١٦) وكالشيطان « فوسوس لها الشيطان ليبيدي لهما ما وري عنهما من سوآتهما » (٢٠ : ٧) فالنفس والشيطان يتخفیان في صدر الانسان الذي هذا الفتحة الاصلية الى قلبه أو انه جلي في ذاته خفي في وسواسه ، كما الإنسان الشيطان كذلك : « من الجنة والناس » خفية او جليلة .

فالجنة جمع الجان ، أي الخفي ، فتشمل النفس الأمارة بالسوء داخل كيان الإنسان ، والشيطان خارجه ، والناس هم الناس : الوسواس الجلي ، و « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » والشيطان من الجن والإنس ، المنفصل عن كيانك ، لا يقدر ولا يجرو على وسواسك ما لم يجد تجاوباً من شيطانك الداخل « النفس الأمارة بالسوء » فالشيطانان الوسواسان هما المتعاملان المتعاونان في اضلال الانسان .

وأصل الوسواس هو صوت الحسني والهمس الخفي ، والوسوسة هي الخطرة
الرديئة ، وبما أن الخطرات هي التي تدفع الإنسان إلى مختلف الحالات والانفعالات
الخشيرة والشريرة ، فليدحر الإنسان عن نفسه الخطرات الشريرة ، المختبئة في
صدره ، بكفاح صارم دائم مستعيزاً بالرب الملك الإله .

« الخناس » ويزيد الوسواس خطورة وشرأ ما إذا كان خناساً : يخفي عنك
أنه وسواس ، فالخناس هو المنقبض وهو الكثير الاختفاء بعد الظهور : يحاول
في تضليلك خافياً ، فإذا برز لك أنه الوسواس ، فمحاولة ثانية في إخفائه ،
إراءة لك أنه يريد صالحك : « ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد
يراه » .. غشاوات وغشاوات ليغطي عليك أنه شيطانك ، ويستدل بالعقل
وبالآيات والروايات ليفصلك عما يقتضيه العقل وتقتضيه الآيات والروايات ، وعلى
حد قوم إمام المتقين أمير المؤمنين علي عليه السلام : « إنما بدء وقوع الفتن أهواء
تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالة ، فلو أن
الحق خلص من مزاج الباطل لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص من
مزاج الحق لم يكن اختلاف ، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث
فيمزجان فيجعلان معاً فهناك استحوذ الشيطان على أوليائه ، ونجي الذين سبقت
لهم من الله الحسنى » .

إن الخناس من طبعه أن يختفي أو يبتعد عنك ملياً ، إذا مل منك وكل
وخاب سعيه ، ولكنه خناس : يرجع ويرجع في خطوات ومحاولات ، وآخر
المطاف أن يأخذك معه شر مأخذ ، فكما هو دائب في تخنسه فلتكن أنت دائب
اليقظة والكفاح ، مسلحاً بنور المعرفة لتنتصر في المعركة ، فلتذكر الله ربك كلما
وضع خطمه على قلبك ، وعلى حد قول الرسول الأقدس ﷺ : « إن الشيطان
واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا نسي إلتقم ، فذلك

الوسواس الخناس « (١) »

« من الجنة والناس » : إنه كما عرفت مسبقاً : هو الجنّة الخافية من النفس الأمارّة من الجن ، وهو كذلك الناس الذين يتدسسون إلى الصدور كالجنة .

نحن لا نعرف من وسواس الجنّة إلا كما عرفنا الله تعالى بها : عنه وعن لسان الجنة : « .. ثم لا تينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » (٧ : ١٧) (لأحتسكن ذريته إلا قليلاً » (١٧ : ٦٢) .

وما نجده من هواجس ووساوس تتنافس في نفوسنا ، مها كان الخلط بين وسواس الجن ووسواس النفس ، إلا أنه وسواس .

وأما الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الكثير الكثير ، ونعرف ما هو أشر وأخطر من وسواس الشياطين ، كأنهم أساءتتهم ! :

رفيق السوء الذي يوسوس إلى صدر رفيقه من حيث لا يحتسب ومن حيث لا يحترس لأنه مأمون ! وإلى أمثاله من حملة السوء ودعائه بشق ألوان الدعوة والدعاية : من حاشية الشر للسلطين ، والنامين الواشين ، وبائعي الشهوات ، وعشرات وعشرات من الوسواسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها ويتسربون بها إلى الصدور وإلى القلوب ، وهم شر من الجنة وعلتهم أخفى منهم ديباً .

(١) نور الثقلين ج ٥ ص ٧٢٥ ، وهذا الحديث يبين طرفاً من أطراف خدس الوسواس ، وهو آخر المطاف ، إذ يفر من الإنسان الذي حقق الاستعاذة حقاً ، ورواه الدر المنثور عن أنس عنه (ص) مثله ج ٦ ص ٢٠ ، وفيه عنه (ص) : أن للوسواس خطماً كخطم الطائر ، فإذا غفل ابن آدم وضع ذلك المنقار في أذن القلب يوسوس ، فإن ابن آدم ذكر الله تكس وخنس فلذلك سمي الوسواس الخناس .

إن حملة الوسواس تخنس في حملتها بألوان عدة عليها تنتصر : تخفي نفسها حالة الوسوسة ، ثم تختبئ إذا قوبلت بحملة دفاعية ، نظيرة أن تجد الفرصة سانحة فتدب وتوسوس .

فعلى الإنسان اليقظة الدائمة والنبهة الدائبة ، كيلا يخسر هذه المعركة المتواصلة: يقظة بقوة العقل المتأيدة بروحي السماء ، و « إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » ، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنه لا يحتنك إلا الحُمُر دون العباد الصالحين « لاحتنكن ذريته إلا قليلاً » فادحر الوسواس الحتناس أن أنت يستحمرك ويحتنكك ، وكن من القليل الذين ليس للشيطان عليهم سلطان وسبيل والحمد لله أولاً وآخراً .

محمد الصادقي

مكة المكرمة في ١٧ محرم الحرام ١٣٩٧



مركز تحقيق كامبوتر علوم إسلامي
(تم هذا الجزء بعون الله تعالى)

□□□□

فهرست

الموضوع	الصفحة
«سورة البناء»	
نبأ الرسالة الإسلامية وولايتها المستمرة ، نبأ التوحيد والقرآن والمعاد .	٩ - ١٤
الأرض المهاد ، والجبال الأوتاد ، وخلق الأزواج ، والنوم السبات ، في القرآن والعلم الحديث .	١٥ - ٢٣
لباس الليل ومعايش النهار ، السماوات السبع الشداد وبنائها ومادتها .	٢٣ - ٢٨
معصرات الرياح والسحاب والتفريغات الكهربائية بمائها الثجاج .	٢٩ - ٣٢
يوم الفصل الميقات ، ونفخة الصور ، وأفواج المحشورين ، وفتح السماء فإذا هي أبواب ، وتسير الجبال فإذا هي سراب .	٣٢ - ٣٩
الخالدون في النار واللجنة ، فناء النار مع فناء الباقين فيها بدليل القرآن والعقل .	٤٠ - ٥٠

كتب الاعمال : الضوئية والصوتية ، قيسام الروح
والملائكة .
٥٣ - ٦٢

« سورة النازعات »

نازعات سبع ، ناشطات وسابحات .. هل من مدبر
غير الله « فالمدبرات امرأ » ؟
٦٥ - ٧١

حركات الأرض ، يردون في الحافرة ، فإذا هم
بالساهرة .
٧١ - ٧٨

لطائف في دعوة موسى فرعون ، الآية الكبرى ،
فرعون في تضاد الآلهة .
٧٨ - ٨٦

بناء السماء ورفع سمكها ، دحو الأرض هو تحريكها ،
إرساء الجبال .
٨٦ - ٩٢

الطامة الكبرى ، بروز الجحيم .
٩٢ - ٩٦

كيف يخاف مقام الرب ؟ مربي الساعة ومنتهاها ،
زمن لبث البرزخ .
٩٦ - ١٠٦

« سورة عبس »

العبوس ليس هو الرسول ، إنما رجل من أمية ،
بدلالة الكتاب والسنة والعقل ، قتل الإنسان ما
أكفره ، نظر الإنسان إلى طعامه .
١٠٧ - ١٢٨

الخليفتان لا يعرفان معنى الأب ، فراز يوم القرار
عن أقرب الأهلين ...
١٣١ - ١٣٦

« سورة التكوين »

- كور الشمس ودورها في مراحل ، انكدار النجوم . ١٣٧ - ١٤٢
حشر الوحوش ومطلق الحيوان ، وإذ لا تعقل
فلماذا الحشر ؟ . ١٤٣ - ١٤٦
انفجار البحار وتهيج النار فيها ، البنت : حاضرها
وغابرها في وأدها . ١٤٦ - ١٥٤
نشر الصحف وكشط السماء . . والحضور العيني
للأعمال . ١٥٤ - ١٥٨
أقسام ولا أقسام : إنه لقول رسول كريم « محمد »
لا جبريل ، وما رآه في الأفق المبين ، وما هي قوته ؟
تناصر القرآن والتوراة في « وما صاحبكم بمجنون » . ١٥٩ - ١٧٩
وما تشاؤون إلا أن يشاء الله : أليس فيه جبر ؟ ١٨٠ - ١٨٣

« سورة الانفطار »

- بعد انفطار السماء وانتثار الكواكب وتفجّر
البحار وتبعثر القبور : « علقت نفس ما قدمت وأخرت »
ما غرك بربك الكريم ؟ ١٨٤ - ١٩٢
خلق الإنسان وتسويته وتعديله وتركيبه . ١٩٢ - ١٩٦
هل للإنسان حافظون غير الله . ١٩٧ - ١٩٩

« سورة المطففين »

- المطففون في الأموال والنفوس ، هل يكفي ظن
البعث ؟ ما هو السجين والعلين ، وكتاب الفجار والأبرار
فيها ؟ . الحجاب عن الرب . ٢٠٥ - ٢٢٤

بين خمر الدنيا والآخرة ، عرض لحال المؤمنين
والفجار بين الجنة والنار .

٢٢٦ - ٢٣٤

« سورة الانشقاق »

شريعة الكدح والعمل ، إلى الرب ولقائه .
ما هو كتاب اليمين والشمال ووراء الظهر ؟ .
ركوب المسلمين طبقاً عن طبق ، وجوب استماع
القرآن حين يقرأ .

٢٣٥ - ٢٤١

٢٤١ - ٢٤٦

٢٤٧ - ٢٥٣

« سورة البروج »

قصور السماء : إلهية وملائكية وبشرية .
من الشاهد والمشهود ؟ قصة أصحاب الأخدود .
قرآن مجيد في لوح محفوظ : صيافته عن التحريف .

٢٥٥ - ٢٥٨

٢٥٩ - ٢٦٦

٢٧٠ - ٢٧١

سورة الطارق

نيازك نارية وطيوارق نورية ، حفاظ النفوس
وحفاظها .
الصلب والترائب ، وخزائن النسطة الجرثومية
وسواها .
رجعات أربع للإنسان ، رجوع السماء وصدع الأرض .

٢٧٢ - ٢٧٤

٢٧٥ - ٢٧٦

٢٧٧ - ٢٧٩

سورة الأعلى

تسبيح الإسم ؟ الرب الأعلى ! غناء أحوى : الفهم
الحجري .

٢٨١ - ٢٨٥

هل نسي الرسول بعض ما أوحى إليه ؟
لا يموت فيها ولا يحيى !

٢٨٩ - ٢٨٥

٢٩٣ - ٢٩٠

سورة الغاشية

ما هي الغاشية ؟ والوجوه الخاشعة ؟ والضريع ؟

٢٩٧ - ٢٩٤

لا لغو في الجنة ، فهل فيها تكليف ؟

٣٠٠ - ٢٩٧

نظرة إلى الإبل ، رفع السماء ونصب الجبال وسطح

٣٠٣ - ٣٠٠

الأرض ؟

« سورة الفجر »

ما هو الفجر وليال عشر والشفع والوتر !

٣٠٩ - ٣٠٤

من هم عاد ؟ وما هي إرم ذات العماد ؟ وأوتاد

٣١٢ - ٣٠٩

فرعون ؟ .

ما معنى مجيئ الرب ؟ ومجيئ جهنم ، وما هي النفس

٣٢٠ - ٣١٥

المطمئنة ؟ .

سورة البلد

لا قسَمَ بحكة ؟ : هل هو تكريم أم مهانة ؟ وأنت

٣٢٧ - ٣٢١

حل بهذا البلد ؟ ووالد وما ولد ؟ خلق الإنسان

في كبد .

من ضرورات الحياة إقتحام العقبات : فلا اقتحم

٣٣٠ - ٣٢٧

العقبة ! .

سورة الشمس

أقسام ثمانية ورباطها لإثبات فلاح المزيّن انفسهم ،
وخبية من دساها ، أشقى ثود وعقر الناقة .

٣٣٦ - ٣٣١

٣٤٠ - ٣٣٧

سورة الليل

سورة الضحى

أضواء على ضلال الرسول كما تناسب ومحتسده ،
شريعته قبل الإسلام .

٣٤٩ - ٣٤١

سورة الانشراح

وزر الرسول ليس ذنباً ، بشهادة القرآن ، والعقل ،
إنه وزر الرسالة ، نصب الخليفة بعد الفراغ .

٣٥٥ - ٣٥٠

سورة التين

هل في سائر الخلق تقويم كالإنسان ؟ نعم : قليل !

٣٦٠ - ٣٥٦

سورة العلق

بداية الوحي إلى محمد ﷺ « علق » : هو البحر
المنوي ، السابجة العالقة فيه الدودات المنوية .

٣٦٥ - ٣٦١

مراحل علم الإنسان ، موارد سجدة التلاوة .

٣٧٠ - ٣٦٥

سورة القدر

ما هو النازل ليلة القدر؟ ما القدر؟ وما ليلة القدر ،
وكم هي ؟ أي القرآن نزل ليلة القدر؟ ما هي ألف شهر؟
وهل تستمر ليلة القدر ؟

٣٨١ - ٣٧١

من هو الروح النازل فيها ؟ وعلى من تنزل الملائكة

٣٨٥ - ٣٨٢

والروح ؟

٣٨٨ - ٣٨٥ ما هو كل أمر؟ وما هو سلام القدر حتى مطلع الفجر؟

٣٩٠ - ٣٨٨

متى هي ليلة القدر ؟

سورة البينة

طهارة أهل الكتاب وعامة الموحدين ، بدليل
الكتاب والسنة ، دين القيمة ، اختلاف خلود الكتابي
والمشرك في النار .

٤٠٥ - ٣٩١

سورة الزلزال

زلزال الأرض وأثقالها ، كيف تحدث الأرض
أخبارها: المسجلة الأرضية وشاشتها التلفزيونية، انعكاس
الأعمال وشهودها كما صدرت .

٤١٥ - ٤٠٦

مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

سورة العاديات

عاديات الأفراس والدبابات والطائرات وضبحها !

٤١٨ - ٤١٦

سورة الفارعة

الحسنات ثقل الميزان والسيئات خفتها ، الموازين
هي موازين الإنسانية .

٤٢٩ - ٤٢٢

سورة التكاثر

قبور تزور قبوراً ، انكشاف الحقائق يوم البرزخ
والقيامة ، النعم المسؤول عنه .

٤٣٦ - ٤٣٠

سورة العصر

مصاديق ومعاني العصر ، دوافع الخسر وروافعه ،
دعائم أربع تضمن حيوية الإنسان ، الصالحة . ٤٤٤ - ٤٣٧

سورة الحمزة

الغياب العيَّاب ، الحطمة وأشعة « روتجن » . ٤٥٢ - ٤٤٥

سورة الفيل

قصة أصحاب الفيل : المقاتلات الجوية بقنابل من
سجيل ، ٤٦١ - ٤٥٣

٤٦٣ - ٤٦٢

سورة قريش

سورة الماعون

واجبات المسلم تجاه اليتيم والمسكين ، الصلاة الويل !
ماعون الخلق والخالق ؟ ٤٧١ - ٤٦٤

مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

سورة الكوثر

مقارنة بين مريم وفاطمة ، كوثر الرسول في ثمان ،
إنباء ان غيبان في هذه السورة . ٤٨١ - ٤٧٢

سورة الكافرون

هل هنا تكرار ؟ إنباء غيبية ، .. لا متاجرة في
الدين ، ولا أنصاف حلول . ٤٨٨ - ٤٨٢

سورة النصر

إنباء غيبية بفتح مكة قبله ، حروب الإسلام دفاعية
لا توسعية ، الكتب المقدسة والحرب ، السيد المسيح

والحرب ، كيف يستغفر الرسول دون ذنب ؟
موارد الاستغفار .

٥٠٠ - ٤٨٩

سورة الذهب

تباب اليد ثم تباب الذات ، حمالة الخطب حبل
الليف - حبل الشيطان - حبل الذهب ! .

٥٠٩ - ٥٠١

سورة الاخلاص

استجواب قادة الأحزاب ، سورة الإخلاص تحمل
جوابهم أياً كانوا وفي أي زمن ! إنها تفسر بعضها بعضاً ،
الأحادية ومراحلها السبع ، الصمد تنفي عنه كل ما
يحق نفيه عنه « هو الله أحد » : ذات صفات ثبوتية
« الله الصمد .. » : صفات سلبية ، كلمة حاسمة حول
الثالوث المسيحي وأضرابه .

٥٣٣ - ٥١٠

سورة الفلق

فلق بعد غلق في مراحل ، شر الفاسق ،
والنفاثات في العقد ، وحاسد إذا حسد ، من النفاثات
الطائرات النفاثة الحربية التي تنفث في عقد الحرب .

٥٤١ - ٥٣٤

سورة الناس

أركان الاستعاذة ، الأربعة ، أركان المعيد ، الثلاث ،
جولات الوسواس الخناس ومواقعنا الدفاعية .

٥٤٩ - ٥٤٢

□□□□

AL FORQAN

FI

TAFSEER AL-KORA'AN

BY

Dr. MOHAMMAD AL-SADEQI

PUBLISHED BY

Al Islami Library

BEIRUT - LEBANON
P.O. BOX 7120